المنهـج القرآني
في مجادلة أهل الكتاب

بحث مقدم لنيل درجة
الدكتـوراه في القـرآن وعلومـه

الشيخ الدكتور / سيد أحمد جمعة سلاّم

١٤٢٨/٢٠٠٧

مكتبـة الإيمـان - المنصــورة
ت : ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعـة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

إهـــــداء

إلى روح والدى رحمه الله...

وإلى والدتى الكريمة أحسن الله إليها وحفظها ورعاها...

وإلى زوجتى وبناتى " فاطمة، أسماء، إيمان، ندى"

أهدى هذا الكتاب

دكتور

سيد أحمد جمعة سلاّم

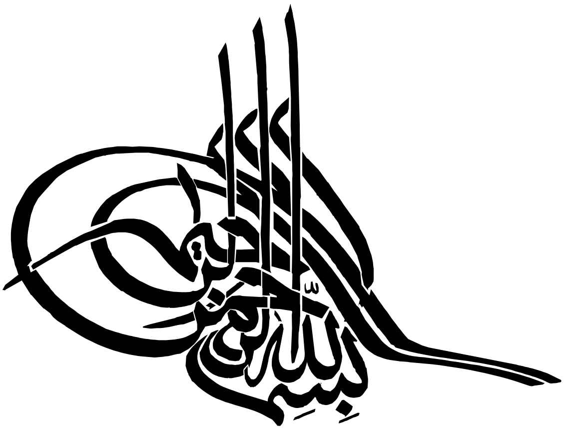

{وَلا تُجَادلُوا أَهْلَ الْكتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

[العنكبوت: ٤٦]

المقدمـة:

و تشتمل على:

١- **أهمية الموضوع.**

٢- **قيمته العلمية.**

٣- **سبب اختياره.**

٤- **منهج إعداد البحث.**

٥- **أهم الصعوبات.**

٦- **شكر وتقدير.**

* * * * *

١ - أهمية الموضوع:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأشهد أن لا إله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ}[١].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[٢].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[٣].

إن الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض قال تعالى:**{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}**[٤].

{ ولا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [٥].

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار الـذي يتم من خلالـه توظيف الاختلاف وترشـــيـده بحيث يقود أطرافه إلى فريضـــة التعارف، ويجّنبهم مخاطر جريمة الشقاق والتفرق.

وإنمـا يعـالج الحوار قضـــيـة الاختلاف من خلال كشـــفـه عن مواطن الاتفاق ومثارات الاختلاف؛ لتكون محل النقاش والجدل بالتي هي أحســـن لمعرفة ما هو أقوم للجميع؛ ولا بد ليؤدي الحوار وظيفته كما يجب من أن ينضـــبط بمنهج يضـــمن عدم تحوله إلى مثار جديد للاختلاف.

وإذ أرشـــدنا القرآن إلى أنَّ الاختلاف حقيقة وواقع، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار، فما هو المنهج الذي رســمه القرآن لذلك؟ لقد اعتبر الإســلام الحوار قاعدته الأســـاســـية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته، وكذا في كل قضـــايا الخلاف بينه وبين أعدائه، وكما أنه لا مقدســـات في التفكير، كذلك لا مقدســـات في الحوار، إذ لا يمكن أن يُغلق باب من أبواب المعرفة أمام الإنســـان؛ لأنَّ الله جعل ذلك وحده هو الحجة على الإنســـان في الطريق الواسع الممتد أمامه في كل المجالات المتصلة بالله والحياة والإنسان.

ولقد أصـبحت الكرة الأرضـية فى العصرـ الحديث أشبه بالقرية،واختصرت فيها المسافات والأوقات،وكثر التواصل بين أهلها بما لم يسبق لـه نظير، وتوسعت أنواع الحوار عن بعد، الثورة المعلوماتية الهائلة على مسـتوى وسـائل الإعلام والتواصـل عن بعد تنافى التلاقح الحضارى بين الشـعوب، وحرص كل حضـارة على التغلب والاسـتفادة من أوضاع العالم اليوم علميا وبشريا، يمثـل الحوار الـدينى مقاما كبيرا فى صراع الحضـــارات، فهو موجود على صـــفحات الإنترنت. ومؤســـســـات الأديان، والجامعات وبين الدول،......... إلى المراكز الإســلامية ودور العبادة وذلك يسـتدعى معرفة الهدى الإلهى فى مجال الحوار الدينى، وبخاصة مع أهل الكتاب، حتى نقف على المنهج الصـحيح الذى ارتضـاه الله مسـلكاً فى محاورتهم، وأهل ذلك وأسـاسـه هو القرآن الكريم، ومن هنا تأتى أهمية هذا الموضوع.

* * * * *

٢ - قيمته العلمية

يقرر بعض المفكرين أن القرآن الكريم ما ادعى دعوى إلا كان لـه من نفسه عليها دليلاً. أي أن القرآن مســتغنٍ بذاته عن خارجه وأنه لا شيء في القرآن كدعوى أو منهج أو شــعار إلا ومـادة القرآن تقـدم عليـه أمثلـة وتطبيقـات ونماذج. إن القرآن الكريم يدعو إلى الحوار ومن مســتلزمات الحوار: الاعتراف بالطرف الآخر وبحقه في التعبير عن رأيه وبحقه في الاختلاف مع الآخر الذي هو الحق الذي هو القرآن.

القرآن الكريم يؤسس لهذا ودليلي من اللغة هو فعل قال أو مادة القول باعتبارها مؤشراً لغوياً حاسـماً وصـارماً على حوارية أي نص. وبقدر حضـور هذه المادة وبقدر توزعها وتنوعها بقدر وجود تصريفاتها بقدر مايكون حظ هذا النص من الحوارية.

مادة - ق ول - تتكرر في القرآن ١٧٢٢ مرة هذا رقم كبير ينبغي الوقوف عنده ساعات إن لم أقل دهراً من الزمان وأكثر من ذلك الحضـور الكمي، والحضـور الكيفي إذ تتصرـف على تسـعة وأربعين تصر ـيفاً واشـ تقاقاً لأنه لو كانت (قال) متصرفة تصريفاً واحداً - قال أو يقول منسوبة إلى الذات الإلهية، قلت أو قلنا أو ما شـــاء من التصر ـفات الدالة على جهة المتكلم المتعالي - لما كان هناك أي معنى لاســـتعمال مادة القول كمؤشر على الحوار. فهذا يكون مؤشراً على التلقين وعلى التعالي وعلى الصـوت الواحد وعلى الرأي الواحد والفكر الواحد. ولكن نجدها متوزعة على تسعة وأربعين اشـتقاقا تتوزع على كل أطراف المقام الحواري. من متكلم ومخاطب ومســتمع ومحاور ومقاطع وغائب وحاضر ومذكر ومؤنث ومثنى وجمع.

نجـد "قال" ٥٢٩ مرة، و"يقولون" ٩٢ مرة، و"قل" ٣٣٢ مرة، و"قولوا" ١٣ مرة، و"قيل" ٤٩ مرة، و"القول" ٥٢ مرة، و"قولهم" ١٢ مرة. وأنـا أذكر الأرقام كمؤشر على الحوارية عالي الترداد داخل النص القرآني بشكل لافت للنظر.

وإذا كـان كلام العقلاء منزهـاً عن العبـث فماذا نقول عن كلام اللـه؟ إنـه الحق المطلق والصـــواب المطلق ورغم ذلـك يكرر حقيقـة ١٧٢٢ مرة في حين عنـدما يكون المنتج للكلام في المقام ذا وزن ثقيل إذا قال الأمر مرة واحدة يأخذ هذا الأمر ثقله ووزنه وهيبته من المقام،

من طبيعة المتكلم،{**لَوْ أنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّه**}[١]. ومعنى هذا عندما يستعمل الله تعالى التكرار فالأمر له خطورة والأمر له وزن.

فالعنصر الأول الذي نريد أن نقف عنده في هذا المؤشر هو هذا الاستحضار الثقيل للرأي الآخر. الذي يستغرق تقريبا خمسين بالمائة، أي أن هذا المؤشر الحواري نصفه من كلام الله والصالحين والأنبياء والملائكة والمؤمنين، والنصف الثاني هو للكفار والمشركين والملاحدة والزنادقة والبخلاء والمنهزمين والمغرضين. فالقرآن يقاسم الآخر بصدر رحب خمسين بالمائة[٢].

إن القرآن يستعرض الرأي الآخر رغم أنه باطل رغم أنه ضلال رغم أنه خطأ، رغم أنه لا يملك أي حظ من الصوابية. مقابل ذلك، في دائرة الحق والباطل يتحرك البشر والمسلمون منهم في دائرة الصواب والخطأ.

هل نقرأ القرآن متلقين؟ أم نقرأ القرآن لنخاطب به الآخرين وبالتالي يختلط علينا الأمر أحيانا، ونتخندق في خندق الحق ونجعل الآخر في جانب الباطل، رغم أن الله عز وجل عندما يتكلم يستحضر الآخر وبكل هذا الثقل.

فتجد في القرآن كلام الملحدين الذين ينكرون وجود الله أصلاً{**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**}[٣]، وكلام اليهود{**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**}[٤]، وكلام النصارى{**إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**}[٥]، وكلام المنافقين المغرضين الذين يفلسفون كل رذائلهم وأقل رذائلهم رذيلة البخل، يفلسفون بشكل خطير يمكن أن تنطلي شبهتها على الضعاف.

{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**}[٦] شبهة خطيرة يمكن أن تعلق يوردها القرآن دون أن يستحضر أنها يجب أن تباد وتمحى وتقصى؛ لأنها قد تفسد على المسلمين خلق الكرم والاستجابة لأمر الله بالإنفاق وإعطاء الزكاة

بناء على حيثيةٍ تحايليةٍ تأويليةٍ فاســدةٍ لأن الله هو الذي يغني ويفقر ويرفع ويضــع ويوسر ويعسر. كما أننا نجد كل الطوائف الفاسدة والآراء الأخرى موجودة داخل النص القرآني وبهذا الحضور.

يستحضر القرآن الكريم (الآخر) رغم فساده، فالآخر ليس ضعيفاً وليس مهمّشاً. ليس كما هي عادة وسائل الإعلام في إدارة الحوار حيث يحكم على طرف سلفاً أن يكون ضعيفا للتظاهر بالانفتاح والإنصاف والحوار لتخدير وغسل دماغ المشاهدين بآليات وتمثيلية مزيفة لإظهار أن هناك تعدد في الأصوات. فليس في القرآن هذا الأسلوب المتحايل، بل العكس هناك استحضار للآخر بقوة وبأخلاقياتٍ عاليةٍ جداً، يستحضره دون أن يبتره؛ فهناك طريقة لإقصاء الآخر وهي طريقة بليدة ممجوجة هو أن تكتب وتقصي الرأي الآخر وتنكر أنه موجود، بل وتشــوش على دينه وعقيدته، فهذا الإقصاء والحوار من جانب واحد لا يصح.

وهناك أسلوب أمكر وأذكى في الإقصاء هو: أن تستحضر الآخر وتبتر كلامه وتشوهه وتقطعه. فالقرآن الكريم يستحضر الآخر استحضاراً كاملاً يعطيه الفرصة الكاملة لكي يتم جملة مفيدة، لكي يتم نصاً كاملاً ليتم فكرةً واضحةً بكل قوتها.

القرآن يسبغ جمالية أدائه البياني وبراعة أسلوبه على الآخر فعندما نقرأ في القرآن وينتقل الكلام من كلام الله بأســلوبه العالي الرفيع لا يحكي عن الآخر بلغة ركيكة وأداء رديء وبيان ضــعيف، بل بالعكس إن القرآن الكريم يخلع أداء الجمال البياني على الجميع فتجد تعبير القرآن الكريم عن الآخر أجمل من تعبيره هو، الدهريون يقولون: "إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع" والقرآن يحكي عنهم:{**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**}، فالتعبير القرآني أبلغ وأجمل لأنه يمنح الآخر فرصة الحضور في التاريخ ويمنحه فرصة الحضور في الجمال، الحضور المعنوي.

القرآن يخلد الرأي الآخر لأن القرآن كلام الله، والله وعد بخلوده ولم يستحفظنا إياه كما اســتحفظ أهل الكتاب. وقامت على خدمة النص القرآني جيوش مجيشــة من العلماء، من أشرف شيء فيه وهو معانيه إلى الشيء المادي فيه وهو الخط. هذا الجيش من العلماء الذي ينقســم على أكثر من ثلاثين تخصــص من أجل حماية هذا النص وخدمته يحمي داخل هذا النص الرأي الآخر ويخلده.

إن كان من درس نقف عليه بعد هذا الإحصــاء لمؤشر الحوار فهو أن القرآن الكريم يريد أن يعطينا درسـاً في الانفتاح على الرأي الآخر، درساً في قبول حق الرأي الآخر في الوجود وليس صـوابيته. فالصـوابية مجال تدافع فكري ومعرفي قائم على النزاهة أي على طلب الحق. وأول شروط النزاهـة: أن تترك الآخر لكي يقع تدافع موضـــوعي بين رأيك ورأيه. وإن كان من درس نأخذه من هذا المؤشر الأول فهو أن الإسـلام هو عين الإيمان بحرية الفكر، وحرية الرأي الآخر، والإيمان بإفساح المجال للرأي الآخر. واحترام الرأي الآخر.

فالاسـلام يؤمن بقوته الذاتية ويؤمن بأن الحق بذاته يزهق الباطل{**لْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**}[1].

إن للإســلام قوة ذاتيـة هي قوة الـذاتية الكامنة في الحق كما أن الضـــعف الذاتي كامن في الباطل، ولهذا يستمد الباطل قوته من أشياء خارجة عنه ويستمد الحق قوته من داخله ومن ذاته فقط. فالإسلام قوي بما يأتي به من أدلة وما يطرحه من أفكار وقوي بتهافت الرأي الآخر.

بل أكثر من ذلك فالإسـلام يطرح قوته في سياق التحدي المفتوح. القرآن يفتح التحدي في سـياق الزمن إلى يوم القيامة ويفتحه على حضـارات وعلوم ومعارف واسـتدلالات قد يتلبسها بـاطـل لا حـدود لهـا كماً وكيفاً وزمـاناً ومكاناً إلى يوم القيامة، أي أنه تحدي للتخليد. فالرأي الآخر لعله باطل في زمن الصـــحابة لقوة إيمانهم وانطلاقهم من الحق وردهم للباطل بطريقة إيمانية. فلعل قوما آخرين سـيجمعون حضـارات وعلوم أقوى يســتطيعون الاســتدلال بها. فالقرآن الكريم يقر بهذا الاحتمال ويفتح هذا الحوار إلى ما لا نهاية مع كل من يريد أن يكرر المواجهـة من أطراف أخرى وزوايـا أخرى لم تكن منظورة ولا موجودة. أكثر من ذلـك إن ذلك التحدي يصــل إلى مقام الإيمان نفســه إن هذا الكلام يتعبد به فتصـير من عبادتنا أن نفســح المجـال للرأي الآخر وأن نعطيه فرصـــة لأن يبقى حاضراً حضـــوراً تاريخياً ومعرفياً في الزمان والمكان إلى قيام الساعة.

وأريـد أن أنتقـل من النســـق النظري في القرآن الكريم إلى التطبيق التاريخي لأن البعد التطبيقي يعطي للجانب النظري معناه ويرسخه أكثر في النفس.

الرسـول ﷺ أعطى دروساً لمن بعده من جيل الصحابة. وأنا أسجل لقطة واحدة أسميها مدرسـة (**أوَ قد فرغت يا أبي الوليد**). فالنبي ﷺ أرسـل إليه المشركون الوليد بن المغيرة لكي يذوده عن اختياره بتبليغ الرسالة ويصرفه إلى قناعة أخرى وحلول وسطية علّها تحل الإشكال داخل البيت المكي دون تفجير من الداخل. جاء الرجل يتكلم بلغة مؤدبة عالية ويعرض بطريقة سلمية عروض سخية، يا محمد إني وافد قريش إليك. إن كنت مريضاً طلبنا لك دواء، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من حر مالنا حتى ترضى، وإن كنت تريد النساء زوجناك حسان بناتنا. وهذا الكلام يبدو في ظاهره مؤدباً ويبدو عرضاً لخيارات واحتمالات فيها شيء من النسبية والإيمان بوجود احتمالات أمام هذه الحالة، ولكنه في العمق هو عين الإقصاء ليس فيه فتح لمجال الحوار الحقيقي وليس فيه أدب وهو في العمق عين استهزاء.

كما لو أنه يقول للرسول بالعبارة الصريحة: إما أنك وصولي أو انتهازي أو مجنون أو شهواني، يضعه أمامه أربعة احتمالات لا أخلاقية ولم يذكر له احتمالاً خامساً، وإن كنت نبياً فأعطنا د ليلك أو نتحاور أو.. فالتنويع الذي طرحه كان تنويعاً مغلوطاً أو تنويعاً شكلياً مثل تنويع الغربيين اليوم وحوارهم معنا، هو تنويع على إيقاع واحد واحتمال واحد وهو أنك باطل. وهو إقصاء في الحقيقة لأنه اتهام بأحط ما يمكن أن يركب الإنسان من أجله الأخطار، وفيه إقصاء حقيقي لمصداقية الرسول ﷺ فرأسماله الحقيقي هو صدقه مع نفسه وهو استفزاز حقيقي، ولو أن واحداً منا تعرض له فقد لا يملك إلا أن يكوّم يده ثم تطير أضراس المخاطب.

فليست العظمة في أن النبي ﷺ تحمل هذا الكلام وليست العظمة فقط في أنه تركه ينتهي، فأقصى ما يمكن للواحد منا إن كان متحلياً بروح حضارية أن يترك الآخر حتى يكمل فنحن نقاطع بعضنا بعضاً. ولكن النبي ﷺ وصل إلى ذروة ما يحلم به المحاور الحضاري وهو أن يكمل الآخر رأيه دون أن يقاطعه، دون أن يستفزه، ولكن يزيد شيئا ملائكياً غير موجود عند البشر بل هو موجود عند الأنبياء فيقول له (**أو قد فرغت يا أبي الوليد**) يعني هل عندك شيئا آخر تضيفه؟ هل تريد فرصة أخرى في الحوار؟ قال: نعم. قال: فاسمع، ثم تلا عليه سورة من القرآن.

فمدرسة (**أو قد فرغت يا أبي الوليد**) مدرسة تبين لنا أن الفهم السطحي الذي عندنا من حمل الحق والحماس لـه غير صحيح.

و نحن من فرط إيماننا بالحق نتعصب لـه وننفعل ونقاطع ونلقن ونرفع الصوت ونتعالى ونتهجم على الآخر. وإن أقررنا أنها عيوب بررناها أنها من طبيعة الإنســان المؤمن الحق، فإن وجدنا شـخصـاً ليناً هادئاً سـاكناً مفسـحاً المجال للآخر، اعتقدناه ضـعفا في يقينه أو ضعفاً في صــحـة موقفه. وموقف النبي ﷺ يبين شــيئاً عظيماً جداً أن الحماس الذي يخرج عن آداب الحوار الفكرية والأخلاقية ليس قريناً لليقين الكامل في الحق، فالذي قال: «**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أدع هذا الأمر أو أهلك دونه**» هو نفسه ترك الرجل حتى أكمل، وما انفعل ثم أعطاه فرصة جديدة، ثم أجابه بهدوء[١].

أن الله سـبحانه وتعالى عندما أمر إبليس بالسجود،فأبى إبليس واستكبر إلى نهاية القصة، حتما إنكم عنـدمـا تقرؤون آيات الخطاب مع إبليس تقرؤون قصــة حوار، حوار الخالق الله سبحانه مع مخلوقه وهو إبليس عليه اللعنة انظرو وبقوة، ماذا تستنتجون؟

١- لم يدخل الله سبحانه وتعالى إبليس إلى النار إلا بعد إتمام هذا الحوار.

٢- الله سبحانه وتعالى قد تحاور مع أحد مخلوقاته، وهذا أعجب ما فى الأمر.

٣- يفهم من الحوار أن الله سبحانه قد أطلق العنان إلى إبليس بل قال لــه ما يفهم منه أنه سـيبعث الأنبياء والصـديقين إلى الناس لهدايتهم مقابل بعث إبليس شياطينه وأعوانه إلى البشر لغوايتهم.

٤- إن مبدأ الإقصاء قد تلاشى فى هذا الحوار وحل محله الحوار مع الرأي الآخر لقد كنت من المتابعين مؤخرا لبعض الحوارات وخصــوصــا مع بعض أهل الكتاب وهي تتسـم بالعدوانية والاستعلاء على الآخرين بل وإقصاء آرائهم، دخل الحس الطائفي فيها، بل العصــبية القبلية وبداوة العقل فأصــبحنا ننطلق من كهفـا لا من حضــارة دون ان نعي ذلك، يجب وأكرر يجب أن نفهم حقيقة واحدة

٥- وهي: أن هنـاك فى هـذا الكون أنـاس مختلفين فى آرائهم معنا فيجب علينا احترامهم وتقـديرهم مـادام الأمر فى حـدود الأدب والأخلاق الإسـلامية، لا أعرف ماذا سـيفعل البعض عندما يحاور أناس غربيون لا يؤمنون بالخالق بل بالعقل فقط، هل سـنكفرهم ونلعنهم ونكيل لهم الشتائم والسباب بل ونسـتدرجهم إلى الهاوية للقضـاء عليهم أم أننا سنفتح معهم بابا للحوار فى وحدانية الله سبحانه، إن كنا مسلمين لا نتقن أسس الحوار مع من هم من أبناء جلدتنا فكيف سـنتقن الحوار مع من يعد من اعدائنا (وهم ليسـوا بـأعـدائنا)، ما سـتسـمعوه من المفكرين الغربيين يعد كفرا وزندقة عند البعض بل ويجب قتلهم حالا لآرائهم المنحرفة ولكن القرآن يأمركم بالحوار معهم أين شعار الحوار، لماذا حل محله الصراع والقتل والدمار؟

وتعود قيمة الموضـوع العلمية من حيث المضـمون إلى أنه ينهل من الوحى المعصـوم مباشرة، ويسـتند إلى المصـدر الأول للتشر-يع والتقرير والتقعيد على مستوى العقيدة وأحكام العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها......

فلا أقرر شـيئا إلا بدليله من كتاب الله تعالى أو سـنة صحيحة للنبى ﷺ مما يضفى على البحث التأصيل الشرعى المطلوب فى هذا الموضوع الحيوى الحساس.

أما قيمة الموضوع من حيث الهدف فتعود إلى أمور أهمها:

١- إظهار سماحة الإسلام.

٢- تعريف إخواننا المسلمين كيفية معاملة أهل الكتاب.

٣- إظهار أن الإسـلام لم يفرض بالقوة على أهل الكتاب، وأن الرسـول ﷺ أرسـل إلى الناس جميعاً بما فيهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

٤- إن الرسـول ﷺ دعـا أهل الكتاب دعوة عامة مع جميع الناس ثم دعاهم بعد ذلك دعوة خاصة بجميع أساليب الدعوة لدخولهم الإسلام.

٥- تنوع أساليبه ﷺ مع أهل الكتاب لدخولهم الإسلام يدل على حرصه وصدق النية وصدق العزم معهم.

٦- إظهار أن الرسول ﷺ لم يدخل الناس في الإسلام عن طريق القوة.

٧- مساعدة أهل الكتاب على فهم مراد الله تعالى فيهم.

٨- إبطال الشبهات التى يبثها بعض الناس حول علاقة الإسلام والمسلمين بأهل الكتاب عبر التاريخ،تلك العلاقة التى تمتاز بالعدل والإحسان والتكريم.

٩- إقامة الحجة: الغاية من الحوار إقامة الحجة ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي. والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.

١٠- الدعوة: الحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس قال تعالى:{**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}(١).

١١- تقريب وجهات النظر: من ثمرات الحوار تضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف في زمن كثر فيه التباغض والتناحر.

١٢- كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل، كما قال تعالى:{**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**} (٢).

* * * * *

٣ - سبب اختياره

هل الحوار يهدف إلى استدراج المسلمين ليتنازلوا عن بعض قواعد دينهم أو تحويرها أو زعزعة إيمانهم بأن الإسلام كما أنزل على محمد ﷺ هو الدّين الحق الذي لا يقبل الله غيره؟!

هذا الحوار أرفضه ويرفضه الإسلام!

فإذن لماذا الحوار؟! وهل هناك حوار يقبله الإسلام؟!

نعم! هنالك حوار جادّ واجب على المســـلم أن ينهض إليه لأنه تكليف من عند الله. إنه حوار لتبليغ رسـالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ دون تحريف ولا تبديل ولا تنازل إلى الناس كـافّـة، وقـد حفظ الله هذا الدين الحق وتعهَّد بحفظه وحفظ نصــوصـــه حتى يُغلَقَ باب التحريف الذي حصل عند اليهود والنصارى، كما نصّ على ذلك القرآن.

نحن أمـة نحمـل أمـانة نوفي بها عبادةً خُلقْنا لها، ونوفي خلافةً جُعِلت لنا، وبهذه الأمانة والعبادة والخلافة أُمِرْنا بعمارة الأرض بحضـــارة الإيمان والتوحيد بدلاً من الحضـــارة المادية، حضارة الإيمان والتوحيد التي توفّر كل معاني النمو والقوة في عبادة صادقة لله.

وأصبحت هذه المهمة مسؤولية الأمة المسلمة التي أخرجها الله لتكون خير أمَّةٍ أخرِجت للناس لتحمل خير رسـالة للبشر-يّة كلها. وعندما يتخلّى الإنسان عن هذه الأمانة يصبح ظلوماً جهولاً ويصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً.

إن الوفاء بهذه المهمة والأمانة هي القاعدة التي تحدّد علاقة المسلمين بغيرهم.

ولا نجد في القرآن والسـنة والسـيرة إلا حواراً حول الدعوة والبلاغ والبيان. وللإيجاز أشـير إلى بعـض الآيات الحاسمة في ذلك:{**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**}[(١)].

وقولـــه تعالى:{**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَـــه كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[(١)].

وقوله تعالى:{قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[(٢)].

وقوله تعالى:{ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

* **أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**}[1].

وآيات وأحاديث كثيرة تبيّن هذه الحقيقة. فنجد الحوار واضحاً حاسماً، حتى إذا انتهى يأتي قوله سبحانه وتعالى:{ **فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}، أو قوله سبحانه وتعالى: ".. فإن تولّوا فإنّ الله عليم بالمفسدين "! ففي ميزان الإسلام لا يوجد عند الله إلا دين واحد، مهما ادعى الناس من ديانات. فالأنبياء والمرسلون كلهم ومن آمن بهم وتبعهم كانوا مسلمين مؤمنين بهذا الدين الحق الواحد، وجاءت الآيات الكريمة تنصّ على ذلك، وتنصّ على أن الدين عند الله الإسلام، وأن الله لا يقبل من أحد إلا الإسلام. فهذا هو دين نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وسائر الأنبياء.

نعم للحوار الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم!

نعم للحوار الذي يسعى بأن تكون كلمة الله هي العليا!

نعم للحوار الذي يبلّغ الحق من عند الله ولا يتنازل عن شيء منه ولا يقترب من الباطل ولنذكر بعض الآيات الكريمة لتذكرنا:{**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**}[2]{**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**}[3].

ومن معالم المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة إلى الله: الجدال بالتي هي أحسن. ومن الملاحظ على التعبير القرآني المعجز في الآية أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون (حسنة)، ولكنه لم يكتف في الجدال إلا أن يكون بالتي هي (أحسن)؛ لأن الموعظة تكون مع الموافقين،

أما الجدال فيكون مع المخالفين، لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن، على معنى أنه لو كانت هناك للجدال والحوار طريقتان: طريقة حسنة وجيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، كان المسلم الداعية مأموراً أن يحاور مخالفيه بالطريقة التي هي أحسن وأجود.

ولقد كان وجودى فى أمريكا لعدة ســنوات إماما لمجموعة من المراكز الإســلامية ســببا جعلنى أعيش كثيرا من مناسـبات الحوار والتواصل بين المسلمين وأهل الكتاب،وقد ازداد ذلك بعد أحداث ســبتمبر ٢٠٠١، وهالنى ما لاحظته من القصــور والتقصــير لدى الطرفين، فأهل الكتـاب يجهلون مكـانـة التكريم التى جعلهم فيهـا الإســلام، ولايريـدون بـذل الجهـد لفهمهـا،ويقتصرــون على ترديـد جملـة من الشــبهـات والأبـاطيـل التى لا أســاس لها من الصحة،ويغلب على كثير منهم طريقة الهجوم التى لاطائل من ورائها.........

أما المســلمون فى الغرب فغالبيتهم العظمى، يفتقدون إلى العلم الشرــعى الكافى لإقامة الحجـة، ولايملكون المؤهلات الكـافيـة لدخول هذا الحوار بنجاح لجهلهم بأســـــه العلمية وأصوله الشرعية وحيثياته التاريخية.

ولهذا فما أن إقترح على فضـيلة رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور الحسين بن محمد شواط هذا الموضوع الحيوى المهم حتى سارعت بقبولـــه، وشمرت عن جانب الجد فى إنجازه، سائلا المولى الكريم كمال العون وتمام التوفيق، وأن ينفعنى به والمسـلمين، وأن يجعله سببا فى إزالة كثير من التوتر فى علاقتهم مع أهـل الكتـاب، وأن يســاعد أهل الكتاب كذلك فى رؤية الحق وإنصاف المسلمين.

* * * * *

٤ - منهج إعداد البحث

وتحقيقاً لما تقدم من أهداف وغايات، فقد جعلت هذا البحث المبارك مكوناً من مقدمة وثلاثة أبواب:

المقدمة وتشمل:

١- أهمية الموضوع.	٢- قيمته العلمية.٣- سبب اختياره.

٤- منهج إعداد البحث.	٥- أهم الصعوبات.	٦- شكر وتقدير.

(تمهيد): ثم مهدت للبحث بتمهيد بسيط ومنه انتقلت إلى موضوع البحث كالآتى:

الباب الأول : **ويحتوى على فصلين كالآتى:**

الفصل الأول: أسس مشروعية الحوار وأحكامه فى القرآن ويحتوي على عدة مباحث ومطالب، وهي كالآتي:

1. **الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح .**
2. **هدف الحوار .**
3. **صدام الحوارات .**
4. **قضايا لا يجوز الحوار فيها .**
5. **مؤهلات المحاور المسلم .**
6. **آداب الحوار وقواعد الاختلاف .**
7. **الأصول والقواعد الرئيسية التي تضبط مسار الحوار .**
8. **آداب الحوار النفسية .**
9. **آداب الحوار العلمية .**
10. **وآداب الحوار .**

١١- بعض عوائق الحوار .

١٢- وسطية الإسلام ودعوته للحوار .

١٣- مجالات الحوار .

١٤- دعوة القرآن والسنة إلى الحوار .

١٥- نماذج من الحوار من القرآن والسنة وسير الصحابة رضى الله عنهم .

الفصل الثاني: يحتوي على عدة مباحث ومطالب، وهي كالآتي:

١- أنواع الجدل الممدوح والجدل المذموم .

٢- أنواع الاختلاف وأسبابه .

٣- الحكمة فى الدعوة والجدال بالتى هى أحسن من معالم الحكمة ، الدعوة ومعالم الحكمة فى أساليب الدعوة .

٤- أخلاق الدعاة .

٥- فضائل لا بد للداعية التحلي بها .

٦- أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب .

٧- دعاة التقريب بين الأديان .

٨- دعاة العصرانية (العولمة العصرية للدعوة) .

٩- المتصدون للواقع من الدعاة والمفكرين .

١٠- أنواع المجادَلين والمحاوَرين من أهل الكتاب .

١١- مشروعية مجادلة أهل الكتاب بالقرآن والسنة وأدلتها .

أ- غشــيــانهم في محــافلهم ومجتمعــاتهم لدعوتهم إلى الإسلام .

ب- الكتـابة لملوكلهم ورؤســائهم واســتقبال وفـودهم ثم التعريف بـالإســلام لـدى مؤسساته .

الباب الثاني : **تفاصيل المنهج القرآنى فى حوار ومجادلة أهل الكتاب ويحتوى على خمسة فصول:**

ويتضمن الدروس والعبر وشرح تحليلى للآيات ذات العلاقة بالموضوع

الفصل الأول: فى مجال العقيدة

المبحث الأول:

١- مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن .

٢- مواقف اليهود من الكتب والرسل والأنبياء .

٣- عبـادة العجـل عنـد اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل .

٤- كفر اليهود بالقرآن ونقضـهم العهد واشـتغالهم بالسحر .

٥- تـذكير اليهود بنعم اللـه عليهم لعلهم يخـافوا الآخرة .

٦- اتباع ملة إبراهيم عليه السلام .

٧- صبغة الله شريعته وسنته وفطرته .

٨- حكمة تحويل القبلة .

المبحث الثانى:

١- صفات الله وإنزال الكتب الإلهية .

٢- الشهادة بوجود الله ووحدانيته وأحقية دينه .

٣- جزاء قتل الأنبياء .

٤- قصة عيسى ــ عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته .

٥- عيسى عليه السلام مع قومه .

٦- دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم .

٧- إحقاق الحق وإبطال الشرك .

٨- الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف .

٩- أصناف الكفار .

المبحث الثالث:

١- تحريف الكتب الإلهية وإهمال الهداية .

٢- أوصاف المسيح عليه السلام فى القرآن .

٣- مقاصد القرآن والرسالة النبوية .

٤- التذكير بنعم الله على عيسى ــ ابن مريم عليه السلام .

٥- مائدة عيسى عليه السلام .

٦- الألوهية والربوبية لله تعالى .

٧- خصائص القرآن والتوراة .

٨- اتباع ملة إبراهيم عليه السلام .

٩- تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام .

١٠- ألوان التهديد والعقاب لبني إسرائيل .

المبحث الرابع:

١- عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام .

٢- مقاصد القرآن وشرائعه .

٣- الإسلام دين الحق .

٤- موقف أهل الكتاب والمشركين من نبوة محمد ﷺ .

٥- النهي عن تعدد الآلهة .

٦- وعيد المكذبين للرسل .

٧- اتباع ملة إبراهيم .

٨- حقيقة عيسى عليه السلام .

٩- نسبة الولد إلى الله تعالى .

١٠- عبادة اليهود العجل .

المبحث الخامس

ويتضمن هذه المطالب:

١- جزاء المعرضين عن القرآن .

٢- مساوئ القول بتعدد الآلهة .

٣- عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات .

٤- أدلة توحيد الله تعالى .

٥- وحدة الأديان السماوية .

٦- نفي اتخاذ الله ولدا (سبحانه وتعالى) .

٧- القرآن والنبوة .

٨- المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب .

٩- الإسلام دين الفطرة والتوحيد .

١٠- أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها .

١١- وحدة أصول الشرائع .

١٢- بشارة عيسى بالرسول ﷺ.

١٣- التوحيد والتنـزيه لله تعالى .

الفصل الثاني فى مجال العبادات، ويتضمن عدة مباحث ومطالب:

المبحث الأول:

١- الأمر بذبح البقرة .

٢- التلاعب بالدين .

٣- ادعاء النجاة فى الآخرة .

٤- مولاة غير المؤمنين .

المبحث الثانى:

١- المقـارنـة بين المحرمـات فى شريعتنـا وشريعـة اليهود .

الفصل الثالث فى مجال المعاملات ويتضمن الآتى:

المبحث الأول:

١- تناقضات اليهود وأكاذيبهم .

٢- مخالفات اليهود ومتناقضاتهم .

٣- موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا .

٤- تخريب المساجد وهدمهاوآداب الخطاب .

٥- جزاء كتمان آيات الله عز وجل .

٦- موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من طاعتهم .

٧- المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتابيات .

٨- نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود الدينية .

٩- العلاقة مع غير المؤمنين .

الفصل الرابع فى مجال الأخلاق والآداب ويتضمن عدة مباحث ومطالب:

المبحث الأول:

١- بعض قبائح اليهود وجزاؤهم .

٢- مؤمنو أهل الكتاب .

٣- تعنت اليهود .

٤- بعض أوصاف اليهود .

٥- علاقة أهل الكتاب برسلهم .

٦- علاقة اهل الكتاب بالمؤمنين .

٧- إفساد الإسرائيليين وتشريدهم فى الأرض مرتين .

المبحث الثانى ويتضمن الآتى:

1. **الأسلوب الأفضل فى الجدال .**
2. **صفات المجادلين بالباطل .**
3. **مجادلة أهل الكتاب .**
4. **النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق مع أهل الكتاب وغيرهم .**
5. **الفصل فى شأن المشركين وأهل الكتاب .**

الفصل الخامس: ويتضمن الآتى:

1. **منهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب .**
2. **أسلوب القرآن في مجادلة أهل الكتاب .**

الباب الثالث : **الحوار مع أهل الكتاب فى العصر الحديث ويتضمن فصلين:**

الفصل الأول: الحوار وسماحة الإسلام فى التعامل مع غير المسلمين .

المبحث الأول يشمل على:

1. **شروط الحوار والجدال مع أهل الكتاب .**
2. **استقامة المسلم وتخلقه بأخلاق الإسلام .**
3. **شروط المحاور الكتابي .**

المبحث الثانى يشمل على:

1. **موضوعات الحوار أو الجدال مع أهل الكتاب .**
2. **محاورة أهل الكتاب بين مجاف ومغال .**
3. **سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين .**

المبحث الثالث ويشمل على:

١- سماحة النبي ﷺ في معاملة غير المسلمين .

٢- صـور من سـماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين .

٣- ســماحـة الإســلام في المعـاملة في كتابات غير المسلمين .

٤- مشــاركـة أهـل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية .

٥- صـورا من الواقع في هذا العصرـ بين المســلمين وأهل الكتاب .

الفصـل الثانى: الإرهاب وأثر الإيمان بشريعة الإسلام فى علاج هذه الظاهرة الغريبة على المسلمين:

المبحث الأول:

١- معنى الإرهاب .

المبحث الثانى:

١- أثر الإيمان بالله وشريعته في علاج الإرهاب .

ثم بعـد هـذا العرض المبـارك بـإذن اللـه تعـالى لمنهج إعـداد وتقـديم هذا البحث بهذه الصـورةوما تضمن من أبواب وفصول متضمنة عدة مباحث ومطالب، تكلمت عن أهم نتائج البحث، وخاتمة الكتاب، ومحتوياته وما تضــمنت من فهرس آيات القرآن، وفهرس الأحاديث النبوية،ثم المصــادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا البحث المتواضــع، ثم فهرس الموضوعات.

والـذى أســال اللـه عز وجل أن يتقبله منى وينفع به المســلمين وأن يثقل به موازيننا أجمعين اللهم آمــين...

* * * * *

٥ - أهم الصعوبات:

أما عن أهم الصعوبات، دائما وأبداً ليس كل ما يطلب ينال، ولكن الجد والاجتهاد والصبر والمصابرة من أهم مطالب النجاح، وخصوصا في طلب العلم الذي يبتغى به وجه الله تعالى، ولأن المراد الجنة، وهي المقصد؛ فلا بد أن نعمل لها ونشمر، وكما قلت في قصيدتي الموسومة بعنوان (أما والله):

أما والله لو علم الأنام ::: لما خُلقُوا ماهجعوا وما ناموا
فهل بعد الممات ثم القبر ::: نعمل لَدنيا عبيد فيها قد تفانوا
أما والله لو عَلِمَ الأنام بأن ::: الدنيا دنيا لصلوا ثم صلوا ثم صاموا

وكما قال ﷺ : «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»، في سبيل هذا المقصد، نسأله عز وجل أن يجعلنا من أهل الجنان، وأن يذلل لنا الصعاب لنيل رضاه، والفوز بالفردوس الأعلى، آمين.

* * * * *

٦ - شكر وتقدير

أخص بالشكر أستاذي الدكتور الحسين شواط لما أمدني به من نصائح وإرشادات خلال إعدادي لهذا الموضوع ونسأل الله أن ينفع به وبعلمه، وكذلك الهيئةالإدارية وشؤون الطلاب بالجامعة الأمريكية العالمية بارك الله فيهم وأحسن إليهم.

و كما أخص بالشكر زوجتى الكريمة التى أسأل الله أن يجزيها عنى وعن أبنائى خير الجزاء... آمين يا رب العالمين.

* * * * *

تمهيــد

إن الرســـول ﷺ، يختار في تعليمه من الأســـاليب أحســـنها وأفضـــلها، وأوقعها في نفس المخـاطـب وأقربهـا إلى فهمـه وعقلـه، وأشـــدهـا تثبيتاً للعلم في ذهن المخاطب، وكان النبي ﷺ،يلوَن الحديث لأصـــحابه أل واناً كثيرة، فتارة يكون ســـائلاً وتارة يكون مجيباً، وتارة يجيب السـائل بقدر سـؤاله، ويزيد على ما سـأل، وتارة يضرب المثل لمن يريد تعليمه، وتارة يصحب كلامه القسم بالله تعالى ليؤكد ما يقولـــه، وتارة يلفت السائل عن سؤاله لحكمة بالغة منه، وتارة يعلِّم بطريق الكتابة، وتارة بطريق الرسم، وتارة بطريق التشبيه أو التصريح.

و كان رسـول الله ﷺ يورد الشـبهة ليذكر جوابها، وتارة يسـلك سبيل المداعبة والمحاجاة فيما يعلمه، وتارة يمهد لما يشـاء تعليمه وبيانه تمهيداً لطيفاً لما يريد بيانه، وتارة يسلك سبيل المقايســة بين الأشـياء، وتارة يشـير إلى عللها لذكر جوابها، وتارة يســأل أصـحابه وهو يعلم ليمتحنهم بذلك، وتارة يســألهم ليرشــدهم إلى موضــع الجواب، وتارة يلقي إليهم العلم قبل السؤال.

إن دعوة غير المسـلمين وخاصـة أهل الكتاب يجب أن تكون مؤثرة وبأسـاليب متعددة، لأن بعض الناس قد لا يســتجيب للدعوة إلا أن ير ى شـيئاً عظيماً يجعله يقف مبهوراً معجباً، شيئاً يشده إلى الإسلام شداً ويجعله يعيد حساباته.

إن ملكة سـبأ كانت تعبد الشـمس هي وقومها عندما دعاها سـليمان عليه السـلام إلى الإسـلام، ولكنها أبت إلا أن تنقاد مع اعترافها بضعفها أمام قوة سليمان وجنوده، ولكن عندما دخلت الصرـح وحسـبته لجة:{**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}[1].

لقد عرضت عليها مظاهر القوة الخارقة لتؤثر على قلبها وتقودها إلى الإيمان.

و لكن في الإســلام ليس الأصــل هو المعجزات المادية، وإن جاءت عفواً و إكراماً فلا بأس. وكان ﷺ لا يعتمد في دعوته إلى الله على المعجزات المادية، بل على معجزة القرآن فقط.

إن الرسول ﷺ اتخذ أساليباً متعددة مع أهل الكتاب في دعوتهم للدخول في الإسلام، وقد شـــملت دعوته، الدعوة باللســـان حيث أقام الأدلة القاطعة على إرســـاله لهم، وأقام عليهم الحجة حين حاولوا غير مرة تعجيزه بأسئلة يوجهونها إليه ويجيبهم فيها وفق أسئلتهم. وكان ﷺ تارة يرغبهم في الإسلام ويبين لهم محاسنه، وتارة يرهبهم ويحذرهم.

وكان من جملة أســـاليبه ﷺ في دعوته أهل الكتاب أنه ﷺ دعاهم دعوة خاصـــة، وكان يظهر لهم حلمه وصفحه ويظهر لهم ا لمعجزة، ويعرِّفهم موافقة القرآن لما في التوراة، وموافقة أهل الكتاب فيما ليس فيه نص، وإباحته ذبائح أهل الكتاب ونسائهم، وقبول الهدية من أهل الكتاب، ووصيته ﷺ على أهل الذمة، وإخبار اليهود بما ينتظرهم من عذاب.

لا تعطِ أحداً فرصـةً للحديث، تكلّم دون انقطاع، إذا حضرت لك فكرة وخصمك يتحدّث فلا تنتظر حتى يُتمّ حديثه فهو ليس ذكياً مثلك، اقتحم عليه الحديث واطرح ما لديك.

كلمةٌ أطلقها كارنيجي في كتابه (كيف تؤثر في الناس وتكسب الأصدقاء).

إفحام الخصـم، الجدل من أجل الجدل، ومصـادرة رأي الخصم وإحراجه والسخرية منه، والانتصـــار عليـه، هـذه هي أهـداف الجـدال والمنـاظرة في نظر كارنيجي ومنهجه في الحوار والجدل.

المقـارنـة هنـا تتلاشى بل لا مجال للمقارنة مع ما يقرره القرآن الكريم من منهجٍ متكامل للحوار والجدل، فلماذا يخصّ القرآن الكريم الحوار والجدال بمساحة كبرى من آياته، أليس في ذلك صورة من صور المواجهة الحية للعقبات والمعوقات التي تحول دون بناء الغاية العقيدية لهذه النفس البشـرية؟ ألا ترى في حوارات القرآن الكريم أصـالة لرؤية إسـلامية تجعل الجدل والحوار منهجاً من مناهج المعرفة وطريقاً لإدراك الحق؟

إن الحوار والجـدل والمنـاظرة تـأتي كـل منهـا لتعبر عن معنى مختلف عن معنى غيرهـا، فـالحوار معناه مراجعة الكلام وتبادله بين المتحاورين وصـــولاً إلى غاية، وهو غالباً يجري بين اثنين ليس بينهما صراعٌ ابتداءً، وقد وردت كلمة حوار في القرآن الكريم في **ثلاثة مواضـع** اثنان في سـورة الكهف في معرض الحديث عن قصـة صـاحب الجنتين وحواره مع صـاحبه الذي لا يملك الكثير من المال:

{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً}.

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً}[1].

أما الآية الثالثة التي وردت فيها هذه الكلمة ففي سورة المجادلة في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله:

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[2].

والحوار في الآيات السابقة ينحو نحواً إيجابياً لإحقاق الحق وإبطال الباطل، والآيات تقرر أن الطرفين المتحاورين ليسا عدوّين ابتداءَ (قال لصاحبه)، وصيغة (يحاوره) و(تحاوركما) تقتضي المشاركة من الطرفين في هذا النقاش والحوار وأن كلاً منهما يسمع للآخر دون مصادرة أو قصدِ لمجرد الإفحام. والملاحظ أن الطرف المؤمن في هذا الحوار على درجة من الوعي الديني واليقين والثبات والعلم:

{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} [3].

وهكذا ينبغي أن يكون المحاور المسلم اليوم، على درجة عالية من اليقين والعلم حتى لا يُخذَل الحقُّ على يديه، في عالمٍ متخمٍ بالنظريات والفلسفات والعقائد الفاسدة التي جنّد لها المئات من المفكرين والدعاة المدججين بأقوى أسلحة الدعوة التي تجعل الباطل في أعين الناس حقاً.

وأما الجدل والجدال فقد ذكرت مادة (الجدل) في القرآن الكريم في عدة مقامات وبصيغ مختلفة متنوعة وبمضامين متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً تضمنتها سبع وعشرون آية في ست عشرة سورة، وإذا نظرنا إلى هذه المواضع في القرآن لرأينا أن العهد المكّي خ

ُصّ بســبع عشرــة آية تعرضــت لذكر الجدل، ولعلّ طبيعة المرحلة، وما تميزت به من مقاصـد أسـاسـية تسـتلزم ذلك فضلاً عن عوائق معنوية تقتضي عقد المناظرات والمناقشـات والمحاورات لإقامة الحجّة ونصب الدليل.

ولهذا، كان هذا الجدل الإســلامي في بداية الدعوة قائماً على الحوار المباشر الذي ينطلق من طرح الفكرة في ميدان الصراع، وقد طرح القرآن الكريم جدال الإنسـان وحواره الذاتي مع نفسه إلى جانب جداله مع مجتمعه، ومع الفئات التي كانت القوة المعارضة آنذاك، وقد خلد القرآن كـل مـا أثير من مفردات الجـدال حول العقيدة من أجل اســتمرار الإيحاء بضرــورة استعمال الأسلوب ذاته في حركة العقيدة والحياة.

وأكثر ما جاء لفظ الجدل في القرآن للجدل المذموم كقولـه تعالى:

{وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ}[١].

وهـذا الجـدل مجرد قـدرة كلاميـة وبراعـة في اللجـاجـة ولا طائل من ورائه، وأما الجدل المحمود فقد ورد في ثلاثة مواضع من القرآن وهي:

{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[٢].

وقولـــه تعالى:**{ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**[٣].

وقولـه تعالى:**{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}**[٤].

والجـدال بـالتي هي أحســن هو مرادف للحوار الإيجابي البناء، وهو حوار يؤتي أكله في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وترسـيخ الغاية العقيدية ضـمن أصـول ينطلق منها المتحاورون ومرجعية تكون الفيصل في الرجوع عند الخلاف.

ولذلك أمر النبي ﷺ في آية سورة النحل بالمجادلة بالتي هي أحسن أي بالحوار الإيجابي، على أن يبدأ بالدعوة عن طريق الحكمة، ومن الحكمة الدعوة بالعلم والبدء بالأهم فالأهم، فإذا لم يخضع المحاوَر للحق، فينقل إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه الحق فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أدعى للاستجابة عقلاً ونقلاً، ويكون المقصود من هذا الحوار هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

منهجٌ له غاياته ومقاصده:

ألحّ القرآن الكريم على الجدال بالتي هي أحسن ليكون ذلك منهجاً يؤصل عليه إيمان ويقين{**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**} والقرآن الكريم يدعو العصبة المؤمنة إلى أن تكون قوية في حوارها وفي مجادلة الآخر، قويةً أمام ما يثار من شُبَهٍ{**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**}، فالمنهج الإسلامي في الحوار والجدال يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بلا حجة ولا مسؤولية إلا بعد إقامتها وفي الوقت ذاته فإن القرآن ومن خلال آيات الجدال يقرر أن الجدل منزعٌ جبلّيّ وأنه من خصائص الإنسان ومميزاته، فالقرآن يصرح بذلك، وأن الإنسان أكثر الأشياء جدلاً.

{**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**}[1].

فالإنسان بما له من استعدادات ذهنية وملكات إدراكية وبما له من نوازع ذاتية، وميول نفعية كان أكثر الكائنات جدلاً، وإذا كانت مدارك الناس متفاوتة متفاضلة كان الجدال بالتي هي أحسن ضرورياً فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية، ومنهم من يصدق بالحكمة، ومنهم من يصدق بالموعظة الحسنة وغير ذلك، وإذا كان الجدال عرفاً قائماً على المشادة الكلامية والفكرية وتحقيق الغلبة، فإن القرآن يرسم منهجاً هادئاً في الجدل غايته هداية الخلق وليس الانتصار والمغالبة ونحوها.

وإذا تتبعنا مواضع الحوار النبوي في مسيرة الدعوة الإسلامية لرأيناه حواراً يسير وفق هذا المنهج القرآني الأصيل،

فهو حوار وجدال إيجابي ملؤه الحرص من النبي ﷺ على بناء أصـول الدين وترسـيخها في النفوس من عبـادات ومعـاملات وأحكـام، وهي حوارات لا تصـــادر الآخر، بل نجد النبي ﷺ يسـتمع لكثير من صناديد الكفر، ويعرض نفسه على القبائل بأسلوب حواري حكيم، فيه بُعد نظر ويقين وإدراك للواقع. حوار محفوف بـالوحي الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه واتخذ ذلك شكل المواجهة الحية لمشركي العرب من جهة ولأهل الكتاب من جهة أخرى.

الباب الأول

أسس مشروعية الحوار وأحكامه فى القرآن الكريم

الفصل الأول:

الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح

المبحث الأول: مشروعية الحوار

المطلب الأول:

أولاً: الحوار والجدل في اللغة

الحوار في اللغة: "تراجع الكلام" (١). وفي "لســـان العرب": "وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة"(٢).

أما الجدل: فقال ابن فارس: "الجيم والدال واللام أصـــل واحد وهو من باب اســـتحكام الشيء في استرسال يكون فيه وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام"(٣).

ثانيا: الحوار والجدل في الاصطلاح:

الحوار في الاصطلاح: هو بنفس المعنى اللغوي السابق فهو إذا: مراجعة للكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصـومة بينهم بالضرـورة (٤). أما الجدل: فكما يعرفه الجويني هو: "إظهار المتنـازعين مقتضىـ نظرتهما على التـدافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامهما من الإشـــارة والدلالة" (٥) أهـ

وتوجد ألفاظ قريبة من الحوار والجدال منها: المحاجة والمناظرة والمناقشة والمباحثة.

وبحثنا سيدور حول الجدال مع أهل الكتاب لا مع عموم الكفار والمشركين.

* * * * *

المطلب الثاني:

هدف الحوار

إن المقصود من الحوار ليس المجابهة والإفحام إذ إن ذلك هو من باب المناظرة ومحاولة الظهور على الخصم وتعجيزه عن الرد. وإنما المقصود أن يحصل كل ما يأتي أو بعضه:

١- معرفة أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار.

٢- تعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا التي هي موضوع الحوار.

٣- العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه كلياً

٤- أو جزئياً في القضـــايـا التي هي مـوضـــوع الـحـوار ليتقبلهـا ويعمـل على تبنيها بعد اقتناعه بها ســـواء بـعـد الحوار مبـاشرة أو تـدريجيـاً على المدى الطويل.

٥- العمـل على اســـتكشـــاف ما لدى الـطـرف الآخـر مـن حقـائق وإيجـابيـات والاعتراف بهـا وقبولها والاســـتفادة منها طالما (أن الحكمـة ضـــالـة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها).

٦- العمـل على اســـتكشـــاف ما عند المحـاور من معلومات غير صحيحة أو دقيقة ومما في وجهات نظره أو مواقفـه من ثغرات وأخطـاء والعمـل على تداركها وإصلاحها.

٧- تشييد جسر للتواصل السلمي البناء وسد الطريق أمام المواجهات والمصادمات مما يبدد الجهود.

٨- أن الحوار يساعد على التوقد الذهني وهي صفة ملازمة لأجواء التحدي الفكري والحوار المتبادل.

٩- قد يؤدي الحوار إلى إيضاح الحقيقة بالإضافة إليها، فيعطي كل فرد ما يعرف من أجزاء الحقيقة حتى يمكن تركيبها كاملة وحتى صاحب الحق فإن أجزاء من الحق تبرز له بصورة أوضح أثناء توقده الذهني في لحظات الحوار.

١٠- إحباط حجج المتطرفين والمتعدين فكثير من حوارات كبار علماء الإسلام مع الفرق الضالة كشفت زيف أفكارهم وذلك ما سجلته كتب تراثية خالدة كالملل والنحل للشهرستاني والفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن رشد والرد على الجهمية لابن تيمية والصواعق المرسلة لابن القيم والمسألة القاديانية للمودودي وغيرها.

المطلب الثالث:

صدام الحضارات

عقد بعض المناظرين الغربيين نظريات حول عقم حوار الحضارات والثقافات وانتهوا إلى أن الحوار الإيجابي بين الحضـارات قد انتهى بتطورها إلى شـكل الحضـارة الغربية الليبرالية الحاضرة ولم يبق أي أمل أو فائدة لحوار، وهذا ما أورده (فرانسيس فوكو ياما) صاحب نظرية (نهـاية التـاريخ) في صـورتها الحالية. وإذا كان (فوكو ياما) قد انتهى إلى أن التطور في خط التاريخ البشـري قد تكلل بانتصـار الليبرالية واندحار الاشـتراكية، فإن (صـموئيل هنتنجتون) صـاحب نظرية (صراع الحضـارات) يزعم أن أعنف معارك التاريخ هي التي لم تقع بعد. وأنها لن تكون على صعيد الدول القومية ولا على صعيد المحاور الفكرية، وإنما ستتطور إلى مستوى أعلى هو مستوى الحضارات البشرية التي هي أوسع كيان ثقافي ينتمي إليه الإنسان.

إن وحدة التحليل عنده هي الحضارة. ومع أنه يعترف بأن العامل الحضاري عامل شديد التعقيد، إلا أنه يزعم مع ذلك أنه قد سـيطر عليه - ولكن مجرد الاطلاع العابر على تعريفه للحضارة يؤكد أنه لم يصل إلى تعريف دقيق الحد لذلك المفهوم.

الحضارة عند هنتنجتون " هوية ثقافية ". هذا هو تعريفه لها، وعندما يدرك أنه تعريف هلامي، وبعيـد جـداً عـن أن يكون تعريفـاً جامعاً مانعاً - كما يقول " المناطقة " فإنه ينعطف نحو مزيد من الشرح والإيضاح. فيحدثنا عن أن الهوية الثقافية تترادف وتتدرج في الانتماءات الأكبر: " إن ثقـافـة قريـة من قرى الجنوب الإيطـالي، قد تختلف عن ثقافة قرية في الشـمال الإيطالي، ولكن كلتا القريتين تشتركان لا محالة في خصائص الثقافة القومية الإيطالية الجامعة، وهـذه الثقافة الجامعة هي التي تميز كل القرى الإيطالية عن القرى الألمانية مثلا. ولكن ذلك لا يمنع أن كل القرى الأوربية تجتمع تحت ظل ثقافة أوسـع هي ما يسـمى بالثقافة الأوربية وهي الثقـافة التي تميز كل القرى الأوربية عن القرى العربية أو الآسـيوية". هذا المسـتوى الثقافي الأخير هو ما يعنيه هنتنجتون بالحضـارة، وهو تعريف غير محكم، لأن صاحبه سرعان ما يدخل في التخبط وينقض ما سبق أن أبرمه.

إن (هنتنجتون) ليس مؤرخاً راسخاً (كتوينبي) مثلاً، ولا عالم اجتماع ضليع كماكس فيبر، ولذلك فهو ينزلق في الأخطاء المتوالية. إنه يقول مثلا في تأكيده لتعريفه ذاك للحضارة: " إن العرب والصينيين والغربيين ليسوا جزءاً من أي كيان حضاري أوسع ". وهذا خطأ محض، لأن العرب جزء من الحضارة الإسلامية التي هي الوحدة الكبرى، ولا يوجد شيء يسمى بالحضارة العربية بمعزل عن الحضارة الإسلامية، ولا شيء يسمى بالحضارة الإسلامية بمعزل عن الثقافة العربية. إن خطأ هنتنجتون هنا هو في مرادفته ما بين العرب والإسلام، وعدم إدراكه أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس مسلمي العالم الذين تمتد رقعتهم الجغرافية حتى أوروبا والصين، وهو الأمر الذي يلغي مقولة هنتنجتون الثانية بأن الغربيين أو الصينيين لا يمكن أن يكونوا جزءاً من أي كيان حضاري أوسع.

ويرى هنتنجتون أن عالمنا المعاصر يتشكل من سبع حضارات أو ثمان هي: الحضارة الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية، ويمكن إضافة الحضارة الإفريقية إذا ما تساهلنا في التصنيف. هذه الحضارات بالتعريف السابق لها هي أشد تجذراً في الأرض وفي الحياة الإنسانية من المعتقدات الطارئة التي تظهر وتعمر حيناً من الدهر ثم تختفي. أما هذه الحضارات المذكورة فهي ذات ثوابت عميقة، عمادها اللغة والثقافة والتراث والدين، وتمتلك نظريات متباينة نحو علاقات البشر بالله وعلاقات البشر ببعضهم الآخر وعلاقات الحاكم بالمحكوم وعلاقات الأسرة فيما بين أفرادها إلى آخر هذه العلاقات.

وبناءَ على مفهوم هنتنجتون فإن هذا التباين في الأفكار والآراء ليس مآله إلى الاضمحلال أو الزوال بحال مهما تكثفت وسائل الالتقاء والاتصال بين البشر، فهذه اللقاءات والاتصالات ستؤدي إلى عكس ذلك تماماً، إذ إنها ستؤدي إلى تنامي إحساس كل حضارة بصفاتها المتميزة التي تمنع ذوبان أهلها في الحضارات الأخرى. وأبلغ مثال على ذلك هو ما تثيره هجرة الجزائريين المسلمين إلى فرنسا من تيقظ للحس الحضاري الفرنسي واشتعال عدائه للمسلمين. إن مثالاً كهذا - وهو ليس مثالاً فريداً في بابه - يحدونا لأن نقرر " أن التواصل والتفاعل بين الشعوب ذات الحضارات المتباينة يؤدي إلى اشتعال الوعي الحضاري لدى شعب ما ويزيد حدة الخلافات والعداوات الممتدة في عمق التاريخ ".

وهكذا يستخدم هنتنجتون الحجة التي كان يخشى أن تستخدم ضد نظريته، يستخدمها لصالح نظريته المزعومة، فهو لا يوافق على أن التواصل والتحاور الحضاري سيكون إيجابي العائد، وإنما سيؤدي إلى التناحر والتناوش والتصارع وحسب.

وإضافة إلى التواصل والتفاعل يأتي عامل التحديث الاقتصادي الذي يعتقد هنتنجتون بأنه سيزيد من حدة التمايز الحضاري بين الشعوب. إن التحديث في نظر هنتنجتون سيدمر المجالات الثقافية الأصغر، كالثقافة المحلية، والقومية، ويحرر الشعوب من أسرها، وحينها لن تجد تلك الشعوب سوى البوتقة الحضارية الأكبر التي تعد الدين أعظم عناصرها التكوينية. ولعل هذا هو سر انتشار الأديان الآن، وسر تصاعد الحركات الدينية الأصولية التي " يمكن العثور عليها في النصرانية واليهودية والبوذية بقدر ما يمكن العثور عليها في الإسلام "! وفي معظم هذه الحركات لا يخفى أن أكثر المنجذبين إليها هم الشباب بسبب عمليات التحديث ومن خريجي الجامعات، وبالذات في مساقات العلوم البحتة والتقنية. وهؤلاء هم الذين غدوا يكافحون مظاهر العلمانية في مجتمعاتهم، وقد صدق عليهم قول جورج ويجل: "إن نزع العلمانية عن العالم يمثل إحدى الحقائق الاجتماعية المسيطرة على الهزيع الأخير من القرن العشرين "!

إن النخب المتعلمة تعليماً جيداً في العالم غير الغربي غدت أكثر انخلاعاً عن الثقافة الغربية من سائر تلك الشعوب التي أنجبتها: " ففيما مضى كانت نخب المجتمعات غير الغربية - تلك النخب التي تخرجت في أكسفورد والسوربون وسانت هيرست (ببريطانيا) - تجنح نحو صياغة مجتمعاتها وفق المعطيات والمعايير الفكرية والثقافية الغربية، وكانت تلك النخب تتمتع بالسلطة الكاملة في مجتمعاتها، وتمتلك القوة والموارد التي تساعدها في تحقيق رغباتها في تغريب مجتمعاتها في وقت كانت غالبية السكان في تلك المجتمعات غارقة في ثقافاتها التقليدية المحلية. الآن انعكس الوضع، فإن النخب أصبحت أكثر إحساساً بالهوية الثقافية لمجتمعاتها، بينما أصبح المواطنون العاديون في تلك المجتمعات أكثر تعلقاً بالقيم وأنماط السلوك الغربية "، ولا شك أن دور النخب في صياغة المجتمعات أكبر من دور العامة

في هذا العصر، وبالتالي فستتأكد الهوية الحضارية للمجتمعات غير الغربية بصورة أكبر، وسيزداد تمايزها، بل صراعها مع الحضارة الغربية. إن صراع الحضارات هو ضربة لازب في تقدير هنتنجتون لهذا الشأن الخطير. إنه يضع الأمر بهذه السهولة المثيرة:

" أما بالنسبة لصراع الحضارات فإن السؤال هو: من أنت؟ وهذا سؤال لا بد من أن تجيب عليه. وكما تدرك بداهة فإن إعطاءك إجابة خاطئة عن هذا السؤال في البوسنة أو القوقاز أو السودان يعني أن يسدد الرصاص إلى رأسك فوراً. وهكذا تصاغ النظرية بلغة الروايات. وواضح ما في اللغة التي صيغت بها هذه الأمثلة من التحيز والكراهية العارمة للعالم الإسلامي. والمعنى السالف واضح جداً، فإن اعتراف الإنسان الغربي بأصول هويته في أي أرض إسلامية قد يقود إلى ممارسة العنف ضده، والغريب أن هنتنجتون لا يختار الأمثلة إلا من هذه الأوطان الإسلامية التي تضطهد أغلبيتها بواسطة الأقليات المدعومة من الحضارة الغربية. إن هنتنجتون يسير في ذلك مع تحريض وسائل الإعلام الغربية العشوائي للإنسان الغربي غير المثقف ضد ما يسمى بالخطر الإسلامي، وهو مجرد " وهم " تريد هذه الوسائل بإلحاحها عليه أن تلصقه في ذاكرة الإنسان الغربي الذي يمكن أن يبقي مفزوعاً بذلك الخطر " الوهمي ".

إن هذا الصدام التلقائي " الحتمي " بين السائل والمجيب، يتطور على مستويين آخرين " فعلى المستوى الأول: ستتصادم مصالح المجموعات التي تحتشد على خطوط التوتر الفاصلة بين الحضارات من أجل الاستحواذ على الأرض وإخضاع المنافسين، وعلى المستوى الثاني: ستتصادم الدول ذات الحضارات المختلفة من أجل تحقيق سيطرتها الاقتصادية والعسكرية، والتحكم في المؤسسات الدولية ونشر قيمها السياسية والدينية على مستوى النظام العالمي ".

وهنا تنال مسألة الحدود الفاصلة بين الحضارات جل عناية هنتنجتون، وهو يسميها: "حدود التوتر " حيث يبرز معالم الحدود الفاصلة في أوروبا بين النصرانية الغربية من جهة والنصرانية الأرثوذكسية من جهة أخرى، ثم يعود ليركز على التهاب حدود التوتر بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ويستعرض تاريخ الحروب الصليبية بحملاتها المتتالية وفصول الصراع الأوربي مع الدولة العثمانية وموجة الاستعمار الغربي التي توجهت إلى العالم الإسلامي،

ثم الحروب العربية الإسرائيلية " حدثت لأن إسرائيل ممثلة لروح ومضـــامين الحضـــارة الغربية كما يقول "، ثم قيام من سماهم بـــ " الإرهابيين العرب والمسلمين " باستخدام سلاح الضـــعفاء حينما قاموابقصـــف الطائرات والمنشـــآت الغربية وخطف الرهائن. وهنا نسيـــ هنتنجتون أن يقول ولو كلمة عابرة عن الاحتلال والإرهاب الإسرائيلي الذي ما زال ينصب على الفلسطينيين منذ أكثر من نصف قرن!

لقد ساق هنتنجتون نظريته في صراع الحضارات على أنه صراع يحدث بين كل الحضارات، ولكن طاب لـــه فقط أن يركز على صراع الحضارتين الإسلامية والغربية، وبالطبع فإنه لم ينس أن يضع المسلمين في مقام المعتدي المبادر بالصدام، بل لم ينس أن يتوسل لتأكيد ذلك بشهادة مزورة من أحـد الكتاب المســـلمين، وهو الكاتب الهندي م. ج. أكبر حيث يقول: " إن الحرب ستبدأ من جانب العالم الإسلامي، لأنه سيصارع من أجل تشييد نظام عالمي جديد، وإن كل دول العالم الإسـلامي من المغرب إلى باكســتان، ستشـارك في ذلك الصرـاع "، ثم أردف ذلك بشهادة أخرى من أستاذه القديم في هارفارد المؤرخ اليهودي البروفيسور برنارد لويس: " الذي جعل همه قبل أوانه أن يثبت أن هنالك تزويراً طرأ على المصاحف القرآنية التي يعتمد عليها المسلمون الآن، وأن هناك مخطوطات مصاحف تثبت وجود هذا التزوير! ".

وقد استشهد بكلام لويس في شهاداته عن صراع الحضارات بقولـــه: " إن العالم سيشهد مزاجاً فائراً سـيزيد هيجان الحكومات ويؤدي إلى تضـارب خططها وسـياساتها، وسيؤدي ذلك كلـه إلى نتيجة واحدة مؤكدة، هي صراع الحضـــارات ليس غير. وســـيقوم المســـلمون وهم خصـــومنا القدامى برد فعل غير عقلاني ضـــد تراثنا اليهودي - النصرـاني المشـــترك وثقافتنا العلمانية، وعلى انتشار تراثنا وثقافتنا عبر العالم ".

هذه الآراء العدوانية الشـاطحة الرافضـة لحوار الحضـارات حري بها أن تجد الدراسـة والعنـايـة من قبل المفكرين والدعاة المســـلمين، فالحوار حتى مع عدم تحقق جميع شروطه وآدابه من قبل الطرف الآخر أفضـل من الانقطاع عنه والانصرـاف إلى موقف الصـدام، وكما يقول خالد بن عبد الله القاسم في كتابه " الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة: " أما الامتناع عن الحوار مع الظالمين واتخاذه منهجاً مطرداً

فهذا يخالف منهج النبي ﷺ، فقد حاور عليه الصــلاة والســلام اليهود في المدينة وكانوا يكتمون ما أنزل الله، ويلبسون الحق بالباطل. كما حاور نصارى نجران ودعاهم إلى المجادلـة فرفضـوا " وهكذا يتضـح حرص الإسلام على الحوار لكونه أداةً من أدوات بيان الحق، وواجب المســـلمين هو أن يـأخـذوا به ســـبيلاً للبيان، وأن يعملوا على تفعيل تلك الأداة إبلاغاً للدين و تخفيفاً لحدة الصراع بين البشر ما دام هناك سـبيل لإبلاغ الدعوة وإيصـالها بطريق الحوار وتبادل الأفكار والآراء.

* * * * *

المطلب الرابع:

قضايا لا يجوز الحوار فيها

إذا اقتنعنا بمشروعية الحوار وفائدته الظاهرة، فينبغي أن ننظر إلى أنه مشروع بحدوده وجدواه، فالحوار ليس مشروعاً مشروعية مطلقة لكي يتناول كل شأن، فهو ليس من قبيل الترف الفكري ولا الفضول وحب الاستطلاع وتشقيق الجدل في المسائل. هنالك قضايا محددة ليس من الجائز الخوض فيها بحوار أو جدال إما بسبب محدودية العقل البشري إزاءها أو بسبب عدم ترتب أي ثمرة علمية أو عملية من ورائها، أو لأنها محسومة أساساً بنص شرعي أو إجماع.

إن الخوض في البحث في ذات الله تعالى مثلاً منهي عنه شرعاً، فهذا ليس مجال بحث ولا جدال ولا حوار، لأن القول في ذلك الشأن الجليل هو من قبيل الخوض بلا علم، ذلك أن العلم شرط أولي لخوض الحوار وهو شرط معدوم في هذه الحالة. وهو هنا من جملة ما نهى الله عنه في قوله تعالى:{ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**}[1]. وهنالك مسائل كثيرة لا يترتب حكم عملي عليها مثل أكثر المسائل التي خاض فيها من يسمون بفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن رشد وابن سينا وكثير من الصوفية كابن عربي وابن سبعين والسهروردي وغيرهم. ومن المسائل التي ينهى عن الجدال فيها كل ما حكم الله ورسوله فيه بنص محكم جلي أو ما جاء فيه إجماع لعلماء الإسلام.

إن كل ما يحرم الحديث فيه شرعاً لا يجوز الحوار فيه مطلقاً كما لا يجوز الجدال في أمره، وهكذا فالأحكام القطعية في الدين ليست مناطاً للحوار أو الجدال من أجل إعادة النظر فيها أو تقويمها أو تغييرها.

وهنالك قضايا كثيرة لا ينبغي فيها الحوار لأنها تقود إلى مزيد من الشقاق والفتنة، كالجدال في شأن الصحابة رضي الله عنهم أو تفضيل مواقف بعضهم على بعض في أيام الفتن، أو الجدال على أسس سياسية أو قومية متعصبة أو ما نحا ذلك النحو من أنواع الخلاف الذي يثير القلق والبلبلة في المجتمع.

المطلب الخامس:

مؤهلات المحاور المسلم

إن المحاور المسلم يمكن أن يخوض حواره مع جبهات شتى، سواء مع مسلمين من أمثاله، أو مع مسلمين مبتدعين، أو مغالين، أو مفرطين، أو منهزمين فكرياً أمام الأطروحات الغربية ومائلين إلى تفسير الدين بما يساير تلك الأطروحات، أو قد يحاور المسلم بعضاً من أهل الكتاب أو من لا دين لهم.

وتتباين دوافع من يقابلهم المسلم في الحوار، فمنهم من يستصحب نيةً حسنةً في طلب الحق والاستعداد لقبوله متى ما اتضح، ومنهم من يتخذ الحوار سبيلاً لعرض آرائه ونشرها مع الإصرار على عدم قبول الحق إذا جاء من طرفٍ آخر حتى ولو اتضح جلياً.

وعلى المحاور المسلم أن يتعرف على خلفيات من يحاورهم جيداً حتى يتمكن من تسخير معارفه ومواهبه على النحو الكفيل بالتعامل مع كل طائفة من هؤلاء بما يليق. وفيما يأتي عرض لبعض المؤهلات الضرورية للمحاور المسلم:

١- العلم بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة: فعلى من يجادل عن دين الله تعالى أن يلم بأدلته الشرعية من الكتاب والسنة وفهمهما كما ورد عن السلف رضوان الله عليهم، وهذا يقتضي العلم بالتفسير بأنواعه، والدراية بالحديث النبوي الشريف وعلوم الشريعة الأساس. وإذا كانت الإحاطة التامة بكل ذلك متعذرة، فالواجب ألا يحاور المرء ولا يجادل إلا فيما يعرف معرفة أكيدة من أمور الشرع وعلوم الدين. إن من تمام فقه الفقيه وعلم العالم: أن يعرف قدر نفسه، فلا يتعداه، وأن يحقق مجاله العلمي فلا يخرج عنه، ولا يتصدى لما ليس له بأهل.

٢- العلم بالقواعد الأصولية ومقاصد الشريعة: وهذا جانب مهم من العلم لأن معرفة الأدلة تحتاج إلى المعرفة بتلك القواعد حتى يتم تخريج الأحكام على أساس أصولي صحيح، وإلا اختل الميزان

٣- وجرى التلاعب بالأحكام. ومقاصد الشريعة عليها أيضاً التعويل في استخراج كثير من الأحكام. لقد كان علماء السلف أشد الناس تحرياً لمقاصد الشرع. يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور: " وفي هذا العمل تتفاوت مراتب الفقهاء، وترى جميعهم لم يستغنوا عن استقصاء تصرفات الرسول ﷺ ولا عن استنباط العلل، وكانوا في عصر التابعين وتابعيهم يشدون الرحال إلى المدينة ليتبصروا من آثار الرسول ﷺ وأعماله وعمل الصحابة ومن صحبهم من التابعين، هنالك يتبين لهم ما يدفع عنهم احتمالات كثيرة في دلالات الألفاظ، ويتضح لهم ما يستنبط من العلل تبعاً لمعرفة الحكم والمقاصد ".

٤- العلم بموضوع الحوار: فعلى من يتصدى للحوار في موضوع معين أن يكون على علم شامل أو على الأقل كاف بأساسيات الموضوع وتفاصيله وذلك حتى لا يجادل عن موقف لا يدرك خلفياته جيداً فينهزم في الحوار. وعليه كذلك أن يحيط علماً بوجهة نظر الطرف الآخر حتى لا يسدد سهام حواره بعيداً عن مدارات الموضوع فتسجل عليه الهزيمة كذلك. وقد اشترط القرآن الكريم العلم فيمن يحاور عن دين الله القويم وعاب على قوم أنهم يجادلون بغير علم، يقول تعالى:{**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ**}[1] وأمر المسلم أن يحاور بعلم وهدى وبصيرة فقال تعالى:{**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**}[2].

٥- الجهر بالحق: إن الحوار ينبغي ألا يؤدي إلى المداهنة والدبلوماسية التي تغطي على الحقائق وعلى الخلافات وتعمل على ترميمها ظاهرياً وتلفيق موقف اتفاق زائف. وقد ذم الله تعالى من يعمل على كتمان حقائق الدين قائلاً:{**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**}[3]

٦- وذم من أهل الكتاب أولئك الذين يزورون حقائق الأمور فقال:{**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**}[١] إن في تزوير الحقائق إجهاضاً لجميع مقاصد الحوار والتبادل الثقافي، فما قام الحوار أساساً إلا لتبادل المعلومات والآراء، فإن جاءت مغشوشة فلن يكون القصد من الحوار إلا الغش والتستر بمواقف هي غير المواقف الأصلية للحوار.

٧- التجرد لطلب الحق: فالحوار ليس معركة حربية غرضها الانتصار وكسر الخصم. فعلى المحاور أن يفترض - ولو نظرياً - احتمال ثبوت الحق على لسان الخصم، وذلك أدب جم من آداب الحوار، قال تعالى إرشاداً لمسار الحوار:{ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**}[٢]. وهذا هو مقام التنزل الذي يعطيه المحاور - افتراضاً - للآخرين حتى يجلبهم إلى مائدة الحوار.

٨- الحوار بالحسنى: فلا مجال للعنف والغلظة في أي حوار بناء ولا يلجأ للقسوة على الخصم إلا عند ظلمه وتجاوزه، فيردَع بالقوة إيقافاً له عند ظلمه، وهذا هو الاستثناء لا الأصل في الحوار. إن الحوار بالحسنى يتضمن استخدام أطراف الحوار لبعضها بعضاً، والرغبة المخلصة في تحقيق النفع المشترك، وبغض النظر عمن يكسب جولات الحوار. وفي تحديد الإطار المهذب للحوار جاء قول الله تعالى:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}[٣]

٩-). وذكر بعض المفسرين أن المقصود بالذين ظلموا أولئك الذين نصبوا القتال للمسلمين بدل الجدال. وجاء قول الله تعالى مؤكداً استخدام القول اللين في مخاطبة الآخرين في وصية موسى وهارون عليهما السلام:{**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**}[1]. وأوصى رسول الله ﷺ دوماً بالرفق في القول مع الآخرين والصبر على تطاولهم وإيذائهم.

١٠- التثبت واتقاء الزلل: وعلى من يحاور أن يجهد نفسه لضبط أعصابه ليثبت الأمور ولا يجازف بالقول ولا يتمحل الحجج ولا يتسرع فيزل ويجنح إلى خطأ لمجرد أنه يريد أن ينافس محاوره وينتصر عليه. وكثيراً ما يزل المتحاورون بسبب الانتصار لأنفسهم، وهذا ما يوحيه الشيطان ليغلب حق النفس على الحق المحض. وكما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم. وقال تميم الداري - رضي الله عنه -: "اتقوا زلة العالم "، فسأله عمر: " ما زلة العالم "؟ قال: " يزل بالناس فيؤخذ به، فعسى أن يتوب العالم، والناس يأخذون بقوله " [2].

١١- منهجة الأفكار: إن التعلم يحتاج إلى الذكاء والمثابرة والدأب والبصيرة، أما منهجة الأفكار فتحتاج إلى مهارة خاصة تُصقَّل بالمران والدربة. إن كثيراً من العلماء مهما زاد محصولهم من العلم المستند إلى الأدلة، فإنهم قد لا يحسنون ترتيب مسائله ترتيباً منطقياً، فتبدو معارفهم مشتتة ومختلطاً بعضها ببعض، وكلما زا دت حصيلتهم من العلم ازدادت أذهانهم اختلاطاً وتشوشاً ونقلوا ذلك الاختلاط والتشوش إلى السامع، وهذا آخر ما يحتاج إليه السامع وأول ما يفسد على العالم رسالته ويسبب فشله في الحوار. إن المحاور الناجح هو ذلك الذي يدرب نفسه على منهجة الأفكار وترتيب النصوص والأدلة، واستخراج مقدمات تخضع للتحليل بغرض استخراج النتائج منها.

١٢- فإعطاء النتائج بدون ذلك الترتيب المنطقي قد لا يكون محل اقتناع أو تسليم من الطرف الآخر في الحوار ولا من جمهور السامعين. وعلى المحاور أن يتعهد موضوعه بالمذاكرة الوافية والترتيب المنطقي وأن يعد نفسه للحوار إعداداً جيداً، فحتى العالم فإنه معرض للنسيان ولأن تخذله ذاكرته ويتشتت ذهنه وتنفرط براهينه إن لم يقم ببذل الجهد الكافي لواجب الحوار وهنا قد ينتصر صاحب الرأي الخاطئ والحجة الباطلة فقط لأنه كان مرتب الذهن ولأنه استخدم المنطق جيداً ولأنه واجه محاوراً صاحب حق ولكنه ممثل سيئ لحقه بسبب ما هو عليه من بلبلة وتضعضع وتعثر في المنطق.

١٣- منطق البداهة: إن الإيغال في تركيب البراهين قد يغري المحاور بأن يبتعد كثيراً عن منطق البداهة، وعن استخدام المسلمات الأولى التي يتفق عليها الناس جميعاً، ويعمل بالتالي على الإغراب في توليد الصيغ وسلاسل الاعتماد. وذلك مهما بدا مهماً مما يكل الأذهان ويبعد عن التباس حرارة الحق الشاخص. المحاور الناجح هو من يتمكن من التقاط المشاهدات والمسلمات والبدهيات العالية في الحياة والبناء عليها، لأن البناء على أمثال هذه الفرضيات يكون بمثابة البناء على مقدمات صلبة لا ينازع عليها الطرف الآخر، بل تثير إعجاب السامع وتدفع إلى اعترافه بالحق وإذعانه له.

١٤- تجويد لغة الحوار: لا بد للمحاور أن يسيطر على اللغة التي يحاور بها حتى يتمكن من الإفصاح عن جوهر ما يريد قوله وأن يختار الألفاظ والتعابير الأقوى في إيصال تلك المعاني. أما إذا كانت لغة المحاور ضعيفة، فإن أفكاره مهما كانت صحيحة أو عميقة فإنها تبدو ضعيفة وسطحية وشديدة الاهتزاز، وكثيراً ما يحكم الناس على المتحدث بمستوى تمكنه من اللغة والإفصاح بها لا بمستوى تمكنه من العلم والتعمق والتحقيق فيه، وهكذا كثيراً ما انهزم محاورون كانوا على حق، ولكن خانتهم ملكاتهم اللغوية الخائرة.

١٥- التسـليم بالحق من أي مصـدر جاء: فالوصـول إلى الحق هو غاية الحوار. وليس غايته إفحام الخصـم وجرجرته إلى التسـليم بالرأي الذي يطرحه من يحـاوره. وعلى كل من يحاور أن يعد نفسـه لقبول نتيجة الحوار إن ظهر ضـعف رأيه وحجته إزاء قوة رأي الخصـم وحجته. وكثير من العناد الذي يعقب الحوار يرجع أصـله إلى عدم تحلي المحاور نفسـه بالتواضـع لإلزامها بقبول الحق. فليس ثمة منهزم ولا منتصر، ولكن التزام بالحق وانصراف إليه. إن على المحاور ألا يشـعر خصـمه بالدونية وبأنه على الخطأ الذي لا صـواب معه ولا إمكان صدور أي صواب عنه. فحتى الكفار يمكن أن يصدر عنهم بعض الرأي الصـائب على ما هم فيه من ضـلال ويمكن أن يستدرجوا لينطقوا بالصـواب. إن القاعدة العامة هي أن على المحاور أن يهيئ ذهنه لتلقي الصـواب من أي جهة عملاً بقول الإمام الشـافعي رحمه الله: " قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب "، وما روي عنه أنه ما حاور إنساناً قط إلا وتمنى أن يأتي الحق على لسانه.

* * * * *

المبحث الثاني: آدابُ الحوار

المطلب الأول:

آداب الحوار وقواعد الاختلاف

ابتلي العالم الإسـلامي بفتن كثيرة، وتعددت مسـمياتها، وأطلقوا عليها الأسـماء الآتية: (أصـولية - تطرف - إرهاب... وغيرها). إلا أنها كلها تعبر عن مفهوم واحد هو: الغلو والتفسير الناقص للنصـوص، وإطلاق هذه التسـميات على المؤمنين دون بصـيرة وروية، فاستسهل أقوام قذف المسـلمين بالبدعة والكفر والشرـك والجهل في أمور خلافية ليسـت محلاً لأي من هذه الأوصـاف، بل ليسـت محلاً للتخطئة والتجهيل، فكيف بالتبديع والتكفير؟!! إذ إن الكثير من هـذه الأمور الخلافيـة سـبقهم إليها أئمة من ذوي الرواية والروية، ولا ينبغي أن يعيب مقلد على مقلد ولا مجتهد على مجتهد.

ذلك أن سر خلود الإسلام هو الاختلاف المحمود الذي سيرد تفصيله.

وإن الداء الأكبر الذي استشرـى في زماننا، وأدى إلى ظهور كل هذه التناقضات هو غياب سـنة الحوار التي أرى أنها أولى الأولويات وأهم المهمات. فقواعد الحوار والاختلاف وضوابطه هي العاصم للمتحاورين من الغلو وشتم الآخرين إن كان الحق هو الرائد والمطلوب.

أما إذا كان الخلاف انتصـارًا لأهواء سـياسية وتعصبًا أعمى، فهذا أمر لا ينفع معه قواعد ولا ضوابط، إذ إن الهوى ليس لـه ضوابط ولا موازين، ولذلك حذرنا المولى - عز وجل - من اتباع الهوى..... فقال سـبحانه وتعالى:{**وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**}[1] إن البناء الفقهي الإسـلامي العظيم لم ينشـأ من فراغ، وإنما نشـأ عن مناهج وأسـس وضـوابط وموازين علمية دقيقة اتبعها أصحاب المذاهب في الاستنباط والاستخراج.

لـذلك فإن غياب هذه الأسـس والمناهج في الحوار والاختلاف أوقعنا فيما نحن فيه. ولا أحسـب أن هذه الموضـوعات نالت حظًا وافرًا من الاهتمام والتعليم سـواء في المدارس أو الجامعات، مما جعل حوار المتعالمين كحوار الطرشان،

ونشـــأ عن ذلـك مـا نراه اليوم من فتن وتيارات مختلفة متنافرة، فقد يختلفون حيث لا اختلاف، وقد ينزلقون وهم يعتقدون أنهم مصـلحون، وإنما هم في الواقع مفسـدون، كما قال الله - تعالى - في أمثالهم:{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ**}[1].

* * * * *

المطلب الثاني:

الأصول والقواعد الرئيسة التي تضبط مسار الحوار

الأصل الأول: الوصول إلى الحق: فلا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، وإظهار الغلبة والمجادلة بالباطل.

يقول الإمام الغزالي عند ذكره لعلامات طلب الحق: "أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرّق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصمًا، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق" [١].

الأصل الثاني: تحديد الهدف والقضية التي يدور حولها الحوار، فإن كثيراً من الحوارات تتحول إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها.

الأصل الثالث: الاتفاق على أصل يرجع إليه، والمرجعية العليا عند كل مسلم هي: الكتاب والسنة، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة. وقد أمر الله بالرد إليهما فقال سبحانه:{**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**}[٢]. فالاتفاق على منهج النظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش علمي يضبط مسار الحوار ويوجهه نحو النجاح، إذ إن الاختلاف في المنهج سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة لا حصر لها ولا ضابط.

الأصل الرابع: عدم مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها.

* * * * *

المطلب الثالث:

آدابُ الحوار النفسية

هناك آداب تتعلق بنفسية المحاور وشخصه، وهناك ظروف نفسية قد تطرأ على الحوار فتؤثر فيه تأثيراَ سلبيّا، فينبغي مراعاة ذلك حتى يحقق الحوار غاياته ويؤتي ثمراته.

وأهم هذه الآداب النفسية:

أولاً: تهيئة الجو المناسب للحوار:

فلا بد من الابتعاد عن الأجواء الجماعية والغوغائية، لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء. كما ينبغي اختيار المكان الهادئ وإتاحة الزمن الكافي للحوار.

كما ينبغي مراعاة الظرف النفسي والاجتماعي للطرف الآخر، فلا يصلح أبدًا أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي أو النفسي، لأن هذه الأمور ستؤثر في الحوار.

ومن الوسائل في تهيئة الجو المناسب للحوار:

١ - التعارف بين الطرفين.

٢ - طرح أسئلة في غير موضوع الحوار لتهيئة نفسية الطرف الآخر.

٣ - التقديم للحوار بكلمات مناسبة ومقدمات لطيفة تلفت انتباه الطرف الآخر.

ثانيًا: الإخلاص وصدق النية:

لا بد من توفر الإخلاص لله وحسن النية وسلامة القصد في الحوار والمناظرة، وأن يبتعد المناظر عن قصد الرياء والسمعة، والظهور على الخصم والتفوق على الآخرين، والانتصار للنفس، وانتزاع الإعجاب والثناء.

ومن دلائل الإخلاص لله والتجرد لطلب الحق: أن يفرح المحاور إذا ظهر الصواب على لسان مخالفه، كما قال الشافعي: "ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه"(١).

ويعينه على ذلك أن يستيقن أن الآراء والأفكار ومسالك الحق ليست ملكًا لواحد أو طائفة، والصواب ليس حكرًا على واحد بعينه.

ثالثًا: الإنصاف والعدل:

من المبادئ الأساسية في الحوار: العدل والإنصاف، ومن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم، والتفريق بين الفكرة وقائلها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة، ومن نماذج الإنصاف ما ذكره الله - سبحانه - في وصف أهل الكتاب:{**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**}[١].

رابعًا: التواضع وحسن الخلق:

إن التزام الأدب وحسن الخلق عمومًا، والتواضع على وجه الخصوص له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب، فكل من يرى من محاوره توقيرًا وتواضعًا، ويلمس خلقًا كريمًا، ويسمع كلامًا طيبًا، فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره، ويفتح قلبه لاستماع رأيه.

وفي الحديث الصحيح: «**وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[٢]. أي يرفع منزلته في الدنيا عند الناس، وكذلك يرفعه في الآخرة ويزيد من ثوابه فيها بتواضعه في الدنيا.

ومما ينافي التواضع: العجب والغرور والكبر.

خامسًا: الحلم والصبر:

يجب على المحاور أن يكون حليمًا صبورًا، لا يغضب لأتفه سبب، ولا ينفر لأدنى أمر، ولا يستفز بأصغر كلمة.

فقد أمر - سبحانه - نبيه بأخذ العفو وإعذار الناس وترك الإغلاظ عليهم كما في قوله تعالى:{**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**}[٣]

،والصــفح والعفو أبلغ من كظم الغيظ ورد الغضــب، لأن العفو ترك المؤاخذة، وطهارة القلب، والسماحة عن المسيء، ومغفرة خطيئته.

وأعظم من ذلك وأكبر هو دفع السـيئة بالحسـنة، ومقابلة فحش الكلام بلينه، والشـدة بالرفق، ورد الكلمة الجارحة بالكلمة الطيبة العذبة، والسـخرية والاحتقار بالتوقير والاحترام، وهذه منزلة لا يصل إليها إلا من صبر وكان ذا حظ عظيم:{**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**} {**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**}(١).

سادسًا: الرحمة والشفقة:

إن المحاور المسلم المخلص الصادق يحرص على ظهور الحق، ويشفق على خصمه الذي يناظره من الضلال، ويخاف عليه من الإعراض والمكابرة والتولي عن الحق.

فالرحمة والشـفقة أدب مهم جدًّا في الحوار، لأن المحاور يسـعى لهداية الآخرين واستقامتهم فلذلك يبتعد عن كل معاني القسوة والغلظة والفظاظة والشدة. فلا يكون الحوار فرصة للكيد والانتقام، أو وسـيلة لتنفيس الأحقاد، وطريقة لإظهار الغل والحسـد، ونشر العداوة والبغضاء.

والرحمة جسر بين المحاور والطرف الآخر، ومفتاح لقلبه وعقله، وكلما اتضحت معالم الرحمة على المحاور كلما انشرح صدر الخصم، واقترب من محاوره، وأذعن لـه واقتنع بكلامه. يقول - سبحانه - مخاطبًا نبيه:{**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**}(٢).

ولذلك كان الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم يصرحون بالخوف والحرص والشفقة عليهم.

ومن نماذج ذلك تصريح مؤمن آل فرعون لقومه بالرحمة والشفقة والخوف عليهم في أكثر من موضع. قال تعالى:{**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ**} [1]

سابعًا: العزة والثبات على الحق:

إن المحاور المسلم يستمد قوته من قوة الدين، وعظمة الإيمان، فلا يجوز أن يؤدي الحوار بالمسلم إلى الذلة والمهانة. والعزة الإيمانية ليست عنادًا يستكبر على الحق، وليست طغيانًا وبغيًا، وإنما هي خضوع لله وخشوع، وخشية وتقوى، ومراقبة لله سبحانه.

ثامنًا: حسن الاستماع:

لا بد للمحاور الناجح أن يتقن فن الاستماع[2]، فكما أن للكلام فنًّا وأدبًا، فكذلك للاستماع، وليس الحوار من حق طرف واحد يستأثر فيه بالكلام دون محاوره، ففرق بين الحوار الذي فيه تبادل الآراء وبين الاستماع إلى خطبة أو محاضرة.

ومما ينافي حسن الاستماع: مقاطعة كلام الطرف الآخر، فإنه طريق سريع لتنفير الخصم إضافة إلى ما فيه من سوء أدب، كما أنه سبب في قطع الفكرة مما يؤثر في تسلسل الأفكار وترابطها، ويؤدي إلى اضطرابها ونسيانها. وقد ذكر العلماء في آداب المتناظرين: "ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر حتى يفهم مراده من كلامه تمامًا، وأن ينتظر كل واحد منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه، ولا يقطع عليه كلامه من قبل أن يتمه ".

والاستماع إلى الطرف الآخر وحسن الإنصات، تهيئ الطرف الآخر لقبول الحق، وتمهد نفسه للرجوع عن الخطأ.

تاسعًا: الاحترام والمحبة على رغم الخلاف:

الخلاف أمرٌ واقع لا محالة، ولكن لا يجوز أن يؤدي الخلاف بين المتناظرين الصادقين في طلب الحق إلى تباغض وتقاطع وتهاجر، أو تشاحن وتدابر.

فأخوة الدين، وصفاء القلوب، وطهارة النفوس فوق الخلافات الجزئية، والمسائل الفرعية، واختلاف وجهات النظر، لا ينبغي أن يقطع حبال المودة، ومهما طالت المناظرة، أو تكرر الحوار، فلا ينبغي أن تؤثر في القلوب، أو تكدر الخواطر، أو تثير الضغائن.

لقد اختلف السلف فيما بينهم، وبقيت بينهم روابط الأخوة الدينية. فهذان الخليفتان الراشدان، أبو بكر وعمر، يختلفان في أمور كثيرة، وقضايا متعددة، مع بقاء الألفة والمحبة، ودوام الأخوة والمودة. ومع هذا الخلاف بينهما إلا أن كل واحد منهما كان يحمل الحب والتقدير والاحترام للآخر، ويظهر ذلك من ثناء كل واحد منهما على صاحبه[1].

* * * * *

المطلب الرابع:

آدابُ الحوار العِلمية

أولاً - العلم:

العلم شرط أســـاس لنجـاح الحوار وتحقيق غايته، وبدونه لا ينجح حوار، ويهدر الوقت ويضيع الجهد.

فيجب على المحاور ألا يناقش في موضوع لا يعرفه، ولا يدافع عن فكرة لم يقتنع بها، فإنه بذلك يسيــء إلى الفكرة والقضــية التي يدافع عنها، ويعرض نفســه للإحراج وعدم التقدير والاحترام.

يقول الشـيخ ابن تيمية في التأكيد على ضرورة العلم وأهميته لمن يتصـدى للحوار: "وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المناظر ضـعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفســده ذلك المضــل، كما ينهى الضــعيف في المقاتلة أن يقاتل علجًا قويًا من علوج الكفار، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة"[١].

ثانيًا - البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق:

بين كل متناظرين مختلفين حد مشــترك من النقاط المتفق عليها بينهما والتي يســلم بها الطرفان، والمحاور الناجح هو الذي يظهر مواطن الاتفاق. والبدء بالأمور المتفق عليها يســاعد على تقليل الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويعيد الحوار هادئًا هادفًا.

أمـا إذا كـان البـدء بـذكر مواضــع الخلاف وموارد النزاع فإن فرص التلاقي تقل، وفجوة الخلاف تتسع، كما أنه يغير القلوب، ويثير النفوس للغلبة دون النظر إلى صحة الفكرة. فالبدء بالنقاط المشــتركة يســاعد على تحرير محل النزاع، وتحديد نقطة الخلاف، ويفيد في حســن ترتيب القضايا والتدرج في معالجتها.

ثالثًا - التدرج والبدء بالأهم:

إن المحاور الناجح هو الذي يصـل إلى هدفه بأقرب طريق، ولا يضيع وقته فيما لا فائدة منه، ولا علاقة لـه بأصل الموضوع، فمعرفة الأهم والبدء به يختصر الطريق.

وأوضح الأمثلة على ذلك بدء الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - بأهم قضية وأكبر غاية، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك لـــه:{**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**}[1] ومع التأكيد على هذا الأدب - البدء بالأهم - فقد يحتاج المحاور إلى أن يتدرج ويتنازل مع خصمه، ويسلم لـه ببعض الأمور تسليمًا مؤقتًا حتى يصل إلى القضية الأم والمسألة الأهم.

ومن نماذج هذا الأسلوب ما اتبعه إبراهيم مع قومه ليصل بهم إلى التوحيد وإبطال الشرك، كما قال سبحانه:{**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي**}[2] وهذا على وجه التنزل مع الخصم، أي ربي - بزعمكم:{**فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ**} فبطلت عبادة الكواكب، ثم فعل مثل ذلك لما رأى القمر ولما رأى الشمس حتى وصل بهم إلى حد إبطال ما هم عليه من الشرك[3].

رابعًا - الدليل:

إن أهم ما ينجح الحوار: الدليل، ولا بد من إثبات صحة الدليل، كما قيل: "إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعيًا فالدليل". ولا يحسن بالمحاور أن يستدل بأدلة ضعيفة أو حجج واهية. فدليلان قويان لا يمكن الرد عليهما أفضل من سوقهما مع ثلاثة أدلة أخرى يمكن الأخذ والرد فيها، إذ ربما يستغلها الطرف الآخر، فيضعف الفكرة ويسيء إلى موقف صاحبها بسبب الأدلة الضعيفة. ومتى وجد الدليل وثبتت صحته، فلا بد من صحة دلالته على المطلوب، ولا بد من ترتيب الأدلة حسب قوتها وصراحتها في الدلالة على المقصود.

خامسًا - ضرب الأمثلة:

إن المحاور الناجح هو الذي يحسن ضرب الأمثلة، ويتخذها وسيلة لإقناع محاوره، إذ إن الأمثلة الجيدة تزيد المعنى وضوحًا وبيانًا.

ولما للأمثلة من دور كبير في تقريب المعاني والإقناع بها، فقد اعتنى القرآن بها كثيراً، وأشار إلى أهميتها وبيان هدفها:{**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}(١){**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**}(٢).

سادسًا - العدول عن الإجابة:

إن الأصل في الحوار الناجح أن يبنى على الإخلاص والتجرد للحق والصدق والوضوح، ولكن قد تتعذر هذه الصفات في الخصوم، فقد يكون الخصم يهوى الجدال والمراء، ويقصد إضاعة الوقت والتهرب من الحوار الجاد، وقد يلقي أسئلة لا قيمة لها ولا تفيد شيئًا بالحوار.

ففي مثل هذه الأحوال يعدل المحاور الناجح عن الجواب المباشر للسؤال المطروح، إلى جواب مفيد مهم.

سابعًا - الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ:

إن من أهم الآداب والصفات التي يتميز بها المحاور الصادق أن يكون الحق ضالته، فحيثما وجده أخذه، والعاقل هو الذي يسلم بخطئه، ويعود إلى الصواب إذا تبين له، ويفرح بظهوره، ويشكر لصاحبه إرشاده ودلالته إليه.

والتسليم بالخطأ صعب على النفس، خاصة إذا كان في مجمع من الناس، فهو يحتاج إلى تجرد لله وصدق وإخلاص، وقوة وشجاعة.

ثامنًا - التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم:

إن الهدف من الحوار: هو الوصول إلى الحق، فعلى المحاور أن يتجنب أسلوب الإفحام والإسكات، لأنه يترك في نفس المحاور حقدًا وغيظًا وكراهية.

ولكن يلجأ المحاور إلى التحدي والإفحام مع من استطال وتجاوز حدود الأدب، وطغى وظلم وعادى الحق وكابر مكابرة بينة ولجأ إلى الاستهزاء والسخرية، ونحو ذلك.

وفي مثل هؤلاء جاءت الآية الكريمة:{**لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ**}[1].

ولما أمر الله - سبحانه - بالتلطف في المناقشة - حتى مع الكفار - استثنى حالة إذا ما ظلموا وبغوا، فلا ينفع معهم الرفق واللين، بل يستعمل معهم الغلظة والشدة:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}[2].

* * * * *

المطلب الخامس:

أدب الحوار

أولاً - الكلمة الطيبة والقول الحسن:

لقد أمر الله - عز وجل - بدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال سبحانه:{**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[١] ومن القول الحسن أيضًا: حسن المناداة للطرف الآخر، واختيار أحب الأسماء إليه، وقد تأدب الأنبياء بهذا الأدب في خطابهم لأقوامهم، فقد كان يقول الرسول لخصومه المعاندين: (يا قوم) في تودد وسماحة وتذكير بالروابط التي تجمعهم، ليستثير مشاعرهم، ويطمئنهم فيما يدعوهم إليه.

ثانيًا - التعريض والتلميح بدلاً عن التصريح:

إن لفت النظر إلى الأخطاء من طرف خفي، وتجنب اللوم المباشر، وعدم تخطئة الطرف الآخر بعبارة صريحة، كل ذلك لـه أثره في تسليم الخصم للحق والرجوع عن الخطأ، فالنفوس غالبًا لا تتحمل أن تواجه بقوة وصرامة، وهناك من الألفاظ الموحية والكلمات اللطيفة والتي تؤدي الغرض نفسه، دون جرح لمشاعر الآخرين، أو إشعارهم بالذل والهزيمة.

ثالثًا - ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق:

إن الكلام عن النفس ومدحها والثناء عليها مذموم غالبًا، ولا يحب الناس أن يسمعوا ممن يملأ آذانهم بمناقبه وسيرته وأحواله وتقلباته، بل إن من يفعل ذلك ويفرح به ويكثر منه يعد ناقصًا في عقله، أو ربما فاسدًا في نيته وقصده.

وكما قال الإمام مالك: " إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه"[٢].

وقد نهى الله - عز وجل - عن تزكية النفس والتمدح بطهارتها فقال سبحانه:{**فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**} [1]، وعاب أناسًا فعلوا ذلك فقال فيهم:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**}[2].

وفي المقابل فإن مدح الآخرين وإطراءهم والثناء عليهم بما ليس فيهم، وتجاوز الحد في ذلك، كل هذا مذموم ممقوت أيضًا.

ولكن قد تكون هناك حالات يحتاج فيها المحاور إلى أن يثني على نفسه بالحق، لتحقيق غرض معين، كأن يشعر خصمه بمقدار علمه في موضوع الحوار أو في مسألة من مسائله، أو لينفي عن نفسه تهمة أو طعنًا في صدقه وأمانته أو نحو ذلك، فهنا قد يسوغ ذكر شيء من محاسن النفس بقدر وبحق.

وكذا قد يحتاج المحاور إلى أن يثني على الطرف الآخر - بالحق - لتحقيق غرض معين، كأن يكون القصد إشعاره بالتقدير والاحترام، والاعتراف بفضله أو علمه.

رابعًا - محذورات لفظية:

إن للسان سقطات، وللكلام زلات، والمسلم مأمور بحفظ لسانه، كما أنه مأمور بطيب الكلام، وأن يقول خيراً فيغنم، أو يسكت فيسلم، ويسلم الآخرون منه، وهناك أمور قد يقع فيها اللسان فتورد صاحبها الموارد، وقد تهوي بالحوار وتعطل سيره أو تحوله إلى جدل عقيم، أو تبادل سباب وشتائم، ولذلك ينبغي للمحاور أن يحذرها، فمن هذه المحذورات:

١- اختيار الألفاظ والمعاني التي تقود إلى الجدل، أو تستثير الفتن والمشكلات.

٢- إظهار التفاصح والتشدق في الكلام تيهًا على الآخرين واستعلاء.

٣- الغيبة: فإن المناظر لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، فيحكي عنه ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله، وهو الغيبة.

٤- الكذب: ربما لا يقدر المناظر على محاورة خصـــمه، فيلجأ إلى الكذب عليه، فينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم، تغطية لعجزه فيقع في الكذب.

٥- تزكية النفس والثناء عليها بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران، كقولـــــه: لســـت ممن يخفى عليـه أمثال هذه الأمور ونحو ذلك مما يتمدح به على سبيل الادعاء.

٦- الاســـتئثار بـالكلام دون الطرف الآخر، والإطـالـة الزائدة عن حدها وعدم مراعاة الوقت في أثناء الكلام.

٧- اللوم المباشر عند وضـوح خطأ الطرف الآخر، كقولـــه: "أخطأت"، "سأثبت لك أنك مخطئ جاهل" ونحو ذلك مما يجرح الطرف الآخر.

٨- رفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع، ففي ذلك رعونة وإيذاء.

٩- الهزء والسخرية، وكل ما يشعر باحتقار الطرف الآخر.

١٠- استعمال الألفاظ الغريبة، والأسـاليب الغامضة، والعبارات المحتملة تلبيسا على الطرف الآخر، تمويها للحقيقة.. إلى غير ذلك من المحذورات التي يجب على المحاور أن يبتعد عنها.

* * * * *

المبحث الثالث: مجالات الحواروأصوله

وبعض آدابه وعوائقه

المطلب الأول:

ومن آداب الحوار

متى ما كان المحاور المسلم مؤهلاً للانخراط في الحوار حتى يجني ثماره وينفع نفسه ودينه منه فإن عليه أن يأخذ بآداب الحوار ويلتزم بمعاييره التي تتحقق بها أعلى فائدة منه، ومن أهم هذه الآداب:

١- الالتزام بموضوع الحوار وعدم الخروج عليه. وهذه مسألة منهجية وتنظيمية في غاية الأهمية، وعدم الالتزام بها يؤدي إلى خلط المسائل بعضها الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى عدم إنضاج أي منها بالبحث والمساءلة والمقارنة والتقويم والاستنتاج. ويمكن معالجة هذه الناحية بضبط أولويات الحوار جيداً، وإقامة هيئة تحكيم لتضبط المتحاورين كلما جنحوا للخروج من إطار الموضوع.

٢- ضرورة تحديد المصطلحات المستخدمة في الحوار وشرح مدلولاتها جيداً، لأن المصطلح الواحد قد يعني شيئاً مختلفاً عند كلا الطرفين. وهنا لا بد أن يعلن المتحدث عما يعني تحديداً بالمصطلح الرئيسي- الذي يدور حوله حديثه خلال الحوار.

٣- مناقشة المسائل حسب أهميتها. فليس من آداب الحوار تضخيم المسائل الفرعية على حساب المسائل الأصلية، فإن كثيراً من المسائل الفرعية تنحل آلياً بمجرد مناقشة أصولها الكبرى ومصدر الاختلاف حولها.

٤- تلطيف أجواء الحوار حيناً بعد حين، وذلك بإسداء بعض عبارات الاحترام والتقدير للطرف الآخر، فإن ذلك أدعى إلى كبح جماح الانفعال لدى الطرف الآخر وتهدئة جموحه نحو التعدي وعدم الموضوعية.

٥- عدم التسرع في الإقناع؛ لأن ذلك مما يجرح مشاعر الطرف الآخر. فالأفضل أن يظهر المحاور وجهة نظره بصورة واضحة، ويعطي الفرصة كاملة للطرف الآخر - حتى ولو كان خصماً - ليظهر وجهة نظره، ثم تعطى فرصة زمنية للاثنين حتى يتأمل كل إنسان وجهة نظر صاحبه، فتتضح الرؤية مع هدوء الخواطر وفتور الانفعال الوقتي الذي يصاحب لحظات الحوار.

٦- حسن الاستماع للطرف الآخر. فالحوار مسألة تبادل للآراء وليس مجرد إرسال من طرف واحد واستقبال من الطرف الثاني. ومن آداب الحوار أن يحسن كل طرف الاستماع إلى آراء الطرف الآخر، فلا يغفل عن الاستماع استهواناً أو تسفيهاً لآراء الآخرين ولا يتمادى في الحديث حتى يجور على الوقت المخصص للآخرين.

ومن حسن آداب الأنبياء أنهم كانوا يَصْغون جيداً لمحاوريهم بل كانوا يتفضلون فيمنحونهم الفرصة الأولى للإدلاء بآرائهم وحججهم فعندما قال السحرة لسيدنا موسى عليه السلام:{**وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى**} {**قَالَ بَلْ أَلْقُوا**}[1] فأعطاهم الفرصة الأولى للإدلاء بالبينات. وروى ابن إسحاق في سيرته ﷺ أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قومه، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟! - وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون - فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي. إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، عبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال رسول الله ﷺ : " قل يا أبا الوليد أسمع ". قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منها، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاستمع مني**».

قال: أفعل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم:{**حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**}(١) ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها إلى السجدة واستمع إليها عتبة حتى تغير وجهه وتأثر مما سمع وذهب إلى القوم وهو يمدح القرآن فقالوا له: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه» (٢).

ومهما تكن نتيجة الحوار فالمسلم مكلف بالاستماع تطيباً لخاطر من يتكلم وذلك أدعى إلى جلبه إلى جانب الحق، وذلك ما فعله رسول الله ﷺ في هذا الموقف، وفي كل موقف حوار له مع الكفار والمخالفين. وإذا كان حتى الكافر يمنح تلك الفرصة في الاستماع ليعرض أفكاره وآراءه، فإن ذلك الحق نفسه لا بد أن يعطى للمخالفين ضمن إطار التصور الإسلامي العام، أو للمخالفين من أصحاب الثقافات والحضارات والأديان الكتابية، على وجه الخصوص، فالحوار آلية مهمة لتحقيق أداء واجب الدعوة بالتبليغ لرسالة الدين الحنيف، ولذا أورد القرآن الكريم نماذج عديدة منه، ودعا إلى استخدامه مشروطاً بآداب الحوار.

مما سبق يتضح جلياً أن الحوار يستمد مشروعيته من القرآن الكريم نفسه الذي حكى كثيراً من الحوارات على سبيل التعليم والموعظة ابتداءً بحوار الله تعالى نفسه مع الملائكة حول خلق آدم:{ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**}(٣)

ومروراً بحوارات الرســل مع أقوامهم، وانتهـاءَ بحوارات الرســول الخاتم ﷺ مع اليهود والنصارى.

وللمسلمين حوارات كثيرة مع غيرهم من أهل الكتاب، ومع الفرق المبتدعة سجلتها كتب الفرق وكتـب الحوار والخلاف والجـدل الكثيرة التي حفـل بهـا التـاريخ الفكري للحضـــارة الإسـلامية، كما امتلأت كتب المذاهب الفقهية الإسـلامية أيضاً بحواراتها مع بعضها الآخر حول الكثير من قضايا أصول الفقه وفروعه.

ولأهمية الحوار ولكونه آلية مثلى لاســتجلاء الحقائق حرص كثير من أئمة الســلف على إنشـاء كتب علمية قيمة حول موضـوع الحوار مثل كتاب (الإنصـاف في مسـائل الخلاف) لأبي سـعيد النيسـابوري، و(البرهان في الخلاف) لأبي المظفر المروزي و(تجريد المســائل اللطاف في الائتلاف والخلاف) لنور الدين الشــافوري و(تهذيب الأخلاق بذكر مســائل الخلاف والوفاق) لمحمد الأسدي القدسي، وهنالك ما لا يقل عن مائة وخمسين كتاباً من هذا النوع في التأسيس لآليـة الحوار وترقيتها والنهوض بها ونماذج منها مما يدل على أهميتها الحيوية في بناء المعرفة الإسلامية.

والآن في ظل صحوة المسلمين والتفاتهم إلى أمور دينهم وحقائق عصرهم المتفجر معرفياً وإعلامياً فإن آلية الحوار تكتسب مزيداً من الأهمية في الذهن الإسلامي. وما إقامة الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات متعددة الأطراف إلا دليل على استشعار المسلمين المتزايد لتلك الأهمية لمبدأ الحوار بين المسلمين وأهل الديانات والثقافات الأخرى.

إن الخلل الذي نعاني منه في مجتمعنا الإســلامي لا يصـلحه إلا التفاعل من خلال الحوار بعيدًا عن القهر وتأليب جانب على آخر، والسـلطة السـياسية يجب أن تمثل دور الوازع الذي يقف عنـد تهيئـة جو الحوار الهـادف، والـذي يحترم حريـات جميع الفئات، حتى وإن كانت متحفظة عليها، ولا يمكن أن نتخيل عدالة اجتماعية بدون اســتقلال فكري ومذهبي، نعم ولا بد من أدب في الحوار يحترم فيه صاحب السلطة.

إن الأمم التي بنت حضـــارتها أوجدت أماكن مناســـبة للمفكرين والمثقفين بالقرب من السـلطة، واسـتفادت منهم في حركة النقد الهادف فأصبحوا عمادًا لها، ولم يكونوا حربًا عليها. فالكبت الفكري لا يضر المفكر والمثقف فقط، بل سـيضرب في عنق النظام بعد أن يستفحل خطره، فزبد النصائح التي تبذل للمجتمع والنظم إن لم تجد طريقها إلى النور، ستجد طريقها إلى من يحملها في قالب عنيف ومفاجئ، فالفكرة المكبوتة قنبلة موقوتة.

إن منهج الجدل والحوار الإسـلامي قادر على احتواء جميع الصراعات والاختلافات، فقد احتوى هذا المنهج الصراعات مع الأديان الأخرى وانتصر واتسع فكيف لا يتحمل الحوار بين المسلمين؟ إن الفكر الديني المستنير هو ضرورة مهمة لأي بناء حضاري، ولن يكون هنالك فكر ديني مستنير إلا في ظل الحوار الإسلامي[١].

* * * * *

المطلب الثاني:

بعض عوائق الحوار

قد عرفت عدة حوارات التوقف والفشل وعدم الاستمرارية نتيجة عدة أسباب، غير أن أغلب تجمد الحوارات وفشلها في بعض الأحيان، مرجعه في المقام الأول إلى عدم التقيد بأدب الحوار ومضامينه في المخاطبة والمجادلة أسلوبا وممارسة " في حين نجد عوائق أخرى تحول دون الحوار أو استمراره نحو:

* **سوء الظن:** وهو من العوائق التي تحول دون وقوع الحوار فإذا كان حسن الظن يسمح بتحقيق أرضية للحوار والمساواة بين المتحاورين فإن سوء الظن مرض ينتشر في النفوس الضعيفة نهى الإسلام عنه بقوله عز وجل:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**}[١] لما يجلبه من ويلات وحروب.

* **الحسد:** وهو من أقبح الخصال التي تصيب الإنسان وتنكد له عيشته فإن الحسود الذي يتمنى الشقاء والتعس لغيره يشقى نفسه أيضا بهذا الحسد إذ يمنع عن نفسه فوائد الحوار والتواصل مع الغير ويجلب له الإثم وسوء العاقبة.

* **الكبرياء:** " رذيلة من الرذائل الاجتماعية تغرس الفرقة والعداوة بين الأفراد فتقضي على التعاون والمحبة بينهم " وبذلك يظهر الطرف المتحاور للطرف المتكبر أنه دون مستواه ولا يستحق أن ينزل إليه إذ يعتبر ذلك نقصاً وعيباً لكن الحقيقة أن عدم التواضع هو النقص والعيب وأن صاحب الكبر مآله ما أخبر به الرسول فيما رواه عنه حارثة بن وهب الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر**» [٢].

* **الغضب:** وهو من العوائق التي تحول دون استمرار الحوار القائم، وهو كذلك محاولة إبطال دعوى الخصم قبل أن يقدم الدليل عليها

وهو من الرذائل الخلقية التي إذا تحكمت في نفوس الناس وتمكنت من مجتمعاتهم كان لها أسوأ الأثر في حياتهم ونتائج بشعة في تمزيق روابط المودة بينهم.

* **استفزاز الغير:** واحتقاره بأسماء وألقاب تؤدي إلى انفعاله وذلك قصد وضعه في موقف حرج وإرباكه وتحويل انتباه الغير الملاحظ من تتبع الحوار إلى الشماتة وقد نهى الإسلام عن هذا الأسلوب في قوله تعالى:{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**}[1].

* * * * *

المطلب الثالث:

وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار

١ - أصول الحوار وغايته:

تتعدد آراء الباحثين في أصول الحوار.

فمنهم من يؤسس حديثه في هذا الموضوع على أطراف الحوار الأربعة وهي: موضوع الحوار، وأسلوبه، وطرفاه أعني المتحاورين.

ومنهم من يؤسسه على الصفات العلمية والخلقية والنفسية التي ينبغي أن يتحلى بها المتحاورون.

ومنهم من يجعل القضايا المتحاور عليها هي الأساس الذي يبني عليه الحوار.

والأصوب أن يؤخذ كل ذلك في الحسبان، فأصول الحوار على الإجمال ثلاثة: العلم، والأهلية، والخلق الفاضل، ويندرج في كل أصل ما يتفرع عنه وتفصيله كالآتي:

*** الأصل الأول: (العلم) ويتضمن:**

أ- العلم بالدليل والبرهان وبوجه الاستدلال الصحيح، وفي التنزيل الحكيم:{**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}،{**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي**}(١){**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}(٢) فمن واجبات المتحاورين التزام الطرق الإقناعية الصحيحة؛ كتقديم الأدلة المثبتة للأمور، وإثبات صحة النقل لما نقل.

ب- السلامة من التناقض: لأن التناقض ممجوج، ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض أهل التفسير من وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله:{**سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**}(٣). وهو وصف قاله الكفار لكثير من الأنبياء

ج- بما فيهم كفار الجاهلية ولنبينا محمد ﷺ. وهذان الوصفان السحر والجنون لا يجتمعان، لأن الشأن في الساحر العقل والفطنة والذكاء، أما المجنون فلا عقل معه ألبتة، وهذا منهم تهافت وتناقض بيّن. ونعت كفار قريش لآيات محمد ﷺ بأنها سحر مستمر، كما في قوله تعالى:{**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**} [1] وهو تناقض؛ فالسحر لا يكون مستمراً، والمستمر لا يكون سحراً.

د- ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلاً، ولكنه إعادة للدعوى بألفاظ وصيغ أخرى. وعند بعض المُحاورين من البراعة في تزويق الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يُورد دليلاً. وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مُغاير، وهذا تحايل لإطالة النقاش من غير فائدة.

هـ- معرفة وجهة نظر المخالف وشبهاته ومسالك الرد عليها. ومن ذلك عدم الطعن في أدلة الخصم إلا ضمن الأمور المبنية على المنطق السليم والقواعد المعترف بها لدى الفريقين.

و- معرفة مجالات الحوار، وهي كل ما يقع فيه الخلاف وليس من الثوابت والمسلمات، لأن المُسَلَّمات والثوابت لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين كحُسْنِ الصدق، وقُبحِ الكذب، وشُكر المُحسن، ومعاقبة المُذنب. فالتسليم ابتداء بالقضايا التي تعد من المسلمات والمتفق على صحتها مما ينبغي أن يتوافر عليها المتحاورون.

ز- التخصص العلمي، فلا يصح أن يحاور في الأديان من يجهل أصولها وتاريخها والفرق التي تنتسب إلى كل ملة، وبالتخصص يتحقق التكافؤ العلمي وكثير من الحوار غير المنتج مردّه إلى عدم التكافؤ بين المتحاورين،

ح- ولقد قال الشـــافعي رحمه الله: "ما جادلت عالمًا إلا وغلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني! ". وهذا التهكم من الشـــافعي - رحمه الله - يشـــير إلى الجدال العقيم الذي يجري بين غير المتكافئين.

* **الأصل الثاني: (تحقق أهلية المحاور) ويقتضي ذلك:**

ط- اعتناق الحق والإيمان به، إذ من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على البـاطـل، ومن لا يعرف الحق، ومن لا يجيـد الـدفـاع عن الحق، ومن لا يجيـد مسالك الباطل.

ي- معرفـة أصـــول الحوار ومســـالكـه وغـايته وجملة آدابه فمن ذلك: إقامةُ الحجة، ودفعُ الشبهة والفاسد من القول والرأي. فهو تعاون من المُتناظرين على معرفة الحقيقة والتَّوصّل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسـير بطرق الاسـتدلال الصـحيح للوصـول إلى الحق. يقول الحافظ الذهبي: "إنما وضـعت المناظرة لكشـــف الحقِّ، وإفادةِ العالِم الأذكى العلمَ لمن دونه، وتنبيهِ الأغفلَ الأضعفَ".

ك- التخصـص العلمي: يقول شـيخ الأزهر: علم الدين شيء، وسـلوك المتدين شيء آخر فالمتدين أيا كان حر في أن يفهم أو يتصـــور ما يشـــاء ثم يرد إلى ربه، أما علوم الدين، فتلك علوم لها أصـولها وقواعدها التى ارتضـاها أهل الاختصـاص وبها قامت الأمم وبالخروج على نسـقها سقطت أجيال الأمة، وعلماء الدين لا يمثلون كهنوتا ولا يدعونه " إنما يحملون قواعد الدين ونظرياته ويصرون عليها إصرار الطبيب على قواعده، والمحاسـب على مبادئ علم المحاسـبة، والمهندس على نظريات الهندسة[١].

* **الأصل الثالث: التحلي بأخلاق الحوار ومنها:**

ل- الإخلاص لله تعالى، ويقتضي: قصد الحق، والبعد عن التعصب، ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة: (ما كلمت أحداً قطّ إلا أحببت أن يُوفّق ويُسدّد ويُعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه. وما ناظرني فبالَيْتُ! أَظَهَرَتِ الحجّةُ على لسانه أو لساني؟).

ومن الإخلاص: قبول الحق، وإلا أصبح الحوار عبثا، قال ابن عقيل: "وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقدره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق".

قال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً فقبل مني الحجّة إلا عظم في عيني، ولا ردَّها إلا سقط في عيني".

م- سماحة النفس: فلا ينبغي التدابر والتباغض إذا انتهى الحوار إلى إصرار كل على رأيه، ومقتضى الحكمة الأخذ بالقول الشهير (رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب).

ن- الحلم وسعة الصدر ويقتضي البعد عن السب أو الشتم أو التجريح أو الحقد أو السخرية من وجهة نظر الطرف الآخر.

س- كرم النفس: ويقتضي التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام: إن من أهم ما يتوجه إليه المُحاور في حواره، التزام الحُسنى في القول والمجادلة، ففي محكم التنزيل:{**وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[١]،{**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[٢]،{**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**}[٣]. فحق العاقل اللبيب طالب الحق، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز:

ع- {**وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**} {**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**}(١).

وقولـــه:{**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**}(٢). مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة.

ويلحق بهذا الأصل: تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث. على أن هناك بعض الحالات الاستثنائية التي يسوغ فيها اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر؛ وذلك فيما إذا اســتطال وتجاوز الحد، وطغى وظلم وعادى الحق، وكابر مكابرة بينة، وفي مثل هذا جاءت الآيـة الكريمـة:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـــنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}(٣).{**لاَ يُحِـبُّ اللَّـهُ الْجَهْرَ بِالسُّـــوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ**}(٤). في حالات الظلم والبغي والتجاوز، قد يُسمح بالهجوم الحادّ المركز على الخصم وإخراجه، وتسفيه رأيه؛ لأنه يمثل الباطل، وحَسَنٌ أن يرى الناس الباطل مهزوماً مدحوراً (٥)

ف- عدم الاعتداد بالنفس بل بالحق: قال الشـيخ صـالح بن حميد: (إن من الخطأ البيِن في هـذا البـاب أن تظن أنّ الحق لا يغار عليه إلا أنت، ولا يحبه إلا أنت، ولا يدافع عنه إلا أنت، ولا يتبناه إلا أنت، ولا يخلص لـه إلا أنت. ومن الجميل، وغاية النبل، والصـدق الصـادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص؛ أن تُوقِفَ الحوار إذا وجدْت نفسـك قد تغير مسـارها ودخلتْ في مسـارب اللجج والخصام، ومدخولات النوايا).

* * * * *

المطلب الرابع:

مجالات الحوار

يتفق العقلاء على أن ثوابت الدين، وأمّهات الفضائل، وأمّهات الرذائل، لا يتناولها الحوار. ففي الإسلام الإيمان بربوبية الله وعبوديّته، واتّصافه بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، ونبوة محمد ﷺ، والقرآن الكريم كلام الله، والحكم بما أنزل الله، وحجاب المرأة، وتعدد الزوجات، وحرمة الربا، والخمر، والزنا؛ كل هذه قضايا مقطوع بها لدى المسلمين، وإثباتها شرعاً أمر مفروغ منه. إذا كان الأمر كذلك فلا يجوز أن تكون هذه محل حوار أو نقاش مع مؤمن بالإسلام لأنها محسومة.

وقد يسوغ النقاش في فرعيات من الحجاب؛ كمسألة كشف الوجه، فهي محل اجتهاد؛ أما أصل الحجاب فليس كذلك. الربا محسوم؛ وقد يجري النقاش والحوار في بعض صوره وتفريعاته. ومن هنا فلا يمكن لمسلم أن يقف على مائدة حوار مع شيوعي أو ملحد في مثل هذه القضايا؛ لأن النقاش معه لا يبتدئ من هنا، لأن هذه القضايا ليست عنده مُسَلَّمة، ولكن يكون النقاش معه في أصل الديانة؛ في ربوبيّة الله، وعبوديّة ونبوّة محمد ﷺ، وصِدْق القرآن الكريم وإعجازه[1].

* * * * *

المطلب الخامس:

دعوة القرآن والسنة إلى الحوار

ليس أدل على ذلك من ورود مبادئ للصيغ البيانية في القرآن الكريم: ولا غرو فالقرآن الكريم كله بيان وهدى للناس، بل هو قمة البيان وذروة البلاغة، من ذلك:

ورود السياق القرآني الجليل مصدراً بصيغة الأمر (قُلْ) المشعرة بأن الداعية ينبغي أن يصدع بالحق وأن يتخذ من القول المبين والحجة البالغة منهاجا وغاية، كما في قوله تعالى في تقرير التوحيد:{**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ**

وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لاَ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌوَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[1].

وتأمل أيضا في تقرير التوحيد:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[2].

وأيضا في الرد على المشركين:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[3].

وأيضا في الرد على منكري النبوة:{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[4].

ونجد فعل الأمر: (قل) وردت (٣٤٣) مرة في القرآن الكريم من تأملها صنف مضامينها وتدبر مقول القول: وقف على منهاج متكامل في صيغ البيان

وطرائق الأداء ومسالك إقامة الحجة في إحقاق الحق ودحض الباطل، وهذا لون رفيع من بلاغة القرآن يتضمن التوجيه إلى ما ينبغي أن يكون عليه الداعية من قوة العارضة والتمرس على صيغ الخطاب.

وقد يأتي الأسلوب القرآني الجليل على شكل تعليم الحوار على غرار (إن قالوا كذا فقل كذا) وهي صورة من التدريب على القول ومثاله قوله تعالى:{ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا**}[1].

{**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**}[2].

صيغة يستفتونك ويأتي عقبها فعل الأمر (قُل) وقد ورد مرتين مرة في قوله تعالى:{ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا**} [3].

ومرة في قوله:{ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**}[4].

وأيضاً صيغة يسألونك ويأتي عقبها فعل الأمر (قُل) وقد وردت ١٥ مرة، منها:

قولـــــه تعالى{ يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْـبُـيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَـا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَـا وَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[١].

{يَسْـأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[٢].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّـهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَـدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٣]،{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [٤]

وهذا يتضـمن فيما يتضـمنه التوجيه بتعلّم صـيغ الجدال والحوار ومعرفة متى يتكلم الداعية وكيف وبماذا... مما هو من مؤهلات الدعاة ومقوماتهم الخطابية [٥].

المطلب السادس:

نماذج من الحوار من القرآن والسنة وسيَر الصحابة رضي الله عنهم

ومما ورد في القرآن الكريم من نماذج الحوار مما أمر به النبي ﷺ قول الله تعالى:

{ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُـنَا بَعْـضًـا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْـهَدُوا بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ * يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

* **هَـا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَـاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّـاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}**(١).

حوار موسى وفرعون:

{إِنَّـا قَـدْ أُوحِيَ إِلَيْنَـا أَنَّ الْعَـذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى * قَالَ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى}(٢).

ومن السنة النبوية عشرات الأمثلة يتبين من خلالها أنه ﷺ كان يربي أصحابه على الحوار حتى في أحلك الظروف وفي المواقف التي تستدعي أناةً وترويًا، ومثاله ما كان يوم الحديبية لما كتب الصلح ورأى بعض المسلمين فيها إجحافاً، وقع حوار بين بعضهم وبين النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله ﷺ فقلت:

- ألست نبي الله حقا؟
- قال: «**بلى**».
- قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟!
- قال: «**بلى**».
- قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذا؟!
- قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**».
- قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟!
- قال: «**بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام؟!**».

- قال: قلت لا.

- قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**».

- قال: فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟

- قال: بلى.

- قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

- قال: بلى.

- قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً؟

- قال: أيها الرجل، إنه لرسـول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاسـتمسـك بغرزه فوالله إنه على الحق.

- قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

- قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

- قلت: لا.

- قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري قال عمر فعملت لذلك أعمالا..) [1].

١- حوار بعض الصحابة حول جمع القرآن:

عن الزهري قال: أخبرني ابن السباق أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن يكتب الوحي قال: أرسـل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد اسـتحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يسـتحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن.

- قال أبو بكر قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

- فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر.

- قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه. فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن

- قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال [١].

٢- حوار ابن عباس للخوارج:

قال ابن عباس: لما اعتزلت الحرورية وكانوا على حدتهم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أخِّر الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم قال: إني أتخوفهم عليك قلت كلا إن شاء الله فلبست أحسن ما قدرت عليه من هذه اليمانية ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة.

فدخلت على قوم لم أر قوما أشد اجتهادا منهم أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجوهم معلنة من آثار السجود فدخلت فقالوا:

- مرحبا بك يا ابن عباس، لا تحدثوه.

- قال بعضهم لنحدثنه قال:

- قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به وأصحاب رسول الله ﷺ معه.

- قالوا: ننقم عليه ثلاثا.

- قلت: ما هن؟.

- قالوا: أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله تعالى: إن الحكم إلا لله.

- قلت: وماذا قالوا قاتل ولم يَسْب ولم يغنم لئن كانوا كفارا لقد حلت أموالهم وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم.

- قال: قلت: وماذا. قالوا: ومحى نفسه من أمير المؤمنين.

- قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟

- قالوا: نعم.

- قال: قلت أما قولكم إنه حكم الرجال في دين الله فإنه تعالى يقول:{**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**}، إلى قوله:{**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**} وقال في المرأة وزوجها:{**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا**} أنشدكم الله أفحكم الرجال في دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات البين أحق أَمَ في أرنب ثمنها ربع درهم.

- قالوا: اللهم في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم.

- قال: أخرجت من هذه؟.

- قالوا: نعم.

- وأما قولكم: إنه قتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ إن قلتم: نعم فقد كفرتم وإن زعمتم إنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله تبارك وتعالى يقول:{**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**} وأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم أخرجت من هذه؟.

- قالوا: اللهم نعم.

وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ،

فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسـول الله ما صـددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: «**والله إني لرســول الله وإن كذبتموني اكتب يا علي محمد بن عبد الله**».

رسول الله ﷺ كان أفضل من علي أخرجت من هذه؟!

- قالوا: اللهم نعم.

فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا[١].

* * * * *

الفصل الثاني: أنواع الاختلاف والجدل

المبحث الأول: أنواع الجدل

المطلب الأول:

الجدل الممدوح

وهو الجـدل الـذي يقصـــد بـه تأييد الحق أو إبطال الباطل أو أفضىـ إلى ذلك بطريق صـحيح. ومن هذا الجدل ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض على الكفاية. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "... والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلـك مما أوجبـه اللـه على المؤمنين فهـذا واجب على الكفاية منهم. وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم..."[٢]. وقال رحمه الله أيضــا: "... فأما المجادلة الشرـعية كالتي ذكرها الله تعالى عن الأنبياء عليهم السـلام وأمر بها في مثل قولـــه تعالى:{**قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**}[٣].

وقولــــه:{**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**}(١) وقولــــه:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**}(٢).

وقولـه:{**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}(٣) وأمثال ذلك فقد يكون واجبا أو مستحبا وما كان كذلك لم يكن مذموما في الشرع"(٤).

وذكر ابن القيم رحمه الله في "الهدي" ضمن فقه قصة وفد نجران: "ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم بل استحباب ذلك بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة...". أهـ (٥). وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في فوائد قصة أهل نجران: "وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب وقد تجب إذا تعينت مصلحته" (٦).

* * * * *

المطلب الثاني:

الجدل المذموم

وهو الجدل الذي يقصد به الباطل أو تأييده أو يفضي إليه أو كان القصد منه مجرد التعالي على الخصم والغلبة عليه فهذ ممنوع شرعا ويتأكد تحريمه إذا قلب الحق باطلا أو الباطل حقا. قال ابن تيمية رحمه الله: "والمذموم شرعا ما ذمه الله ورسوله كالجدل بالباطل والجدل بغير علم والجدل في الحق بعدما تبين..." (٧). ويدخل في هذا النوع دعوات التقارب ونظريات الخلط بين الأديان فإنَّها من الباطل الصرف؛ كما يدخل فيه كثير من الحوارات الحضارية المعقودة مع أهل الكتاب لما تفضي إليه من الباطل.

ومما يحسـن مراعاته في هذا المقام: التفريق بين مقام الدعوة ومقام دفع الصـائل وهل هما على حد سـواء أم لا؟ من استبان عنده الفرق بين المقامين لُمِسَ من كلامه نصرة الإسلام وعزتـه ولهذا فإنَّ الفرق جليّ بين من يرد وينافح على سـبيل الدعوة وبين من يرد على هيئة دفع الصائل!

إنَّ الرد على جاحد الحق الذي يقيم الحجج والشـبه على باطله لا ينبغي أن يكون من باب الدعوة بالحكمة أو الموعظة الحسنة بل يجب أن يكون من باب دفع ضرره عن المسلمين وصـياله عليهم فإذا صـال عسـكر الكفر على المسـلمين بالسـلاح المادي وجب أن يرد ذلك بالسـلاح المادي إنْ كان في المسـلمين طاقة وقدرة والقدرة بالسـيف ليسـت دائمة للمسـلمين بخلاف ما إذا صـال عسـكر الكفر بالحجج الباطلة فإنه يجب على أهل العلم والإيمان الدفاع عن الإسـلام بإقامة حججه الصـحيحة ودلائله الصريـحة وذلك أن الإسلام منصور أبدا في مقام الحجة والبرهان هذا هو الأصل.

ولا يغيظ الكفـار شيء كما يغيظهم إقـامـة حجـة الإسـلام وبيان براهينه والتدليل على أبـاطيـل الكفر وأحـابيلـه. يقول أبو محمـد ابن حزم - وهو كلام نفيس -: "وقـال تعـالى:{**وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَـالِحٌ**}. ولا غيظ أغيظ على الكفـار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصـادعة وقد تهزم العسـاكر الكبار والحجة الصحيحة لا تغلب أبدا فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمة وأفاضـل الصـحابة الذين لا نظير لهم إنما أسـلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد المسلمين. وأول ما أمر الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ أن يدعو لـه الناس بالحجة البالغة بلا قتال فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق اللـه تعـالى عليهم السـيف حينئـذ؛ وقـال تعالى:{**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**}. وقال تعـالى:{**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**}. ولا شـك في أن هذا إنما هو بالحجة لأن السيف مرة لنا ومرة علينا وليس كذلك

البرهان بل هو لنا أبدا ودامغ لقول مخالفينا ومزهق لـه أبدا. ورب قوة باليد قد دمغت بالباطل حقا كثيرا فأزهقته منها يوم الحرة ويوم قتل عثمان رضي الله عنه ويوم قتل الحسين وابن الزبير رضي الله عنهم... وقد قتل أنبياء كثير وما غلبت حجتهم قط...". أهـ [1].

وإذا تقرر ذلك فإنَّ المجادل عن الإسلام عليه أن يدرك أحوال من يجادل ويحاور في قبوله أورده للحق فإنْ أنزلهم منزلة واحدة فهناك يفقد الكلام معناه ويصبح الأمر مضطربا محيرا لمن قلَّتْ بصيرته في هذا الباب ويكون ذلك داعيا لفتنة بعض المسلمين ببعض. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "الإنسان لـه ثلاثة أحوال: **إما أن يعرف الحق ويعمل به. وإما أن يعرفه ولا يعمل به. وإما أن يجحده.**

فأفضلها: أن يعرف الحق ويعمل به.

والثاني: أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به.

والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه.

فصاحب الحال الأول: هو الذي يدعى بالحكمة فإنَّ الحكمة هي العلم بالحق والعمل به فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيَدْعون بالحكمة.

والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة.

فهاتان هما الطريقتان: الحكمة والموعظة. وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا فإنَّ النفس لها هوى تدعوها إلى خلاف الحق وإنْ عرفته؛ فالناسُ يحتاجون إلى الموعظة الحسنة والى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا.

وأما الجدلُ فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل؛ فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن. ولهذا قال:{**وَجَادِلْهُمْ**} فجعله فعلا مأمورا به مع قوله: ادعُهُمْ فأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن وقال في الجدال:{**بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} ولم يقل بـ الْحَسَنَةِ كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة

فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسـن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل فما دام الرجل قابلا للحكمة أو الموعظة الحسنة أولهما جميعا لم يحتج إلى المجادلة فإذا مانعَ جودل بالتي هي أحسن". انتهى [1].

* * * * *

المطلب الثالث:

أولا - أنواع الاختلاف وأسبابه

الاختلاف نوعان: اختلاف مذموم، واختلاف محمود:

١- الاختلاف المـذموم: وهو اختلاف تضـاد، ويرجع إلى أسـباب خلقية متعددة، ومن هذه الأسباب:

أ- الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

ب- سوء الظن والمسارعة إلى اتهام الآخرين بغير بينة.

ج- الحرص على الزعامة أو الصدارة أو المنصب.

د- اتباع الهوى وحب الدنيا.

هـ- التعصب لأقوال الأشخاص والمذاهب والطوائف.

و- العصبية لبلد أو إقليم أو حزب أو جماعة أو قائد.

ز- قلة العلم في صفوف كثير من المتصدرين.

ح- عدم التثبت في نقل الأخبار وسماعها.

وهذه الأسـباب وغيرها من الرذائل الأخلاقية والمهلكات هي التي ينشأ عنها اختلاف غير محمود وتفرق مذموم، وكل واحد من هذه الأسباب يطول شرحه، وسنأتي على ذكر الكثير من هذه الأسباب عند الكلام عن القواعد العلمية والأخلاقية في أدب الخلاف.

٢- الاختلاف المحمود: وهو اختلاف تنوع، وهو عبارة عن الآراء المتعددة التي تصب في مشرب واحد، ومن ذلك ما يعرف بالخلاف الصوري، والخلاف اللفظي، والخلاف الاعتباري. وهذه الاختلافات مردها إلى أسباب فكرية، واختلاف وجهات النظر، في بعض القضايا العلمية، كالخلاف في فروع الشريعة، وبعض مسائل العقيدة التي لا تمس الأصول القطعية.

وكذلك الاختلافات في بعض الأمور العملية، كالخلاف في بعض المواقف السياسية، ومناهج الإصلاح والتغيير، ويدخل في الخلافات الفكرية: اختلاف الرأي في تقويم بعض المعارف والعلوم مثل: علم الكلام والمنطق والفلسفة والتصوف. والاختلاف في تقويم الأحداث التاريخية وبعض الشخصيات التاريخية والعلمية.

وهذا الخلاف ليس فيه مذمة، وإنما الذم في عدم مراعاة آداب الخلاف العملية والأخلاقية التي سيأتي ذكرها في ثنايا هذا البحث.

وجود الخلاف في خير قرون الأمة:

لقد كان الخلاف موجوداً في عصر الأئمة المتبوعين الكبار: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وغيرهم. ولم يحاول أحد منهم أن يحمل الآخرين على رأيه أو يتهمهم في علمهم أو دينهم من أجل مخالفتهم.

بل كان الخلاف موجوداً في عصر شيوخ الأئمة وشيوخ شيوخهم من التابعين الكبار والصغار، بل كان الخلاف موجودا في عصر الصحابة نظراَ لاختلاف أفهامهم وتفسيرهم للنصوص.

بل إن الخلاف وجد في عهد النبي ﷺ، فأقره ولم ينكره، كما في قضية صلاة العصر في بني قريظة، وهي مشهورة، وفي غيرها من القضايا.

فأما طبيعة الدين:

فقد أراد الله أن يكون في أحكامه المنصوص عليه والمسكوت عنه، وأن يكون في المنصوص عليه: المحكمات والمتشابهات، والقطعيات والظنيات، والصريح والمؤول، لتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط، فيما يقبل الاجتهاد.

ولو شـاء الله لأنزل كتابه كله نصوصًا محكمة قطعية الدلالة، لا تختلف فيها الأفهام، ولا تتعدد التفسـيرات. ولكنه لم يفعل ذلك، لتتفق طبيعةالدين مع طبيعة اللغة، وطبيعة الناس وضروريات الزمن.

وأما طبيعة اللغة:

فإن نصـوص القرآن والسـنة، جاءت على وفق ما تقتضـيه اللغة في المفردات والتراكيب، ففيها اللفظ المشـترك الذي يحتمل أكثر من معنى، وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز، والعام والخاص، والمطلق والمقيد.

وأما طبيعة البشر:

فقد خلقهم الله مختلفين، فكل إنسان لـه شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وميوله الخاصـة، ومن العبث صـب الناس في قالب واحد، ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا أمر مخالف للفطرة التي فطر الله عليها الناس.

وأما طبيعة الكون والحياة:

فالكون الذي نعيش في جزء صـغير منه، خلقه الله - سـبحانه - مختلف الأنواع والصـور والألوان، وهذا الاختلاف ليس اختلاف تضارب وتناقض بل هو اختلاف تنوع.

وكـذلك طبيعة الحياة، فهي أيضـا تختلف وتتغير بحسـب مؤثرات متعددة، في المكان والزمان.

فالخلاف سـنة كونية اقتضـتها الحكمة الإلهية، قال الله عز وجل:{**وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**}[1]. وفي الأثر: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا"[2].

* **الاختلاف رحمة:** الاختلاف مع كونه ضرورة، هو كذلك رحمة بالأمة وتوسعة عليها.

ولهذا اجتهد الصـحابة واختلفوا في أمور جزئية كثيرة، ولم يضـيقوا ذرعا بذلك بل نجد الخليفة الراشـد عمر بن عبد العزيز يقول عن اختلاف الصحابة رضي الله عنهم: "ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة".

فهم باختلافهم أتاحوا لنا فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم، كما أنهم سنوا لنا سنة الاختلاف في القضايا الاجتهادية، وظلوا معها إخوة متحابين.

* **الاختلاف ثروة:** اختلاف الآراء الاجتهادية يثري الفقه، وينمو ويتسع، لأن كل رأي يستند إلى أدلة واعتبارات شرعية.

وبهذا التعدد والتنوع تتسع الثروة الفقهية التشريعية، وإن تعدد المذاهب الفقهية وكثرة الأقوال كنوز لا يقدر قدرها، وثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العلم والبحث، فقد يكون بعضها أكثر ملاءمة لزمان ومكان من غيره[١].

* **رد الاختلاف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ :** مصداقًا لقوله تعالى:{**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**}[٢]، شريطة أن نعود ونستنبط بالطرق التي استنبط بها علماؤنا السابقون، وليس بالأهواء أو بالاعتساف أي أن يكون الأمر مجمعًا عليه فلا نعود لمذهب دون مذهب بل يعرض الأمر على ثلة من العلماء حتى نحقق الأمور.

* **اتباع المنهج الوسط:** فالله - سبحانه وتعالى - يقول:{**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**}[٣]، ويقول:{**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا**}[٤]، ويقول سبحانه وتعالى:{**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**}[٥].

فالتشدد منهج ينبذه الإسلام فلا بد إذًا من رخصة وتيسير على الناس ومراعاة ظروفهم.

* **التفريق بين القطع والظن في الأدلة والتركيز على المحكمات لا المتشابهات:** فمن المعلوم أن النصوص بعضها ظني الثبوت وظني الدلالة، وبعضها ظني الثبوت قطعي الدلالة، وبعضها قطعي الثبوت ظني الدلالة، وبعضها قطعي الثبوت قطعي الدلالة. فقطعية الثبوت هي القرآن الكريم والسنة المتواترة، والأحاديث أحاديث الآحاد الصحيحة التي حفت بها قرائن وتلقتها الأمة بقبول حسن.

* **تجنب القطع في المسـائل الاجتهادية:** فالاجتهاد إذا كان وفقًا لأصـول الاجتهاد ومناهج الاستنباط في علم أصول الفقه يجب عدم الإنكار عليه، ولا ينكر مجتهد على مجتهد آخر، ولا ينكر مقلد على مقلد آخر وإلا أدى ذلك إلى فتنة.

* **إن من أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:** فلا بد لـه أن يطلع على خلافات العلماء وأدلة كل منهم حتى لا ينكر على النا س أمراَ هم متبعون فيه علماء أفاضـل فالاختلاف من ضروريات الحياة، وقد قال الله سبحانه وتعالى:{**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**}(١)، فالتعصب لمذهب واحد واعتقاد أن كل من خالفه مخطئ أمر يجرّ إلى فتن عظيمة.

* **تحديد المفاهيم والمصطلحات التي يدور حولها النقاش:** إذ يجب أن تكون واضحة جلية وهو ما يسميه العلماء تحرير موضع النزاع فكثير من النقاشات التي تقدم اليوم مردها إلى خلاف في اللفظ.

النظرة الشمولية: فلا بد من الجمع بين كل ما ورد فيما يخص المسألة الواحدة لتحريرها تحريراَ جليّا واضحًا. وأرى ألا ننساق وراء شيخ واحد نقدسه أو عالم واحد نعظمه ولا نلتفت إلى سـواه وإلا دخلنا في محظور قول الله تعالى:{**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**}(٢).

* **النظر في المقاصد واعتبار المآلات:** فمسألة المقاصد الإسلامية لها دور كبير في تيسير المعاملات وتسهيل العمل في هذا الزمن وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**» (٣).

أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح: فالإخلاص مقدم على غيره.

يقول الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» فكل الفضائل مردها إلى القلب.

---

* **الاهتمام بهموم المسلمين:** فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. إن مشكلاتنا اليوم كثيرة ومتعددة احتوت الظلم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والتفسخ والانحلال وهناك أمراض جديدة لم نكن نألفها، فلماذا لا نتفق على ما اتفقنا عليه وندع الخلافيات ونواجه الخطر الداهم اليوم خطر التمزق، وخطر التدهور.

* **التعاون في المتفق عليه:** إن مشكلة الأمة الإسلامية اليوم ليست في ترجيح أحد الرأيين أو الآراء في القضايا المختلف فيها بناءَ على اجتهاد أو تقليد. فالواقع أن الخطأ في هذه القضايا يدور بين الأجر والأجرين.

ولكن مشكلة الأمة حقا في تضييع الأمور المتفق عليها، مشكلة المسلمين ليست في الذي يؤول آيات الصفات وأحاديثها - وإن كان مذهب السلف أسلم وأرجح - بل في الذي ينكر الذات والصفات جميعًا.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يقول: استوى على العرش بمعنى (استولى) أو كناية عن عظمة سلطانه تعالى، بل فيمن يجحد العرش ورب العرش معا.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يجهر بالبسملة أو يخفضها أو لا يقرؤها في الصلاة، ولا فيمن يرسل يديه في الصلاة أو يقبضهما، ومن يرفع يديه عند الركوع أو الرفع منه أو لا يرفعهما، إلى آخر هذه المسائل الخلافية الكثيرة المعروفة.

إنما مشكلة المسلمين فيمن لا ينحني يومًا لله راكعًا، ولا يخفض جبهته لله ساجدًا، ولا يعرف المسجد ولا يعرفه المسجد.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يأخذ بأحد المذاهب المعتبرة في إثبات هلال رمضان أو شوال، بل فيمن يمر عليه رمضان كما مر عليه شعبان وكما يمر عليه شوال، لا يعرف صيامًا ولا قيامًا، بل يفطر عمدًا جهارًا ونهارًا، بلا خشية ولا حياء.

مشكلة المسلمين ليست في عدم تغطية الوجه بالنقاب، واليدين بالقفازين، كما هو رأي بعض العلماء، بل في تعري الرؤوس والنحور، والظهور، ولبس القصير الفاضح، والشفاف الوصاف، إلى آخر ما نعرف مما يندى له الجبين.

إن المشكلة حقًّا هي وهن العقيدة، وتعطيل الشريعة، وانهيار الأخلاق وإضاعة الصلوات، ومنع الزكوات، واتباع الشهوات، وشيوع الفاحشة وانتشار الرشوة وخراب الذمم، وسوء الإدارة، وترك الفرائض الأصلية وارتكاب المحرمات القطعية وموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

مشكلة الأمة المسلمة الحقيقية في إضاعة أركان الإسلام، ودعائم الإيمان، وقواعد الإحسان.

فالواجب على دعاة الإسلام أن ينبهوا على التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء، وأن يرفعوا شعار (التعاون فيما نتفق عليه) فإن هذا التعاون فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين وضرورة يحتمها الواقع.

المطلب الرابع:

الحكمة في الدعوة

الدعوة إلى الله هي طريق المرسلين. وقد لاقى أنبياء الله في ذلك ما لاقوا من العنت والصدود والإباء والاستكبار من لدن فئات كثيرة، وطبقات كبيرة من الملأ الذين استكبروا{**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}[1].

وفي هذه الكلمات سوف ينحصر الكلام على الحكمة بيانا لمعناها وإيضاحا لمدلولاتها..

ذلك أن الحكمة إذا اقترنت بالدعوة فإنها تقوي الأمل واليقين، وترتفع بالمدعوين إلى مستوى الشعور بالمسؤولية والتكليف، وإذا ما تأكد فيها هذا الشعور فسوف تتغير طباعهم وتعتدل مسالكهم ويصح توجيههم. فحق على الداعي إلى الله أن يعمل على إيقاظ هذا الشعور. هذا وسوف أعرض إلى تعريف كل من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ثم العوامل التي تحقق مفهوم الحكمة: من ضرورة معرفة طبائع الناس، وطبقات المدعوين، والنظر في الظروف الزمانية والمكانية، والأساليب القولية والعملية.

١- تعريف الحكمة:

الحكمـة: مـأخوذ من الحكمـة - بفتح الكـاف والميم - وهو ما يوضـــع للدابة كي يذللها راكبها فيمنع جماحها. ومنه اشتقت الحكمة قالوا: لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل[١].

والحكمة في حقيقتها: وضع الأشياء في مواضعها.

وهذا تعريف عام يشـمل الأقوال والأفعال وسـائر التصرفات، ولعلك أخي الفاضل تدرك أن الحكمة التي نرمي إلى بيانها في هذه المقالة هي الحكمة التي ينبغي أن يتصف بها القائم بـالـدعوة إلى اللـه، ومن أجـل هـذا فهي غالبا ما تكون قولا في علم وموعظة أو تصرـفا نحو الآخرين من أجل دفعهم إلى الخير أو صرفهم عن الشر.

وفي هـذا المفهوم يقول ابن زيـد: (كـل كلمـة وعظتـك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة).

وأدق من هـذا قول أبي جعفر محمـد بن يعقوب: (كـل صـــواب من القول ورث فعلا صحيحا فهو حكمة). وفي تعريفات الجرجاني: (كل كلام وافق الحق فهو حكمة).

وفي قولـه تعالى:{**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**}[٢].

ربطـت الآية الكريمة بين الحكمة والخير، ووجه هذا الارتباط أن الحكمة تشـــمل المعاني الصائبة من السداد في القول والفعل.

وبمعنى آخر: فـإن الحكمـة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، ومن شـــاء إيتاءه هذه الحكمة - أي خلقه مسـتعدا لذلك قابلا لـــه، من سلامة التفكير واعتدال القوى والطبائع - فيكون قابلا لفهم الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح لـــه، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة. ثم ييسر لـه أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من المعاندين العتاة، فإذا انضـم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسـبابه تيسـيرا، ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل لـه التيسير.

وحينئذ يتحقق لـه الخير الكثير في قولـه سبحانه:{**فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**}.

فالخير الكثير منجر إليه سـداد الرأي والهدى الإلهي، ومن تفاريع هذا الخير ما يتولد من قواعد الحكمة التي تعصـم من الوقوع في الغلط والضـلال بمقدار التوكل في فهمها واستحضار مهامها. لأنك إذا تتبعت ما يحل بالناس من المصائب تجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة والرأي الآفن، وبعكس ذلـك فـإن مـا يجتنيه الناس من المنافع والملائمات مجتلب من المعارف والعلم بالحقائق، ولو علم الناس الحق على وجهه لاجتنبوا مواقع البؤس والشقاء[١].

يتبين من مجموع ما سبق: أن الحكمة كلمة عامة تشمل الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصـاية بالخير، وإخبار بتجارب السـعادة والشـقاوة، وكليات جامعة لأصـول الآداب... فهي معرفة خالصـة من شـوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وتهذيبهم وتوجيههم إنها اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير [٢].

٢- الموعظة الحسنة:

يلحظ في التعريف السـابق للحكمة أن الموعظة الحسـنة والجدال بالتي هي أحسـن داخلان في مفهوم الحكمة.

ولكن يحسـن تخصـيصهما بمزيد تعريف وإيضاح لأن المقام مقام بسط لمفهوم الحكمة، وقد جاءا مخصوصين بالذكر في قولـه تعالى:{**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[٣].

وإذا كانا داخلين في معنى الحكمة بالمعنى السـابق فيكون عطفهما في الآية الكريمة من عطف الخاص على العام.

والأصل في الموعظة: أنها القول الذي يلين نفس المخاطب ليستعد لفعل الخير والاستجابة لـه.

والموعظة في معناها تدل على ما يجمع الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشـــارة ولهذا قال ابن عطية: (الموعظة الحسـنة: التخويف والترجئة والتلطف بالإنسـان بأن تجله وتنشـطه وتجعله بصورة من يقبل الفضائل)[١].

ويشـير الزمخشري إلى معنى لطيف في هذا حين يقول: (إن الموعظة الحسنة هي التي لا تخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم).

والخلاصة: أنها تذكير بالخير فيما يرق لـه القلب[٢].

وهذه إشـارة جميلة عرض لها أهل العلم في السر في وصـف الموعظة بالحسـنة ولم يرد ذلك في الحكمة فقد قالوا: قيدت الموعظة بالحسـنة ولم تقيد الحكمة لأن الحكمة هي تعليم لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابـه فلا تكون إلا في حـالـة حسـنـة فلا حـاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة.

أما الموعظة الحسـنة فلما كان المقصـود منها غالبا ردع نفس الموعظ عن أعمال سيئة أو عن توقع ذلك منه، كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ. ومن الوعظ الحســن إلانـة القول وترغيـب الموعوظ في الخير:{**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لـه قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**}[٣].

* * * * *

المطلب الخامس:

الجدال بالتي هي أحسن

الجدل في أصـــلـه: الاحتجاج لتصـــويب رأي ورد ما يخالفه. فهو حوار وتبادل في الأدلة ومناقشـتها. وهو حال أوسـع من الخصـام والمخاصمة على أن المخاصمة نوع جدل من حيث هي تراد في الكلام والحجج.

ومن أجل هذا قال الجرجاني في تعريفاته:

"**الجدل:** دفع المرء خصمه عن إفساد قولـه بحجة أو شبهة أو بقصد تصحيح كلامه، قال: وهو الخصومة في الحقيقة".

غير أن الـذي نعنيه هنا هو الجدال والمحاجة والحوار بما لا يرقى إلى الخصـــومة، إلا إذا اعتبرنا الجدال مع الظالمين خصومة؛ لأنه قد تجرد منه نعت الحسن، وإذا احتاج رجل الدعوة إلى الجدال فليكن بالتي هي أحسن.

وقريـب من التوجيه المذكور في الموعظة الحســـنة يقال هنا. ويكون حســـن الجدال في الالتزام بموضـــوعيته، وبعده عن الانفعال، والترفع عن المســـائل الصـغيرة في مقابل القضـــايا الكبرى، حفظـا للوقت وعزة للنفس وكمالا للمروءة، مع الحرص على الرفق واللين، والبعد عن الفظاظة والتعنيف، ويدخل في الجدل الحسن

كما يقول الطاهر بن عاشـــور[(١)]: رد تكذيب المعاندين بكلام غير صريح في إبطال قولهم من الكلام الموجه، مثل قولـــه تعالى:{**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**}[(٢)].

وقولـــه:{**وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**}[(٣)].

* * * * *

المبحث الثاني: معالم الحكمة في أساليب الدعوة وأخلاق الدعاة

المطلب الأول:

من معالم الحكمة في الدعوة

وبعد هذه التقدمة التي أظنكم استشعرتم من خلالها بعض معالم تشير إلى مواطن الحكمة ومسالكها عن طريق معرفة حقيقة الحكمة وأبرز الصفات في رجل الدعوة. أحب أن أبسط بعض البسط في معالم أراها حقيقة بذلك:

وسوف يكون هذا البسط من خلال التعرف على طبائع النفوس، وطبقات المدعوين، وتخير الأوقات، وانتهاز المناسبات. ثم النظر في طرائق الدعوة وأساليبها.. من إحسان في القول، والحرص على التلميح إذا أمكن الاستغناء به عن التصريح، والقصد إلى الستر والنصيحة، والبعد قدر الإمكان عن التشهير الذي قد ينقلب إلى فضيحة مع سلوك المداراة المشروعة، وإقالة العثرات ما أمكن، وإليك أخي الفاضل بسطا لبعض هذه المعالم:

* **المعلم الأول:** طبائع النفوس وطبقات المدعوين: الناس متباينون في طبائعهم، مختلفون في مدركاتهم، في العلم والذكاء، في الأمزجة والمشاعر، مختلفون في الميول والاتجاهات. مما يدعو رجل العلم والدعوة إلى تخير المدخل.. بل المداخل المناسبة لتلك النفوس المختلفة والعقول المتباينة.

نعم، إن فيهم الغضوب والهادئ، وفيهم المثقف والأمي، وفيهم الوجيه وغير الوجيه.

بل إن ثمة كلمة لعلي - رضي الله عنه - يصف فيها القلوب، كل القلوب بأنها وحشية فهو يقول: (القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه).

إنه يصورها رضي الله عنه وكأنها دواب متوحشة لا تعرف الألفة في طبعها ويبدو هذا والله أعلم في ميدان النصائح والتوجيهات. فهل رأيت من يرضى أن تنسبه إلى جهل أو عدم معرفة أو سوء في التصرف. إن الإنسان يعظم عليه أن ينسب إلى الجهل، ولذا تراه يغضب إذا نبه على الخطأ، ويجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة انكشاف جهله.

إنها في هذا الباب تنفر إذا قرب منها، بل لعلها بدافع الدفاع عن النفس تهجم وتؤذي، ومن كان صاحب حكمة وفطنة في ترويض الوحوش فهو المفلح بتوفيق الله في هداية الناس.

وصاحب الترويض الناجح هو الذي يحرص على تلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، وتقصد إلى شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم.. شيء من العناية - غير المتصنعة - باهتماماتهم وهمومهم. وسوف يصل إلى مصدر النبع الخير في نفوسهم، وحينئذ يمنحونه حبهم وثقتهم.

إن شيئا من سعة الصدر، والإحاطة بطبائع النفوس.. كفيل بتحقيق الخير في الناس بنتيجة لا يظنها الكثيرون، ينبني على ذلك ملاحظة استيعاب المدعو وسعة مداركه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فيوقعه إما في النفرة والشرود، وإما في التخبط الفكري والدخول في غياهب الفتن.

وفي ذلك يقول ابن مسعود - رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة). ويقول علي - رضي الله عنه -: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله).

* **المعلم الثاني:** تخير الأوقات وانتهاز المناسبات:

هذا معلم كبير ومؤثر من معالم الحكمة وتلمسها، يبلور ذلك كلمة جامعة لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : (إن للقلوب شهوةً وإقبالاً وفترةً وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها) وقد كان - رضي الله عنه - يذكرهم كل خميس، فقال رجل: لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: (أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا مخافة السآمة علينا) [1].

ولأمر ما، كان نزول كتاب ربنا منجما ومفرقا على المناسبات والأحداث والأزمنة والأمكنة.

وأنت خبير أن إقبال الناس في رمضان يختلف عنه غيره،

وقل مثل ذلك في المناســبات المختلفة، والأحداث المتجددة من وقائع الأفراح أو حلول المصــائب، فأخذ الناس بهذا ومراعاة تقلبات الد هر من حولهم يدرك به سراً عظيماً في التأثير والاستجابة.

وإن شئت مزيداً في هذا فانظر في الأوقات والأحوال التي يتأكد فيها استحباب الدعاء.. كأوقات السحر، ونزول الغيث، والتقاء الجيوش.

وإن رغبت في واقعة فانظر في حكمة يوسف عليه السلام حين استغل الفرصة مع الفتيين عند تعبير رؤياهما وظروف سجنهما فدعاهما إلى الله الواحد الأحد.

{يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[١].

يلتحق بذلك مراعاة الأعراف والتقاليد المرعية والطبائع في الحرف والصناعات. وقد يكون فيما أشار إليه أهل العلم رحمهم الله من تنوع معجزات أنبياء الله ومناسباتها مع ما يسود البيئات من علوم ومعارف كعصا موسى عليه السلام في بيئات السحرة، وإبراء عيسى عليه السلام في بيئات الطب، وكتاب محمد ﷺ في بلاغة العرب ما يشير إلى ما قصدناه.

* **المعلم الثالث:** مراعاة التدرج وترتيب الأولويات:

ما قيل في طبقات المدعوين، وطبائع النفوس، وملاحظة المناســبات.. يقابله نظر آخر في المدعو إليه فلا شك أن الحكمة تقتضي النظر في متدرجات أمور الدعوة، لأخذ الناس بالأول فالأول. فقضايا العقيدة وأصول الملة والديانة تأتي في المقام الأول. فهي إن لم تصح في العبد، فلن يجدي فيه الصنيع الحسن والعمل الطيب:**{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}**[٢].

ففي الدعوة كليات وجزئيات، وواجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات، وقضايا كبرى وصغرى.. كل يجب أن تعرف مواقعها وتوضع في مواضعها.

وأظن الأمر أوضح من أن يبسط القول فيه، وخذوا دليلا: منهاج مندوب الدعوة ومبعوثها إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقد رسم له الرسول ﷺ هذا المنهج حين قال له: «**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك.. فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك.. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم..**» [1].

* * * * *

المطلب الثاني:

معالم الحكمة في أساليب الدعوة

يقصد بالأساليب هنا: ما يتعاطاه رجل الدعوة من طرق وصيغ يتوصل من خلالها إلى إبلاغ الحق إلى الناس، وتبصيرهم بما ينفعهم ودفع ما يضرهم.

وهذه الأساليب في جملتها قولية كلامية، أو تعامل مباشر مع المدعوين في ترفق ولين، وغض عن الهفوات، وسلوك نهجي الترغيب والترهيب، والشدة واللين.

وهذا شيء من بسط لهذه الأساليب:

*** المعلم الأول: القول الحسن:**

إذا أحكم صاحب الدعوة قوله وسدد لفظه فقد أوتي من الحكمة باباً عظيماً. يقول الله عز وجل:{**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**}[1].

ويقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل. يقول الله تعالى:{**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**}. يقول عطاء: فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي!!

وأورد القرطبي في تفسيره على هذه الآية حديثاً عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا عائشة لا تكوني فحاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء**»[2].

ويعلق القرطبي رحمه الله فيقول: وهذا حض على مكارم الأخلاق فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا، ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر، والقريب والغريب من غير مداهنة. ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه.. إلخ [3].

والقول يكون حسنا وحكمة بقدر ما يعتني بأصول الكلام، ويبتعد عن فضوله.. يتحرك بنبضات القلب الحي، وهواجس النفس الصادقة.

ويحسـن الكلام حين يكون قصداً عدلاً ليس بالإيجاز المخل ولا الطويل الممل، وقد كانت خطبه عليه الصلاة والسـلام قصـداً كما في الحديث الصـحيح عند مسـلم من رواية جابر بن سـمرة رضي الله عنه. وتأملوا في هذا الحوار الهادئ، والقول الحسـن في الجدال الحسن: فهذا حصـين الخزاعي والد عمران كانت قريش تعظمه وتجله فطلبت منه أن يكلم محمداً ﷺ في آلهتها فقد كان محمد يذكرها ويسبها.

فجاء حصـين ومعه قريش حتى جلسـوا قريبا من باب النبي ﷺ ودخل حصـين فلما رآه النبي ﷺ قال: «**أوسـعوا للشـيخ**»، فقال حصـين: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أنك تشـتم آلهتنا. فقال: «**يا حصـين كم تعبد من آلهة؟**» قال سـبعا في الأرض، وواحدا في السـماء. فقال: «**فإذا أصابك الضر فمن تدعو؟**» قال: الذي في السماء. قال: «**فإذا هلك المال من تدعو؟**» قال: الذي في السـماء. قال: «**يستجيب لك وحده وتشرك معه؟ يا حصين أسلم تسلم**»، فأسلم فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه. فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ﷺ : «**شيعوه إلى منـزلـه**» [1].

عجبا! دخل كافرا ناقما منتقما.. فخرج مسـلما صادقا. ليت شعري كيف كان حال قريش مع صاحبها ووجيهها!!

ويدخل في ذلك: القول اللين الذي يستثير النوازع البشرية ووشائج القربى، وعبارات الحنو والشفقة، فإبراهيم عليه السلام ينادي أباه بكلمات شفوقة.

{يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّـيْطَانَ إِنَّ الشَّـيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِـيًّا * يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[2].

وكل نبي يقول لقومه: يا قوم تذكيرا بأواصر القربى ومواطن الحب والشفقة.

ومحمـد ﷺ يقول لقومه في كلمة رقيقة في دعوة رفيقة: «**إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم**»(١).

*** المعلم الثاني: التصريح والتعريض.**

ومن القول الحسن: الجنوح إلى التعريض والتلميح دون التصريح.

فـالتصر ــيح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، والتبجح بالمخالفة، ويهيج على الإصرار والعناد.

أما التعريض فيستميل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، والبصائر اللماحة.

قيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء أو يبلغه عنه، أيقوله لـــــه؟ قال: هذا تبكيت، ولكن تعرض.

وكل ذلك من أجل رفع الحرج عن النفوس، واســتثارة داعي الخير فيها. كيف والتعريض سنة محفوظة عن النبي ﷺ في مخاطبة أصحابه: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا**» (٢).

*** المعلم الثالث: النصيحة لا الفضيحة.**

أردت تخصـيص النصـيحة بالذكر هنا وإن كانت داخلة في كل ما سـبق.. بل النصـيحة مقصود أعظم في الدعوة. إن لم تكن هي الدعوة كلها.

ولكن المراد هنـا: الإشـــارة إلى آداب النصــيحـة كمظهر من مظاهر الحكمة في الدعوة، وبخاصـة إذا ما حاولنا البعد بالنصيحة عن أن تكون تشـهيرا وفضـيحة. ويوضح ذلك الحافظ ابن القيم - رحمه الله - حين يقول: (والنصــيحة إحســان إلى من تنصــحه بصــورة الرحمة والشفقة عليه والغيرة لـــه، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، مراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه...).

فهي دعوة إصلاح يجب أن يتمخض فيها الإخلاص لله، مع المحافظة على مشاعر المنصوح على نحو ما سبق في المعالم السابقة لئلا ينقلب النصح مخاصمةً وجدالاً وشراً ونزاعاً.

يؤكد جانب الدقة في هذا الأمر أن ذكر الإنسان بما يذكره هو على أصل التحريم. وقد قيل لبعض السلف: (أتحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا)

ولا يكاد يفرق بين النصيحة والتعيير إلا النية والباعث والحرص على الستر، وقد نهى النبي ﷺ السيد أن يثرب أمته - أي يلومها على ذنبها - فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يثرب**»... "[١].

يقول الفضيل: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير) وكانوا يقولون: (من أمر أخاه على رؤوس الملأ فقد عيره).

ذلك أن الناصح الصادق ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة، وإخراج أخيه من غوائلها.

وشتان بين من قصده النصيحة، ومن قصده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى.

وكما قالت أم الدرداء: **(من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه)**[٢].

* **المعلم الرابع: أدب التعامل.**

كان الكلام فيما سبق تنبيها على مواطن الحكمة في القول والمخاطبة وحسن المجادلة.

وفي هذه الفقرات إشارات إلى بعض ما ينبغي من أدب التعامل مع المدعوين، وبخاصة حينما يرى عليهم ما يستحق التنبيه، ويستوجب الملاحظة والتغيير.

وسوف ينتظم هذا الحديث صورا من اللين في التعامل، ثم المداراة وإقالة العثرات، ومواطن الترغيب والترهيب.

* **صورة من اللين في التعامل:**

النفوس مجبولة على حب من يحسن إليها ويتلقاها باللين ويبسط لها في المحيا.

والشـــدة قد تدفع إلى المكابرة والنفور والإصرار، فتأخذ النفس العزة بالإثم. على نحو ما سـبق بسطه، فالتعامل المؤثر ما كان دمثا يفتح القلوب ويشرح الصدور فمحمد ﷺ وأصحابه والمؤمنون رحماء بينهم.

يروى معاوية بن الحكم الســلمي - رضي الله عنه - قال: صــليت مع رســول الله ﷺ فعطس رجـل من القوم فقلـت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصـــارهم فقلت واثكل أماه، ما شــأنكم تنظرون؟ فجعلوا يضرــبون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يصــمتونني فلما رأيتهم يسكتونني لكني سكت. قال: فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي وأمي ما ضربني ولا سبني.

وفي رواية: فما رأيت معلما قط أرفق من رسـول الله ﷺ؛ قال: «**إن هذه الصــلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[1].

وفي مدلولها قصــة الأعرابي الذي بال في طائفة المســجد فقام الصــحابة لينهروه فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما فرغ دعاه عليه الصلاة والسلام قائلا لــه: «**إن المساجد لا تصلح لهذا إنما هي لذكر الله والصــلاة**». فولى الأعرابي وهو يقول: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا. فقال لـه النبي ﷺ وهو يضحك: «**لقد حجرت واسعا**»[2].

قال الحافظ معلقا على أمثال هذه الوقائع: والمراد من قرب إسـلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بـالتـدريج، لأن الشيــء إذا كـان في ابتـدائه ســهلا حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبا الازدياد بخلاف ضده، والله أعلم.

وفي هـذا يقول الإمام أحمد: (كان أصــحاب ابن مســعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلا رحمكم الله).

ودعي الحسن البصري - رحمه الله - إلى عرس فجيء بجام من فضة (أي قدح أو إناء) عليه خبيص أو طعام (والخبيص طعام من التمر والسمن) فتناوله فقلبه على رغيف فأصاب منه فقال رجل: هذا نهي في سكون.

ويروى أن الخليفة المأمون وعظه واعظ فأغلظ له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق. فقال تعالى:{**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لـه قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**}(1).

*** المعلم الخامس: المداراة.**

المداراة صورة من صور التعامل الدال على الحكمة، والموصل إلى المقصود مع حفظ ما للداعي والمدعو من كرامة ومروءة.

وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه فقال: المداراة مع الناس، ثم أورد حديث عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة**». فلما دخل ألان له الكلام. تقول عائشة: فقلت يا رسول الله: قلت ما قلت ثم ألنت له القول؟ فقال: «**أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه**» (2).

قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ، وذلك من أقوى أسباب الألفة. قال: وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق: أن المداهنة من الدهان: وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من كبر إنكار عليه.

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك. اهـ

إذا تقرر هذا المعنى فهو الذي قد عناه الحسن البصري - رحمه الله - بقوله: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي كل العقل.

ومن الطريف قول أبي يوسف - رحمه الله - في تعداد من تجب مداراتهم فعد منهم: القاضي المتأول والمريض والمرأة والعالم ليقتبس من علمه. وأكثر ما تجري المداراة في اتقاء الأشرار والمكاره.

وقد جاء في حكم لقمان: يا بني كذب من قال: إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار.

وسلوك المداراة مأذون فيه لأن الإنسان خلق للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا للانفرادية. والإنسان تعرض له عوارض نفسية وطبيعية من الحب والبغض والرضى والغضب والاستحسان والاستهجان، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال لاختل الاجتماع ولم يثبت التعارف ولانقبضت الأيدي عن التعاون، فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به عما يحدث تقاطعا أو يدعو إلى تخاذل، وهذه هي المداراة التي نعني.

إذن فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار.. إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرا من الكتمان وأرجح وأصلح.

ومن لطيف المنقول في سير المتقدمين المقتدى بهم ما جاء في وصية سحنون لابنه محمد: (... وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس) ويقول محمد بن أبي الفضل الهاشمي. قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبى نارا وأقدح وداً.

فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد. وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة، ولا يقطع العضو المركب في الجسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الطب عن علاجه إلا بالبتر.

فالمداراة يقصد بها جمع الناس على الرضا والتآلف في حدود ما ينبغي أن يكون. وهي لا تمنع قضاء بالعدل ولا تحجب نصيحة بالرفق، وينبغي أن يعلم أن لذكاء الرجل وحكمته مدخلا عريضا في فقه المداراة وحسن استخدامها وطريقة الإفادة منها.

وقد يكون للتنوع في طبقات الناس تنوع في مداراتهم، فمداراة المنحرف عن الحق لسوء فهم أو خطأ في ظن، أكبر من مداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك واقتضى الحال مداراته.

ومداراة من يرجى رشده وصلاحه أكبر من مداراة من شب متماديا في الانحراف ولؤم الطبع حتى يوشك أن ينقطع أملك في إصلاحه واستقامة أمره.

ومن كل ذلك تعرف أن المداراة مسلك كريم يتقنه الحكماء والأذكياء ولا يتعدى حدوده الفضلاء.

إذا رغبت في كلمة عن المداهنة لتميزها عن المداراة فلتعلم أن المداهنة إظهار الرضا عن الغلط من الظلم والفسق.. ومن قول باطل أو عمل ممنوع.

والمداهنة مسلك ذميم ينطوي تحت جناحيه الكذب، وخلف الوعد.

أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب، سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة. وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده.

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه، ويعجلون إلى قول ما يشتهي إن يقولوه.

قال الماوردي - رحمه الله: إن الإنسان وإن كان مأمورا بتآلف الأعداء، ومندوبا إلى مقاربتهم، فإنه لا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل، وجبلة لا تزول وإنما يستكفى بالتألف إظهارها، ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفاد به إنضاجها، وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير

وقد قال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره :::: وامزح لـه إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها :::: تعطي النضاج وطبعها الإحراق

ومن كل ما تقدم يتبين واجب المصلحين من الدعاة والعلماء والمربين في هذا الباب. فواجب العناية بمحاربة المداهنة حتى تنفى من الأرض وتكون الأوطان ودور التربية منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة، فيخاطبون الناس في رقة وأدب وشجاعة، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق الكاذب، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لحديث المصارحة (١).

*** المعلم السادس: إقالة العثرات والغض عن الأخطاء.**

وأسلوب المداراة المتقرر في الفقرة السابقة يقود إلى غض الطرف عن أخطاء المقصرين ما دام طريقا لاستصلاحهم، وإقالة عثرات العاثرين إذا كانوا كراما ذوي هيئات أو كان ذلك سبيلا إلى دفنها وتقليلها.

وإن شئتم برهانا قريبا فاستذكروا قصة حاطب بن أبي بلتعة.. تلك الواقعة الصحيحة فهي صورة حية من صور الضعف البشري في لحظة من لحظات الزمن مع أنه الصحابي البدري، ولكبر الزلة قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، ولكن النبي ﷺ حين سأل حاطبا وأجابه. فقال عليه الصلاة والسلام: «**لقد صدق ولا تقولوا إلا خيرا. أما علمت يا عمر أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٢).

إن إقالة العثرة ليست إقرارا للباطل ولكنها إنقاذ للواقع فيه.

حكي أن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إلي في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف لـه في المعاتبة وأدعو لـه بالعودة إلى ما كان عليه.

حق لمن غلط أو ذل أن يسمع كلمة حانية، وأن يستضيء بشمعة أمل من أجل أن يرجع إلى الجادة، ويسير مع الأخيار من الصحاب.

يمر أبو الدرداء - رضي الله عنه - على رجل قد أصاب ذنبا، والناس يسبونه، فأنكر عليهم صنيعهم. فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي.

* **المعلم السابع: الترغيب والترهيب ومواقف الشدة.**

كل ما تقدم من التأكيد على مسالك اللين والرفق والمداراة، والغض عن الهفوات، وإقالة العثرات، ليس معارضا لما هو معروف ومتقرر في مسالك الشرع من ضرورة سير الدعاة والمربين بين حالي الرغبة والرهبة، والرخاء والشدة. لكن المقدم في التعامل هو الترغيب والرفق كما قال الإمام أحمد: (والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى، فيجب نهيه. لأنه يقال. ليس لفاسق حرمة، فالمعلن المصر لا حرمة له).

وطريق أنبياء الله - عليهم السلام - المذكورين في القرآن مسلوك فيه النجدين:{**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ**} إلى قوله:{**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**}[1].

وقال عن محمد ﷺ:{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**}{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**} [2].

ترغيب فيما وعد الله من حسن الجزاء في الدنيا، وحسن العافية في الآخرة:{**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**}[3].

وترهيب من وعيد الله وغيرته على حرماته، والخوف من أليم عقابه عاجلا وآجلا:**{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}**(١).

وبعد: فلعله بملاحظة هذه المعالم وأمثالها يتحقق الخير وترشد المسالك وتؤتي الحكمة خيرهاوالنفوس تملك قدراً كبيراً من التأهيل في قبول ما عند الدعاة، وهي تحب سماع كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وتستفيد من المواعظ، وهي قريبة من الخير مستعدة له فليفقه هذه السنن الدعاة إلى الله، وليحملوا الناس على توجيهات الشرع لا على جلبة الشارع وغوغاء العامة، وليتجنبوا المزالق والمنعطفات الخطيرة التي يتعمد أعداء الملة من الكفار والمنافقين وضعها في الطريق.

* * * * *

المطلب الثالث:

أخلاق الدعاة

كان من صحيح دعائه ﷺ: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**» (٢).

«**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**» (٣).

«**اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي**»(٤).

«**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم والقسوة، والغفلة والعيلة، والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسق والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسيئ الأسقام**» (٥).

١- **لأتمم مكارم الأخلاق:** تتبوأ الأخلاق في الإسلام موقعا من أعظم المواقع، حتى لقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**».

وفي لفظ: «**مكارم الأخلاق**»[١].

فكأنه ﷺ حصر المهمة التي بعث لها في هذا الأمر.. ولا غرابة! فإن نحن فهمنا "الأخلاق " على أنها تعامل العبد مع الله ومع الناس، فالأمر واضح، وهذا هو الدين كله، كيف تتعامل مع الخالق؟ كيف تعبده وتوحده وتتجنب ما يسخطه؟ وكيف تتعامل مع المخلوق؟ ويدخل في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأقربون ممن لهم حقوق الحب والود، كما يدخل فيه الصنف الآخر من الشياطين والكفار والفساق والمنافقين ممن يبغضهم الإنسان في ذات الله كالكفار، أو يبغضهم من جانب واحد كالفساق الذين يكون فيهم أصل الإيمان بالله ورسله. أما إن فهمنا " الأخلاق " بمعنى أخص، وأنها التعامل مع الناس فحسب، فالحديث إذن محمول على بيان عظم فضل الأخلاق، وعلو مكانتها في الدين، فهو كحديث: «**الحج عرفة**»[٢]، وحديث: «**الدين النصيحة**»[٣].

إذ ليس المقصود حصر الحج في عرفة، ولا حصر الدين كله في النصيحة إنما المقصود أن الوقوف بعرفة أعظم أركان الحج، وأن للنصيحة مرتبة عالية في الدين. فلا إشكال في الحديث على المعنيين، وكلاهما له دلالة قوية على عظم شأن الخلق في الإسلام.

٢- **مسلم.. وداعية:** من هذا المنطلق وجب على المسلم التحلي والتجمل بالخلق الحسن، سواء كان داعية أم غير داعية، إذ الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية التي أكرم الله بها الإنسان في الأرض كلها، وخص المؤمنين

بخصيصة منها ليست لسواهم، حيث هداهم بها إلى الصراط المستقيم، وزكى نفوسهم، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون:{ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**}[1].

والتزكية المذكورة في الآية الكريمة تشمل تزكية النفس وتربيتها على معالي الأخلاق، وتنقيتها من رديئها.. ففي الآية هذه كما في الحديث السابق تبدو الأخلاق مقصدا من مقاصد البعثة المحمدية، بل من أبرز مقاصدها. وإذا كان التحلي بالخلق الفاضل واجبا على آحاد المسلمين... فما بالك بالداعية الذي يحمل راية الدعوة وشعارها... وينادي بها بين الناس؟

إن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله ولذلك فتخلقه بالخلق الكريم أوجب وألزم، قياما بحق ما جعل الله على كاهله من الأعباء الجسام... كما قال الشاعر:

شكراً لفضلك إذ حملت كاهلنا ::: مما وثقت بنا ما كان من نوب!

وحماية للدعوة وأهلها من ألسنة المغرضين، وأقلام الخصوم الشانئين، وأوهام الغفل والمتعجلين!

* * * * *

المطلب الرابع:

فضائل لابد للداعية التحلى بها

أ - الصدق في حمل الدين:

بأن يكون تدين المرء تدينا صـحيحاً مبنيّا على الصـدق مع الله عز وجل، لا على النفاق والكـذب والمجـاملـة، ولـذلك يطلق الصـدق في القرآن الكريم في مقابل النفاق:{**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**}[1].

فلا بد من الإسـلام الظاهر مع الإيمان الباطن، لا بد من حسن الاعتقاد بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

فالهدي الظاهر لا بد أن يكون متوافقا مع الهدي الباطن.

وهنا كمين من كمائن الشـيطان يوحي للداعية بترك بعض الأعمال الصـالحة الظاهرة بحجة أن باطنه ليس كذلك.. فلا تفعل لئلا ينخدع الناس بك!

وهذا خطأ كبير.

بل العمل الصالح الذي تزاولـه بجوارحك هو من أسباب صلاح قلبك وصدقه، ما دمت لم تعمله رياء ولا سمعة ولا على سبيل خداع المؤمنين.

ب - الصدق في الأقوال:

والصدق في القول تعبير عن شخصية واضحة، ومروءة وشهامة وكرم، ولا يلجأ للكذب إلا لئيم الطبع، خبيث النفس، ضعيف الشخصية، والفطرة السليمة تستعيب الكذب وتستقبحه، ولذلك أجمعت الديانات السماوية على تحريمه وتجريمه.

فما بالك بالداعية.. أتراه يتصور صدور الكذب منه؟!

أعتقد - إن شاء الله - أن: لا. ولكن:

من الدعاة من يتوسـع في " التورية " بأن يقول كلاما يفهمه الناس على خلاف ما يقصـد، وقد يكتشفون بعد أن الواقع على خلاف

ما فهموا منه فيتهمونه بالكذب.. ثم إن التوســع في التورية قد يؤدي إلى التســامح في بعض " الكذيبات " بحجة أنها للمصلحة!! فالحذر الحذر!

أيها الداعية: حين يلجؤك الموقف إلى الكذب فلا تقدم عليه، وتذكر كلمة " أبي ســفيان" أمام هرقل حين سأله عن رسول الله ﷺ، فقال: «**والله لولا أن يؤثروا عني كذبا لكذبت!**»[1].

لقد تجنب هذا الرجل - وكان جاهليّا - أن يكذب خشـية أن ينقلوها عنه، أو يعيروه بها يوما من الدهر، مع شدة حاجته إليها.

ونحن نعلم أن أعراض الدعاة اليوم أصـبحت هدفا لسهام كثيرة، ولذا يتعين على الداعية أن يغلق الباب الذي تأتيه منه الريح، ليريح ويستريح!

جـ - الصدق في الأعمال:

وهو يعني أن تكون أعمال الإنســان خالصـة لوجه الله تعالى من الرياء والسـمعة،{**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**}[2] وقال:{**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**}[3].

قال الفضيل بن عياض: أيكم أحسن عملا، أي: أخلصه وأصوبه.

قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً!

ومن الصدق في الأعمال: الوضوح وتجنب الغموض والتلبيس.

روى أبو داود والنسـائي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بعبد الله بن سعد بن أبي السرح وقد أهدر رسول الله ﷺ دمه، حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله! بايع عبد الله.

فرفع رسول الله ﷺ رأسه فنظر إليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟!**».

فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين!!**» (١).

إلى هذا الحد كان مدى " الصدق " في أعمال النبي ﷺ، لم يرض أن يقتل عدوه اللدود الذي كان أهدر دمه بطريقة غامضة عن طريق الإيماء بطرف العين!! وكان هذا دأبه وديدنه طيلة حياته ﷺ، ولذلك لم يستطع المشركون في بداية الدعوة أن يتهموه بالكذب، بل قالوا: شاعر.. ساحر.. مجنون.. ولم يصدقهم الناس، وعندما فقدوا صوابهم وأعيتهم الحيل صرخوا: كذاب.. ولكن هيهات أن يصدقهم الناس!

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**» (٢).

لقد سرى صدق رسول الله ﷺ، من القلب إلى اللسان.. إلى الجوارح وتجلى على محيا وجهه الكريم.. فكل من نظر إلى طلعته وإشراقها وصفائها قرأ فيها الصدق وعرف أن وجهه ليس بوجه كذاب!

نحن نحتاج إلى نمط من الدعاة آثروا الصدق في أقوالهم وأفعالهم حتى أصبح الصدق سجية تجري في عروقهم، وتطل من طلعات وجوههم، فإذا رآهم الناس قالوا: هذه ليست بوجوه كذابين!

كما نحن بحاجة إلى دعاة يتجملون بالخلق الكريم، ويتأبون على الإثارة الاستفزاز فيحتفظون بهدوئهم واعتدال منطقهم في سائر الأحوال حتى إذا أبصر الناس منهم هذا هتفوا: هذه أخلاق أنبياء!

إن صدقنا في حمل دعوتنا هو الذي يجعل الناس يتقبلون ديننا، وليس يليق بنا أن نكون كالممثل على المسرح، يظهر للناس بهيئة خلاف حقيقته، فمثل هذا سرعان ما ينكشف أمره، ويعرض الناس عنه نقل عن بعض السلف أنه كان إذا وعظ أبكى الناس، حتى تختلط الأصوات ويعلو النحيب، وقد يتكلم في المجلس من هو أغزر منه علما، وأجود منه عبارة، فلا تتحرك القلوب ولا يبكي أحد!

فسأله ابنه يوما عن هذا، فقال: يا بني لا تستوي النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة!

إذن فالوسيلة الأولى لنجاح الداعية هي: صدقه في حمل دعوته، وجديته في ذلك، وأن يكون الصدق في الأقوال والأعمال منهجه وشعاره. ليس المهم هو الكلمات المنمقة المعسولة - وإن كانت مطلوبة - إنما الأهم من ذلك الصدق، وأن يكون منسجما مع نفسه، وأن يكون حديثه عن معاناة، وقديما قيل:

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان [(١)]!!

ثانيا: الصبر:

الصبر قرين اليقين{**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}[(٢)]
ولذلك قال سفيان: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والذي لا يصبر فإنه من السهل أن ينخلع عن دينه لأي شيء يعترض طريقه، ومن السهل أن يتخلى عن منهجه وحكمته لأي استفزاز، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ:{**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ**}[1].

وقال:{**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً**}[2].

كثيرا ما يقف الضالون في وجه الدعاة إلى الله عز وجل، يقولون لهم: إن ما تدعون إليه ضرب من الخيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع، أنتم تدعون إلى أمور عفا عليها الزمن، ونسيها الناس أو كادوا، فينبغي أن ترضوا بما دون ذلك، وأن تراجعوا آراءكم واجتهاداتكم!!

وأمام ضغوط الواقع القائم، وأمام العقبات الحقيقية والوهمية في وجه تحقيق الإسلام، وأمام طول الطريق.. قد يستجيب بعض الدعاة ويتأثر، ويبدأ في إعادة النظر في فهمه للإسلام، وفيما يقوله الخصوم!

ويا ليته إذ يفعل ذلك يفعله بروح الباحث المتجرد الشجاع المتطلع إلى الحق أين كان.. إذن لهان الخطب!

لكنه يفعله بروح " المنهزم " الذي يحس بأنه خرج من المعركة أسيرا أو كسيرا.. فهو يبحث في " عروض " القوم عن " حل " يجنبه المعركة مع الباطل.. مع الواقع المنحرف.. وهذا مثل: الربا الذي انتشر وضرب أطنابه، ومد رواقه، وقامت عليه اقتصاديات العالم كله - بما فيه العالم الإسلامي - وكاد أن يدخل جيب كل أحد حتى تحققت فيه نبوءة النبي ﷺ، حين قال: «يأتي على الناس زمان من لم يأكل الربا أصابه من غباره» [3].

وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف، إلا أنه يشهد لصحة معناه قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أكل، أمن الحلال أم من الحرام**» [4].

هذا الحرام المستقر في نفوس الكثيرين وجيوبهم ومؤسساتهم وأموالهم، بدلاً من أن يسعى الداعية لنهي الناس عنه، والبحث عن البدائل الشرعية الصحيحة لتنمية أموال الناس واستثمارها، ولإقامة بناء الاقتصاد الإسلامي السليم.. يأتيه الذين لا يوقنون فيحاولون أن يستخفّوه ليعيد النظر في صور من صور الربا الصريح.. وأن لها مخرجا فقهياً ولو ضعيفاً أو شاذاً! وهكذا يصبح " واقع الناس " في فترة من الزمان محدودة مرجعا لتعديل بعض الأحكام الشرعية المستقرة عبر القرون! إنه فقدان الصبر في نفوس بعض الدعاة، ومع فقدانه فقدان الأمل!

أعلل النفس بالآمال أرقبها ::: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

ويا ليت الداعية ينصت لذلك الناصح الذي قال للخليل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه ::: وجاوزه إلى ما تستطيع

أنت لست مطالبا بتحقيق نصر واقع للإسلام، فهذا أمره إلى الله متى شاء أن يحدث حدث، لكنك مطالب ببذل جهدك في هذا السبيل فحسب! والرسل والأنبياء كانوا يخاطبون بذلك:{**إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ**}(١). وكانوا يقولون:{**وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**}(٢).

وقد يأتي أحدهم إلى بعض الدعاة ويقول له: أنت تعمل أعمالاً جبارة، وتواصل كلال الليل بكلال النهار، لكن النتيجة في النهاية قليلة، فالناس ينفضون من حولك، وأنت ترى وسائل الهدم والتخريب قد استحوذت على الكثير منهم.. وأصبحت تفسد في ساعة ما يبنيه الداعية في سنة!

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ::: إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وهذا المنطق قد يؤثر على كثير ممن لم يعتادوا على عقبات الطريق. وهنا يأتي دور "الصبر " الصبر الجميل.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟

فقعد ﷺ، وهو محمرّ وجهه، وقال: «**لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط من حديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.. ولكنكم تستعجلون!**»(١).

فالعجلة في قطف ثمار الدعوة ونتائجها لا تتناسب مع الصبر الذي يجب أن يتحلى به الداعية.

قد يكون الداعية في موقع من المواقع (بلد، مدرسة، مؤسسة..) يجاهد في رد المنكرات ونشر الدعوة، ويحدث على يديه خيرٌ كثيرٌ لكنه لا يحس به لأنه يجيء بصورة تدريجية.. كما لا يحس الأب بنمو طفله الذي يراه صباح مساء! لأنه يكبر شيئا فشيئا!

وكم من داعية تخلى عن موقع من المواقع ظاناً أنه ليس له أثر، فلما تخلى بان فقده وظهرت مكانته، فكان كما قيل:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم :::: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وكان كالكسعي(٢)، الذي يصنع السهام ويرمي بها في الليل، ويظن أنها لم تصب ما أراد.. فكسر القوس، فلما أصبح رأى أنها قد أصابت فندم على كسرها.. وصار يضرب به المثل في الندم، حتى قال الفرزدق حين طلق زوجته:

ندمت ندامة الكسعي لما :::: غدت مني مطلقة نوار(٣)!

فعلى الداعية ألا يستعجل النتائج والثمرات، بل يسعى ويعتمد على الله تعالى، ويدرك أنه بمنطق التجربة المقطوع بها من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية،

إن أي جهد صحيح يبذل في الأمة يكون لـــه ثمرة، إذ لم يقع في هذه الأمة أن أحداً دعا فلم يستجب لـه، أو نصح فلم ينتصح بأمره ونهيه أحد، أو عالماً جلس للتعليم فلم يقعد إليه أحد، إلا أن يؤتى من قبل نفسه، بل كل داعٍ يجد من يستجيب لـــه، إذ لم تصل الأمور إلى ما أخبر به النبي ﷺ، من الشح المطاع والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، لم يحدث هذا على مســـتوى الأمة كلها قط، قد يقع في فرد أو أفراد أو جهة، لكن الأمة فيها خير كثير، ولا يزال عند الناس استجابة وقبول للدعوة، وإصغاء لصوت الناصح، إذا تكلم بعلم وحكمة.

بل إننا نجد في الأمم الكافرة اليوم في أمريكا وأوروبا وغيرها أن من يحملون لواء الدعوة إلى الله يجدون من يســتجيب لهم من الكفار، وفي مراكز كثيرة كانوا يذكرون لنا إحصــائيات الذين يسلمون أسبوعيا فكانت بالعشرات من الرجال والنساء.

وهذه الحقيقة التاريخية الواقعية، التي تثبت أن كل جهد لـــه ثمرة هي أيضــا حقيقة شرعية:{**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّــالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَــعْيِهِ وَإِنَّا لَـــه كَاتِبُونَ**}[1]. وقال:{**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**}[2].

«من دعـا إلى هـدى كـان لـــه من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[3].

«من ســن في الإســلام ســنة حســنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة»[4].

فكل عمل لـه جزاء، وكل داعٍ لـه أتباع.

ثالثا: التواضع:

وهو معرفة المرء قدر نفســـه، وتجنب الكبر الذي هو بطر الحقّ وغمط الناس. كما قال ﷺ، فيما رواه مسلم وغيره[1].

والتواضع في الأصل إنما هو للكبير الذي يخشى عليه أن يكبر في عين نفسه، فيقال لـه:

تـواضــع تكن كـالنجم لاح لنـاظر ::: عـلى صــفـحـات المـاء وهـو رفيع

أما الإنسان العادي فلا يقال لـه: تواضع، وإنما يقال لـه: اعرف قدر نفسك، ولا تضعها في غير موضعها!

روى الخطابي في العزلة أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك، قدم خراســان فقصــد رجلاً مشــهورا بـالزهـد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه ولم يأبه به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك، فقال لـه بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا. قال: هذا أمير المؤمنين في الحـديـث.. هـذا.. هـذا.. هـذا.. عبـد اللـه بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلى عبد الله بن المبارك مسرعا يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال: يا أبا عبد الرحمن اعذرني وعظني!

قال ابن المبارك: نعم.. إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرــك على أحد إلا رأيت أنه خير منك!

وذلك أنه رآه معجبا بنفسه، ثم سأل عنه ابن المبارك فإذا هو حائك [2]!!

لقـد لمح الإمام المربي أن في هذا المتزهد نوعا من الكبرياء والغطرســة والاســتعلاء على الناس.. وهو داء يسرع إلى المتزهدين أحيانا.. فزوده بهذه النصيحة التي تلائم حاله.

وكم نجد من بعض الصـالحين، وربما الدعاة أحيانا، بل ومن صـغار الطلبة من يسـيؤون الأدب مع شيوخهم وعلمائهم وأساتذتهم. وإنه لأمر يحز في النفس ويؤلمها!

لا حرج أن تختلف مع عالم أو داعية في رأي أو اجتهاد متى كنت أهلا لذلك.. لكن الحرج كـل الحرج أن يتحول هـذا الاختلاف إلى معول هـدم لمكـانـة هـذا العـالم، والحط من قـدره، والإزراء عليه، وسوء الأدب معه.

وإن جاز أن يقع هذا من الدهماء من العامة، أومن أهل البدعة والضـلالة فإنه لا يجوز بحال أن يقع من أهل السنة ومن طلاب علم الشريعة:

قد رشــحوك لأمر لو فطنت لـــــه :::: فـاربـأ بنفســك أن ترعى مع الهمـل

إن علماء أهـل السـنـة والجماعة خاصـة مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على علية القوم..

وإذا خذلهم أقرب الناس إليهم فلا ينتظر منهم ذلك، فواحدهم كفارس شـجاع ما خلفه إلا نساء!

ولـو أن قـومـي أنـطـقتني رمـاحهم :::: نـطـقـت ولـكـن الـرمـاح أجـرت

ولو أن أهل السنة حموا أعراض علمائهم، وعرفوا لهم قدرهم، والتفوا حولهم لأمكن لهم أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الصـحيح، لكن لما خذل العالم من وراءه لم يستطع أن يقول شيئا.

وكم هو مؤسـف أن بعض أهل البدع على النقيض من ذلك، بل تصـل الحال بهم إلى أن يمنحوا شـيوخهم ومواليهم وسادتهم نوعا من القداسة، ويسيرون خلفهم بشكل مرفوض.. هو في الحقيقة نوع من العبودية وذوبان التابع في المتبوع.

وهذا ديدن الفرق الباطنية عبر العصـور حيث تربي أفرادها على منح قدر من "العصمة" لزعمائها وأئمتها.

وحتى المعتزلة الذين يتعاطون بضاعة " العقل "، ولا يكاد يوجد عندهم للعواطف مكان.. يقول أحد شعرائهم في شيخهم واصل بن عطاء[1]:

لـه خلف بحر الصين في كل بلدة :::: إلى سوسة الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم :::: تهكم جبارولا كيد ماكر
إذا قال مروا في الشتاء تسارعوا :::: وإن جاء حر لم يخف شهر ناجر
هم أهل دين الله في كل بلدة :::: وأرباب فتياها وعلم التشاجر

وأهل السنة أولى بأن يقدروا ويوقروا علماءهم ولا خير في أمة لا يوقر صغيرها كبيرها، ولا يرحم كبيرها صغيرها.

ومن التواضع، بل من معرفة قدر النفس: ألا ينظر الشاب المبتدئ إلى نفسه على أنه ند لهذا العالم أو ذاك، ويقول: هم رجال.. ونحن رجال!!

والحال أن الرجولة تختلف.. فإن صفة الرجولة في القرآن الكريم سيقت مساق المدح في مواضع عدة:{**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**}[2]{**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**}[3] وقد يعبر بالرجولة عن الفحولة والذكورية فحسب، في مواضع أخرى:{**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ**}[4] فالرجال ليسوا سواء، وأين الثرى من الثريا؟!

ولربما رأيت طويلب علم لا يحفظ من القرآن إلا اليسير، ولا يكاد يحفظ حديثا من لبخاري أو مسلم بحروفه، فضلا عن سنده ومعناه.. ومع هذا قد يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي! وهجيراه أن يقول: أرى، وأنا، وقلت، وعندي!

يقولون هذا عندنا غير جائز ::: ومن أنتم حتى يكون لكم عند؟!

ومن التواضع: أن يتواضع المرء مع أقرانه، وكثيرا ما تثور بين الأقران والأنداد روح المنافسة والتحاسد، وربما استعلى الإنسان على قرينه، وربما فرح بالنيل منه، والحط من قدره وشأنه، وعيبه بما ليس فيه، أو تضخيم ما فيه، وقد يظهر ذلك بمظهر النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات، ولو سمى الأمور بأسمائها الحقيقية لقال: الغيرة.

والعجب أن يغار الداعية من اجتماع ألف أو ألفين في مجلس علم أو دعوة لكنه لا ينفعل لو سمع أن حفلا غنائيا أو مباراة رياضية حضرها عشرون أو ثلاثون ألفا، وهذا والله من البؤس، حتى لو كنت لا ترضى من أخيك بعض الأمر، يكفيك أنه يدعو إلى الله، ويعلم الناس الدين، وهو على الجادة إجمالا:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ ::: كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقد يكون الحق معه في بعض ما انتقدته عليه.

ومن التواضع: التواضع مع من هو دونك، فإذا وجدت أحدا أصغر منك سنا، أو أقل منك قدرا فلا تحقره، فقد يكون أسلم منك قلبا، أو أقل منك ذنبا، أو أعظم منك إلى الله قربا.

حتى لو رأيت إنسانا فاسقا وأنت يظهر عليك الصلاح فلا تستكبر عليه، واحمد الله على أن نجاك مما ابتلاه به، وتذكر أنه ربما يكون في عملك الصالح رياء أو عجب يحبطه، وقد يكون عند هذا المذنب من الندم والانكسار والخوف من خطيئته ما يكون سببا في غفران ذنبه.

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث: «**أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني غفرت لفلان وأحبطت عملك**» (1).

فلا تستكبر على أحد، وحتى حين ترى الفاسق لا تستعل عليه، أو تعامله بأسلوب المتسلط المتكبر.

ولو شعر الناصح الداعية أنه قد يكون لهذا الفاسق طاعات ليست عنده، وأن عنده هو عيوباً قد لا تكون عند صاحبه لعامله برفق، وتلطف معه في الدعوة بما يرجى أن يكون سببا في القبول والذكرى

ومن التواضع: ألا يعظم في عينك عملك، إن عملت خيراً، أو تقربت إلى الله تعالى بطاعة، فإن العمل قد لا يقبل، و{**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**}[1]، ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لتمنيت أن أموت الآن!

ومن ذلك التواضع عندما تسمع نصيحة، فإن الشيطان يدعوك إلى ردها، وسوء الظن بالناصح، لأن معنى النصيحة أن أخاك يقول لك: إن فيك من العيوب كيت وكيت:

وكم مرة أتبعتكم بنصيحتي ::: وقد يستفيد البغضة المتنصح!

أما من عصمه الله تعالى فإنه إذا وجد من ينصحه ويدله على عيوبه قهر نفسه، وقبل منه، ودعا له وشكره.

ولهذا قال ﷺ، في تعريف الكبر: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[2].

يعني رد الحق، وبخس الناس أشياءهم. فالمستكبر صاحب نفسية متعاظمة لا يكاد يمدح أحدا أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه.

أما إن سمع من يذكره ببعض عيوبه فهيهات هيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلا لمركب النقص في نفسه، ولهذا كان من كمال الإنسان أن يقبل النقد والملاحظة بدون حساسية أو انزعاج أو شعور بالخجل والضعف، وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الراية، ويرفع الشعار: رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا[3].

العدل مع العدو والصديق:

فالكثير من الناس إذا ذكر لـه صديقه أثنى عليه ولو كان يعلم أنه لا يستحق ذلك الثناء، وإذا ذكر لـه خصمه ذمّه ولو كان يعلم أنه خلاف ما يقول.

فهل يستطيع الداعية أن يذكر العيوب الموجودة في أقرب الناس إليه ممن يكون مثله في المنهج والطريقة؟! أو يكون شريكا لـه في عمل ما؟!

وهل يستطيع أن يثني بصدق على إنسان يختلف معه في بعض الأمور؟

إن كان يســتطيع ذلك فقد حقق العدل في هذا الجانب، ولكن أكثر الناس يجورون على خصــومهم فيذمونهم بما ليس فيهم، ويجورون أيضــا على أصــدقائهم فيمدحونهم بما ليس فيهم.. وهـذا وإن كـان مظهره مظهر المحبـة والثنـاء إلا أن حقيقتـه الجور والـذم، فمن أثنى عليك بما ليس فيك فقد ذمّك، لأن الناس يتطلبون هذه الخصـــلة فيك فلا يجدونها فيذمونك على فقدها، والله تعالى قد أمرنا بالعدل حتى مع الأعداء فقال:{**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**}(١).

ومن المحزن أننا وإن سلّمنا بذلك نظريا، إلا أننا من الناحية العملية سرعان ما ننسى هذا الدرس، فحين نقف على ما نعده نحن خطأ من فلان نسـقطه من الحســاب، ولا نعبأ به، ولا نلتفت إليه، وكثيرا ما تنســينا محاســن الشخص الكثيرة عيوبه القليلة، أو تنسينا عيوبه الكثيرة محاسنه القليلة.

لا بل الأمر أدهى وأمر!

ولعل الحقيقة أنه كثيرا ما تنســينا العيوب القليلة المحاســن الكثيرة.. وننسىــ القاعدة الشرعية " إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث!! "(٢).

ينبغي للداعية أن يكون قدوة لغيره بأن يتجنب المكروهات وفضـول المباحات وما لا يحتاج إليه، ويترفع عن الدنيا والتنافس فيها حتى يكسب ثقة الناس، والأمر كما قال الشافعي:

ومـن يـذق الـدنيا فـإني طعمتهـا :::: وسـيـق إلـينـا عـذبهـا وعـذابهـا
فما هي إلا ضـيعـة مسـتحيلـة :::: عـليـهـا كـلاب هـمـمن اجـتـذابهـا
فـإن تجتنبهـا كنـت سـلما لأهلهـا :::: وإن تـجـتـذبـهـا نـازعـتـك كلابهـا

فمن المهم للداعية أن يجعل الدنيا تحت قدميه يستخدمها ولا يخدمها حتى يعلم الناس أنه ليس صاحب دنيا ولا طالب مكانة.

ومن مجـالات القـدوة: أن تجنـب الـداعيـة التناقض بين القول والعمل كما قال نبي الله شـعيب:{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**}(١).

ولذلك كان علماء السـوء يدعون الناس إلى الإسـلام بأقوالهم ويحذرون منه بأعمالهم، فاحرص أخي الداعية أن تكون قدوة في قولك وعملك.

وهـا هنا أمر ينبغي التنبه لـه وهو: أن الكثير من الناس يظن أن الداعية لا يأمر إلا بالمعروف الذي يفعله ولا ينهى إلا عن المنكر الذي يجتنبه وهذا غلط بل الصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أن الإنسان يجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان مقصرا فيه وأن ينهى عن المنكر ولو كـان واقعـا فيـه حتى قـال بعض حـذاق أهـل العلم: حق على من يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضا.

فـالوقوع في المنكر لا يبرر لي الوقوع في خطـأ آخر وهو أن لا أنهى عن المنكر، والشرط الوحيد أن يكون أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر بصـدق وليس على سـبيل الخداع والنفاق والتضـليل وأن أظهر للناس أني داعية، وأنا لسـت كذلك. فلو كان الوالد مثلا مبتلى بشرب الدخان ورأى ولده يدخن فهل يسكت عنه بحجة أنه واقع في المنكر؟

كلا. بل عليه أن ينهاه ويقول: إني ســـلكت هذا الطريق ويصـــعب علي الإقلاع وأنت ما زلت في البداية وهكذا سائر المعاصي.

وقل مثل ذلك في مسؤول يرى من تحته يقع في معصية هو واقع فيها.

ولو لم يعظ في الناس من هو مـذنب :::: فمن يعظ العـاصـين بعـد محمـد

وتقتضيـ القدوة: ألا يقابل الداعية السـيئة بالسـيئة بل يعفو ويصـفح ويقابل الإسـاءة بالإحسـان كما كان ﷺ، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وهذه أخلاق الأنبياء.

* * * * *

المطلب الخامس:

أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب

هناك إعراضا من بعض المنتسبين للعلم عن دعوة ومواجهة أهل الكتاب.

ودعا إلى ذلك جملة أسباب منها:

١- الركون إلى انتشار الإسلام.

٢- أن الأصل في ذلك أنه من باب فروض الكفاية.

٣- الاشتغال بالفروع الفقهية والتعصبات المذهبية وحصر جانب الجدال في باب المذاهب الفقهية الأربعة أو بين المعتزلة والأشاعرة أو أهل الكلام والفلاسفة.

وقد مرت فترات بالأمة ظهر فيها اشتغال مجرد بالعلم من قبل الطلبة وأهل العلم وهو اشتغال على مستوى الكتب والدراسة دون معرفة الواقع الذي يحتاج في كثير من مسائله إلى تفصيل وقول بعلم وعدل.

ولئن كانت تلك جملة من الأسباب التي منعت طوائف من أمة الإسلام عن الاشتغال بالرد على أهل الكتاب أو الحوار معهم فإنَّ هناك طوائف رأتْ أنَّ الباب يجب أنْ يغلق والنافذة يجب أن تسد فأنكرت الاشتغال بالرد عليهم من باب الشرع الذي دعاهم للقيام بالجدال والدعوة للإسلام!

فما هي أهم شبه هؤلاء وما هي أهم مرتكزاتهم؟

الشبهة الأولى: منع الجدال مع أهل الكتاب بناءَ على ظهور دلائل النبوة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "... ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناءَ على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول النظر على نظرهم

ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين..."[1].

الشبهة الثانية: منع الجدال مع أهل الكتاب بناءً على نسخ آيات الجدال معهم بآيات السيف وفرضية الجهاد.

ردَّ شيخ الإسلام على أصحاب هذا الاتجاه من تسعة أوجه حررها في كتابه العظيم "الجواب الصحيح". يقول رحمه الله تعالى: "فإنَّ من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط فإنَّ النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام..."

ثم قال رحمه الله تعالى: "... وقوله:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}[2] فهذا لا يناقض الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة. فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ومعلومٌ أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر وأن استعمالهما جميعا أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق ومما يبين ذلك وجوه:..."[3].

ثم عدَّدَ رحمه الله تعالى تسعة أوجه للقول بذلك وكلامه نفيس للغاية.

* * * * *

المبحث الثالث: العولمة العصرية للدعوة

المطلب الأول:

دعاة التقريب بين الأديان

التيـار الأول: دعاة التقريب بين الأديان: كروجيه جارودي [1] وأحمد كفتارو[2] وغيرهما. ويسـتند هؤلاء في الغالب على عقائد الباطنية وكلام ابن عربي وغيره من ملاحدة الصـوفية الذين ينادون بصـحة كل الأديان. يقول جارودي: "إنني عندما أعلنت إسـلامي لم أكن أعتقد بأني أتخلى عن مسـيحيتي ولا عن ماركسـيتي ولا أهتم بأن يبدو هذا متناقضـا أو مبتدعا". ويقول: "هذا النضـال هو نضـال كل أصـحاب العقيدة أو المؤمنين بعقيدة مهما يكن نوع إيمانهم ولا يهمني ما يقولـه الإنسان عن عقيدته: أنا مسلم أو: أنا مسيحي أو: أنا يهودي أو: أنا هندوسي"[3].

ولما انتشـرت بعض آراءه الكفرية الإلحادية قيل: "إنه ارتد عن الإسـلام"! قال الشـيخ عبـد العزيز ابن باز رحمه الله تعالى: "لا يحكم عليه بأنه مرتد عن دين الإسـلام كما توهمه بعضـهم وإنما هو كافر أصـلي لم يدخل في الإسـلام"[4]. ولهذا قال العلاَّمة بكر أبوزيد فيه: (النصراني المتلصص إلى الإسلام) [5].

* * * * *

المطلب الثاني:

دعاة العصرانية (العولمة العصرية للدعوة)

التيار الثاني: دعاة العصرانية: يجمع هذا التيار في طياته: "الفقيه الذي أثقلت كاهله المتغيرات الحديثة.. والصحفي الذي يفتقر إلى علوم الشريعة.. والعقلاني المغرق في عقلانيته"[1].. والمثقف الباحث عن موقع ثقافته الحضارية.. والقومي الذي يتخبط في خبال الجاهلية......... وهم درجات بحسب ما يغلب عليهم من مواد. ومن أبرزهم: الدكتور حسن الترابي والدكتور يوسف الحسن والدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري والدكتور محمد عمارة وعبده سلاَّم وغيرهم. ومن أهم الصيغ التي تحدد مبادئ "التعايش" و"الحوار" بين "المسلم" و"غير المسلم" عند هؤلاء ما يلي:

أولا: الاتفاق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله.

ثانيا: الاتفاق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة.

ثالثا: ما وجدناه متوافقا في تراثنا نرد إليه ما اختلف فيه وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان[2].

ويقرر بعض هؤلاء أنهم لا يستطيعون التقريب بين الأديان أو تذويب أحدها في الآخر وأنَّ أيّ محاولة لذلك إنما هي من قبيل الغش الثقافي والخداع الفكري وهي أشد خطرا من الغش الاقتصادي والتجاري.

كما يدرك بعضهم أن النصارى لا يؤمنون بالتعايش ولا بالحوار ولا بالتعاون؛ وهم - أي النصارى - إذا نادوا بالتعايش أودعوا إلى الحوار قصدوا بذلك استغلالهما لفرض الهيمنة الدينية التي لا تكاد تختلف في شيء

عن الهيمنة السـياسـية والاقتصـادية [1]. ويرون أن المسـلمين لا يمنعهم مانع من أن يسـتجيبوا لدعوة "التعايش" مع غيرهم حتى وإنْ كان مفهوم "التعايش" عند غير المسـلمين منافيا - جزئيا أوكليا - للمفهوم الإنساني المتحضر الذي يؤمن به المسلمون [2].

ويتذرع هذا التيار في دعوته لإقامة الحوار مع أهل الكتاب بشبهات شتى منها: "مواجهة الإلحـاد المـادي" و"التعـاون والتسـامح" و"التعارف" و"الدعوة إلى الله وإفهام الغرب تعاليم الإسـلام" و"أنه ضرورة يفرضـها النظام العالمي الجد يد" و"أنَّ الحوار وسـيلة لتحاشي النزاعات والحروب وصـدام الحضـارات" وأن "الإسـلام يدعو العالم لأن يكون منتدى حضارات"[3] و"هو وسـيلـة لتحقيق الوحدة الوطنية بين مختلف طوائف الأمة" و"أنه وسـيلة للمحافظة على الأقليات المسلمة في الغرب".

ولا ريب أنَّ هذه قضايا متفاوتة في نفسها ومتباينة في قائليها ولا يمكنُ رؤيتها من منظار واحد بل إن بعضها ربما دعا إليها تيار آخر كتيار دعاة التقريب بين الأديان وربما شاركهم فيها بعض الدعاة والمفكرين والقول في جميع تلك القضـايا يحتاج إلى تفصـيل في كل مسـألة منها وليس هذا محل بسطها أو نقدها[4].

* * * * *

المطلب الثالث:

التيار الثالث: المتصدون للواقع من الدعاة والمفكرين

ويمكن تصنيف هؤلاء على وجه الإجمال إلى فريقين:

الفريق الأول: من يلمس منه ضعف في التأصيل أو تذبذب في الموقف الشرعي. وربما اقترب هؤلاء من دعاة العصرانية في بعض المسائل والقضايا حتى لا يمكن التفريق بين أقوالهم.

والفريق الثاني: من يلمس منه وضوح في التأصيل الشرعي. ومن أبرز من تصدى لبيان بطلان أديان النصارى والرد عليهم في العصور المتأخرة: الشيخ رحمة الله الدهلوي الهندي(١) والداعية أحمد ديدات.

* * * * *

المطلب الرابع:

أنواع المجادَلين والمحاوَرين من أهل الكتاب:

من استقرأ القرآن والسنة وكلام الأئمة يجد أنه لا يُستثنى أحد من أهل الكتاب من أصل الجدال فهناك الجدال مع كل من: أهل الذمة وأهل الهدنة والأمان وأهل الحرب لرد صيالهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة؛ والهدنة؛ والأمان؛ ومن لا يجوز قتاله بالسيف؛ وقد تكون في ابتداء الدعوة؛ كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن؛ وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان..." (٢)

* * * * *

المبحث الرابع: مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة

المطلب الأول:

مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة

أدلة مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن: قال تعالى:{**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}. قال ابن كثير في تفسيرها: "وقوله:{**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[١].

١- أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.."[٢] اهـ وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "... فإنْ كان المدعو يرى أنَّ ما هو عليه الحق أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا. ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها فإنَّه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها"[٣]. أهـ.

٢- وقال تعالى:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَه مُسْلِمُونَ**}[٤].

٣- قال الشوكاني رحمه الله:{**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل والتنبيه لهم على حججه

٤- وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة.{**إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**} بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم" [١]. والمتأمل في القرآن يجد أنَّ معظم القضايا التي جادل القرآن فيها أهل الكتاب تدور على محورين:

أ. توحيد الله وعبادته.

ب. إثبات نبوة محمد ﷺ والإيمان به [٢].

والأمر بمجادلة أهل الكتاب في القرآن جاء مقرونا بالإحسان ومن الإحسان:

- اتباع طريقة القرآن في جداله لأهل الكتاب "والأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن هو آية آل عمران:{**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} [٣]. ولهذا امتثلها النبي ﷺ فكتبها في رسالته إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام ونبذ الشرك. وقد حرّف العصرانيون معنى "الكلمة السواء" إلى معانٍ فاسدة [٤].
- عدم تكذيب ما عندهم تكذيبا عاما لمجرد كونه من كتبهم بل ينبغي السكوت عن ذلك فلا يصدقون ولا يكذبون [٥].
- ومنه: عدم تفضيل نبينا محمد ﷺ على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام على وجه الحمية والعصبية لحديث أبي هريرة عند البخاري: قال ﷺ : «**لا تخيروني على موسى...**» [٦]. وفي رواية عند البخاري أيضا: «**لا تفضلوا بين أولياء الله**» [٧].

- ومنه: أن تكون المجادلة: "بحســن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحســينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصــل لذلك وأن لا يكون القصــد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو بل يكون القصــد بيان الحق وهداية الخلق"[1].
- ومنه: أن ينزل خطاب كل طائفة منهم على ما يقتضيه فقه الواقع ومعرفة المجادل أوالمحاور بأحوالهم إذْ إنهم:{**لَيْسُوا سَوَاءً**}. وقد قال تعالى:{**وَكَذَلِكَ نُفَصِّــلُ الآيَاتِ وَلِتَسْــتَبِينَ سَــبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**}[2] فيفوت من الإحســان في جدالهم على قدر تفريط المجادل في:
- العلم بالحق ومعرفة تفصيل الآيات.
- ضعف استبانة سبيل المجرمين وما هم عليه من الضلال المبين.

* * * * *

المطلب الثاني:

غشيانهم في محافلهم ومجتمعاتهم لدعوتهم إلى الإسلام

من هــذا حديث أنس رضي الله عنه قال: "كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال لــه: «**أسلم**»؛ فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال لـه: أَطِعْ أبا القاسم ﷺ فأسلَمَ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[3].

* * * * *

المطلب الثالث:

الكتابة لملوكهم ورؤسائهم

روى ابن عباس - كما في حديث أبي ســفيان الطويل مع هرقل - أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: "بســم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورســوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسـلم تسلم يؤتِكَ اللهُ أجرَك مرتين. فإنْ توليتَ فإنَّ عليك إثمَ الأريسيين.{ **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[١].

* * * * *

المطلب الرابع:

التعريف بالاسلام لدى مؤسساتهم واستقبال وفودهم

دعوتهم إلى الإســلام وبيان أحكامه بعلم وحكمة وأسـلوب حســن فمن خصـائص هذا الدين أنه عالمي الرسالة، ليس مقصوراً على قوم أو بلد أو زمان، قال الله تعالى:{**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**}[٢].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رســول الله ﷺ أنّه قال: «**الذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة؛ يهوديّ ولا نصرانيّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلاَّ كان من أصحاب النار**»[٣]. قال النووي: " فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ "[٤].

إن من سـماحة هذا الدين أنه أذن لغير أهله من أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين أن يعيشوا في أرضه مع بقائهم على دينهم وعدم إكراههم على الإسلام، ولم يخل عصر من العصور من وجود غير المسلمين داخل المجتمع المسلم، يعيشون بين المسلمين،

وينعمون بالأمن على أنفسـهم وأموالهم وأعراضـهم، ولا يعني بقاؤهم داخل المجتمع المسـلم بأي وجه من الوجوه الرضـا بما هم عليه من الكفر بالله، فإن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر - وإنما أذن الشارع لهم بالبقاء لحكم عديدة منها:

أن يخالطوا المسـلمين ويتأملوا في محاسـن الإسـلام وشرائعه وينظروا فيها، فيجدوها مؤسـسـة على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى الإسـلام، ويرغبهم فيه، فيدخلوا فيه، وهذا أحب إلى الله من قتلهم. والمقصـود من ذلك أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وعدم اختلاطهم بالمسـلمين يفوت هذه المصـلحة، وهي معرفتهم بالإسلام قال السـبكي رحمه الله: "وعدم اختلاطهم يبعدهم عن معرفة محاسن الإسلام، ألا ترى من الهجرة إلى زمن الحديبية لم يدخل في الإسـلام إلا قليل، ومن الحديبية إلى الفتح دخل فيه نحو عشرة آلاف؛ لا ختلاطهم بهم، للهدنة التي حصلت بينهم فهذا هو السبب في مشروعية عقد الذمة " [١].

ومن ذلك استـقبال وفد نجران النصارى. قال حذيفة رضي الله عنه: جاء العاقب والسيد صـاحبا نجران إلى رسـول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصـاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا. فقال:

لأبعثن معكم رجلا أمينا حقَّ أمين فاستشرف لـه أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قُمْ يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ : «**هذا أمين هذه الأمة**» [٢].

* * * * *

الباب الثاني

تفاصيل المنهج القرآنى في حوار ومجادلة أهل الكتاب

الدروس والعبر
شرح تحليلي للآيات ذات العلاقة بالموضوع

الفصل الأول: في مجال العقيدة

المبحث الأول: مواقف اليهود وعداوة الملائكة والرسل

المطلب الأول:

مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن

{ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[(١)].

القول في تأويل قوله تعالى:**{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}**. قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "آمنوا"، صدِّقوا، ويعني بقوله: "بما أنزلت، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن. ويعني بقوله: "مصدِّقًا لما معكم"، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بمانزل على محمد تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة[(٢)]

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومه؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل؛ بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.

يبـدأ هـذا الـدرس بنـداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزلـــه مصـدقا لما معهم. ويندد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر! كما يندد بتلبيســهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس - وعلى المسـلمين خاصـة - ويشـيعوا الفتنة والبلبلة في الصـف الإسـلامي، والشـك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد. ويأمرهم أن يدخلوا في الصــف. فيقيموا الصــلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مســتعينين على قهر نفوســهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصــبر والصــلاة. وينكر عليهم أن يكونوا يـدعون المشرـكين إلى الإيمان، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين!

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل. مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى - عليه السـلام - وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبلة[1].

* * * * *

المطلب الثاني:

مواقف اليهود من الرسل والكتب والأنبياء

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[1].

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم.. فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم. ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - وقد آتاه الله الكتاب. ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى، يقفو بعضهم بعضاً؛ وكان آخرهم عيسى ابن مريم. وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل - عليه السلام - فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى- عليه السلام؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به:**{أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}**.

ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت - غير المصدر الإنساني المتقلب - مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً. ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة.. إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يبينه ويقرره، ثم يجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد، فإذا هم هم، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1].

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم.. إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم..

{ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**}..

قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تسـتمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيساً لمحمد ﷺ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول.. ويقول الله رداً على قولتهم:{**بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**}.. أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى..{**فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**}.. أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسـبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم. أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واسـتفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم. وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

{**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**}..

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر:{**فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**}..

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**}[1]..

بئسـما اشـتروا به أنفسـهم أن يكفروا... لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسـهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل.

أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً.

وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفئ، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس.. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة:{**بَغْياً أن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**}..

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ**}..

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام. كانوا يقولون:{**نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**}.. ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه. سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين.

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم،{**وَهُوَ الحَقُّ مُصَـدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ**} . وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسـهم، ويتعبدون لعصـبيتهم. لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به.. ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشـفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم:

{**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**}..

لم تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى - نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر[1].

* * * * *

المطلب الثالث:

عبادة العجل عند اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل

{**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**}[2].

قوله تعالى:{**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**}. لم يبين هنا ما هذه البينات وبينها في مواضع أخر كقوله:{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ**} [1]،

وقوله:{ **فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ**}[2]، وقوله:{**فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق**}[3] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى:{**خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسمعوا**}.

قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة، ومنه قولهم سمعاً وطاعة أي: إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله:{ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دعوا إِلَى الله وَرَسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**}[4]، وهذا قول الجمهور، وقيل: إن المراد بقوله:{**وَاسْمَعُوا**} أي: بآذانكم، ولا تمتنعوا من أصل الاستماع.

ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه:{**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا**}[5].

وقوله عن قوم نبينا ﷺ:{**وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**}[6].

وقولــــــه:{**وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَـاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**}[١]، وقولـــه:{**قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**}. لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة [٢].

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصــة لهم من دون الناس ويدل عليه وجوه.

أحدها: أنه لا يجوز أن يقال على طريق الاستدلال على الخصـم إن كان كذا وكذا فافعل كذا إلا والأول مذهبه ليصح الزام الثاني عليه.

وثـانيهـا: مـا حكى اللـه عنهم في قولــــــه:{**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى**}[٣] وفي قولـه:{**نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ**} [٤].

وقولـه:{ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**}[٥].

وثالثها: اعتقادهم في أنفســـهم أنهم هم المحقون لأن النســخ غير جائز في شرعهم، وأن سائر الفرق مبطلون.

ورابعها: اعتقادهم أن انتسـابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السـلام أعني يعقوب وإسـحاق وإبراهيم يخلصــهم من عقاب الله تعالى ويوصــلهم إلى ثوابه، ثم إنهم لهذه الأشـياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد ﷺ، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقولـــــه:{ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الأخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت**} وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصــة عليهم بســبب ظهور محمد ﷺ ومنازعته معهم بالجدال والقتال، ومن كان في النعم القليلة المنغصة،

ثم إن تيقن أنه بعد الموت لا بد وأن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة فإنه لا بد وأن يكون راغبـاً في الموت لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سـبيل إليها إلا بالموت وما يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون مطلوباً فوجب أن يكون هذا الإنسـان راضـياً بالموت متمنياً لـــه، فثبـت أن الدار الآخرة لو كانت لهم خالصـة لوجب أن يتمنوا الموت، ثم إن الله تعالى أخبر أنهم مـا تمنوا الموت بـل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس (١).

ويقول سيد قطب رحمه الله:

وتلك الصورة الساخرة الهازئة: صورة العجل يدخل في القلوب إدخالاً، ويحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسىـ المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصـورة المجسـمة لتؤديه، وهو حبهم الشـديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصـور، بالقياس. إن التعبير الذهني المفسرـ. إنه التصـوير.. السـمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضـة.. إنهم شعب الله المختار. إنهم وحدهم المهتدون. إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة. إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب.

وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد ﷺ لا نصيب لهم في الآخرة. والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسـولهم ووعود القرآن لهم.. فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود إلى مبـاهلة. أي بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما:{**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**}.

ويعقـب على هـذا التحـدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المبـاهلـة، ولن يطلبوا الموت. لأنهم يعلمون أنهم كاذبون؛ ويخشـون أن يستجيب الله فيأخذهم. وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة.

وعندئذ يكونو قد خسـروا الدنيا بالموت الذي طلبوه، وخسـروا الآخرة بالعمل السـيىء الذي قدموه.. ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي. فهم أحرص الناس على حياة. وهم والمشركون في هذا سواء:

{وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}.

لن يتمنوه. لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب. إنه مدخر لهم هناك، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون.

وليس هذا فحسـب. ولكنها خصـلة أخرى في يهود، خصـلة يصـورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة:**{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}**[1].

أيـة حيـاة، لا يهم أن تكون حيـاة كريمـة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة.. أي حياة!

{وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}..

يود أحدهم لو يعمر ألف سـنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة.

وما أقصرـ الحياة الدنيا وما أضـيقها حين تحس النفس الإنسـانية أنها لا تتصـل بحياة سـواهـا، ولا تطمع في غير أنفاس وسـاعات على الأرض معدودة.. إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة. نعمة يفيضـها الإيمان على القلب. نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل

وما يغلق أحد على نفسـه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة.

فـالإيمان بالآخرة - فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى - هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله.

ويمضي ـ السـياق بتلقين جديد من الله لرسـوله ﷺ يتحداهم به، ويعلن الحقيقة التي يتضمنها على رؤوس الأشهاد:

{قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}..

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود. سمة عجيبة حقاً.. لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يسـتقيم في عقل.. لقد سـمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد ﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب!

إنها الحماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسـوقان إلى كل حماقة. وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره!

{قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}.

فما كان لـه من هوى شخصي،

ولا إرادة ذاتيـة، في أن ينزلـه على قلبـك، إنما هو منفـذ لإرادة اللـه وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك.. والقلب هو موضــع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويســتقر هذا الكتاب فيه ويحفظ.. والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال.

نزله على قلبك..{**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**}..

والقرآن يصـدق في عمومه ما سـبقه من الكتب السـماوية، فأسـاس دين الله واحد في جميع الكتب السـماوية وجميع الديانات الإلهية.. وهو هدى وبشرـى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح لـــه وتسـتجيب.. وهذه حقيقة ينبغي إبرازها.. إن نصـوص القرآن لتسـكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح لـــه من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يســتروح فيه البشرــى. وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسـبات شـتى..{**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**}..{**هدى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**}..{**هدى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**}..{**شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**}. فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين..

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!

وكـانوا - كعـادتهم في تفريق الـدين وتفريق الرســل - قـد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسـمعون أسـماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسـله، لبيان وحدة الجميع، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعا، وعادى الله سبحانه، فعاداه الله. فهو من الكافرين..

{**مَن كَانَ عَدُواًّ لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**}[1].

* * * * *

المطلب الرابع:

كفر اليهود بالقرآن، ونقضهم العهد واشتغالهم بالسحر

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ يثبته على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه من الآيات البينات، مقررا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون. ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد. سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهودهم مع رسول الله ﷺ كما يندد بنبذهم لكتاب الله الأخير الذي جاء مصدقاً لما معهم:

{**وَلَقَدْ أنزلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفَاسِقُونَ * أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**}. لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله، إنه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات، وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم، فإذا كفر بها اليهود - أو غيرهم - فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة، ولكن لأنهم هم فاسدوا الفطرة فاسقون.

ثم يلتفت إلى المسلمين - وإلى الناس عامة - منددا بهؤلاء اليهود، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيئة.. إنهم جماعة مفككة الأهواء - رغم تعصبها الذميم - فهم لا يجتمعون على رأي، ولا يثبتون على عهد، ولا يستمسكون بعروة. ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلا أنهم - مع هذا - لا يستمسكون بوحدة، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندمنهم فرقة فتنقض ما أبرموا، وتخرج على ما أجمعوا:{**أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**}..

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ﷺ أول مقدمه إلى المدينة؛

وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عـاب دينـه، وحـاول بـث الفرقة والفتنة في الصـــف المســـلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه..

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعلنها رسول الله ﷺ في قولـــه: «**المسـلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سـواهم يسـعى بذمتهم أدناهم**». يسـعى بذمتهم أدناهم، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، ولقـد كتـب أبو عبيـدة - رضي اللـه عنه - وهو قائد لجيش عمر - رضي الله عنه - وهو الخليفـة يقول: إن عبـداً أمن أهـل بلد بالعراق. وســأله رأيه. فكتب إليه عمر: إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا.. فوفوا لهم وانصرفوا عنهم.. وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة. وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين.

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُـولٌ مِّنْ عند اللَّه مُصَـدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}..

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه. فلقد كان ضـــمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم: أن يؤمنوا بكل رســـول يبعثه، وأن ينصرــوه ويحترموه. فلما جاءهم كتاب من عند الله مصـدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يسـتوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً!

وفي الآية ما فيها من ســـخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الـذين نبـذوا كتـاب اللـه وراء ظهورهم.. إنهم نبـذوا كتـاب اللـه وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة.

{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّـيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُـلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[١]..

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنه كان ساحراً، وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه.

والقرآن ينفي عن سليمان - عليه السلام - أنه كان ساحراً، فيقول:

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}.

فكأنه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان - عليه السلام - ويثبته للشياطين:

{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}.. ثم ينفي أن السحر منزل من عند الله على الملكين: هاروت وماروت. اللذين كان مقرهما بابل:**{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}**.. ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما! فنفى القرآن هذه الفرية أيضاً. فرية تنزيل السحر على الملكين.

ثم يبين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة. وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما، طالباً منهما أن يعلماه السحر:

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}. ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفراً؛ ويذكر هذا على لسان الملكين: هاروت وماروت.

وقد كان بعض الناس يصر على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره. وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين:**{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}**.. وهو الأذى والشر الذي حذرهم منه الملكان..

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامي الأساسية، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله:{**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**}..

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها.. وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً. وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق. ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله. فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها.. وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار.. كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء..

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون، وما يفرقون به بين المرء وزوجه.. إنه شر عليهم هم أنفسهم لا خير:{**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**}..

ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضراً خالصاً لا نفع فيه!

{**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**}..

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب لـه في الآخرة، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد لـه في الآخرة وكل نصيب..

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة:{**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**}..

{**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**}..

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراءهم ظهرياً، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم.

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه، مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله..

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد.

لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها!.. هذا "التيليباثي» - التخاطر عن بعد - ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فيتلقى عنه، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟

وهذا التنويم المغنطيسي- ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم. إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه. هذه الأحلام التنبئية - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد. كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل؛ ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة.. إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً.. لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق

، حتى يتمكن بوسائله المتاحة لــه بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه؛ أو يســلم بأن في الأمر شــيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحســب للمجهول في هذا الكون حسابه..

السـحر من قبيل هذه الأمور. وتعليم الشـياطين للناس من قبيل هذه الأمور. وقد تكون صـــورة من صـــوره: القـدرة على الإيحـاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشـــياء والأجســام.. وإن كان السـحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سـحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة لـــه:{**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**} - ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصـديق وصـديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثرات. وإن كانت الوسـائل والآثار، والأسـباب والمسـببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفنا. أما من هما الملكان: هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصـــتهما كانت متعارفة بين اليهود [١].

* * * * *

المطلب الخامس:

تذكير اليهود بنعم الله عليهم لعلهم يخافوا الآخرة

{ إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْـأَلُ عَنْ أَصْـحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِـيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّـلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَـيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ} (١).

{إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ بِالْحَقِّ}.. وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضيـ على شـبهات المضـللين، ومحاولات الكائدين، وتلبيس الملفقين. وفي جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين.

{بَشِيراً وَنَذِيراً}.. وظيفتك البلاغ والأداء، تبشر الطائعين وتنذر العصاة، فينتهي دورك.

{وَلاَ تُسْـأَلُ عَنْ أَصْـحَابِ الجَحِيمِ}.. الذين يدخلون الجحيم بمعصـيتهم، وتبعتهم على أنفسهم.

وسـيظل اليهـود والنصـارى يحاربونـك، ويكيـدون لـك، ولا يسـالمونك ولا يرضـون عنـك، إلا أن تحيـد عـن هـذا الأمـر، وإلا أن تـترك هـذا الحـق، وإلا أن تـتخلى عـن هـذا اليقـين، تـتخلى عنـه إلى مـا هـم فيـه مـن ضـلال وشرك وسـوء تصـور كالـذي سـبق بيانـه منذ قليل:

{وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}.

فتلك هي العلة الأصـيلة. ليس الذي ينقصـهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصـهم هو الاقتنـاع بـأنـك على الحق، وأن الـذي جـاءك من ربك الحق. ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم مـا توددت.. لن يرضـيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

إنهـا العقدة الدائمة التي نرى مصـــداقيتها في كل زمان ومكان.. إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشـنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة.. إنها معركة العقيدة هي المشـبوبة بين المعسـكر الإسـلامي وهذين المعسـكرين اللذين قد يتخاصــمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصــم شــيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنهــا معركـــة العقيــدة في صــميمها وحقيقتهــا. ولكــن المعســكرين العــريقين في العـداوة للإسـلام والمسـلمين يلونانهـا بـألوان شـتى، ويرفعـان عليهـا أعلامـاً شـتى، في خبـث ومكـر وتوريـة. إنهـم قـد جربـوا حماسـة المسـلمين لـدينهم وعقيـدتهم حـين واجهـوهم تحـت رايـة العقيـدة. ومـن ثـم اسـتدار الأعـداء العريقـون فغـيروا أعـلام المعركـة.. لم يعلنوهـا حربـاً باسـم العقيـدة - عـلى حقيقتهـا - خوفـاً مـن حماسـة العقيـدة وجيشـانها. إنمـا أعلنوهـا باسـم الأرض، والاقتصـاد، والسياسـة، والمراكـز العسـكرية.. ومـا إليهـا. وألقـوا في روع المخـدوعين الغـافلين منـا أن حكايـة العقيـدة قـد صـارت حكايـة قديمـة لا معنـى لهـا! ولا يجـوز رفـع رايتهـا، وخـوض المعركـة باسـمها. فهـذه سـمة المتخلفـين المتعصـبين! ذلـك كي يـأمنوا جيشـان العقيـدة وحماسـتها.. بيـنما هـم في قـرارة نفوسـهم: الصـهيونية العالميــة والصــليبية العالميــة - بإضــافة الشــيوعية العالميــة - جميعــاً يخوضــون المعركــة أولاً وقبــل كــل شيء لتحطــيم هــذه الصــخرة العاتيــة التــي نطحوهــا طــويلاً، فــأدمتهم جميعاً!!!

إنهـا معركـة العقيـدة. إنهـا ليسـت معركـة الأرض. ولا الغلـة. ولا المراكـز العسـكرية. ولا هـــذه الرايـــات المزيفـــة كلهـــا. إنهـــم يزيفونهـــا علينـــا لغـــرض في نفوســـهم دفـــين. ليخـدعونا عـن حقيقـة المعركـة وطبيعتهـا، فـإذا نحـن خـدعنا بخـديعتهم لنـا فـلا نلـومن إلا أنفسـنا. ونحـن نبعـد عـن توجيـه اللـه لنبيـه ﷺ ولأمتـه، وهـو - سـبحانه - أصـدق القائلين:

{وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}..

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود!

ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى}..

على سبيل القصر والحصر. هدى الله هو الهدى. وما عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق.

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}.

بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرهيب.. ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم!

إنها الأهواء.. إن أنت ملت عن الهدى.. هدى الله الذي لا هدى سواه.. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون!

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ}..

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل. كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد هذه المجابهة وهذ الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين.. هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة،

وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة.. أمانة العقيدة.. التي نيطت بهم من قديم.. وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة.. يا بني إسرائيل..

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}..

في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب، دائراً كله حول سيرة بني إسرائيل، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواثيقهم وعهودهم، ابتداء من عهد موسى - عليه السلام - إلى عهد محمد ﷺ أكثره عن اليهود، وأقله عن النصارى، مع إشارات إلى المشركين، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب.

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى.. يرجع إلى إبراهيم.. وقصة إبراهيم - على النحو الذي تساق به في موضعها هذا - تؤدي دورها في السياق، كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف.

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السلام - ويعتزون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده. ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون!

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السلام - وتعتز بنسبتها إليه؛ وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها.

وقد وصل السياق فيما مضى- إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة:**{وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}**.. وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى.. ليهتدوا..**{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}**..

كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها. وقلنا هناك: إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصف الإسلامي بهذه المناسبة.

فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره.. في جوه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات. ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون.. كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم - وهي التوحيد الخالص - وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء؛ وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه - وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين. ولتقرير وحدة دين الله، واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس. وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء. وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة.

فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب! فالدين دين الله. وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر!!! (١)

* * * * *

المطلب السادس:

اتباع ملة ابراهيم عليه السلام:

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخرَة لَمنَ الصَّالحِينَ * إِذْ قَالَ لـه رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لرَبِّ الْعَالَمِينَ * ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ منْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لـه مُسْلِمُونَ}[١].

قوله تعالى:**{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}**.

لم يبين هنا ما ملة إبراهيم وبينها بقوله:**{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِي إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين}** [٢]، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ.

وكذا في قوله:**{ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}**[٣].

قوله تعالى:**{إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين}**.

أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله:**{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ}**، وصرح بذلك[٤] في قوله:**{إِنَّ الدِّينَ عندَ الله الإسلام}** [٥]،

وقوله:**{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين}**[٦]

قوله تعالى:**{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}** معناه: لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امته

نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى:{**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**} أي: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد في سفهه وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعته إلى المنازل العليا فقال تعالى:{**إِذْ قَالَ له رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين**} أي: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً. كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى:{**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين**} وبعد أن بين الله - تعالى - إن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا في نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى. فقال - سبحانه:{**ووصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ**}.

الضمير في " بها " يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى:{**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ**} والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال كل منهما لأبنائه: يا بني إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينا سواه{**فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ**} أي: فاثبتوا على الإسلام. واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف.

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى:{**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي**}.

روى أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة.

والمعنى - ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ:{**مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي**} فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكي يسعدوا في دنياهم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا:{**نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ له مُسْلِمُونَ**}.

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا تثليث فيها ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هي إفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى:{**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}.

الإشارة بـ{**تِلْكَ**} إلى إبراهيم وبنيه، أي أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا ؟ وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذي هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته.

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم فنوح قال لقومه:{**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين**} وموسى قال لقومه:{ **ياقوم إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا إِن كُنتُم مُّسْلمِينَ**} والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام:{**آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته وقالوا:{ **آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**} وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة، وهي: أن ما جاء به النبي ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين وكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا منكم قال تعالى:{**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**} ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمداً ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أمو راً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف.

ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نقضاً لها، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر لــه طعاماً ليناً، وطعاما نشوياً خفيفاً، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر لـه بغذاء قوي كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات. (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها. وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقبل). (لا تسرق) فطابعها البارزتحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك)

وأخيراً تجئ شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين في نسق واحد{**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**} هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسن وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هي في الأصول والكليات، لا في الفروع والجزئيات.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

{وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله - عز وجل:{**وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**}.

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق. وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى في اتباع ملتكم، بل الحق في أن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون في هداه.

وقوله تعالى:{ **وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ**} حكاية لما زعمه كل من فريقي اليهود والنصارى من أن الهدى في اتباع ملتهم.

و (أو) للتنويع، أي قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا. وقال النصارى لغيرهم: كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله:{**وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ**} لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى:{**وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود**} ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى:{**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**}.

الملة: الدين، والحنيف في الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التي كانت موجودة في عهده إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة.

قال الإمام الرازي: " لأهل اللغة في الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج: أحنف تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للدَّيغ: سليم وللمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي.

الثاني: أن الحنيف: المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها. وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله:{**بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**} أي: مخالفاً لليهود والنصارى.

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن نتبع ملتكم، بل الهدى في أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذي ما كان من المشركين بأي صورة من صور الشرك "

وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى:{**بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**}.{**وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**} دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

قال الإمام الرازي - ما ملخصه: في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى:{**بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**} وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد انفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر. فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هوالموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى:{**قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ له مُسْلِمُونَ**}.

أي: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نصدق بالله، وبالتوراة الذي أنزله الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية.

قال الإمام الرازي: " فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق.

وقوله تعالى:{**قولوا آمَنَّا**} خطاب للمؤمنين.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليها السلام - وكانوا اثني عشر سبطاً كما قال تعالى:{**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً**} والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط "بالتحريك " وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجرة: الواحد سبطه، وبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً".

وقوله تعالى:{**وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ**} معناه: وآمنا - أيضاً - بالتوراة التي أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذي أعطاه لعيسى وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم في نبوتهم.

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله حكاية عنه:{**وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**} وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإ يمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى:{**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**} معناه: لا نفرق ين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا في حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء[١].

* * * * *

المطلب السابع:

صبغة الله: شريعته وسنته وفطرته

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [1].

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}.. صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر ـ لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق، لا تعصب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان.

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة.. إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريري:**{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}**.. أما باقيها فهو من كلام المؤمنين.

يلحقه السياق - بلا فاصل - بكلام البارئ سبحانه في السياق. وكله قرآن منزل. ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله، والشطر الثاني حكاية عن قول المؤمنين. وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم. وأمثال هذا في القرآن كثير. وهو ذو مغزى كبير. ثم تمضي الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة:

{قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}..

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته. فهو ربنا وربكم، ونحن محاسبون بأعمالنا، وعليكم وزر أعمالكم. ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً، ولا نرجو معه أحداً.. وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم؛ وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج..

ومن ثم يضرب السياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل. يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال:{**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى**}.

وهم كانوا أسبق من موسى، وأسبق من اليهودية والنصرانية. والله يشهد بحقيقة دينهم - وهو الإسلام كما سبق البيان -:{**قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**}..

وهو سؤال لا جواب عليه! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه!

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية. وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله شيئاً. ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية، دين إبراهيم. ولكنكم تكتمون هذه الشهادة:{**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ**}..

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها:{**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**}..

وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام، وإلى هذا الفصل في القضية، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه.. عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين:{**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}.. وفيها فصل الخطاب، ونهاية الجدل، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة[1].

{**صِبْغَةَ اللَّهِ**} قال الضحاك، عن ابن عباس: دين الله وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك.

وانتصاب{**صِبْغَةَ اللَّهِ**} إما على الإغراء كقوله:{**فِطْرَتَ اللَّهِ**}[1] أي: الزموا ذلك عليكم. وقال بعضهم: بدل من قوله:{**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**} وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله:{**آمَنَّا بِاللَّهِ**} كقوله:{**وَاعْبُدُوا اللَّهَ**}[2].

و عن ابن عباس أن نبي الله قال: "إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يَصْبَغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوك هل يَصْبَغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبَغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صَبْغي". وأنزل الله على نبيه ﷺ:{**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**}[3].

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}.

أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية -:{**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**} أي: لا أحسن صبغة من صبغته.

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصفٍ حسنٍ، وفعلٍ جميلٍ، وخلقٍ كاملٍ، ونعتٍ جليلٍ، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله:{**وَنَحْنُ لـه عَابِدُونَ**} بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن "العبادة "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول، يؤذن بالحصر.

وقال:{**وَنَحْنُ لـه عَابِدُونَ**} فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار، ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازما.{**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لـه مُخْلِصُونَ**}.

المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها، أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها،

وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحدا، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم لـه عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك. فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر، دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة. وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص، هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول،

ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشـاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله:**{أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}** فالله يقول:**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانيا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى:**{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}** فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال:**{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** بل قد أحصى أعمالهم، وعدها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار، مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

ثم قال تعالى:{ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}. كررها، لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال[١].

* * * * *

المطلب الثامن:

حكمة تحويل القبلة

{**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**}[٢].

حادث تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته والأقاويل التي أطلقوها من حوله؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم على العموم.

ولا توجد رواية قطعية في هذا الحادث، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل. والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وكان هذا في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة.

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة

- وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر القرآني الأخير:{**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**}.. فنسخه.

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم!

وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدباً مع الله، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه..

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول ﷺ:{**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**}..

وتقول الروايات: إن هذا كان في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة، كان بعضهم في منتصف صلاة، فحولوا وجوهم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة.

عندئذ انطلقت أبواق - يهود وقد عز عليهم أن يتحول محمد ﷺ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم - انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم.

قالوا لهم: إن كان التوجه - فيما مضى - إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة؛ وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها.. وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر - أو للآيات - لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!

وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع، منذ قوله تعالى:{**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا**} - وقد استغرق درسين كاملين في الجزء الأول - ومن مراجعة هذا الدرس في هذا الجزء أيضاً. ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلاً عند استعراض النص القرآني.

أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها. فقد كان هذا حادثاً عظيماً في تاريخ الجماعة المسلمة، وكانت له آثار ضخمة في حياتها..

لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس:{ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْه**}.. فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد.. حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ

وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته[1].

ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبي ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى:{**وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**} أي: ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ فقال تعالى:{**وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين**}.

أي: لـئن اتبعـت - يـا محمـد - قبلـتهم - عـلى سـبيل الفـرض، والتقـدير مـن بعـد وضـوح البرهـان وإعلامـي إيـاك بإقـامتهم عـلى الباطـل، إنـك إذاً لمـن الظـالمين لأنفسـهم، المخالفين لأمري.

فالآيـة الكريمـة: وعيـد وتحـذير للأمـة الإسـلامية مـن اتبـاع آراء اليهـود المنبعثـة عـن الهـوى والشـهوة، وسـيق الوعيـد والتحـذير في صـورة الخطـاب للرسـول ﷺ الـذي لا يتوقـع منـه أن يتبـع أهـواء أهـل الكتـاب، تأكيـداً للوعيـد والتحـذير، فكأنـه يقـول: "لـو اتبـع أهـواءهم أفضـل خليقـة، وأعلاهـم منزلـة عنـدي، لجازيتـه مجـازاة الظـالمين، وأحـق بهـذه المجـازاة وأولى مـن كـانوا دونـه في الفضـل وعلـو المنزلـة إن اتبعـوا أهـواء المبطلـين وهـم اليهـود ومـن كـان عـلى شـاكلتهم مـن المشركين ". قـال صـاحب الكشـاف: " فـإن قلت: كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟

قلـت: كلتـا القبلتـين باطلـة، مخالفـة لقبلـة الحـق، فكانـت بحكـم الاتحـاد في البطلان قبلة واحدة ".

ثـم بـين القـرآن الكـريم أن أهـل الكتـاب يعرفـون صـدق الرسـول ﷺ معرفـة لا يخالطها شك فقال تعالى:{**الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**}.

أي: أن أحبـار اليهـود وعلـماء النصـارى يعرفـون صـدق رسـالة النبـي ﷺ ويعرفـون أن توجهـه إلى البيـت الحـرام حـق، كـما يعرفـون أبنـاءهم فهـو تشـبيه للمعرفـة العقليـة الحاصـلة مـن مطالعـة الكتـب السـماوية، بالمعرفـة الحسـية في أن كـلا مـنهما يقـين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابـن كثـير: " يخـبر اللـه أن علـماء أهـل الكتـاب يعرفـون صحة مـا جـاء بـه الرسـول ﷺ كـما يعـرف أحـدهم ولـده، والعـرب كانـت تضرـب المثـل في صـحة الشيـء بهـذا كـما جـاء في الحـديث: أن رسـول اللـه ﷺ قـال لرجـل معـه صـبي صـغير: «**ابنـك هذا؟**» قال: نعم يا رسول الله أشهد به،

قال: «**أما إنه لا يخفي عليك ولا تخفى عليه**» ويروى عن عمر أنه قال: لعبد الله بن سلام: " أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك؟. قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإني لا أدري ما كان من أم ولدي، فقبل عمر - رضي الله عنه - رأسه ".

أي: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك على حق في كل شؤونك ليتمادون في إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا شك فيه.

أي: اعلم - يا محمد - أن ما أوحي إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذي جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به، أو في الحق الذي جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ ولذلك قال المفسرون: إن النهي موجه إلى الأمة في شخص نبيها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: " أو كان النبي ﷺ شاكا في أن الحق من ربه أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك في ذلك؟ فقيل له:{**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**}.

قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه:

{ ياأيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين}[1] ثم قال:**{واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}** فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له. والمراد به أصحابه المؤمنون به [2].

* * * * *

المبحث الثاني: الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه

المطلب الأول:

صفات الله وإنزال الكتب الالهية

{الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيّ الْقَيّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[1].

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله تعالى:{الم}.

أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك.

ومما يشهد لصحة هذا الرأى: أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول ﷺ فى أغلب المواضع.

وأيضا فإن هذه السور التى افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذى جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه ﷺ. ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء فى هذا الموضوع.

قال سيد طنطاوى فى الوسيط:

ثم وصـف - سـبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال:{**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيّ القَيّومُ**}.

ولفظ الجلالة:{**الله**} يقول بعض العلماء: إن أصـله إله، دخلت عليه أداة التعريف "ال " وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله.

قال القرطبي: قولــه:{**الله**} هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها حتى قال بعضهم: إنه اسـم الله الأعظم، ولم يتسـم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسـم للموجود الحق الجـامع لصــفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو سبحانه -.

ولفظ " إله " قالوا: إنه من أله أى عبد، فالإِله على هذا المعنى هو المعبود وقيل: هو أله أى تحير.. وذلـك لأن العبد إذا تفكر فى صــفاته - تعالى - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله.

و{**الحَيّ**} أى: المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها.

و{**القَيّومُ**} الـدائم القيـام بتـدبير أمر الخلق وحفظهم، المعطى لهم مـا بـه قوام حياتهم، وهو مبالغة فى القيام وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره

والمعنى: الله - تعالى - هو الإِله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشـاركه فيها سـواه. وهو المعبود الحق وكل معبود سـواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة. وهو الدائم القيام بتدبير شؤون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم.

قـال الآلوسى: ولفظ الجلالـة: " الله " مبتدأ وما بعده خبر. والجملة مسـتأنفة، أى: هو المستحق للعبودية لا غيره. و{**الحَيّ القَيّومُ**}

خبر بعد خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف أى: هو الحى القيوم.. وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة مرفوعا أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور، فى سورة البقرة، وآل عمران، وطه.

وقال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت فى البقرة:{**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيّ القَيّومُ**}(١) وفى آل عمران:{**اللَّـهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيّ القَيّومُ**}(٢) وفى طه:{**وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيّ القَيّومِ**}(٣) وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال:

{**نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**} (٤)والكتاب - كما يقول الراغب - فى الأصل مصدر، ثم سمى المكتوب فيه كتاباً. والكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه. والكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط.

والمراد بالكتاب المنزل: القرآن الكريم. وفى التعبير عنه باسم الجنس إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة، فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل.

وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للإشارة إلى أن نزول القرآن على النبى ﷺ كان منجما ولم يكن دفعة واحدة ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبى ﷺ على حسب الوقائع والحوادث وغيرها فى مدة تزيد على عشرين سنة.

وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجما منها: تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتقوية قلبه، ومنها: التدرج فى تربية قومية سليمة، ومنها: مسايرة الحوادث فى تجددها وتفرقها. ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه، ومنها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها: الإجابة على أسئلة السائلين،

وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وكشف حال الكافرين والمنافقين. منها: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى -

{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً} فأنت تقرأ ما نزل على الرسـول ﷺ من قرآن فى مكة. وما نزل عليه فى المدينة، فترى الجميع محكم السرد. دقيق السـبك، رصـين الأسلوب، بليغ التراكيب، فصيح الألفاظ.. بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف فى جودته من وقت إلى وقت " ومن موضوع إلى موضوع ".

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترنا بأمرين متصلا بهما:

أما أولهما: فهو قولـه:{**بِالْحَقِّ**}.

وأما ثانيهما: فهو قولـــه:{**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**} أى: أن الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو، والذى هو الحى القيوم، هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ملتبسـا بالحق، ومصاحبا لـــه، ومقترنا به، ومشـتملا عليه، فكل ما فيه من أوامر، ونواه، وقصـص، وأحكام، وعقائد، وآداب، وشرائع وأخبار.. حق لا يحوم حولـه باطل، وصدق لا يتطرق إليه كذب.

وهو الـذى جعـل هـذا الكتـاب المنزل عليـك موافقـا ومؤيداً لما اشـــتملت عليه الكتب السـابقة من الدعوة إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد الناس فى كل زمان ومكان. وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى جوهرها وأصولها. قال - تعـالى:{**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الـدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّـــيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ**} وقولـه:{**بِالْحَقِّ**} متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب.

وقولـه:{**مُصَدِّقاً**} حال مؤكدة من الكتاب. أى نزله فى حال تصديقه الكتب.

وفـائـدة تقـييد التنزيل بهذه الحال: حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل، وتنبيههم على وجوبه؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما.

قال الجمل: وقولـه:{**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**}، فيه نوع مجاز؛ لأن ما بين يديه هو ما أمامه. فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره. واللام فى{**لِّمَا**} لتقوية العامل. نحو قولـــه - تعالى:{**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**} وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة ". ثم أخبر - سبحانه - عن بعض الكتـب الأخرى التى أنزلها فقـال:{ **وَأنزَلَ التوراة والإنجيـل مِن قَبْـلُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَأنزَلَ الفرقان**}.

والتوراة: اسم عبرانى للكتاب الذى أنزلـه الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون شريعة لـه ولقومه.

قال القرطبى ما ملخصـه: والتوراة معناها: الضـياء والنور مشـتقة من وَرَى الزند ووَرِى لغتان إذا خرجت ناره.. وقيل: مأخوذة من التورية، وهى التعريض بالشىـء والكتمان لغيره، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح.

والجمهور على القول الأول لقولـــه - تعالى:{**وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِـيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ**} يعنى التوراة.

والإِنجيل: كلمة يونانية معناها: البشارة وهى اسم للكتاب الذى أنزلـه الله على عيسى.

قـالوا: والإِنجيل إفعيل من النجل وهو الأصـــل: يقال: رحم الله ناجليه أى والديه. وقال قوم: الإِنجيل مأخوذ من نجلت الشىـء إذا اسـتخرجته وأظهرته، ويقال للماء الذى يخرج من البئر: نجل وقيل: هو من النجل الذى هو سعة فى العين. ومنه طعنة نجلاء أى واسعة. وسمى الإِنجيل بذلك لأنه سـعة ونور وضـياء أخرجه الله - تعالى - لبنى إسرائيل على يد عيسى- عليه السلام.

وهذا الكلام الذى نقلناه عن القرطبى والفخر الرازى هو قول لبعض العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإِنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف.

وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشـتقاق والتصرـيف لأنهم اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين.

قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضـــائه للمذهب الذى يرى أصـــحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشـــتقاق والتصرـــيف: " فالتوراة والإِنجيل اســـمان أعجميان:

أحدهما بالعبرية، والآخر بالسرـــيانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشـــتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أن الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث ".

وقولـــــــه:{**مِن قَبْلُ**} متعلق " بأنزل " و" هدى " حال من التوراة والإِنجيل، ولم يثن لأنه مصدر. ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل.

أى: وأنزل التوراة والإِنجيـل من قبـل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الـذى من جملتـه الإِيمـان بـالنبى ﷺ واتبـاعه حين يبعث، لأنهما قد اشـــتملتا على البشارة به والحض على طاعته.

قـالوا: فـالمراد بـالنـاس من عمـل بـالتوراة والإِنجيـل وهم بنو إسرائيل. ويحتمل أنه عام بحيث يشـــمل هذه الأمة وإن لم نكن متعبدين أى مكلفين ومأمورين بشرـع من قبلنا، والآن فيهما ما يفسد التوحيد وصفات البارى والبشارة بالنبى ﷺ.

قال الآلوسى: وعبر فى جانب التوراة والإِ نجيل بقولـــه: " أنزل " للإِشـارة إلى أنهما لم يكن لهما سوى نزول واحد، بخلاف القرآن فإن لـــه نزولين: نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من ســـماء الدنيا جملة واحدة، ونزولا من ذلك إليه ﷺ منجما فى ثلاث وعشرـــين ســـنة على المشهور، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل.. ".

هذا، وليســت التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم هى التوراة التى أنزلها الله على موسى، فقـد بين القرآن فى أكثر من آيـة أن بعض أهـل الكتـاب قـد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا، ومن ذلك قولـــه - تعالى:{**يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**}[1].

وقولـــه تعالى:{**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ**}[1].

ومن الأدلة على أن التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم ليســـت هى التى أنزلها الله على موسى: انقطاع سـندها، واشـتمالها على كثير من القصـص والعبارات والمتناقضـات التى تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها.

وكذلك الحال بالنسـبة للإنجيل؛ إذ ليست هذه الأناجيل التى يقرؤها النصارى اليوم هى الإنجيل الذى أنزلـــه الله على عيسىـ؛ وإنما هى مؤلفات ألفت بعد عيسىـ - عليه السـلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه.

أما الإنجيل الذى أنزلـــه الله على عيسىـ والذى وصـفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل.

و{**الفُرْقَانِ**} كل ما فرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وهو مصـــدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقاناً.

١ - والمراد به عند أكثر المفسرـــين: الكتب الســـماوية التى ســـبق ذكرها وهى التوراة والإنجيـل والقرآن. أى: أنزل بهـذه الكتـب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضـــلال. والخير والشر، وبذلك لا يكون لأحد عذر فى جحودها والكفر بها.

وأعيد ذكرها بوصـف خاص لم يذكر فيما سـبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال، تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى.

٢ - وقال بعضـهم: المراد بالفرقان هنا: القرآن. وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسـم الجنس تعظيما لشـأنه، ورفعا لمكانه، ومدحا لـــه بكونه فارقاً بين الحق والباطل، للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال الشرائع كلها.

---

٣ - وقال بعضـهم: المراد به جنس الكتب السـماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسـله لهداية الناس وسعادتهم. وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر.

وقد ذكر صـــاحب الكشـــاف هذه الأقوال وغيرها فقال: " فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب الســماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب. أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت لـــه من كونه فارقا بين الحق والباطل ".

أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصـه: " والمختـار عنـدى أن المراد من هـذا الفرقـان: المعجزات التى قرنهـا اللـه - تعالى - بإنزال هذه الكتـب، وذلـك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله، افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصـــل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات، حصـلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكـاذب. فـالمعجزة هى: الفرقـان. فلما ذكر اللـه أنـه أنزل الكتـاب بـالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيـل من قبل ذلك، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذي يدل على صحتها، ويفيد بينها وبين سائر الكتب المختلفة ".

والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا: جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق، الكافرين بآيات الله، فقال:**{إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَـــدِيدٌ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام}** أى: إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وصـدق رسـله فيما يبلغون عنه، لهم عذاب شـديد منه - سـبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم**{والله عَزِيزٌ}** أى منيع الجانب، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفى قولـه:{**والله عَزِيزٌ**} إشارة إلى القدرة التامة على العاقب، وفى قولـه:{**ذُو انتِقَامٍ**} إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب، ينزلـــه متى شـاء، وكيف شـاء، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته، والوصف الأول صفة للذات. والثانى صفة للفعل.

ثم أخبر - سـبحانه - عن شـمول علمه لكل شـئ فقال:{**إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء**}. أى أنه سـبحانه - هو المطلع على كل صـغير وكبير. وجليل وحقير، فى هذا الكون، لأنه هو الخالق لـــه، والمهيمن على شـؤونه. وصدق - سبحانه - حيث يقول:{**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير**} وذكر - سـبحانه - السـماء والأرض، للإشـارة إلى أن علمه وسـع كل شـئ، وسـع السموات والأرض، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الانسان وما يخفيه؟

وفى تكرير حرف النهى " لا " تأكيد لنفى خفاء أى شىء عليه - سـبحانه - والآية الكريمة وعيد شـديد للكافرين بآياته، لأنه - سبحانه - وهو العليم بما يسرونه وما يعلنونه، سيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه.

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال:{**هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم**}.

وقولـــه:{**يُصَوِّرُكُمْ**} من التصوير وهو جعل الشئ على صورة لم يكن عليها. وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه. أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحولـه.

واللـه - تعـالى - القادر على كل شىء قد حكى لنا أطوار خلق الإنسـان فى آيات متعددة منها قولـه - تعالى:{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين**}[1] والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله، حتى يبرزه إلى الوجود بشرا سويا.

والمعنى: اللـه الـذى لا إله إلا هو والذى هو الحى القيوم، هو الذى يصـــوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشـاء، بأن جعل بعضكم طويلا وبعضكم قصيراً، وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا ذكر وتلك أنثى، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة، ومن كان شأنه كذلك. فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا إله إلا هو{**العَزِيزُ**} الذى يقهر كل شئ بقوته وقدرته{**الحَكِيمُ**} فى كل شؤونه وتصرفاته.

وهـذه الآيـة الكريمـة فى مقـام التعليل للتى قبلها، لأن قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى الســماء، إذ هو العليم بما يسرــه الإِنســان من كفر أو إيمان أو غيرهما. وهذه الآية تفيد أنه - سـبحانه - يعلم أحوال الإِنسـان لا بعد اسـتوائه بشراً سـوياً، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام، بل إنه - ســبحانه - ليعلم أحواله قبل أن يكون شــيئاً مذكوراً، فهو - كما يقول القرطبى - العالم بما كان وما يكون ومالا يكون.

ومن كان ذلك شـأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم - ســبحانه - فى بطون أمهاتهم، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وقولـه - تعالى:{**كَيْفَ يَشَآءَ**} إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشـيئته وقدرته وليس خاضـعا لقانون الأسـباب والمسـببات، إذ هو الفعال لما يريد. فمن شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضله.

و{**كَيْفَ**} فى موضـع نصب على أنه حال، وناصبه الفعل الذى بعده وهو{**يَشَآءَ**} ومفعول المشيئة محذوف والتقدير: هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء تصويركم، من ذكر وأنثى، وجميـل ودميم، وغير ذلـك من مظاهر التفاوت والاختلاف فى الصــور والأشــكال والعقول والميول.

وقولـــــه - تعـالى:{**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**} تأكيد لما قبله، من انفراده بالألوهية، وحقيقة المعبودية، بعد أن أقام الأدلة السـاطعة على ذلك من كونه حياً قيوماً، منزلاً للكتب الهادية للناس إلى الحق عالماً بكل شىء، مصوراً لخلقه

وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء. وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص، ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب ونية صادقة [١].

* * * * *

المطلب الثاني:

الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه

{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[٢].

قال القرطبي: " لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذى يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «**نعم**» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «**نعم**». قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ : «**سلانى**». فقالا: أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى - على نبيه ﷺ{ **شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط**} فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ وقوله تعالى:{**شَهِدَ اللَّهُ**} أى بين وأعلم كما يقول: شهد فلان عند القاضى إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو قال الزجاج: " الشاهد هو الذى يعلم الشيء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين".

والمعنى: أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه، وبالآيات الكونية التى لا يقدر على خلقها أحد سواه،

وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بوحدانيته، وأنه لا معبود بحق سواه، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق. وأن الجميع عبيده وفقراء إليه وهو الغنى عن كل ما عداه. وشـهد بذلك " الملائكة " بأن أقروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصـمد فعبدوه حق العبادة، وأطاعوه حق الطاعة، وشهد بذلك أيضاً " أولو العلم " بأن اعترفوا لـه - سبحانه - بالوحدانية، وصدقوا بما جاهم به الرسول ﷺ وبلغوا ذلك لغيرهم.

قال الزمخشـرى: شـبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصـة التى لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسى وغيرهما، بشهادة الشاهد فى البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه ".

وقالوا: وفى هذه الآية دليل على فضـل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء، لقرنهم الله بـاسـمـه واسـم ملائكتـه كما قرن العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ:{**وَقُـل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**} فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسـأله المزيد منه كما أمر أن يسـتزيده من العلم. وقال ﷺ : «**إن العلماء ورثة الأنبياء**» وقال: «**العلماء أمناء الله على خلقه**» وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم في الدين خطير [١].

والمراد بأولى العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة عقيـدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصـوا للـه في عبـادتهم، وصـدقوا في أقوالهم وأفعالهم. وقدم سـبحانه - الملائكة على أولى العلم، لأن فيهم من هو واسـطة لتوصـيل العلم إلى ذويـه، لأن علمهم كلـه ضرورى بخلاف البشرـ فـإن علمهم منه ما ضرورى، ومنه ما هو اكتسابى.

وقولـه – تعالى:{**قَآئِمَاً بالقسط**} بيان لكماله - سبحانه - في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته. والقسـط: العدل. يقال: قسط ويقسط قسطاً، وأقسط إقساطاً فهو مقسط إذا عدل ومنه:{**إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين**} ويطلق القسط على الجور، والفاعل قاسط، ومنه{**وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً**} أى: مقيما للعـدل في تـدبير أمر خلقـه، وفى أحكامه. وفيما يقسـم بينهم من الأرزاق والآجال، وفيما يأمر به وينهى عنه، وفى كل شأن من شؤونه.

قال: الجمل: و{قَآئِمَاً} منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال أيضا فى حيز الشهادة، فيكون المشهود به أمرين: الوحدانية والقيام بالقسط وهذا أحسن من جعله حالاً من الاسم الجليل فاعل شهد، لأن عليه يكون المشهود به الوحدانية فقط والحال ليست في حيز الشهادة.

وقوله:{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} تكرير للمشهود به للتأكيد والتقرير، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل، والاعتناء به يقتضى الاعتناء بأدلته.{العَزِيزُ الحَكِيمُ} صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل. أى لا إله في هذا الوجود يستحق العبادة بحق إلا الله{العَزِيزِ} الذى لا يمتنع عليه شىء أراده، وينتصر من كل أحد عاقبه أو انتقم منه{الحَكِيمِ} في تدبيره فلا يدخله خلل.

قال ابن جرير: " وإنما عنى جل ثناؤه - بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجوا رسول الله ﷺ في عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك: من أن له شريكا، واتخاذهم دونه أربابا، فأخبرهم الله عن نفسه، أنه الخالق كل ما سواه، وأنه رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه. فبدأ - جل ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سن لعباده أن يبدؤوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدباً خلقه بذلك ".

هذا، ومن الآثار التى وردت في فضل هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية:{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم}. إلى أخر الآية. فقال ﷺ: " وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب " وقال غالب القطان: أتيت الكوفة في تجارة لي فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه، فقام في ليلة متهجداً فمر بهذه الآية{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ} فقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}، قالها مراراً فقلت: لقد سمع فيها شيئا فسألته في ذلك فقال: حدثني أبو وائل بن عبد الله قال رسول الله ﷺ : «**يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - تعالى: عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى العهد أدخلوا عبدى الجنة**».

وقوله:{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}

جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. وأصل الدين فى اللغة: الجزاء والحساب. يقال دنته بما صـنع أى جازيته على صـنيعه، ومنه قولهم: كما تدين تدان أى، كما تفعل تجازى، وفي الحديث: «**الكيس من دان نفسـه وعمل لما بعد الموت**» والمراد به هنا: ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات، فيكون بمعنى الملة والشرع.

أى: إن الشريعة المرضية عند الله - تعالى - هى الإسلام، والإسلام في اللغة: هو الاستسلام والانقياد يقال: أسلم أى انقاد واستسلم. وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا - كما قال ابن جرير: " شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله الذى شرعه لنفسـه وبعث به رسـله، ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزى بالإحسـان إلا به " وهو الدين الحنيف الذى جاء به محمد ﷺ.

وقال ابن كثير: وقولـه - تعالى:{**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**} إخبار منه تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سـوى الإسـلام، وهو اتباع الرسـل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سـد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقى الله تعالى - بعـد بعثـة محمـد ﷺ بـدين على غير شريعتـه فليس بمتقبل كما قال - تعالى:{**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسـلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ**} الآيـة. وقال في هذه الآية مخبراً بانحصـار الدين المتقبل عنده في الإسلام{**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام**} وقولـه:{**عِندَ اللَّه**} ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنه من معنى الفعل، أى الذى شرع عند الله الإسـلام. ويصـح أن يكون صـفى للدين فيكون متعلقا بمحذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام. وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقولـه{**عِندَ الله**} وباعتبار الإسلام وحده، هو دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، إشعار بفضل الإسلام، لأن لـه ذلك الشرف الإضافى إلى خالق هذا الكون ومربيه، فهو دين الله الذى شرعه لخلقه

ثم بين - سـبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب في شـأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سـببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى:{**وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ**}.

أى: وما كان خلاف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به الرسول ﷺ إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذي لا باطل معه، فخلافهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم.

وفي التعبير عنهم بأنهم{**أوتُوا الكِتَابَ**} زيادة تقبيح لهم؛ فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلا لهدايتهم، وسعادتهم فإذا تركوا بشاراته وتوجيهاته واتبعوا أهواءهم كان فعلهم هذا أشد قبحاً وفحشاً.

وقوله:{**إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم**} زيادة أخرى في تقبيح أفعالهم، فإن الاختلاف بعد مجيء العلم أزيد في القبح والعناد. والاستثناء من أعم الأحوال أو الأوقات، أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق، والعلم بالحق وحده لا يكفي في الإيمان به، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مخلص متفتح لطلبه، وكم من أناس يعرفون الحق معرفة تامة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول:{**الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ**} فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم بأنه حق، لأن العلم كالمطر، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية، وكذلك لايستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية، والأفئدة المستقيمة.

وقوله:{**بَغْياً بَيْنَهُمْ**} مفعول لأجله، والعامل فيه اختلف أى وما اختلفوا إلا للبغى لا لغيره، قال القرطبي: " وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم ".

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال:{**وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب**}. أى: ومن يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - فإن الله محص عليه أعماله في الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه في الآخرة.

فقوله:{**فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب**} قائم مقام جواب الشرط وعلة له، أى: ومن يكفر بآيات الله فإنه - سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب. وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ ما يرد به على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من المشركين وليمضى في طريقه الواضح المستقيم فقال – تعالى:{**فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن**}.

وقوله:{**حَآجُّوكَ**} من المحاجة وهى أن يتبادل المتجادلان الحجة، بأن يقدم كل واحد حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعم أنه الحق الذى لا شك فيه.

والمعنى: فإن جادلك - يا محمد - أهل الكتاب ومن لف لفهم بالأقاويل المزورة والمغالطات الباطلة بعد أن قامت الحجج على صدقك. فلا تسر معهم في لجاجتهم، ولا تلتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم:{**أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن**} أى أخلصت عبادتى لله وحده، وأطعته وانقدت له، وكذلك من اتبعنى وآمن بى قد أسلم وجهه له وأخلص له العبادة.

والمراد بالوجه هنا: الذات، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأنه أشرف أعضاء الشخص، ولأنه هو الذي تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل.

و{**وَمَنِ**} في قوله:{**وَمَنِ اتبعن**} في محل رفع عطفا على الضمير المتصل في{**أَسْلَمْتُ**} أى أسلمت أنا ومن اتبعنى، وجاء العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما.

وقوله:{**وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ**} عطف على الجملة الشرطية، والمراد بالأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب.

والاستفهام فى قوله:{**أَأَسْلَمْتُمْ**} للحض على أن يسلموا وجوههم لله، ويتبعوا الرسول ﷺ كما اتبعه المسلمون.

والمعنى: فإن جادلوك في الدين - يا محمد - بعد أن تبين لكل عاقل صدقك، فقل لهؤلاء المعاندين إني أسلمت وجهى لله وكذلك أتباعى أسلموا وجوههم لله، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا تسلموا فقد تبين لكن أنى على حق، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن يدخل فيه وأن يترك العناد والمكابرة.

قال صاحب الكشاف: وقولـــه:{**أأسْلَمْتُمْ**} ؟ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسـلام ويقتضىـ حصـوله لا محالة فهل أسـلمتم أم أنتم بعد على كفركم وهذا كقولك لمن لخصت لـــه المسألة ولم تبق من طرق البيان طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لك أم لا؟. ومنه قولـه - تعالى:{**فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ**} بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر. وفي هذا الاستفهام استقصار - أى عد المخاطب قاصراً - وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت لـه الحجة لم يتوقف في إذعانه للحق

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج، وما يترتب على إعراضهم من شرور تعود عليهم فقال:{**فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ والله بَصِيرٌ بالعباد**}.

أى: فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ فقد اهتدوا إلى طريق الحق، لأن هذا الإسـلام هو الدين الذى ارتضـاه الله للناس وإن أعرضـوا عن هذا الطريق المسـتقيم، فإن إعراضـهم لن يضرـك - أيها الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ الناس ما أمرك اللـه بتبليغـه إيـاهم. وهو - سـبحـانه - بصـير بخلقه لا تخفى عليه خافية من أقوالهم أو أفعالهم، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه.

وعبر بالماضى فى قولـــه:{**فَقَدِ اهتدوا**} مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وقولـــه:{**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ**} قائم مقام جواب الشرـط أى وإن تولوا لا يضرـك توليهم شـيئا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد أديته على أكمل وجه وأبلغه.

وقولـــه:{**والله بَصِيرٌ بالعباد**} تذييل فيه عزاء للنبي ﷺ عن كفرهم، وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسـوء مصيرهم، لأنه - سـبحانه - عليم بنفوس الناس جميعا وسيجازى كل إنسان بما يستحقه، وفيه كذلك وعد للمؤمنين بحسن العاقبة، وجزيل الثواب.

قـال ابن كثير: وهـذه الآيـة وأمثـالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والســنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قولـه - تعالى: {**قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**}[1]

وقـال - تعـالى: {**تَبَـارَكَ الـذي نَزَّلَ الفرقـان على عَبْـدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـالَمِينَ نَـذِيراً**}[1] وفي الصـحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم. كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله لـــــه بذلك، فعن أبي هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**والذى نفسى بيده لا يســمع بى أحد من هذه الأمة يهدى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار**».

وقال ﷺ : «**أعطيت خمسا بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ونصرت بالرعب شهرا وأعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سـأل شـفاعة وإني أخبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئا**»[2].

وقـال: " كان النبي يبعث إلى قومه خاصـــة وبعثت إلى الناس عامة " وعن أنس - رضى الله عنه - أن غلاما يهودياً كان يضـع للنبى ﷺ وضـوءه ويناوله نعليه فمرض. فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال لـه النبى ﷺ : «**يا فلان قل لا إله إلا الله**»، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ القول. فنظر إلى أبيه، فقال لــــه أبوه أطع أبا القاسم. فقال الغلام أشـهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فخرج النبى ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذى أخرجه بى من النار**»[3].

وبهـذا نرى أن الآيـات الكريمـة قد بينت للناس في كل زمان ومكان أن دين الإســلام هو الـدين الحق الـذى ارتضـــاه اللـه لعباده وشـــهد بذلك خالق هذا الكون - عز وجل - وكفى بشـهادته شـهادة كما شهد بذلك الملائكة المقربون والعلماء المخلصون. كما بينت أن كثيرا من الذين أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمونها ظلماً وبغياً، كما بينت - أيضـــاً - أن الـذين يـدخلون فى هذا الدين يكونون بدخولهم قد اهتدوا إلى الطريق القويم، وأن الذين يعرضون عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن الحق المبين.

ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التى عرف بها اليهود وعرف بها أسلافهم، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم.

* * * * *

المطلب الثالث:

جزاء قتل الأنبياء

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (١).

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة. فهو متوقع هنا وهناك. وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور. فالحبوط: هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها.. وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين. ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حامٍ!

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط.. ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك. فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط.. كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع.. وكثير ما هم في كل زمان..

ويحســن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصــف{**الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**}؟.. فليس المقصــود فقط من يعلن كلمة الكفر. إنما يدخل في مدلول هذا الوصـــف من لا يقر بوحدة الألوهية، وقصر العبودية عليها. وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين.. فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته. ولو قالها ألف مرة باللسان! وسنرى في الآيات التالية في السياق مصداق هذا الكلام..

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كتَابِ اللَّه ليَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَلكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَات وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}..

إنه ســؤال التعجيب والتشــهير من هذا الموقف المتناقض الغريب. موقف الذين أوتوا نصــيباً من الكتاب. وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصــارى. وكل منهما " نصــيب» من الكتـاب بـاعتبـار أن كتاب الله هو كل ما أنزل على رســله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته. فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيباً منه، وأوتي النصارى نصيباً منه، وأوتي المســلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصــول الدين كله، ومصــدقاً لما بين يديه من الكتاب.

سؤال التعجيب من هؤلاء{**الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ**}.. ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهـذه الـدعوة، إنمـا يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتـاب الله وشريعته. الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله؛ والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ}..

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة. فكيف بمن يقولون: إنهم مسلمون، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها. ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم. فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون» هم الذين يعرضون هذا الإعراض.. إنه العجب الذي لا ينقضي، والبلاء الذي لا يقدر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله! والعياذ بالله!

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض:

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**}..

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب.. إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة، وجدية القسط الإلهي الذي لا يحابي ولا يميل. يتجلى هذا في قولهم:{**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ**}..

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات؟ لماذا وهم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعدل الله؟ بل إذا كانوا يحسون أصلاً بجدية لقاء الله؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء، ثم يغرهم هذا الافتراء:{**وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**} .. وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله..

وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة..

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون. ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون. وفيهم من يتبجحون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية

وارتبـاطـاتهم الاقتصـــادية والاجتماعية، بل العائلية، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مســـلمون! ثم يعتقد بعضـــهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصي، ثم يســـاقون إلى الجنة! أليســـوا مســـلمين؟ إنه نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل لـه في الدين.

وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين، وتملصهم من حقيقته التي يرضاها الله: الإســـلام: الاســـتســـلام والطاعة والاتباع. والتلقي من الله وحده في كل شـــأن من شـــؤون الحياة:{**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**}.

كيف؟ إنه التهديد الرهيب الذي يشـفق القلب المؤمن أن يتعرض لـــه وهو يسـتشـعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله، وجدية عدل الله؛ ولا يتميع تصـــوره وشـــعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة.. وهو بعد تهديد قائم للجميع.. مشرـكين وملحدين، وأهل كتاب ومدعي إسلام، فهم سواء في أنهم لا يحققون في حياتهم الإسلام!

{**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْـبَ فِيـه**}.. وجرى العـدل الإلهي مجراه؟{**وَوُفِّيَـتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَـبَتْ**}.. بلا ظلم ولا محاباة؟{**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**}.. كما أنهم لا يحابون في حســـاب الله؟

سؤال يلقى ويترك بلا جواب.. وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب!

بعـدئـذ يلقن رســـول اللـه - ﷺ - وكل مؤمن، أن يتجه إلى الله، مقرراً حقيقة الألوهية الواحـدة، وحقيقـة القوامـة الواحدة، في حياة البشرــ وفي تدبير الكون. فهذه وتلك كلتاهما مظهر للألوهية وللحاكمية التي لا شريك لله فيها ولا شبيه[1].

* * * * *

المطلب الرابع:

قصة عيسى عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته

{إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[1].

قوله:**{يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** أى يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب.

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب، لأن غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل عن ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك، بل خلقه الله - تعالى - خلقا آخر، خلقه**{بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** وهى " كن " فكان كما أراده الله و" من " فى قوله: " منه " لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة: أى بكلمة كائنة منه.

فالمراد بقوله: " كلمة " أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين.

ورجح ابن جرير أن معنى**{بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** ببشرى منه - سبحانه - فقد قال: وقوله: "بكلمة منه " يعنى برسالة من الله وخير من عنده

وهو من قول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به.. فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم".

وعلى كلا التأويلين ففى التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله تكريم لــه وتشريف، وقولـه:{**اسْمُهُ المَسِيحُ**} مبتدأ وخبر، والجملة نعت. والضمير في قولـه:{**اسْمُهُ**} يعود إلى كلمة. وجاء مذكراً رعاية للمعنى لأننا سبق بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد.

والمسيح: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك. وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفســه:{**قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً**} وقيل: المسيح فعيل بمعنى فاعل، للمبالغة في مسحه الأرض بالسياحة للعبادة: أو مسحه ذا العاهة ليبرأ. أو بمعنى مفعول أي ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب.

وعيسى: اسم لهذا الاسم الكريم، وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء.

قال الراغب: عيسىـ اســم علم، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم بعيراً عيسىـ وناقة عيساء وجمعها عيس وهى إبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة " أى فيها اغبرار قليل يعطى بياضها صفاءَ ونقاءَ وجمالاً.

وابن مريم: هو كنيته، وهي للإشارة إلى أن نسبه ثاتب لأمه لا لأحد سواها وليس ابناً لله - تعالى - كما قال الضالون.

قال صــاحب الكشــاف: فإن قلت: لم قيل عيسىـ ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسـبون إلى الأباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسـبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه. وبذلك فضــلت واصــطفيت على نســاء العالمين: فإن قلت: لم ذكر ضــمير الكلمة. قلت: لأن المســمى بها مذكر. فإن قلت: لم قيل: اســمه المســيح عيسىـ ابن مريم وهذه ثلاثة أشـياء: الاسـم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل: الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة ".

والمعنى الإجمالي للجملة الكريمة: اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم.

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر، ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى:{**وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**}.

أما الصفة الأولى فهي قوله - تعالى:{**وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**} أى ذا جاه وشرف ومنزلة عالية. يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس. واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره.

وعيسى عليه السلام، شهد الله تعالى له، - وكفى بالله شهيداً - شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة في الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها.

والصفة الثانية من صفاته أنه:{**الْمُقَرَّبِينَ**} أى أنه من المقربين عند الله - تعالى:{**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً**} وهذه الجملة معطوفة على قوله:{**وَجِيهاً**} وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما، والمهد اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهيأ له وهو في الرضاعة. والكهل: هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه. وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم.

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل أوان الكلام، كما يكلمهم في حال كهولته واكتمال شبابه، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن في سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير

فقال - تعالى:{ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِياً قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِياً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً**}[1] أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى:{**وَمِنَ الصَّالِحِينَ**} أى عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس. أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه، قالوا: ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال والتروك مواظبا على المنهج الأصلح، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة:{**رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين**}[2] فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات ".

تلك هي البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم، وتلك هي بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها، وشدة تأثرها فقال - تعالى:{**قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**}.

أى: قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب: يا رب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر، أى لست بذات زوج، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد.

والجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل: فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب:{**قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**}... إلخ.

وصــــدرت إجـابتها بالنداء لله - تعالى - للإشـــعار بكمال تســـليمها للقدرة الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى – وجملة:{**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**} حالية محققة لما مر ومقوية لـه.

والمســـيس يحتمـل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة والتي يترتب عليها وجود النسـل إذا شاء الله ذلك، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل، لأنها كانت معتكفة في بيت الله ومنصرـفة لعبادته، ولم يلمس جســمها رجل من غير محارمها قط. وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضـع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر.

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقولـــه:{**قَالَ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**}.

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسـطة أو بواسطة ملائكته: كهذا الخلق الذى تجدينه، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

وبعضــهم يجعل الوقوف على " كذلك " فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى قال - سـبحانه - فى إجـابتـه على مريم: الأمر كـذلـك أى يـأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشـاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسـباب والمسـببات - الله - خالقه وخالق كل شيء، ولا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السـماء.{ **إِذَا قضىـ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَـــه كُنْ فَيَكُونُ**}... ثم واصـل القرآن حديثه عن صـفات عيسىـ - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى:{**وَيُعَلِّمُهُ الكتاب...**}.

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بياناً حكيماً عن طبيعة رســالة عيسىــ - عليه الســلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها.

وقولـه - تعالى:{**وَيُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**} معطوف على{**يُبَشِّرُكِ**} أى: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه... وإن الله يعلم ذلك المولود

- المعبر عنه بالكلمة - الكتاب، وقرأ بعضـــهم ونعلمه الكتاب.. وعلى هذه القراءة تكون هـذه الجملـة معمولـة لقولِ محـذوف من كلام الملائكـة أى ويقول اللـه - تعـالى - ونعلمه.. وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قولـه: " وجيها " فكأنه قال: وجيهاً ومعلماً.

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة المستأنفة سيقت تطييبا لقلب مريم، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر.

ولقد حكى القرآن عنها فى ســورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض{**ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً**}[1] والمراد بالكتاب: الكتابة والخط، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحى. وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية.

قـال الفخر الرازى: " والأقرب عندى أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة. ثم المراد بـالحكمة: تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق، لأن كمال الإنســان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجـل العمـل به، ومجموعهما هو المســمى بالحكمة، ثم بعد أن صــار عالما بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرـعية يعلمه التوراة. وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار عظيمة والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنـه أن يخوض فى البحـث عن أسرار الكتـب الإلهيـة. ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل. وإنمـا أخر ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتـاب الـذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله عليه بعـد ذلـك كتـاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو العناية القصـــوى والمرتبة العليا في العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية ".

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأ لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم

فقال - تعالى:{وَرَسُـولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ} أى أن الله - تعالى - سـيجعل عيسى - عليه السلام - رسولاً إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ألا وهو محمد ﷺ.

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان: لأن بنى إسرائيل خرج عيسى- من بينهم فهو منهم، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم وانبعث منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى- وبغيره من رسل الله، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم.

وقوله:{وَرَسُولاً} منصوب بمضمر يعود إليه المعنى، معطوف على{وَيُعَلِّمُهُ} أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل.

وقوله:{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} معمول لقوله:{رَسُولاً} لما فيه من معنى النطق. كأنه قيل: ورسولاً ناطقاً بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم.

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله:{مِّن رَّبِّكُمْ} متعلق بمحذوف صفة لآية. والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها.

أى: أن الله - تعالى - قد علم عيسى- عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل مخبراً إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبساً مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم.

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه السلام - أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله:{أَنِي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله}.

قال الآلوسى: " وقوله:{أَنِي أَخْلُقُ لَكُمْ}.. الخ.. بدل من قوله:{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ} أو من{آيَةٍ} أو منصوب على المفعولية لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم... أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جئتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم. وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف، والمراد بالخلق: التصوير والإبراز على مقدار معين لا الإيجاد من العدم ".

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله - عنه أنه قال لبنى إسرائيل: لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته، ولآمركم بإخلاص العبادة لـه، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئاً صورته مثل صورة الطير، فأنفخ فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيراً حقيقياً ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته. فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال: ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه.

أما الثالث: فهو من صنع الله تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها. وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها. ولا حكى الله - تعالى - عنه أنه قال:{**بِإِذْنِ الله**}. أي أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره، واللام في قوله:{**لَكُمْ**} للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى.

والكاف فى قوله:{**كَهَيْئَةِ الطير**} بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئاً مثل هيئة الطير، والهيئة هى الصورة والكيفية. والضمير فى قوله:{**فَأَنفُخُ فِيهِ**} يعود إلى هذا المفعول المحذوف. وقوله:{**بِإِذْنِ الله**} متعلق بيكون، وجىء به لإظهار العبودية، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكاً لله فى خلق الكائنات.

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن فى قوله - تعالى:{**وَأُبْرِىءُ**} أى أشفى، يقال: برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه.

والأكمه: هو الذى يولد أعمى. يقال كمه: كمها إذا ولد أعمى، فهو أكمه وامرأة كمهاء.

والأبرص: هو الذى يكون في جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها.

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه: والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص، وأعيد الحياة إلى من مات. ولا أفعل كل ذلك بقدرتي وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره.

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر؛ لأنهما مرضـان عضـالان لم يصـل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسـباب والمسببات خالقاً مختاراً لا يعجزه شيء وعلى أن الأسـباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - وقولـه:{**وَأُحْيِ الموتى بِإِذْنِ الله**} فيه تدرج من الصـعب إلى الأصـعب، لأن مما لا شـك فيه أن إحياء الموتى خارق عظيم، يدل دلال قاطعة على أن الأسـباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشـئة المكونة، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه.

وقيـد مـا يقوم بـه من إبراء وإحيـاء بأنه بإذن الله: للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق وإنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته.

وقـد ذكر المفسرـون أن إبراء عيسى ـ للأكمـه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح.

قـال ابن كثير: بعـث اللـه كل نبى بمعجزة تناســب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السـحر وتعظيم السـحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصـار وحيرت كل سـحّارٍ، فلما اسـتيقنوا أنهـا من عند العظيم الجبار انقادوا للإسـلام. وأما عيسى ـ فعبث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشرـيعـة فمن أين للطبيـب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسـورة من مثله ما اسـتطاعوا أبداً، وماذاك إلى أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق ".

وأما المعجزة الخامســة فقد حكاها القرآن في قولــه - تعالى:{**وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**}.

وقولـه - تعالى:{**وَأُنَبِّئُكُمْ**} من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن.

وقولـــــــه{**تَدَّخِرُونَ**} من الإدخار وهو إعداد الشىـــء لوقت الحاجة إليه. يقال: دخرته وادخرته، إذ أعدته للعقبى. واصـله " تذتخرون " بالذال المعجمة - من اذتخر الشىـء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء دالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت.

والمعنى: أن عيسىـ - عليه السـلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتى التى تدل على صـدقى فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىـء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبؤونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه.

قال القرطبى: وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل فى بيوتنـا ومـا نـدخر للغـد، فـأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قولـه:{**وَأُنَبِّئُكُمْ**}.

و " مـا " في الوضــعين موصــولـة، أو نكرة موصـــوفة والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه.

ولا شـك أن إخبار عيسىـ - عليه السـلام - لقومه بالشىـء الذى يأكلونه وبالشىـء الذي يدخرونه يدل على صدقه، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به.

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقولـه:{**إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**}.

أى إن فى ذلـك المـذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسىـــ - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها.

فاســم الإشــارة " ذلك " يعود إلى ما ســبق ذكره من معجزات عيسىـ - عليه السـلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير: إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله.

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسىـــ - عليه الســلام - عقب ذلك بالإشـارة إلى طبيعة رسـالته فقال - تعالى:{ **وَمُصَـدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ**}.

وقولـــه - تعالى:{**وَمُصَـدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة**} عطف على المضمر الذى تعلق به قولـــه تعالى:{**بِآيَةٍ**} أى قد جئتكم محتجا أو ملتبســا بآية من ربكم، ومصـدقا لما بين يدى.. وجوز أن يكون منصــوبا بفعل دل عليه " قد جئتكم ".. أى جئتكم مصــدقا لما بين يدى من التوراة، ومعنى تصـديقه - عليه السـلام - للتوراة والإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصـواب، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها.

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل: إن الله - تعالى - قد أرسلني إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التي تثبت صـدقى. وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة. أي مقررا لها ومؤمناً بها.

ومعنى ما بين يدى: ما تقدم قبلى؛ لأن المتقدم الســابق يمشيــ بين يدى الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السـبق، وإن كان عيسىـ - عليه السـلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصـل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسـبقه بزمن طويل ويسـتعمل بين يدى كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قولــه - تعالى:{**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**} وقولــه:{**وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**} معمول لمقدر بعد الواو، أى: وجئتكم لأحل لكم بعض الأشــياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة.

أى أن شريعة عيسىـ جاءت متممة لشرـيعة موسى وناسـخة لبعض أحكامها، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسـبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قولـــه – تعـالى:{**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الـذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**} فجاءت شريعة عيسىـــ - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم.

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسىـ - عليه السـلام - نسـخ بعض شريعة التوراة وهو الصـحيح من القولين: ومن العلماء من قال: لم ينسـخ منها شيئا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنـازعون فيـه فأخطؤوا فكشـــف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية:{**وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ**} قالوا. ومن الأطعمة التي أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى: لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور.

وقولــــه:{**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ**} تحريض لهم على الاسـتجابة لما يدعوهم إليه.

قال الفخر الرازى: " وإنما أعاد قولـه - تعالى:{**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**} لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا في طباعهم. ثم خوفهم فقال:{**فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ**} لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم عن ربى".

ثم حكى القرآن أن عيسىـ - عليه السـلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبـداً لله مخلوقا لـــــه، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً فقال:{**إِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**} أى قال عيسى - عليه السـلام - داعيـاً قومـه إلى عبـادة اللـه - تعـالى: هو الـذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى ورباكم، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا لـه العبادة فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هي الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكت لنا بعض التوجيهات القويمة، والإرشـادات الحكمية التي نصـح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

والآن ينسـاق الذهن إلى سؤال هو: ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات؟

لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته[1].

* * * * *

المطلب الخامس:

عيسى عليه السلام مع قومه

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}[1].

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} أي: رأى منهم عدم الانقياد لـه، وقالوا: هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك**{قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله**{قَالَ الحَوَارِيُّونَ}** وهم الأنصار:**{نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك.

وقالوا:**{آمَنَّا بِاللَّهِ}** **{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا:**{وَمَكَرُوا}** أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره**{وَمَكَرَ اللَّهُ}** بهم جزاء لهم على مكرهم:**{وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ}** رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين.

{**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**} فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله{**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**}

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته: أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى:{**وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**} حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى:{**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**} ثم قال تعالى:{**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**} وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمدا ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ{**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**} أي: مصير الخلائق كلها{**فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**} كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان.

ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال:{**فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**} أي: بالله وآياته ورسله{**فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**} أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار{**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**}

ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون.

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله وملائكته وكتبه ورسـله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به**{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين**{فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ}** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه**{وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.

{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ} وهذه منة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:**{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**.

يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس لـه بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس لـه والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلا أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح إدعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالى:**{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الحَقُّ مِن رَّبِّكَ}**

أي: هذا الذي أخبرناك به من شـأن المسـيح عليه السـلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام.

{**فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**} أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليـل على قـاعـدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مســائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضـه فهو باطل، وكل شـبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب لــه عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى:{**فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّـلالُ**} وبهذه القاعدة الشرـعية تنحل عن الإنسـان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منـه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.{**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**}.

أي:{**فَمَن**} جادلك{**حَاجَّكَ**} في عيسىـ عليه السـلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته{**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ**} بأنه عبد الله ورســوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشـاق لله ورسـوله، قصـده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلـة، فـأمر اللـه نبيـه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنســاء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضــوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم فلم يجـدوا أهلا ولا مـالا وعوجلوا بـالعقوبة، فرضـــوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفســاد والعناد، فلهذا قال تعالى:{**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**}.

{**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**} فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة. وأخبر تعالى:{**إِنْ هَذَا**} الذي قصه الله على عباده هو{**الْقَصَصُ الْحَقُّ**} وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل{**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ**} فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة{**وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**} الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء{**الْحَكِيمُ**} الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل(١).

* * * * *

المطلب السادس:

دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (١).

وساق الطبرى بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله تعالى:{**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ..**}

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مع النبي ﷺ أو مع بعضهم البعض في حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم - عليه السلام -

---

أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك. ثم - وهذا هو الأهم - تكذيب دعوى النبي ﷺ أنـه على دين إبراهيم، وأن المســـلمين هم ورثة الحنيفية الأولى؛ وتشـــكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل..

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد؛ ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل. فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل. فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً؟ إنها دعوى مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ

{يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}.

ثم يمضي ـ في التنديد بهم؛ وإســقاط قيمة ما يدلون به من حجج وكشــف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار:

{هَـا أَنتُمْ هَؤُلاء حَـاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِـهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}.

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام؛ كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم تولوا وهم معرضــون.. وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر، أمـا أن يجادلوا فيما هو ســـابق على وجودهم، ووجود كتبهم ودياناتهم.. فهو الأمر الذي لا سـند لـــه ولو كان سنداً شكلياً.. فهو الجدل إذن لذات الجدل. وهو المراء الذي لا يسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوى.. ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول. بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول!

حتى إذا انتهى الســياق من إســقاط قيمة جدلهم من أســاســه، ونزع الثقة منهم ومما يقولون، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله. فهو - سـبحانه - الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم. وقولـــه الفصـل الـذي لا يبقى معـه لقـائل قول؛ إلا أن يجادل ويماري بلا ســلطان ولا دليل:**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياًّ وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**..

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم - عليه السلام - ما كان يهودياً ولا نصرانياً. وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده. ويقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام. فقد كان مسلماً.. مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه..**{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**.. وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها:**{وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً}**.. ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

يشير أولاً: إلى أن اليهود والنصارى - الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة - مشركون.. ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن حنيفاً مسلماً!

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر. فلا يلتقيان. الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه. وكل مقتضياته. ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً.

ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة.. فهو حنيف مسلم، وهم مشركون.

{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}!

وما دام أن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فليس لأي من اليهود أو النصارى - أو المشركين أيضاً - أن يدعي وراثته، ولا الولاية على دينه، وهم بعيدون عن عقيدته.

والعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام. حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض، إذا أنبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان. فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه. بالنفخة التي جعلت منه إنساناً. ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه. ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج! والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة، يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن. والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة، والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس؛ ويتجمعون أولياء - بالعقيدة وحدها - والله من ورائهم ولي الجميع:

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ}..

فالذين اتبعوا إبراهيم - في حياته - وساروا على منهجه، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه. ثم هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين. ثم الذين آمنوا بهذا النبي ﷺ فالتقوا مع إبراهيم - عليه السلام - في المنهج والطريق.

{وَاللَّهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ}..

فهم حزبه الذين ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره. وهم أسرة واحدة. وأمة واحدة. من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

وهذه الصورة هي أرقى صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني. وتميزه من القطيع! كما أنها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود. لأن القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية. فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر.. على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هي الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هي القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هي اللون - ولا يملك بيسر أن يغير لغته إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك بيسر أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلاً. ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور. الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه.

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم عناصره، المميزة له من القطيع!

والبشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام - أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور.. وإما أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون.. وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

ثم يكشـف للجماعة المسـلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مراء. ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسـمع من الجماعة المسـلمة أيضـاً. وهو يمزق عنهم الأردية التي يتخفون تحتها، فيقفهم أمام الجماعة المسـلمة عراة مفضوحين[1].

أنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات فى هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يخلصوا لله العبادة فقال{**قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**}.

والسـواء: العدل والنصـفة، أى قل يا محمد لأهل الكتاب: هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم.

أو السـواء: مصـدر مسـتوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسـل والكتب المنزلة والعقول السليمة، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق.

ثم بين - سـبحانه - هذه الكلمة العادلة المسـتقيمة التى هى محل اتفاق بين الأنبياء فقال:{**أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله**} أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان.

{**وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً**} أى ولا نشرك معه أحدا فى العبادة والخضوع، بأن نقول: فلان إله، أو فلان ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة.

{**وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله**} أى ولا يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله. قال الآلوسى: ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال: ما كنا نعبدهم يا رسـول الله. فقال ﷺ : «**أما كانوا يحلون منكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟**» قال: نعم. فقال ﷺ : «**هو ذاك**» [2] قيل إلى هذا أشـار - سـبحانه - بقولـه:{ **اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسـيح ابن مَرْيَمَ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ**}

فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر ـ أو حجر أو غير ذلك، وعن أن يتخذ أحد من البشر ـ فى مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه.

ولقد كانت رســالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قولـــه - تعالى:{**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**} وقولـه - تعالى:{**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون**} ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال:{**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}.

أى فإن أعرض هؤلاء الكفاء عن دعوة الحق، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، بل قولوا لهم: اشـهدوا: بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل.

قال صاحب الكشاف: وقولـــه:{**فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسـلموا بأنا مسـلمون دونكم. وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال وصراع أو غيرهما: اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعنا: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره"(١).

هـذا وتعتبر هـذه الآيـة الكريمـة من أجمع الآيـات التى تهـدى النـاس إلى طريق الحق بأسـلوب منطقى رصـين، ولذا كان النبى ﷺ يكتبها في بعض رسـائله التى أرسـلها إلى الملكوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام.

فقد جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل - ملك الروم:

" من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد:

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسـيين،{ **ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَـوَآءِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً**}

وأمـا النداء الثانى الذى اشـــتملت عليه هذه الآيات فقد تضـــمن نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شــأن إبراهيم - عليه الســلام - قال تعالى:{ **ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**}".

وسـاق ابن جرير بسـنده عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسـول الله فتنازعوا عنده، قالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا وقالت النصـارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله - تعالى - فيهم:{ **ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ**}.

وقولـــــه:{**تُحَآجُّونَ**} من المحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصـمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها [1].

والمعنى: لا يسـوغ لكم يا معشرـ اليهود والنصـارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيـدعى بعضـــكم أنـه كـان على الـديانة اليهودية، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرـانية، فإن التوارة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان طويلة، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده، أو كيف يكون نصرـانياً يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده، بآلاف السـنين؟ إن هذه المحاجة منكم فى شـأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد.

وقولـــــه:{**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**} أى أفلا تعقلون يـا أهـل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا للشىء المتأخر عنه؟

فالاســتفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه الســلام - كان يهودياً أو نصرانياً.

ثم بين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى:{**هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ**}.

والمعنى: أنتم يا معشر ـ أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة.

وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة، والنفوس المستقيمة.

وقوله - تعالى:{**هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ**} ها حرف تنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف و{**حَاجَجْتُمْ**} جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. والمعنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم " فيما لكم به علم " مما نطق به التوراة والإنجيل.{**فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**} ولا ذكر له. فى كتابيكم من دين إبراهيم... ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم".

وتكرير هاء التنبيه فى قوله:{**هاأنتم هؤلاء**} يشعر بغرابة ما هم عليه من جهل، ومجافاته لكل منطق سليم.

قال الرازي: وقوله:{**هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ**} يحتمل أنه لم يصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون عمله، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبته ".

وقولـــه - تعالى:{**والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**} تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم.

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعمل كل شىء فى هذا الوجود، وأنتم لا تعلمون ذلك[١].

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال - تعالى:{**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**}.

وقوله:{**حَنِيفاً**} من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال: تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة.

أى: ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهودياً كما قال اليهود، ولا نصرانياً كما قال النصارى ولكنه كان حنيفاً أى مائلا عن العقائد الزائفة متحرياً طريق الاستقامة وكان " مسلماً " أى مستسلما لله - تعالى - منقاداً لـــه مخلصاً لـــه العبادة{**وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**} الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة.

ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً او نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك.

وعن أنس رضى الله عنه قال: " جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ : «**ذاك إبراهيم عليه السلام**» [٢].

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال:{**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ**}.

وقوله - تعالى:{**أَوْلَى**} أفعل تفضيل من الولى وهو القرب.

والمعنى: إن أقرب الناس من إبراهيم، وأخصهم به، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة:

أولهم: بينه الله بقولــه:{**لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**} ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهودياً أو نصرانياً.

وثاني: هذه الأصناف: بينه - سبحانه - بقولــه:{**وَهَذَا النَّبِيّ**} والمراد به محمد ﷺ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم.

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به. وللإشـــعار بأنه ﷺ قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام -.

وثالث: هذه الأصناف: بينه الله - تعالى - بقولـه{**والذين آمَنُواْ**} أى: والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه.

وفى هذا تنويه بشــأن الأمة الإســلامية، وتقرير بأن أتباع محمد ﷺ أحق بالانتســاب إلى إبراهيم من أهل الكتاب لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم.

وقولـه:{**وَاللَّهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ**} تذييل مقصود به تبير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم ومتولى أمورهم.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليـل الـذين اتبعوه على دينـه، وهـذا النبى يعنى محمـدا ﷺ والـذين آمنوا من أصــحابه المهاجرين والأنصـار ومن تبعهم بعدهم. فعن ابن مسـعود أن رسـول الله ﷺ قال: «**إن لكل نبى ولايـة من النبيين، وإن وليى منهم أبى خليـل ربى عز وجـل إبراهيم عليه الســلام**». ثم قرأ:{**إِنَّ أَوْلَى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتبعوه**} (١).

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَــوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِــكَ بِهِ شَــيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}. هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم

{**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ**} والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله:{**سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**} أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله:{**أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**}

لا وَثَنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا نارًا، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى:{**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ**} (١).

وقال تعالى:{**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**} (٢).

ثم قال:{**وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**} وقال ابن جُرَيْج: يعني: يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله. وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعض.

{**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} أي: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وفي شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري،، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مُشْرِكًا لم يُسْلم بعد، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، كما هو مُصَرّح به في الحديث، ولأنه لما قال يغدر؟ قال: فقلت: لا ونحن منه في مُدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

"بِسْمِ الله الرحمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجرَك مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأريسيِّين:{ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}.

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله تعالى:{**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**} أي: كيف تَدَّعُون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تَدّعُون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال:{**أَفَلا تَعْقِلُونَ**}[1].

{**يَا أَهْلَ الكتَابِ**} من اليهود والنصارى{**لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إبراهيم**} أي في ملّته وشريعته. تنازعت اليهودُ والنصارى في إبراهيمَ عليه السلام وزعم كلٌّ منهم أنه عليه السلام منهم وترافَعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم{**وَمَا أُنزِلَتِ التوراة**} على موسى عليه الصلاة والسلام{**وَالإنجِيلَ**} على عيسى عليه الصلاة والسلام{**إِلاَّ مِن بَعْدِهِ**} حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألفُ سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوَّهَ به عاقلٌ{**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**} أي ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلانَ مذهبِكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بُطلانه{**هَا أَنتُمْ هَؤُلاء**} جملةٌ من مبتدأ وخبر صُدِّرت بحرف التنبيه ثم بُيِّنت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتِهم أي أنتم هؤلاءِ الأشخاصُ الحمق حيث{**حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ**}

في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل،{**فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**} أصلاً إذ لا ذِكْرَ لدين إبراهيمَ في أحد الكتابين قطعاً وقيل: هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلتُه وقيل: ها أنتم أصلُه أأنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزةُ هاءَ{**والله يَعْلَمُ**} ما حاججتم فيه أو كلَّ شيء فيدخُل فيه ذلك دخولاً أولياً{**وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**} أي محلَّ النزاعِ أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها ذلك{**مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِيّا**} تصريحٌ بما نطَق به البرهانُ المقرر{**وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا**} أي مائلاً عن العقائد الزائغة كلِّها{**مُّسْلِمًا**}

أي منقاداً لله تعالى، وليس المرادُ أنه كان على مِلّة الإسـلامِ وإلا لاشـترك الإلزامُ{**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} تعريضٌ بأنهم مشركون بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله وردٌّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام{**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ**} أي أقربَهم إليه وأخصّهم به{**لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**} أي في زمانه{**وَهَذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**} لموافقتهم لـه في أكثرِ ما شُرع لهم على الأصالة، وقرئ النبيّ بالنصب عطفاً على الضمير في اتبعوه وبالجر عطفاً على إبراهيمَ{**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**} ينصُرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر ليثبتَ الحكمُ في النبيِّ ﷺ بدَلالة النصِّ.

{**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ**} نزلت في اليهود حين دعَوا حُذيفةَ وعماراً ومُعاذاً إلى اليهودية و{**لَوْ**} بمعنى أن{**وَمَا يُضِلُّونَ إلا أنفُسَهُمْ**} جملةٌ حاليةٌ جيء بها للدَلالة على كمال رسوخِ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم أي وما يتخطاهم الإضلالُ ولا يعود وبالُه إلا إليهم لما أنه يُضاعفُ به عذابُهم وقيل: وما يُضلّون إلا أمثالَهم ويأباه قولـه تعالى:{**وَمَا يَشْعُرُونَ * أَهْلَ الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بأيات الله**} أي بما نَطَقتْ به التوراةُ والإنجيلُ ودلت على نبوة محمد ﷺ{**وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**} أي والحالُ أنكم تشهدون أنها آياتُ الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعتَه في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حقٌّ{**يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ**} بتحريفكم وإبرازِ الباطلِ في صورته أو بالتقصير في التمييز بينهما، وقرئ تلَبّسون بالتشديد وتلْبَسون بفتح الباء أي تلبسون الحقَّ مع الباطل كما في قولـه عليه السلام: «**كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»{**وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ**} أي نبوةَ محمد ﷺ ونعتَه{**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} أي حقِّيتَه.

{**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب**} وهم رؤساؤُهم ومفسدوهم لأعقابهم{**ءامِنُواْ بالذى أنزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا**} أي أظهِروا الإيمانَ بالقرآن المنْزلِ عليهم{**وَجْهَ النهار**} أي أولـه{**وَاكْفُرُوا**} أي أظهِروا ما أنتم عليـه من الكفر به{**ءاخِرَهُ**} مُرائين لهم أنكم آمنتم به باديَ الرأي من غير تأملٍ ثم تأملتم فيه فوقَفتم على خلل رأيِكم الأولِ فرجعتم عنه{**لَعَلَّهُمْ**} أي المؤمنين{**يَرْجِعُونَ**} عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم والمرادُ بالطائفة كعبُ بنُ الأشرفِ ومالكُ بنُ الصيفِ قالا لأصحابهما لما حُوِّلت القِبلة: آمِنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلّوا إليها أولَ

النهار ثم صـلوا إلى الصـخرة آخرَه لعلهم يقولون: هم أعلمُ منا وقد رجَعوا فيرجِعون، وقيل: هم اثنا عشرَ رجلاً من أحبار خيبر اتفقوا على أن يدخُلوا في الإسلام أولَ النهار ويقولوا آخرَه: نظرنا في كتابنا وشـاوَرْنا علماءَنا فلم نجِدْ محمداً بالنعت الذي ورد في التوراة، لعل أصحابه يشكّون فيه.

{**وَلاَ تُؤْمِنُواْ**} أي لا تُقرّوا بتصـديقٍ قلبيٍّ{**إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**} أي لأهـل دينكم أو لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النهار إلا لمن كان على دينكم من قبلُ، فإن رجوعَهم أرجى وأهمّ{**قُلْ إِنَّ الهـدى هُدَى الله**} يهدي به من يشـاءَ إلى الإيمان ويُثبّته عليه{**أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتيتُمْ**} متعلِّقٌ بمحـذوفٍ أي دبّرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحـدٌ مثـلَ مـا أوتيتم، أو بلا تؤمنوا أي ولا تظهِروا إيمانَكم بأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تُفْشـوه إلى المسـلمين لئلا يزيدَ ثباتُهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام.

وقولـه تعالى:{**قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله**} اعتراضٌ مفيدٌ لكون كيدِهم غيرَ مُجدٍ لطائل أو خبر إن على هـدى اللـه بدل من الهدى، وقرئ أن يؤتى على الاسـتفهام التقريعي وهو مؤيدٌ للوجـه الأولِ أي لأن يُؤتى أحـدٌ إلخ دبرتم؟ وقرئ أن على أنهـا نافيةٌ فيكونُ من كلام الطائفة، أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبِعَ دينَكم وقولوا لهم: مـا يؤتى أحـدٌ مثـلَ مـا أوتيتم{**أَوْ يُحَـاجُّوكُمْ عِندَ رَبّكُمْ**} عطفٌ على{**أَن يؤتى**} على الوجهين الأولين وعلى الثـالـث معنـاه حتى يحـاجوكم عنـد ربِّكم فيدحَضوا حُجتَكم، والواوُ ضميرُ{**أَحَدٌ**} لأنه في معنى الجمع إذ المرادُ به غيرُ أتباعهم{**قُلْ إِنَّ الفضـل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء والله واسع عَلِيمٌ**} ردٌّ لهم وإبطالٌ لما زعموه بـ{**يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ**} أي يجعل رحمتَه مقصورةً على{**مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**} كلاهما تذييلٌ لما قبله مقرِّرٌ لمضمونه. الحجة الباهرةِ. اختصاص وبالِه وضررِه بهم[1].

قـال تعالى:{**يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَـاءُ**} أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده.

وقولــــه:{**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ**} أى هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تســاوى عظمة فضــل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صــاحب النعم التى لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع.

* * * * *

المطلب الثامن:

إحقاق الحق وإبطال الشرك

{**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَـبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّـانِيِّينَ بِمَـا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُـــونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**}[1].

أي من اليهود طائفة تخيل للمسـلمين أشـياء أنها مما جاء في التوراة، وليست كذلك، إما في الاعتـذار عن بعض أفعالهم الذميمة، كقولهم: ليس علينا في الأميين ســبيل، وإما للتخليط على المسـلمين حتى يشككوهم فيما يخالف ذلك مما ذكره القرآن، أو لإدخال الشك عليهم في بعض مـا نزل بـه القرآن، فـاللّي مجمـل، ولكنـه مبين بقولـــــه:{**لِتَحْسَـــبُوهُ مِنَ الكِتَـابِ**} وقولـه:{**وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ**}.

واللّيّ في الأصـل: الإراغة أي إدارة الجسـم غير المتصـلب إلى غير الصـّوب الذي هو ممتدّ إليه: فمن ذلك ليّ الحَبْل، وليّ العنان للفَرس لإدارته إلى جهة غير صـوب سَيره، ومنه لَيّ العنق، وليّ الرأس بمعنى الالتفات والإعراض قال تعالى:{**لَوَّوْا رُءوسَهُمْ**}[2].

واللّي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسـان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى،

وهـذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم:{رَاعِنَا} وفي الحديث من قولهم في الســـلام على النبي ﷺ : "السامُ عـليكم" أي الموت أو "السِّلام بكسر السين عليك" وهذا الذى يشابه الإشمام والاختلاس ومنه إمالة الألف إلى الياء، وقد تتغير الكلمات بالترقيق والتفخيم وباختلاف صفات الحروف. والظـاهر أنّ الكتاب هو التوراة فلعلهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلـماتها بينَ بينَ ليوهموا المسـلمين معنى غير المعنى المراد، وقد كانت لهم مقدرة ومِراس في هذا.

وقريـب من هـذا ما ذكره المبرّد في الكامل أنّ بعض الأزارقة أعاد بيت عُمر بن أبي ربيعة في مجلس ابن عباس:

.... رَأَتْ رجلاً أما إذا الشـمس عَارَضـت فيضْحَـى وأما بالعشي فيخصر... فجعل يضـحى يَحْزَى وجعل يَخصر يخسر بالسين لِيشوّه المعنى لأنه غضب من إقبال ابن عباس على سماع شـعره. وفي الأحاجي والألغاز كثير من هذا كقولهم: إنّ للآهي إلهاً فوقَه فيقولها أحد بحضرـة ناس ولا يشـبع كسرـة اللآهي يخالها السـامع لله فيظنه كَفَر. أو لعلهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيات أو اللحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيلوا للسامعين أنهم يقرؤون التوراة.

ويحتمـل أن يكون اللّي هنـا مجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم: لوى الحجة أي ألقي بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضـعه: بالتأويلات الباطلة، والأقيسـة الفاسـدة، والموضـوعات الكاذبة، وينسـبون ذلك إلى الله، وأياماً كان فهذااللّيّ يقصـدون منه التمويه على المســلمين لغرض، حكما فعل ابن صـــوريا في إخفاء حكم رجم الزاني في التوراة وقولـه: نحَمم وجهه.

والمخاطب يتحسبوه المسلمون دون النبي ﷺ أو هو والمسلمون في ظنّ اليهود.

وجيء بالمضـــارع في هاته الأفعال: يلوون، ويَقُولون، للدلالة على تجدّد ذلك وأنه دأبهم. وتكرير الكتاب في الآية مرتين، واسم الجلالة أيضاً مرتين،

لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما، والمتعلقين به، قال المرزوقي في شرح الحماسة في باب الأدب عند قول يحيى بن زياد:

لما رأيت الشـيب لاح بياضـه بمفرق :::: رأسي قلـت لـلشـيب مـرحـبـا

كان الواجب أن يقول: "قلت لـــه مرحبا لكنهم يكرّرون الأعلام وأسـماء الأجناس كثيراً والقصد بالتكرير التفخيم". قلت ومنه قول الشاعر:

لا أرى المـوت يسـبق الموت شيء :::: قـهـر المـوت ذا الـغـنـى والـفـقـيرا

والقراءة المعروفة يلوون: بفتح التحتية وسـكون اللام وتخفيف الواو مضـارع لوى، وذكر ابن عطيّة أنّ أبا جعفر قرأه: يُلَوون بضم ففتح فواو مشدّدة مضارع لوّى بوزن فعل للمبالغة ولم أر نسبة هذه القراءة إلى أبي جعفر في كتب القراءات.

اعتراض واسـتطراد: فإنه لما ذكر لَيّ اليهودِ ألسـنتَهم بالتوراة، وهو ضرب من التحريف، استطرد بذكر التحريف الذي عند النصارى لمناسبة التشابه في التحريف إذ تقَوّل النصارى على المسيح أنه أمرهم بعبادته فالمراد بالبشر- عيسى- عليه السلام، والمقصود تنزيه عيسى عن أن يكون قال ذلك، ردّاً على النصارى، فيكون رجوعاً إلى الغرض الذي في قولـه:{**قُلْ يَا أَهْلَ الكتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءِ بَيْنَنَا وَبينَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[1].

وفي "الكشاف": قيل نزلت لأنّ رجلاً قال: يا رسول الله نُسلمُ عليك كما يُسلم بعضنا على بعض أفلا نسـجد لك. قال: « **لا ينبغي أن يُسـجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيئكم واعرِفوا الحق لأهلـه**» قلـت: أخرجـه عبـد بن حميد عن الحسـن، فعلى تقدير كونه حديثاً مقبولاً فمنـاسـبة ذكر هذه الآية أنها قصـد منها الردّ على جميع هذه المعتقدات. ووقع في أسـباب النزول للواحدي مِن رواية الكلبي، عن ابن عباس: أنّ أبا رافع اليهودي والسـيدَ مِن نصارى نجران قالا يا محمد: "أتريد أن نعبدك" فقال رسول الله ﷺ : «**معاذ الله أن يُعبد غير الله**» ونزلت هذه الآية.

وقولـه:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ} نفي لاستحقاق أحد لذلك القول واللام فيه للاستحقاق. وأصل هذا التركيـب في الكلام مـا كان فُلان فاعلاً كذا، فلما أريدت المبالغة في النفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصـدر الدال على الجنس، وجعل نفي الجنس عن الشخص بواسطة نفي الاستحقاق إذ لا طريقة لحمل اسم ذات على اسم ذات إلاّ بواسطة بعض الحروف، فصار التركيب: ما كان لــه أن يفعل، ويقال أيضاً: ليس لــه أن يفعل، ومثل ذلك في الإثبات كقولـه تعالى:{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى}[١].

فمعنى الآية: ليس قولُ:{كُونُوا عِبَاداً لِّي} حقاً لبشرـ أيِّ بشرـ كان. وهذه اللام هي أصـل لام الجحود التي في نحو:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ}[٢]، فتراكيب لام الجحود كلّها من قبيل قلب مثل هذا التركيب لقصـد المبالغة في النفي، بحيث ينفى أن يكون وجود المسـند إليه مجعولاً لأجل فِعْل كذا، أي فهو بريء منه بأصل الخلقة ولذلك سميت جحوداً.

والمنفي في ظـاهر هـذه الآية إيتاء الحكم والنبوءة، ولكن قد علم أنّ مصـبّ النفي هو المعطوف من قولــه:{ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي} أي ما كان لــه أن يقول كونوا عباداً لي إذا آتاه الله الكتاب

والعبـاد جمع عبد كالعبيد، وقال ابن عطية: "الذي اسـتقريت في لفظ العباد أنه جمع عبد لا يقصـد معه التحقير، والعبيد يقصـد منه، ولذلك قال تعالى: "يا عبادي» وسمّت العرب طوائف من الـ عرب سـكنوا الحِيرة ودخلوا تحت حكم كِسرـى بالعباد، وقيل لأنهم تنصّرـوا فسـموْهم بالعباد، بخلاف جمعه على عَبيد كقولهم: هم عبيد العَصـا، وقال حمزةُ بنُ عبد المطلـب هـل أنتم إلاّ عبيـدٌ لأبي؟ ومنه قول الله تعالى:{وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ}[٣]؛ لأنّه مكان تـ شـفيق وإعْلام بقلـة مقـدرتهم وأنـه تعـالى ليس بظلاّم لهم مع ذلك، ولما كان لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا،

ولذلك آنس بها في قولـــه تعالى:{**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ**}[1] فهذا النوع من النظر يُسلك به سُبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن على الطريقة العربية السلبية».

وقولـــه:{**مِن دُونِ اللَّهِ**} قيد قصـد منه تشـنيع القول بأن يكونوا عباداً للقائل بأنّ ذلك يقتضي أنهم انسـلخوا عن العبودية لله تعالى إلى عبودية البشر، لأنّ حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين، فإنّ النصـــارى لما جعلوا عيسىـــ رباً لهم، وجعلوه ابناً للّه، قد لزمهم أنهم انخلعوا عن عبوديـة اللـه فلا جـدوى لقولهم: نحن عبـد اللـه وعبيدُ عيسىـــ فلذلك جعلت مقالتُهم مقتضية أنّ عيسى أمرهم بأن يكونوا عباداً لـــه دون الله، والمعنى أنّ لآمرٍ بأن يكون الناس عباداً لـه هو آمر بانصرافهم عن عبادة الله.{**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**} أي ولكن يقول: كونوا ربانيين أي كونوا منســوبين للربّ، وهو الله تعالى، لأنّ النســب إلى الشيـــء إنما يَكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه.

ومعنى ذلك أن يَكونوا مخلصين لله دون غيره. والربّاني نسبة إلى الرب على غير قياس كما يقال اللّحياني لعظيم اللحية، والشَّعراني لكثير الشعرَ.

وقولـــــه:{**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ**} أي لأنّ علمكم الكتاب من شـأنه أن يصـدّكم عن إشراك العبادة، فإنّ فائدة العلم العمل.

وقرأ الجمهور: بما كنتم تعلمون بفتح المثناة الفوقية وســكون العين وفتح اللام مضـــارع عَلِم. وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصـم، والكسـائي، وخلف: بضـم ففتح فلام مشدّدة مكسورة مضارع عَلَّم المضاعف.

{**تَدْرُسُـونَ**} معناه تقرؤون أي قراءة بإعادة وتكرير: لأنّ مادّة درس في كلام العرب تحوم حول معاني التأثر من تكرّر عمل يُعمل في أمثاله، فمنه قولهـم: دَرَسَـت الريحُ رسـمَ الدار إذا عفته وأبلته، فهو دارس، يقال منزل دارس، والطريق الدارس العافي الذي لا يتبين. وثوب دارس خَلَقٌ، وقـالوا: دَرَس الكتـاب إذا قرأه بتمهّل لحفظه، أو للتدبّر، وفي الحديث: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة**» إلخ

رواه الترمذي فعطَفَ التدارس على القراءة فعُلم أنّ الدراسة أخصّ من القراءة. وسموا بيت قراءة اليهود مدْرَاساً كما في الحديث: إنّ النبي ﷺ خرج في طائفة من أصحابه حتى أتى مدراس اليهود فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلخ. ومادة درس تستلزم التمكن من المفعول فلذلك صار درس الكتاب مجازاً في فهمه وإتقانه ولذلك عطف في هذه الآية:{**وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**} على{**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ**}.

وفي قوله:{**وَلاَ يَأْمُرَكُمْ**} التفات من الغيبة إلى الخطاب.

وقرأ الجمهور "يأمُرَكم» بالرفع على ابتداء الكلام، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي، فإنه لما وقع بعد فعل منفي، ثم انتقض نفيه بلكن، احتيج إلى إعادة حرف النفي، والمعنى على هذه القراءة واضح: أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا إلخ ولا هو يأمُرهم أن يتخذوا الملائكة أرباباً. وقرأه ابن عامر، وحمزة ويعقوب، وخلف: بالنصب عطفاً على أن يقولَ ولا زائدة لتأكيد النفي الذي في قوله:{**مَا كَانَ لِبَشَرٍ**}، وليست معمولة لأنْ: لاقتضاء ذلك أن يصير المعنى: لا ينبغي لبشر أوتي الكتاب ألاّ يأمركم أن تتخذوا، والمقصود عكس هذا المعنى، إذ المقصود أنه لا ينبغي له أن يأمر، فلذلك اضطرّ في تخريج هذه القراءة إلى جعل لا زائدة لتأكيد النفي وليست لنفي جديد.

قال ابن عرفة: "إن قيل نفي الأمر أعم من النهي فهلا قيل وينهاكم. والجواب أنّ ذلك باعتبار دعواهم وتقوّلهم على الرسل». وأقول: لعلّ التعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله:{**ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ**} لأنهم زعموا أنّ المسيح قال: إنه ابنُ الله فلما نفي أنه يقول ذلك نفي ما هو مثله وهو أن يأمرَهم باتخاذ الملائكة أرباباً، أو لأنهم لما كانوا يدّعون التمسك بالدين كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه، أو لأنّ المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر، إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدينة فاقتصر في الردّ على الأمة، على أنّ أنبياءهم لم يأمروهم به ولذلك عقب بالاستفهام الإنكاري، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله:{**أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**}.

فهناك سببان لإنكار أن يكونَ ما هم عليه مُرضياً أنبياءهم؛ فإنه كفر، وهم لا يرضون بالكفر. فما كان من حقّ من يتبعونهم التلبّس بالكفر بعد أن خرجوا منه.

والخطاب في قولـــه:{وَلاَ يَأْمُرَكُمْ} التفات من طريقة الغيبة في قولـــه:{ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ} فالمواجَه بالخطاب هم الذين زعموا أنّ عيسى_ قال لهم: كونوا عباداً لي من دون الله

فمعنى:{أَنتُم مُّسْـلِمُونَ} يقتضي_ أنّهم كانوا مسـلمين والخطاب للنصـارى وليس دينهم يطلق عليه أنه إسلام. فقيل: أريد بالإسلام الإيمان أي غير مشركين بقرينة قولـه:{بِالْكُفْرِ}.

وقيل: الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قولـه:{إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} لأنّ اليهود والنصارى لم يوصـــفوا بـأنهم مســـلمون في القرآن، فهذا الذي جرّأ من قالوا: إنّ الآية نزلت لقول رجل لرسول الله ﷺ : "ألاَ نسجد لك " ؟، ولا أراه لو كان صحيحاً أن تكون الآية قاصدة إياه؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: ثم يأمر الناس بالسـجود إليه، ولما عرّج على الأمر بأن يكونوا عباداً لـــــه من دون الله ولا بأن يتّخذوا الملائكة والنبيين أرباباً [1].

المطلب التاسع:

الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف

{ **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}[1].

المخاطب بفعل قل: هو النبي ﷺ ليقول ذلك بمسمع من الناس: مسلمهم، وكافرهم، ولذلك جاء في هذه الآية قوله:{**وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**} أي أنزل عليّ لتبليغكم فجعل إنزاله على الرسول والأمة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل، وعدّى فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أنّ الإنزال يقتضي علواً فوصول الشيء المنزَل وصول استعلاء وعدّي في آية سورة البقرة بحرف (إلى) باعتبار أنّ الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدّى بحرف (إلى). والجملة اعتراض. واستئناف: لتلقين النبي عليه السلام والمسلمين كلاماً جامعاً لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويعلن به للأمم، نشأ عن قوله:{**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ**} [2].

ومعنى:{**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**} أننا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حبّ نبينا على كراهتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى، وحذف المعطوف وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة. وهذه الآية شعار الإسلام وقد قال الله تعالى:{**وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**}[3]. وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

عطف على جملة{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّـهِ يَبْغُونَ} وما بينهما اعتراض، كما علمت، وهذا تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقولهم: نحن على ملة إبراهيم، فنحن ناجون على كلّ حال. والمعنى من يبتغ غير الإسلام بعد مجيء الإسلام.

استئناف ابتدائي يناسب ما سبقه من التنويه بشرف الإسلام.

(وكيف) استفهام إنكاري والمقصود إنكار أن تحصل لهم هداية خاصة وهي إما الهداية الناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به، وإسنادها إلى الله ظاهر؛ وإما الهداية الناشئة عن إعمال الأدلة والاستنتاج منها، وإسنادُها إلى الله لأنّه موجد الأسباب ومسبّباتها. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في الاستبعاد، فإنهم آمنوا وعلموا ما في كتب الله، ثمّ كفروا بعد ذلك بأنبيائهم، إذ عبدَ اليهود الأصنام غير مرة، وعبد النصارى المسِيح، وقد شهدوا أنّ محمداً صادق لقيام دلائل الصدق، ثم كابروا، وشككوا الناس. وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال، وإنما تسري الهداية لمن أنصف وتهيّأ لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا أنفسهم. وقيل: نزلت في اليهود خاصّة. وقيل: نزلت في جماعة من العرب أسلموا ثم كفروا ولحقوا بقريش ثم ندموا فراسلوا قومهم من المسلمين يسألونهم: هل من توبة ؟ فنزلت، ومِنهم الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطُعيمة بن أُبَيْرِق.

وقوله:{وَشَهِدُوا} عطف على{إِيمَانِهِمْ} أي وشهادتهم، لأنّ الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق يحسن عطفه على الفعل وعطفُ الفعل عليه.

الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما يَرد بعد اسم الإشارة من الحُكم عليهم. وتقدم معنى{لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} في سورة البقرة (١٦١). وتقدم أيضاً معنى{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} في سورة البقرة (١٦٠)، ومعنى فإن الله غفور رحيم، الكناية عن المغفرة لهم. قيل: نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري من بني عمرو بن عوف الذي ارتدّ ولحق بقريش وقيل بنصارى الشام، ثم كتب إلى قومه ليسألهم هل من توبة، فسألوا رسول الله فنزلت هذه الآية فأسلم ورجع إلى المدينة وقوله:{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنه غفور رحيم[1].

وقولـــه - تعالى:{**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**} بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسـخ فى قلوب المؤمنين وعلى رأسـهم هاديهم ومرشـدهم محمد ﷺ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم - سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة لـــه، وإذا وجد تفاضـــل أو اختلاف فهذا التفاضـــل والاختلاف يكون فى أمور أخرى ســـوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، ســـوى ما اتفقت عليه الشرـائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق. وقد جاءت رســـالة محمد ﷺ خاتمة للرســـالات، وجامعة لكل ما فيها من محاســـن فوجب الإيمان بها، وإلا كان الكفر بها كفراً بجميع الرسالات السابقة عليها.

وقولـــه:{**وَنَحْنُ لـــه مُسْلِمُونَ**} يفيد الحصر، نحن لـــه وحده أسلمنا وجوهنا، وأخلصنا عبـادتنـا. لا لغيره كـائنـا من كـان هذا الغير. وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين.

ثم بين - ســـبحـانـه - أن كـل من يطلـب دينا ســـوى دين الإســـلام فهو خاسر فقال - تعالى:{**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**}.

أى: ومن يطلب دينا سـوى دين الإسـلام الذى أتى به - عليه الصلاة والسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسـلام، لأن دين الإسـلام الذى جاء به محمد، هو الدين الذى ارتضـــاه الله لعباده قال - تعالى: {**اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـــيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً**} ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات، وجمع فيه محاسنها.

أما عاقبة هذا الطالب لدين سـوى دين الإسـلام فقد بينها - سبحانه - بقولـــه:{**وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**}.

أى وهو فى الآخرة من الذين خسرــوا أنفســـهم بحرمانهم من ثواب الله، واســـتحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال.

وفى الحديث الشرـــيف: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**» أى مردود عليه، وغير مقبول منه.

وفى الإخبار بالخسران عن الذى يبتغى أى يطلب دينا سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع دينا سوى دين الإسلام يكون أشد خسرانا، وأسوأ حالا، لأن الطلب أقل شرا من الاتباع الفعلى.

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا ما فسد منهم، استمع إلى القرآن وهو يصور هذا المعنى بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:{**كَيْفَ يَهْدِي**...}.

روى المفسرون روايات فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال: إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا لى رسول الله ﷺ : هل لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم[1].

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات. قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله - ما علمت - لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله - عز وجل - لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصرى أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت النبى ﷺ فى كتابهم وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم.

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هى الرواية التى جاءت عن الحسن البصرى بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة ولأن القرآن قد ذكر فى غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبى ﷺ

كما يعرفون أبناءهم، وأنهم كانوا يستفتحون به{**عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ**} ومع هـذا فليس هنـاك مـا يمنع من أن يكون حكم هـذه الآيات شـــاملا لكل من ذكرتهم الروايات ولكل من يشابههم، إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن جرير - بعد أن سـاق هذه الروايات - ما ملخصـه: وأشـبه هذه الأقوال بظاهر التنزيـل مـا قـاله الحســـن، من أن هذه الآيات معنى بها أهل الكتاب على ما قال، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسـبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسـلام، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ فى هذه الآيات، ثم عرف عباده سـنته فيهم فيكون داخلا فى ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث ثم كفى به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أســـلم على عهده ﷺ ثم ارتد وهو حى عن إسلامه، فيكون معينا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله[1].

والاستفهام فى قولــه - تعالى:{**كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**} للنفى ولاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المســتقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضـلال، مع علمهم بالحق، وإيمانهم به لفترة من الوقت.

والمعنى: أن اللـه - تعـالى - جرت ســنتـه فى خلقـه ألا يهدى إلى الصرـاط المســتقيم، قوما{**كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**} أى ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وبعد أن{**شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ**} وهو محمـد ﷺ " حق " وأنـه صـادق فيما يبلغه عن ربه، وبعد أن{**جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**} أى البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما يدعيه، من قرآن كريم عجز البشرـ عن الإتيان بسـورة من مثله، ومن معجزات باهرة دالة على صدقه ﷺ.

فـأنت ترى أن حالهم التى أوجبت هذا النفى والاســتبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين، وكانوا يشهدون بأن الرسول حق، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم

وشـــهادتهم، ومع كـل ذلـك اســـتحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان، واسـتولى عليهم التعصـب بالباطل فأرداهم وحرمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسـهم ويتوبوا عن غيهم، ويصلحوا ما أفسدوه، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم.

قال صاحب الكشاف: " قولـــه:{**كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً**} أى كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصـميمهم على كفرهم، ودل على تصـميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءته الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبـت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات [1].

فإن قلت: علام عطف قولـه:{**وَشَهِدُوا**}؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل، لأن معناه بعد أن آمنوا. ويجوز أن تكون الواو للحال بإضـــمار "قد". بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق ".

وقولـه - تعالى:{**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**} جملة حالية أو معترضة.

والمعنى: أنه - سـبحانه - قد مضـت سـنته فى خلقه أنه لا يهدى إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان، عن تعمد وإصرار، ووضـعوا الشىء فى غير موضـعه مع علمهم بسوء صنيعهم.

وفى تـذييـل الآيـة الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم، إشـــعار بأنهم قد ظلموا أنفسـهم بإيقاعها فى مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذى شهدوا لــــه بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا بـه، وظلموا الحقائق والبراهين التى نطقت بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم.

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمور إدراكا سليما، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «**اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة**».

ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال:{**أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**}.

قال الراغب: اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله - تعالى - في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره ".

والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة{**جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّه**} أي جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب استحبابهم الكفر على الإيمان{**وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**} أي وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم، ودعاؤهم عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله

وقوله:{**أُوْلَئِكَ**} مبتدأ. وقوله:{**جَزَاؤُهُمْ**} مبتدأ ثان، وقوله:{**أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله**} إلخ.. خبر المبتدأ الثاني، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول.

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم، صادرة من الله وهي أشد ألوان اللعن، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أي أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق.

قال الفخر الرازي ما ملخصه: فإن قيل: لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم في كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه: منها أنهم في الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال - تعالى:{**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**} فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد حصل للكفار من الكفار. ومنها كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال:{**أَجْمَعِينَ**}. ومنها وهو الأصح عندي: أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافرا فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك [1]".

ثم أكـد - ســبحـانـه - تلـك العقوبـة بعقوبـة أخرى لازمة لها ما داموا على تلك الحالة الشـنيعة فقال - تعالى:{**خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب**} بسبب إصرارهم على الكفر فى الدنيا، وانغماســهم فيما يغضــب الله{**وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ**} أى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العـذاب بـل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال أو التأخير بســبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرور وآثام.

ولكن القرآن - مع هـذا - يفتح بـاب التوبـة لمن أراد أن يتوب، وينهى النـاس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصـلحوا فيقول - بعد تلك الحملة المرعبة التي شنها على الكفر والكافرين:{**إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}.

أى: أن اللعنـة مســتمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وهم خالدون فى العذاب يوم القيـامـة بدون إمهال أو تأخير، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر الذى ارتكبوه، وعن الظلم الذى اقترفوه، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق، وحافظوا على أداء الأعمال الصــالحة " فإن الله - تعالى - غفور رحيم " أى فإنه ســبحانه يغفر لهم ما سلف منهم من كفر وظلم.

ففى هـذه الآيـة الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن كفرهم وللمذنبين بأن يثوبوا إلى رشــدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم، فإنه - ســبحانه - يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحســن التوبة، فهو القائل:{**قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَــــه**} أما الذين لا يتوبون ولا يسـتغفرون ولا يثوبون إلى رشدهم. بل يصرون على الكفر فيزدادون كفراً. والذين يرتكســون فى كفرهم وضــلالهم حتى تفلت منهم الفرصــة، وينتهى أمد الاختبار، ويأتى دور الجزاء، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة.

* * * * *

المطلب العاشر:

أصناف الكفار

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (١).

صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر فقال - تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ}**.

أى استمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال فكأن الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاث أصناف من الكافرين: قسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته. وهذا القسم هو الذى استثناه الله بقوله:**{إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** وقسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة، فلم يقبلها الله - تعالى - منه.

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة:**{إِنَّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولئك هُمُ الضآلون}**.

وقسم كان كافراً واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله:**{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ}**.

أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا منه. وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله:**{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ}**.

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه. لن يقبل الله - تعالى - من أحدهم ما كان قد أنفقه فى الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهبا، لأن كفره قد أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى:**{وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً}**(٢)

وكذلك لن يقبل الله - تعالى - عن أحدهم فدية عن عقابه الشديد لـه بسبب موته على الكفر. ولو كان ما يفتدى به نفســه ملء الأرض ذهباً، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب.

قال ابن كثير: قولـه - تعالى:{**فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ**}.

أى من مـات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة كما ســئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضــيف، ويفك العانى، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «**لا، إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين**» [١] وكذلك لو افتدى - نفســه فى الآخرة - بملء الأرض أيضـاً ذهباً ما قبل منه، كما قال - تعالى:{**وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**} وقال - تعالى:{**إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} ثم قـال: عن أنس بن مـالك أن النبى ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيـت لو كـان لـك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله لـــه: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك**» [٢].

وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال: قال رســول الله ﷺ : «**يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله لــه: يا ابن آدم كيف وجدت منــزلك؟ فيقول: أى رب، خير منـزل. فيقول الله - تعالى - لـه: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات - لما يرى من فضـل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول لـــه: كيف وجدت منــزلك؟ فيقول: أى رب! شر منــزل، فيقول لـه: أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهبا؟ فيقول أى رب! نعم فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار**» [٣].

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: فلم قيل فى الآية السابقة:{لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} بغير فاء. وقيل هنا:{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم} بوجود الفاء ؟ قلت: قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذى جاءنى له درهم، لم تجعل المجىء سببا فى استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم ".

وقوله:{ذَهَباً} منصوب على أنه تمييز. وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء وأعزها على النفس.

وقوله:{وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} جملة حالية، والواو للحال. أى لا يقبل من الذى مات على كفره هذا الفداء ولو فى حال افتراض تحقق هذا الفداء فى يده وتقديمه إياه لكى يدفعه لخالقه وينجو من العقوبة التى توعده بها.

أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره، حتى ولو فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا. وحتى لو فرضنا أنه ملك هذا المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من العذاب، فإن كل ذلك غير مقبول منه، ولا بد من نزول العذاب به.

والحالة المذكورة. وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العذاب، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه ".

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:{أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ}.

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم، وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم، أو تخفيف وقعه عليهم.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب، وأقسى أنواع العقاب، حتى يقلعوا عن كفرهم، ويثوبوا إلى رشدهم.

* * * * *

المبحث الثالث: مقاصد القرآن ونعم الله على عيسى عليه السلام والتبشير بمحمد ﷺ:

المطلب الأول:

تحريف الكتب الإلهية، وإهمال الهداية

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}[1].

قوله:**{يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا}**.

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله:**{يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ}**، اليهود الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، يختارون الضلالة وذلك: الأخذ على غير طريق الحقّ، وركوبَ غير سبيل الرشد والصواب، مع العلم منهم بقصد السبيل ومنهج الحق. وإنما عنى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامهم على التكذيب بمحمد ﷺ، وتركهم الإيمان به، وهم عالمون أنّ السبيل إلى الحقَّ الإيمانُ به، وتصديقه بما قد وجدوا من صفته في كتبهم التي عندهم. وأما قوله: "و يريدون أن تضلوا السبيل"، يعني بذلك تعالى ذكره: ويريد هؤلاء اليهود الذين وصَفهم جل ثناؤه بأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب " أن تضلوا" أنتم، يا معشر أصحاب محمد ﷺ، المصدقين به " أن تضلوا السبيل"، يقول: أن تزولوا عن قصد الطريق ومَحَجّة الحق، فتكذبوا بمحمد، وتكونوا ضلالا مثلهم.

وهذا من الله تعالى ذكره تحذيرٌ منه عبادَه المؤمنين، أن يستنصحوا أحدًا من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئًا من طعنهم في الحق.

ثم أخبر الله جلّ ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: "والله أعلم بأعدائكم"، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوَة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغشِّ والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا.

وأما قوله: "وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيراً"، فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمّكم، وينصركم على أعدائكم "وكفى بالله وليّا"، يقول: وكفاكم وحسْبكم بـ الله ربكم وليّا يليكم ويلي أموركم بالحياطة لكم، والحراسة من أن يستفزّكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدّوكم[1].

فالمقصود من الآية الكريمة: تعجيب المؤمنين من سوء أحوال أولئك الأحبار، وتحذير لهم من موالاتهم أو من الاستماع إلى أكاذيبهم وشبهاتهم.

والخطاب لكل من يصلح له من المؤمنين. وتوجيهه إلى النبى ﷺ هنا مع توجيهه بعد ذلك إلى الكل - فى قوله:{**أَن تَضِلُّواْ**} - للإيذان بكم الشهرة شناعة حال أولئك اليهود، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها أو يعلمها.

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، ولم يؤتوا الكتاب كله، لأنهم نسوا حظا كبيراً مما ذكروا به، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل، وهذا القليل لم يعملوا به بل حرفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم وشهواتهم.

وقوله:{**يَشْتَرُونَ الضلالة وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السبيل**} هو موطن التعجب من شأنهم لأنهم لا يطلبون الضلالة بفتور أو تريث وإنما يطلبونها بشراهة ونهم ويدفعون فيها أغلى الأثمان وهو الهدى، ولا يكتفون بذلك بل يبتغون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى الضلال.

وقولـه:{**والله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ**} جملة معترضة للتأكيد والتحذير.

أى: والله - تعالى - أعلم بأعدائكم منكم - أيها المؤمنون - وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور فاحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم وأعدوا العدة لتأديبهم دفاعا عن دينكم وعقيدتكم.

وقوله:{ **وكفى بالله وَلِيّاً وكفى بالله نَصِيراً**} تذييل قصد به غرس الطمأنينة فى نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم.

أى:{**وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِياً**} يتولى أموركم، ويصلح بالكم،{**وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً**} يدفع عنكم مكرهم وشرورهم؛ وما دام الأمر كذلك فاكتفوا بولايته ونصرته. واعتصموا بحبله، وأطيعوا أمره، ولا تكونوا فى ضيق من مكر أعدائكم فإن الله ناصركم عليهم بفضله وإحسانه.

وقوله:{**وَكَفَى**} فعل ماض. ولفظ الجلالة فاعل والباء مزيدة فيه لتأكيد الكافية. ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز. وقيل على الحال.

وكرر - سبحانه - الفعل كفى لإلقاء الطمأنينة فى قلوب المؤمنين، لأن التكرار فى مثل هذا المقام يكون أكثر تأثيرا فى القلب، وأشد مبالغة فيما سيق الكلام من أجله.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة. ومن كان الله كافيه نصره على عدوه فاطمئنوا ولا تخافوا.

ثم ذكر - سبحانه - ألواناً من الأقوال والأعمال القبيحة التى كان اليهود يقولونها ويفعلونها للإساءة إلى النبى ﷺ وإلى المسلمين فقال:{**مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ**}. وتحريف الشىء إمالته وتغييره. ومنه قولهم: طاعون يحرف القلوب، أى يميلها ويجعلها على حرف، أى جانب وطرف. وأصله من الحرف يقال: حرف الشىء عن وجهه، صرفه عنه.

من الذين هادوا: قوم أو فريق من صفاتهم أنهم يحرفون الكلم من مواضعه أى يميلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، ويفسرونه تفسيراً سقيماً بعيداً عن الحق والصواب.

قال الفخر الرازى: فى كيفية التحريف وجوه:

أحدها: أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر. مثل تحريفهم اسم " ربعة " عن موضعه فى التوراة بوضعهم " آدم طويل "، وكتحريفهم الرجم بوضعهم الجلد بدلـه.

الثانى: أن المراد بالتحريف إلقاء الشـبه الباطلة، والتأويلات الفاسـدة، وصرف اللفظ من معنـاه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم. وهذا هو الأصح.

الثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ويسـألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه.

والذى نراه أولى أن تحريف هؤلاء اليهود الكلم عن مواضـعه يتناول كل ذلك، لأنهم لم يتركوا وسـيلة من وسـائل التحريف الباطل إلا فعلوها، أملا منهم فى صرف الناس عن الدعوة الإِسلامية، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم.

قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف قيل ههنا:{**عَن مَّوَاضِعِهِ**} وفى المائدة{**مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**} قلت: " أما عن مواضـعه " فعلى ما فسرـنا من إزالته عن مواضـعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه.

وأما{**مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**} فالمعنى أنه كان لـــه مواضع فمن بأن يكون فيها. فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع لـه بعد مواضعه ومقاره. والمعنيان متقاربان.

ثم حكى - سبحانه - لوناً ثانياً من ضلالتهم فقال:{**وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**} أى. ويقولون للنبى ﷺ إذا ما أمرهم بشىء: سمعنا قولك وعصينا أمرك فنحن مع فهمنا لما تقول لا نطيعك لأننا متمسكون باليهودية.

ثم حكى - سـبحانه - لوناً ثالثاً من مكرهم فقال:{**واسـمع غَيْرَ مُسْـمَعٍ**} وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وداخلة تحت القول السابق.

أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبتهم للنبى ﷺ وهو كلام ذو وجهين وجه محتمل للشرـ بأن يحمل على معنى " اسـمع " حال كونك غير مسمع كلاما ترضاه. ووجه محتمل للخير. بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاماً تكرهه.

فأنت تراهم - لعنهم الله - أنهم كانوا يخاطبون النبى ﷺ بهذا الكلام المحتمل للشر والخير موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير، مع أنهم لا يريدون إلا الشر، بسبب ما طفحت به نفوسهم من حسد للنبى ﷺ وللمسلمين.

ثم حكى - سبحانه - لونا رابعاً من خبثهم فقال:{**وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدين**} وهو كلام معطوف على ما قبله وداخل تحت القول السابق[١].

وذكر في موضع آخر أنهم كثير، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق**}[٢].

وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين، وإنما يقع منهم - أعني المتمنين الضلال للمسلمين - وهو قوله:{**وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**}[٣].

قوله جل ثناؤه:{**وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ**}.

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن اليهود الذين كانوا حول مهاجرى رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبّون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يَسُبّه: "اسمع، لا أسمعَك الله"{**وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**}.

قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وراعنا"، أي: راعنا سمعك، افهم عنّا وأفهمنا[٤].

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه. ويطمعهم - بعد ذلك كله - في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير

من الله. لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم. وأنها هكذا كانت وهكذا تكون:{**وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**}..

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة. ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها:{**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا**}.

لكان هذا خيراً لهم، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم. ولكن واقع الأمر أنهم - بسبب كفرهم - مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل.

وصدق قول الله.. فلم يدخل في الإسلام - في تاريخه الطويل - إلا القليل من اليهود.

ممن قسم الله لهم الخير، وأراد لهم الهدى؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى. أما كتلة اليهود، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً، حرباً على الإسلام والمسلمين. منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون، منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله - إلا كان من ورائه اليهود. أو كان لليهود فيه نصيب!

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب - اليهود - دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله لا يغفر أن يشرك به.. وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**}..

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين؛ وبالسبب الذي كان من شـأنه أن يكونوا أول المسـلمين:{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَـدِّقاً لِّمَا مَعَكُم**}..

فهم أوتوا الكتـاب، فليس غريبـاً عليهم هـذا الهدى. والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يـدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصـدقاً لما معهم. فليس غريباً عليهم كذلك. وهو مصـدق لما معهم..

ولو كـان الإيمـان بـالبينة. أو بالأسـباب الظاهرة. لآمنت يهود أول من آمن. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح. وكانت لها أحقاد وعناد. وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة الرقبة.. كما تعبر عنهم التوراة بـأنهم: " شـعـب صـلـب الرقبة!». ومن ثم لم يؤمن. ومن ثم يجيئها التهـديـد العنيف القاسي:{**مِّن قَبْلِ أن نّ‌ّ‌طْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**}..

وطمـس الوجـوه: إزالـة معالمهـا المميـزة لآدميتهـا؛ وردهـا عـلى أدبارهـا، دفعهـا لأن تمشي القهقـرى.. وقـد يكـون المقصـود هـو التهديـد بمعنـاه المـادي؛ الـذي يفقـدهم آدميـتهم ويـردهم يمشـون عـلى أدبـارهم؛ ويكـون كـذلك اللعـن الـذي أصـاب أصـحاب السـبت (وهـم الـذين احتـالوا عـلى صـيد السـمك يـوم السـبت، وهـو محـرم علـيهم في شريعـتهم) هـو مسخهم بالفعـل قـردة وخنـازير.. كـما قـد يكـون المقصـود طمـس معـالم الهـدى والبصـيرة في نفوسـهم، وردهـم إلى كفـرهم وجـاهليتهم، قبـل أن يـؤتيهم اللـه الكتـاب. والكفـر بعـد الإيمـان، والهـدى بعـد الضـلال، طمـس للوجـوه والبصـائر، وارتـداد على الأدبار دونه كل ارتداد.

سـواء كان هذا هو المقصـود أو ذاك.. فهو التهديد الرعيب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسـلم: أخرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا ابن نفيل. حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس،

عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب. وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة. فإذا تال يقرأ القرآن يقول:{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا**} فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس! ثم أسلمت.

والتعقيب على هذا التهديد:{**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**}.. فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة. تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك. مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب:{**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**}.

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد. ولا يذكر هنا ا لقول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً.. وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم:{**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**} كقول النصارى:{**المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**} وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم{**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ**}. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان. إنما كانوا - فقط - يقرون لهم بحق التشريع. حق التحليل والتحريم. الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية. ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين.. ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان - كما سيجيء في سياق السورة بالتفصيل.

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد. والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك - لمن يشاء - ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم. ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به؛ لم يرجع في الدنيا عن شركه.

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد. فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة. إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون. مقطوعوا الصلة بالله رب العالمين. وما تشرك النفس بالله، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا - وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل - ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية.

سواء كان هذا هو المقصود أو ذاك.. فهو التهديد الرعيب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسلم:

أخرج ابن أبي حاتم، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب. وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة. فإذا تال يقرأ القرآن يقول:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا**} فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس! ثم أسلمت.

والتعقيب على هذا التهديد:{**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**}..

فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

الأماني والعمل:

{**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَه مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً**}[١].

وساق ابن جرير بسنده:

عن مسروق قال: تفاخر النصارى وأهلُ الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله:{**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ**}[٢].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن نمير، حدثنا إسماعيل، " عن أبي بكر بن أبي زهير، قال:» أخبرت أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: " يا رسول، الله كيف الفلاح بعد هذه الآية:{**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**}؟.. فكل سوء عملناه جزينا به.. فقال النبي ﷺ : «**غفر الله لك يا أبا بكر. ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟**» قال بلى! قال: «**فهو مما تجزون به**»(١). ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثوري عن إسماعيل.

وروى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - إلى " ابن عمر، يحدث عن أبي بكر الصديق. قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية:{**مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً**} فقال رسول الله ﷺ : «**يا أبا بكر، ألا أقرئك آية نزلت علي؟**» قال: قلت: بلى يا رسول الله فأقرأنيها.. فلا أعلم أني قد وجدت انفصاماً في ظهري، حتى تمطيت لها! فقال رسول الله ﷺ : «**مالك يا أبا بكر**» فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه! فقال رسول الله ﷺ : «**أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب. وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة**» (٢).

وروى مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة - بإسناده - " عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت:{**مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**} شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ : «**سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة. حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها**» (٣).

على أية حال لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء. ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى. ولقد هزت هذه الآية كيانهم، ورجفت لها نفوسهم، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جداً. ويعرفون صدق وعد الله حقاً. ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا.

وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء، وقضية الشرك قبلها والإيمان، برد كل ما في السماوات والأرض لله، وإحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة:{**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً**}.

وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه في القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة - والسلطان والقهر، فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله. وإنما هو توحيد إيجابي. توحيد الفاعلية والتأثير في الكون، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً.

ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض [1].

* * * * *

المطلب الثاني:

أوصاف المسيح في القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}[١].

يـاأهـل الكتـاب{**لاَ تَغْلُواْ**} أى: لا تتجاوزوا الحد المشروع. مأخوذ من الغلو، وهو - كما يقول القرطبى - التجاوز فى الحد ومنه: غلا السعر يغلو غلاء. وغلا الرجل فى الأمر غلوا. وغلا الجارية لحمها وعظمها، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها - أى: أترابها -.

وقد تجاوز أهل الكتاب الحد وغالوا فى شأن عيسى. أما اليهود فقد أنكروا رسالته واتهموا أمه مريم بما هى منه بريئة.

وأما النصارى فقد رفعوا عيسى - عليه السلام - إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية، واعتبروا بعضهم إلها، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والمعنى: يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد المشروع والمعقول فى شأن دينكم، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الذى شعره الله - تعالى - وارتضته العقول السليمة.

وقد ناداهم - سبحانه - بعنوان أهل الكتاب. للتعريض بهم، حيث إنهم خالفوا كتبهم التى بين أيديهم.

والخطاب هنا وإن كان يشـمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصـارى، إلا أن النصـارى هم المقصـودون هنا قصدا أولياً، بدليل سيا ق الآية الكريمة، فقد ذكرت حججاً تبطل ما زعمه النصارى فى شأن عيسى، ولذا قال ابن كثير ما ملخصه: قولـه - تعالى:{**يا أهل الكتاب لاَ تَغْلُواْ**} ينهى - سـبحانه - أهل الكتاب عن الغلو والإطراء. وهذا كثير فى النصـارى، فإنهم تجاوزا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذه إلهـا من دون اللـه يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا فى أتباعه وأشـياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصـمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سـواء أكان حقاً أم باطلاً، أم ضـلالاً أم رشـاداً، ولهذا قال - تعالى:{**اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله**} وفى الصـحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: " لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولا: عبد الله ورسوله ".

وقولـه:{**وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق**} من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام بالنهى عن الافتراء الشنيع الذى افتروه على الله.

أى: لا تصـفوه - سـبحانه - بما يسـتحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، ولا تقولوا عليه - سـبحانه - إلا القول الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، والبرهان الواضح.

وعدى - سـبحانه - قولهم بحرف على، لتضـمنه معنى الافتراء والكذب، فقد قالوا قولا وزعموا أنه من دينهم، مع أن الأديان السماوية بريئة مما زعموه وافتروه.

ثم بين - سبحانه - القول الفصل فى شأن عيسى فقال:{**إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**}.

أى: إنما المسـيح عيسىـ ابن مريم رسـول الله. أرسـله - سـبحانه - لهداية الناس إلى الحق،{**وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ**} أى: أن عيسىـ مكون ومخلوق بكلمة من الله وكلمة (كن) من غير واسـطة أب ولا نطفة. وهذه الكلمة ألقاها - سـبحانه - إلى مريم، أى: أوصـلها إليها بنفخ جبريل فيها فكان عيسى بإذن الله بشراً سويا.

وقولـه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى: ونفخة منه، لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم فكان عيسىـ بإذن الله. فنسـب إلى أنه روح من الله، لأنه بأمره كان. وسـمى النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح. قال - تعالى:{**والتي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**} وقيل المراد بقولـه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى: وذو روح من أمر الله، لأنه - سبحانه - خلقه كما يخلق سائر الأرواح.

وقيل: الروح هنا بمعنى الرحمة. كما فى قولــــه - تعالى:{**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ**} أى: برحمة منه. وصدر - سبحانه الجملة الكريمة بأداة القصر (إنما) للتنبيه على أن عيسى - عليه السلام - ليس إلا رسولا أرسله الله لهداية الناس إلى الحق.

وذكره - سبحانه بلقبه وباسمه وببنوته لمريم، للإشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس، وبشر كسائر البشر، فهو مولود خرج من رحم انثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم. وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فيكفى أنه قد خرج من رحم أم، وكفى بذلك دليلا على بشريته.

قال بعض العلماء ما ملخصـه: وقولــــه:{**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**} أى: خلقه بكلمة منه وهى (كن) كما خلق آدم. وكان عيسىــ بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر ببـذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسـبـاب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته (كن) وبذلك سمى كلمة الله.

وتعلق النصـارى بأن كون عيسىـ كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد. وإنما سمى بذلك، لأنه نشأ بكلمة لا بمنى من الرجل يمنى..

وقولــــه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى أنه - سبحانه - أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين. وقد يقال: إنه نشأ بروح منه - سبحانه - أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال - تعالى:{ **الذي أَحْسَـنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**}[١]

والرأى الأول أولى. وعلى ذلك يكون معنى قولـــه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى: أنه نشـأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسيط سلالة بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل.

وســمى الله - تعالى - عيسىـ روحا باعتباره نشــأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية..

وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فنحلوه ما ليس لـــه، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلها، أو ابن إله...

وقولـه:{**الْمَسِيحُ**} مبتدأ، و{**عِيسَى**} عطف بيان أو بدل منه. وقولـه:{**ابْنَ مَرْيَمَ**} صفة لـه وقولـه:{**رَسُولُ اللَّه**} خبر للمبتدأ.. وقولـه:{**وَكَلِمَتُهُ**} معطوف على ما قبله وهو رسول الله. أو قولـه:{**أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**} جملة حالية من الضمير المجرور فى{**كَلِمَتُهُ**} بتقدير قد، والعامل فيها معنى الإِضافة. والتقدير. وكلمته ملقيا إياها إلى مريم.

وقولــه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} معطوف على{**كَلِمَتُهُ**} والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لروح. ومن لابتدائه الغاية مجازا وليســت بتبعيضــية، أى أن الروح كائن من عند الله - تعالى - ونافخ بإذنه.

وبعد أن بين - ســبحانه - القول الحق فى شــأن عيسىــ دعا أهل الكتاب إلى الإِيمان به وبجميع رسـله. ونهاهم عن التمسـك بالضـلال والوهم فقال - تعالى:{**فَآمِنُواْ بالله وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَــه وَلَدٌ لـه مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً**}.

والفاء فى قولـه:{**فَآمِنُواْ**} للإفصاح عن جواب شرط مقدر.

أى: إذا كان ذلك هو الحق فى شــأن عيسىـ فآمنوا بالله إيمانا حقا بأن تفردوه بالألوهية والعبادة، وآمنوا برســـله جميعا بدون تفريق بينهم، ولا تغالوا فى أحدهم منهم بأن تخرجوه عن طبيعته وعن وظيفته..

وقولـه:{**وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ**} نهى لهم عن النطق بالكلام بالباطل.

أى: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة، أو المعبودات ثلاثة. فثلاثة خبر لمبتدأ محذوف وعبر - سبحانه - بقولـه:{**وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ**} بدل قولـه - مثلا -: ولا تؤمنن بثلاثة؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سـألتهم عن معناه قالوا تارة معناه: الآب والابن والروح القدس، أى أنهم ثلاثة متفرقون. وتـارة يقولون معنـاه: أن الأقـانيم ثلاثة والذات واحدة.. إلى غير ذلك من الأقوال التى ما أنزل الله بها من سلطان.

قال صـاحب الكشـاف: والذى يدل عليه القرآن التصريـح منهم بأن الله والمسـيح ومريم ثلاثة آلهة. وأن المسـيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قولـــه - تعالى:{**أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله**} {**وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله**} والمشـهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم..

هذا، وقد أفاض بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم..

وقولـه:{**انتهوا خَيْراً لَّكُمْ**} أمر لهم بسلوك الطريق الحق، والإقلاع عن الضلالات والأوهام.

انتهوا عما أنتم فيـه من ضـلال يـا معشرـ أهـل الكتاب، واتركوا القول بالتثليث، يكن انتهـاؤكم خيرا لكم، بعبـادتكم للـه وحـده تكونون قـد خرجتم من ظلمات الشرـك إلى نور الوحدانية.

وقولـــه:{**إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ**} إثبات لوحدانية الله - تعالى - بأقوى طريق. أى: إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله - تعالى - ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدبر لأمره.

وقولـه:{**سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لـه وَلَدٌ**} تنزيه لـه - جل وعلا - عن صفات المخلوقين، وتوبيخ لمن وصفه بصفات لا تليق به.

وسبحان منصوب بفعل مقدر من لظفه، أى: أسبحه تسبيحا وأنزهه تنزيها عن أن يكون لـــه ولد، لأن الأبوة والبنوة من صـفات المخلوقين، وهو - سـبحانه - منزلـــه عن صـفات المخلوقين، قال - تعالى:{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير**}

[1]وقولـه:{لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} جملة مستأنفة مسبوقة لتعليل التنزيه أى أنه - سبحانه - مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها، ولا يخرج من ملكه منها شىء.

قال - تعالى:{إِن كُلُّ مَن فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}[٢] ومن كان شـأنه كذلك تنزه عن أن يلد أو يولد أو يكون لـه شريك فى ملكه.

وقولـــه:{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} تذييل قصـد به بيان سعة قدرته - سبحانه - وهيمنته على هذا الكون. والوكيل: هو الحافظ والمدبر لأم غيره.

أى: وكفى بالله وكيلا يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه.

ومفعول كفى محـذوف للعموم. أى: كفى كـل أحـد وكالة الله وحفظه وتدبيره، فتوكلوا عليه وحده، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا لـه.

ثم بين - سبحانه - أن المسيح عيسى - عليه السلام - عبد من عباد الله - تعالى -، وأنه لن يسـتنكف أبدا عن عبادة الله والإذعان لأمره فقال:{لَّن يَسْـتَنكِفَ المسـيح أن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون}.

وأصـل{يَسْـتَنكِفَ} - يقول القرطبى: نكف، فالياء والسـين والتاء زوائد. يقال: نكفت من الشـئ واستنكف منه وأنكفته أى: نزهته عما يستنكف منه. ومنه الحديث: " سُئل - رسول الله ﷺ عن{سُبْحَانَ الله} فقال: " إنكاف الله من كل سوء " [٣]".

يعنى: تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد.

قال الزجاج: اسـتنكف أى: أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بإصـبعك عن خدك ومنه الحديث: " ما ينكف العرق عن جبينه " أى: ما ينقطع.

وقيـل: هو من النِّكْف وهو العيـب. يقـال: ما عليه فى هذا الأمر من نِكْفٍ ولا وَكَف. أى عيب. أى لن يمتنع المسـيح ولن يتنزه عن العبودية لله - تعالى - ولن ينقطع عنها. ولن يعاب أن يكون عبداً لله تعالى.

والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير ما سبقها من تنزيه لله - تعالى - عن أن يكون له ولد، وإثبات لوحدانيته - عز وجل - وإفراده بالعبادة.

وقد روى المفسرون فى سبب نزولها " أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال: «**ومن صاحبكم؟**» قالوا: عيسى، قال ﷺ : «**وأى شئ قلت؟**» قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال ﷺ : «**إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله**».

والمعنى: لن يأنف المسيح ولن يمتنع أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن ذلك، فإن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف. والله - تعالى - ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته. قال - تعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**} وصدر - سبحانه - الجملة بحرف (لن) المفيدة للنفى المؤكد، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عن عبادة الله والخضع له أمر مستمر وثابت ثبوتا لا شك فيه، لأنه - سبحانه - هو الذى خلق الخلق ورزقهم. ومن حقه عليهم أن يعبدوه، ويذعنوا لأمره، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال القاضي عياض:

ومما زادنى عجباً وتيها ::: وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ::: وجعلك خير خلقك لى نبياً

هذا، وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وممن فهم هذا الفهم الإمام الزمخشرى فقد قال: وقوله:{**لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ**} أى: لن يأنف ولن يهذب بنفسه عزة، (من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بإصبعك){**وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ**} أى: ولا من هو أعلى منه قدرا، وأعظم منه خطرا وهم الملائكة الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم.

ثم قال: فإن قلت: من أين دل قولــــه:{**وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ**} على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك. وذلك أن الكلام إنما سـبق لرد مذهب النصـارى وغلوهم فى رفع عيسى عن منزلة العبودية. فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أعلى منه درجة. فكأنه قيل: لن يسـتنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسـيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصـيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاها منزلة.

وهذا الفهم الذى اتجه إليه الزمخشرى من أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لم يوافقه عليه أكثر العلماء، فقد قال الإمام ابن كثير: وقد اسـتدل بعض من ذهب إلى تفضـيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال:{**وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ**}. وليس لـــه فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع.

وليس لـه فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع. والملائكـة أقدر على ذلك من المســيح، فلهذا قال:{**وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ**} ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا لأن بعض الناس اتخذهم آلهة مع الله كما اتخذ الضـالون المسيح إلها أو ابنا لله. فأخبر - سبحانه - أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه.

وقـد حـاول بعـض العلـماء أن يجعـل الآيـة الكريمـة بعيـدة عـن مـوطن النـزاع فقـال: وعنـدى أن الترقـى قـائم، ولكـن فى المعنـى الـذى سـيق لـــه الكـلام. وذلـك أن النصـارى غلـوا غلـواً كبـيرا فى المسـيح، لأنـه ولـد مـن غـير أب، ولأنـه جـرت عـلى يديـه معجـزات كثـيرة، ولأنـه روحـانى المعـانى، فيبـين اللـه - تعـالى - أنـه مـع كـل هـذا لـن يسـتنكف أن يكـون عبـدا للـه، ولا يسـتنكف مـن هـو أعـلى منـه فى هـذه المعـانى أن يكـون عبـداً للـه، وهـم الملائكـة الـذين خلقـوا مـن غـير أب ولا أم. وأجـرى عـلى أيـديهم مـا هـو أشـد وأعظـم مـن معجـزات، ومـنهم مـن كـان الـروح الـذى نفـخ فى مـريم، وهـم أرواح طـاهرة مطهـرة. فكـان الترقـى فى هـذه المعـانى، وهـم فيهـا يفضـلون عيسى وغـيره. وبـذلك تكـون الآية

بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله. وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها. وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل: لا تضرب حرا ولا عبدا. فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فأولى أن يكون ضرب الحر غير جائز

وذكر وصف المقربين، لأنهم إذا كانوا لا يستنكفون فأولى بذلك غيرهم.

ثم هدد - سبحانه - كل من يمتنع عن عبادته والخضوع لـــه فقال:{**وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً**}.

أى: ومن يأنف من عباده الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استنكافه واستكباره، فإن مرد العباد جميعا إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.

فالضمير فى قولـــه:{**فَسَيَحْشُرُهُمْ**} يعود إلى المستنكفين والمستكبرين وإلى غيرهم من المؤمنين المطيعين بدليل أن الحشر عام للمؤمنين والكافرين، وبدليل التفصيل المفرع على هذا الحشر فى قولـــه - تعالى - بعد ذلـك:{**فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِه**} أى: أن مرجع العباد جميعا إلى الله من استكبر عن عبادته وامتنع ومن لم يفعل ذلك بل آمن وأطاع. فأما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات، ولم يستنكفوا ولم يستكبروا، فسيعطيهم - سبحانه - ثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة، و يزيدهم على ذلك شأناً عظيماً من الرضا والفضل ومضاعفة الأجر.

{**وَأَمَّا الذين استنكفوا واستكبروا**} عن عبادة الله وطاعته{**فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**} لا يحيط به الوصف{**وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله وَلِيّاً**} أى أحدا يدافع عنهم ويلى أمورهم، ولا يجدون كذلك " نصيرا " ينصرهم وينجيهم من عذاب الله وبأسه.

وبعد هذا الوعد والوعيد والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وجه - سبحانه - نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق فقال - تعالى:{**يَا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً**}.

والمراد بالبرهان هنا: الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه. ويصح أن يكون المراد به النبى ﷺ وسماه - سبحانه - بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه ﷺ، والمراد بالنور المبين: القرآن الكريم.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب. ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ فقال:{**يَا أَيُّهَا النَّاس قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ**}.

والبرهان: هو محمد ﷺ وإنما سماه برهانا؛ لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. والنور المبين هو القرآن الكريم. وسماه نورا، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب[1]..

* * * * *

المطلب الثالث:

مقاصد القرآن والرسالة النبوية

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[1].

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها؛ وتسمع توجيهاته؛ وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام.

ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويذ ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها.

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربها؛ وحتى تستمسك بعهدها، وحتى توفي بعقدها. فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس.. وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة.. وعد الله لا يخلف الله وعده..

ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية:

{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}..

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان..

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه ﷺ أن يجليهم عن المدينة. ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها. وقد كان..

كذلك يقص الله - سبحانه - على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، من أهل الكتاب. ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك. فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق.

{**يَا أَهْلَ الكِتَابِ**} من اليهود والنصارى{**قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا**} محمد ﷺ{**يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب**} أي: يظهر لكم كثيراً من الأحكام والمسائل التي ذكرتها كتبكم وكتمتموها عن الناس، كإخفائكم صفة النبي ﷺ التي تجدونها في التوراة والإنجيل وكتمانكم ما جاء فيها من بشارات تبشر به. وغير ذلك من الأحكام التي أخفاها علماؤكم عن العامة، وتولي الرسول ﷺ إعلانها إظهاراً للحق، ووضعا للأمور في نصابها.

وقوله:{**وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**} أي: يعرض ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففي السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة.

يقال: عفا عن المذنب، أي: ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه.

والمراد بالكتاب في قوله:{**يَا أَهْلَ الكِتَابِ**} جنس الكتب، فيشمل التوراة والإنجيل.

وفي ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول في الإسلام؛ فإن علمهم بما في كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ ولم يدعوهم إلى الإيمان به. فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق في رسالته كانت مذمتهم أشد وأقبح، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأقسى. وكان التعبير بقوله - تعالى:{**قَدْ جَآءَكُمْ**} للإشارة إلى أنه ﷺ قد وصل إليهم، ويعيش بينهم، فهم يرونه ويراهم ويخاطبهم ويخاطبونه، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة.

وفي التعبير بقوله - تعالى:{**رَسُولُنَا**} تشريف للرسول ﷺ حيث أضافه -

سبحانه - إلى ذاته، وفيه كذلك إيذان بوجوب اتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل.

والمراد بالكتاب في قوله:{**تُخْفُونَ مِنَ الكتاب**} التوراة والإِنجيل. فقد امتدت أيدي اليهود والنصارى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم.

وفي إظهار الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة له، لأنه لم يقرأ كتابا، ولم يجلس أمام معلم، فإخباره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور مغيبة، فيكون معجزة له تحملهم على الإِيمان به فيما يدعوهم إليه.

ثم مدح الله - تعالى - رسوله، وما جاء به من الخير والهدى فقال:{**قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**}.

والمراد بالنور هنا: محمد ﷺ فهو نور الأنوار - كما يقول الآلوسي.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم الذي أنزله - تعالى - على نبيه ﷺ والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ﷺ ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع أخرى لا تحصى.

قال ابن جرير ما ملخصه، قوله تعالى:{**قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**} يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: " قد جاءكم يا أهل التوراة والإِنجيل من الله نور هو محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإِسلام ومحق به الشرك قوله:{**وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**} يعني: كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا: القرآن الكريم. وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشاف فقال: قوله:{**قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**} يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإِبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإِعجاز.

ويبـدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح، لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة في الذات إذ الرسول ﷺ قد جاء للناس برسالة هي نور في شخصه ﷺ كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه في رسالته.

ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته ﷺ فقال - تعالى:{**يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام**}.

والضمير في قوله: (به) يعود إلى مجموع ما ذكر، أو إلى الكتاب المبين باعتباره أقرب مذكور و(سبل) جمع سبيل بمعنى طريق. و(السلام) مصدر بمعنى السلامة.

والمعنى: قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين - يهدي الله - تعالى - بذلك أو بالكتاب{**مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ**} أي: من علم - سبحانه - منه أنه يريد اتباع ما يرضي بأن يخلص له العبادة ويستجيب للحق الذي أرسل به أنبياءه فإنه متى كان كذلك، أوصله - سبحانه - إلى{**سُبُلَ السلام**} أي: إلى طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء، بأن يثبته في الدنيا على طريق الحق، ويكرمه في الآخرة بمثوبته وجنته هذه هي الثمرة الأولى من ثمار اتباع ما جاء من عندالله من نور وكتاب مبين. أما الثمرة الثانية فقد بينها - سبحانه - بقوله:{**وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ**}.

والضمير المنصوب في قوله: (ويخرجهم) وهو (هم) يعود إلى (من) في قوله:{**مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ**} باعتبار المعنى.

أي: ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم اتباع ما يرضيه يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان (بإذنه) أي: بإرادته وعلمه.

وقوله:{**وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} بيان للثمرة الثالثة من ثمار اتباع ما جاء من عند الله من حق وخير.

أي: ويهدي - سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم اتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم، وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو طريق الإسلام الذي يوصل إلى الفوز الفلاح في الدنيا والآخرة.

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا أهل الكتاب إلى اتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله، بأوضـح أسـلوب، وأكمل بيان، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه ﷺ من منافع جليلة، وفوائد عظيمة تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * * * *

المطلب الرابع:

التذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السلام

{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}[1].

يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم:{**مَاذَا أُجِبْتُمْ**} أي: ماذا أجابتكم به أممكم.

فـ{**قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا**} وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا.{**إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ**} أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

{**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ**} أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرا لربك، حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها على غيرك.

{**إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ**} أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد "بروح القدس" جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المشقة.

{**تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا**} المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى ـ عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر ـ وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال:{**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**}.

{**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**} فالكتاب يشمل الكتب السابقة وخصوصا التوراة فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

{**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**} أي طيرا مصورا لا روح فيه فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين{**وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي**} فهذه آيات بينَات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى ـ وقوى بها دعوته{**وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ**} لما جاءهم الحق مؤيدا بالبينات الموجبة للإيمان به{**إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ**} وهموا بعيسى ـ أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكفَّ الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه، فهذه مِنَنٌ امتَنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها

فقام بها عليه السلام أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم{**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا**}.

أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعواناً. فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان[1].

* * * * *

المطلب الخامس:

مائدة عيسى عليه السلام

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}(1).

{إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء}.

" المائدة ": الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد، إذا تحرك. فكأن المائدة تتحرك بما عليها. وقال أبو عبيدة: سميت " مائدة " لأنها ميد بها صاحبها. أي: أعطيها وتفضل عليه بها. والخوان: ما يؤكل عليه الطعام.

ويرى الأخفش وغيره أن المائدة هي لطعام نفسه، مأخوذة من " مادة " إذا أفضل.

و " إذ " في قوله:{**إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ**} متعلق بمحذوف تقديره: أذكر وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم.

وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته وقوله:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء**} فيه قراءتان سبعيتان:

الأولى:{**يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} بالياء - على أنه فعل فاعل. وقوله:{**أَن يُنَزِّلَ**} المفعول. والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز، لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك في قدرة الله.

ومن تخرجاتهم في معنى هذه القراءة أن قولـه:{**يَسْتَطِيعُ**} بمعنى " يطيع " والسين زائدة. كاستجاب وأجاب.

أي: أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك - ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء؟.

وسـنفصـل القول في تخريج هذه القراءة، وفي اختلاف المفسرـين في إيمان الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة.

أما القراءة الثانية: فهي " هل تستطيع ربك " بالتاء وبفتح الباء في " ربك " والمعنى: هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء.

قال القرطبي: قراءة الكسـائي وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد " هل تستطيع " بالتاء " ربك " بالنصب وقرأ الباقون بالياء " هل تستطيع " " ربك " بالرفع.

والمعنى على قراءة الكسائي - بالتاء: هل تستطيع أن تسأل ربك..

قالت عائشـة: كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا: " هل يسـتطيع ربك " وقال معاذ: أقرأنا النبي ﷺ: هل تستطيع ربك قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء ".

وقولــه - سبحانه:{**قَالَ اتقوا الله إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ**} حكاية لما رد به عيسى على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة.

أي قال لهم عيسىـ: اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملؤوا قلوبكم هيبة وخشية منه، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصـادق في إيمانه يبتعد، عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي إلى فتنته.

ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسىـ فقال:{**قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين**}.

أي: قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب:

أولها: إننا نرغب في الأكل منها لننال البركة، ولأننا في حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك.

وثـانيهـا: أننا نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صـــادق فيما تبلغه عن ربك ، فإن انضـمام علم المشـاهدة إلى العلم الاسـتدلالي، مما يؤدي إلى رسـوخ الإيمان، وقوة اليقين.

وثالثها: أننا نرغب في نزولها لكي نعلم أن قد صدقتنا في دعوة النبوة، وفي جميع ما تخبرنا بـه من مأمورات ومنهيات، لأن نزولها من الســماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك في نبوتك.

ورابع هذه الأســباب: أننا نرغب في نزولها لكي نكون من الشــاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضرــوها من بني إسرائيل، ليزداد الذين آمنوا منهم إيماناً، ويؤمن الذي عنده استعداداً للإيمان.

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من الســماء لأنهم يشـكون في قدرة الله، أو في نبوة عيسىـ أو أن مقصـدهم من هذا الطلب التعنت.

وإنمـا هم يريدون نزولها لتلك الأســباب الســابقة التي يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشـهادة أمام الذين لم يحضرـوا نزولها بكمال قدرة الله وصـدق عيسىـ في نبوته.

ثم حكى - سـبحانه - ما تضرـع به عيسىـ بعد أن سـمع من الحواريين ما قالوه في سبب طلبهم لنزول المائدة من الســماء فقال - تعالى:{**قَالَ عِيسَىــ ابن مَرْيَمَ اللهم رَبَّنَآ أنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين**}.

وقولـــه:{**اللَّهُمَّ**} أي: يا الله. فالميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان. وهذا التعويض خاص بنداء الله ذي الجلالة والإكرام.

وقولـه:{**عِيداً**} أي سرورا وفرحا لنا، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور.

قـال القرطبي: والعيـد واحـد الأعيـاد. أصـــلـه من عاد يعود أي: رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة. وقال الخليل: " العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه، وقال ابن الانباري: سمى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور".

والمعنى: قال عيسىـ بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حجتهم:{**اللَّهُمَّ رَبَّنَا**} أي: يا الله يا ربنا ومالك أمرنا، ومجيب سـؤالنا. أتوسل إليك أن تنزل علينا{**مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**} أي: أطعمـة كـائنـة من الســـماء هـذه الأطعمة{**تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**} أي: يكون يوم نزولهاه عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شـاهدناها، ويكون - أيضاً - يوم نزولها عيداً وسروراً وبهجة لمن سيأتي بعدنا ممن لم يشاهدنا.

قال ابن كثير. قال الســـدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا. وقال ســـفيان الثوري: يعني يوما نصـــلي فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وقال سلمان الفارسي: تكون عظة لنا ولمن بعدنا.

وقولـه:{**وَآيَةً مِّنْكَ**} معطوف على قولـه:{**عيداً**}.

أي: تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيداً لأولنا وآخرنا، وتكون أيضاً - دليلا - وعلامة منك - سبحانك - على صحة نبوتي ورسالتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك.

وقولـه:{**وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين**} تذييل بمثابة التعليل لما قبله. أي: أنزلها علينا يا ربنا وارزقنـا من عنـدك رزقـا هنيئـا رغـداً، فـإنك أنت خير الرازقين، وخير المعطين، وكل عطاء من سواك لا يغني ولا يشبع.

وقد جمع عيسى في دعائه بين لفظي " اللهم ربنا " إظهاراً لنهاية التضرع وشدة الخضوع، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإِجابة.

وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من ا لسـماء: للإشـارة إلى أنها هبة رفيعة، ونعمة شريفة، آتية من مكان عال مرتفع في الحســن والمعنى، فيجب أن تقابل بالشـكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص لـه.

وقولــه:{**تَكُونُ لَنَا عِيداً**} صفة ثانية لمائدة، وقولـه:{**لنا**} خبر كان وقولـه:{**عيداً**} حال من الضمير في الظرف.

قال الفخر الرازي: تأمل في هذا الترتيب، فإن الحواريين لما ســألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا:{**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا**} وأخروا الأغراض الدينية الروحانية.

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيـث قـال:{**وارزقنـا**} وعنـد هـذا يلوح لـك مراتب درجات الأرواح في كون بعضــها روحية، وبعضها جسمانية.

ثم إن عيسىـ لشدة صفاء دينه لما ذكرالرزق انتقل إلى الرازق بقولـــه:{**وارزقنا**} لم يقف عليه: بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال:{**وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين**} فقولـه:{**ربنا**} ابتداء منه بذكر الحق. وقولـه:{**أَنزِلْ عَلَيْنَا**} انتقال من الذات إلى الصفات.

وقولــــه:{**تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**} إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة من المنعم.

وقولـه:{**وَآيَةً مِّنْكَ**} إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال.

وقولـه:{**وارزقنا**} إشارة إلى حصة النفس.

ثم قال الإمام الرازي: فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلٌ إلى الأدون فالأدون.

ثم قـال:{**وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين**} وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، وعند ذلك تلوح لك ســمة من كيفية عروج الأرواح المشرــقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها.

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحوراين من أقوال فقال - تعالى:{**قَالَ اللّه إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإِني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين**}.

وقوله:{**مُنَزِّلُهَا**} ورد فيه قراءاتان متواتران.

إحداهما: منزلها - بتشديد الزاي - من التنزيل وهي تفيد التكثير أو التدريج كما تنبئ عن ذلك صيغة التفعيل. وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع.

وقرأ الباقون:{**مُنزِلُهَا**} بكسر الزاي - من الإِنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة.

والمعنى: قال الله - تعالى - إني منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولي عيسى - عليه السلام:{**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ**} أي فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها{**فإِني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين**} أي: فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذاباً لا يعذب مثله أحداً من عالمي زمانه أو من العالمين جميعاً.

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها: حرف إن في قوله:{**فإِني أُعَذِّبُهُ**} ومنها: المصدر في قوله:{**فإِني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً**} إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب.

ومنها: وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين.

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه: أن الكفر بعد إجابة ما طلبوه، وبعد رؤيته ومشاهدته؛ وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله.

أقول: الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب، وأعظم العقاب.

هذا، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريم، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل.

المسألة الأولى: آراء العلماء في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم. «

المسألة الثانية: آراء العلماء في نزول المائدة وعدم نزولها.

وللإجابة على المسـألة الأولى نقول: لعل منشـأ الخلاف في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ**}؟ فإن هذا القول يسشعر بشكهم في قدرة الله على إنزال هذه المائدة.

وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسـهم الزمخشري - إلى عدم إيمانهم، وجعلوا الظرف في قولـه:{**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ**} متعلقا بقولـه قبل ذلك:{**قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**}.

أي: أنهم قالوا لعيسى آمنا واشـهد بأننا مسـلمون، في الوقت الذي قالوا لـه فيه{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} فكأنهم ادعوا الإيمان والاسـلام ادعاء بدون إيقان وإذعان، وإلا فلو كانوا صادقين في دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**}؟.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قالوا:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصـفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم اتبعه بقولـه:{**وَإِذْ قَالُواْ**} فإذن دعواهم كانت باطلة، وأنهم كانوا شاكين، وقولـه:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} كلام لا يرد مثلـه عن مؤمنين معظمين لربهم. وكذلك قول عيسى لهم معناه: اتقوا الله ولا تشـكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها{**إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ**} أي: إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة.

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١) أن الظرف في قولـه:{**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ**} ليس متعلقا بقولـه:{**قَالُوا آمَنَّا**} وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود في تفسيره فقد قال: قولـه:{**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ**} كلام مستأنف

٢) مســوق لبيـان بعض مـا جرى بينه - عليه السـلام - وبين قومه منقطع عما قبله، كما ينبئ عنه الإظهار في موضـع الاضـمار وإذ منصـوب بمضـمر. وقيـل: هو ظرف لقـالوا أريـد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم.

٣) أن قول الحواريين لعيسى:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**} لا يسـحـب عنهم الإيمـان، وقـد خرج العلماء قولهم هـذا بتخريجات منها:

أ- أن قولهم لم يكن من بـاب الشـك في قـدرة الله، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظري بدليل أنهم قالوا بعد ذلك{**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا**}.

وشـبيـه بهـذا قول إبراهيم:{**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**} قال القرطبي ما ملخصـه: " الحواريون خلصـان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصـارهم، وقد كانوا عالمين باسـتطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبرونظر فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم{**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**} وقد كان إبراهم علم ذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعـاينـة التي لا يـدخلهـا ريـب ولا شـبهـة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشـبهة والاعتراضـات، وعلم المعاينة، لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون:{**وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا**} كما قال إبراهيم:{**ولَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**}

ب- أن السؤال إنما هو الفعل لا عن القدرة عليه، وقد بسط الآلوسي هذا المعنى فقال: إن معنى:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم معي مبالغة في التقاضي.

والتعبير عن الفعل بالاسـتطاعة، من باب التعبير عن المسـبب بالسـبب، إذ هي - أي الاستطاعة - من أسباب الإيجاد.

ج- أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول الفخر الرازي: قال السدي؛ قوله:{**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**} أي: هل يطيعك ربك إن سألته. وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة.

والذي نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التي ذكرناها، ولأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال:

{**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي**} ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذرهم.

ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين، لما أمر الله أتباع النبي ﷺ بالتأسي بهم في إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال - تعالى:{ **ياأيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله**} وقال - تعالى:{**فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} فهاتان الآيتان صريحتان في مدح الحواريين وفي أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة، وآمنوا به إيمانا سليما من الشك والتردد.

وأما المسألة الثانية: وهي آراء العلماء في نزول المائدة: فالجمهور على أنها نزلت.

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه: والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إن الله أنزل المائدة.. لأن الله لا يخلف وعده، ولا يقع في خبره الخلف وقد قال - تعالى - مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى- حين سأله ما سأله من ذلك:{**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**} وغير جائز أن يقول الله إني منزلها عليكم ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه - تعالى - خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر.

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.

ومن الآثار ما خرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ : «**أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحما، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد: فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخهم قردة وخنازير**» [1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء. قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها. عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة. فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

والذي يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيراً عما كان على المائدة من أصناف الطعام، وعن كيفية نزولها ومكانه، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها، والأكل منها والباقي عليها بعد الأكل. وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحاً، لضعف أسانيده، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثرا طويلا في هذا المعنى ثم قال في نهايته: هذا أثر غريب جدا قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم.

ويعجبني في هذا المقام قول ابن جرير: وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فأن يقال: كان عليها مأكول. وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزاً، وجائز أن يكون من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل.

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم:{**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ**} قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل.

وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضاً أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء.

أي: مثل ضربه الله للناس نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه.

قال الحافظ ابن كثير: وهذه أسـانيد صحيحة إلى مجاهد والحسـن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المـائـدة لا تعرفـه النصـارى. ولس في كتـابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله. وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد.

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال: ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعني عدم نزولها فقط، فقد يكون لـه شيء من الوجاهة وإن كان يعني أنها لا تنزل ولم يسـأل، فهو محل نظير كبير، لأن السـؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسـونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعي على نقله، لا سـيما وعيسى في بيئة محصورة: جماعة سألوا وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سـؤالها في كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يسـتغرب كما يسـتغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها. وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شيء.

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداءً وانفرد بها عن سـائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - في القرآن قد قصه في غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شيء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصـة التي لم تنته بحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها في أناجيلهم - التي وضعوها - دليلا على عدم سؤالها. فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين.

ومن الجـائز أن تكون مما ورد في الأنـاجيل، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب أو ضـاع منهم علمه بسـبب ما. والقرآن كما وصـف بنفسـه مهيمن على كتبهم التي وصـفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها، وأنه يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون.

هذا ومما سـبق يتبين لنا: أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السـماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها، كما جاء في الآية الكريمة.

ومحـل الخلاف بينهم أنزلـت أم لا؟ فـالجمهور يرون أنهـا نزلـت لأن اللـه وعد بذلك في قولـــــه:{**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**} والحســن ومجاهد يريان أنها لم تنزل، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب علي وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها، وأن القوم بعد أن ســمعوا هذا الشرـط قـالوا: لا حاجة لنا فيها. فلم تنزل، ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصـــواب، لأن ظاهر الآيات يؤيده، وكذلك الآثار التي وردت في ذلك.

ثم حكت السـورة الكريمة ما سـيقوله الله لعيسىـ يوم القيامة، وما سـيرد به عيسىـ على خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرـة الذين وصـفوا المسـيح وأمه. بما هما بريئان منه فقال - تعالى:{**وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ...**}[1].

* * * * *

المطلب السادس:

الألوهية والربوبية لله تعالي

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِــكَ إِنَّـكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَــهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّــادِقِينَ صِــدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2].

إن الله - سـبحانه - ليعلم ماذا قال عيسىـ للناس. ولكنه الاسـتجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب:

الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم..

إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها.. أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.. فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب.. يبدأ بالتسبيح والتنزيه: **{قَالَ سُبْحَانَكَ}**.

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً:

{مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه:**{إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}**..

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته:**{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}**.

ثم يخلي يده منهم بعد وفاته.. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله - سبحانه - قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه. وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله. وليس هنالك - فيما أرى - أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى - عليه السلام - وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:

{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}..

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده. وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب:**{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}**..

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟.

إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة. فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً. فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ}.. هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم. في أعظم القضايا كافة.. قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه..

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين.. وهي الكلمة الأخيرة في المشهد. وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين:

{لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}..

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}..

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}..

{**وَرَضُوا عَنْهُ**}..

درجات بعد درجات.. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم: {**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**}..

ولقد شهدنا المشهد - من خلال العرض القرآني لـه بطريقة القرآن الفريدة - وسمعنا الكلمة الأخيرة.. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعد، ولا مستقبلاً ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون..

على أنه إن كان بالقياس إلينا - نحن البشر ـ المحجوبين - مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر. فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين..

وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض..

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم.. يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله - سبحانه - بملك السماوات والأرض وما فيهن؛ وقدرته - سبحانه - على كل شيء بلا حدود:{**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}..

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى ـ ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم. الذي لـه ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير..

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن "الدين" وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزلـه دون سواه..

إنه المالك الذي لـــه ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم:{**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَـا أنزَلَ اللَّـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ**} إنها قضــية واحدة.. قضــية الألوهية.. قضــية التوحيد.. وقضية الحكم بما أنزل الله.. لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد[1].

* * * * *

المطلب السابع:

خصائص القرآن والتوراة

{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [1].

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى.. وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم:**{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم. وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام، وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة:**{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}**.

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها. رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة:**{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**..

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب، كي لا يقولوا: إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم، ويقطع هذه الحجة عليهم،

فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم:{**أن تقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائفَتَيْنِ من قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**}..

قال الآلوسى: قوله:{**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ**} إلخ. كلام مستأنف مسوق من جهته - تعالى - تقريرا للوصية وتحقيقا لها، وتمهيداً لما سبقه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله:{**ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ**} بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريراً لمضمونه، فعلنا ذلك{**ثُمَّ آتَيْنَا**} وقيل عطف على{**ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ**} وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة، كأنه قيل:{**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**} (ثم أتل عليهم ما آتاه الله موسى).

وكلمة: ثم لا تفيد الترتيب الزمنة هنا، وإنما تفيد عطف معنى على معنى، فكأنه - سبحانه - يقول: لقد بينت لكم فى هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً.

وقوله:{**تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ**} قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله ضمير الذى، أى: آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان. فالذى لجنس المحسنين.

وتدل عليه قراءة عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " وقراءة الحسن " على المحسنين".

ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى: آتينا موسى الكتاب تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و" تماماً " مفعول لأجله أى: آتيناه لأجل تمام نعمتنا، أو حال من الكتاب، أى: حال كونه أى الكتاب تاماً. أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة. كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً.

أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة. كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً. فهو " كنباتاً " فى قوله:{**والله أنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً**} أى إنباتاً.

وقرأ يحيى بن يعمر " على الذى أحسن " بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و"الذى" وصف للدين أى: تماماً على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه.

قال ابن جرير: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قراء الأمصار ".

وقوله:{**وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**} معطوف على ما قبله، أى: وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم.

وقوله:{**وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**} أى: هذا الكتاب هداية لهم إلى طريق الحق، ورحمة لمن عمل به لعلهم - أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب - يصدقون بيوم الجزاء، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد.

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال:{**وهذا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**} أى: وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا ﷺ كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة، والسعادة الثابتة.

{**فَاتَّبِعُوهُ**} أى: اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام.

{**وَاتَّقُوا**} مخالفته واتباع غيره.

{**اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**} أى: لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه.

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال:{**أَن تقولوا إِنَّمَآ أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ**}.

أى: أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة، أو لئلا تقولوا لو لم ننزله: إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى، وإن كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا.

فقولـــه:{**أن تَقُولُوا**} مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدراً مدلولا عليه بنفس أنزلناه الملفوظ به فى الآية السابقة أى: أنزلناه كراهية أن تقولوا.

وقيل: إنه مفعول به والعامل فيه قولـــه فى الآية السـابقة - أيضـاً:{**وَاتَّقُوْا**...} أى: واتقوا قولكم كيت وكيت. وقولـه:{**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**} معترض جار مجرى التعليل.

والمراد بكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور.

وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام.

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول ﷺ.

ثم سـاق - سبحانه - آية أخرى لقطع أعذارهم فقال:{**أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ**}.

أى: وأنزلنـا الكتاب - أيضـــاً - خشـــية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا، لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم اســـتجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا، وتوقد أذهاننا، وتفتح قلوبنا.

وقولـــه:{**فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**} جواب قاطع لأعذارهم وتعللاتهم أى: فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد ﷺ هذا الكتاب الواضـح المبين، والذى هو هداية لكم إلى طريق الحق، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات.

وقولـــــه:{**فَقَدْ جَآءَكُمْ**} متعلق بمحذوف تنبئ عنه الفاء الفصـحية إما معلل به أى: لا تعتذروا فقد جاءكم... وإما شرط لــــه أى: إن صـدقتم فيما كنتم تعدون به. فقد حصـل ما فرضتم وجاءكم بينه من ربكم.

والاسـتفهام فى قولـــه:{**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا**} للإنكار والنفى. أى: لا أحـد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته بيانتها الكاملة، وهداياتها الشاملة.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. فإن مجىء القرآن المشـــتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى: وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم..؟ ومعنى: وصدف عنها أى: أعرض عنها غير متفكر فيها، أو صرف الناس عنها وصـدهم عن سبيلها. فجمع بين الضلال والإضلال.

ثم ختم - سـبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضـين عن آياته بقولـــه:{**سَـنَجْزِي الذين يَصْـدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سـواء العذاب بِمَا كَانُواْ يَصْـدِفُونَ**} أى: سـنجزيهم أسـوأ العذاب وأشـده بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها.

فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون لرســول الله ﷺ وللقرآن الكريم، وتتوعدهم بأشد ألوان العذاب[1].

* * * * *

المطلب الثامن:

اتباع ملة إبراهيم عليه السلام

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[١].

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخلّلها، إلى فذلكة ما أمر به الرّسول ﷺ في هذا الشّأن، غَلقاً لباب المجادلة مع المعرضين، وإعلاناً بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه وأنّه ثابت على ما جاءهم به، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ.

وفيه إيذان بانتهاء السّورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لنفسه وما قَرّ عليه قَراره، علم السّامع أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة، ولذلك غيّر الأسلوبَ. فأمر الرّسول ﷺ بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول.

وقوله:{**إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي**} متصل بقوله:{**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**}[٢] الذي بيّنه بقوله:{**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**}[٣] فزاده بياناً بقوله هذا:{**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**}، ليبيّن أنّ هذا الدّين إنّما جاء به الرّسول ﷺ بهدي من الله، وأنّه جعله ديناً قَيّماً على قواعد ملّة إبراهيم عليه السّلام، إلاّ أنّه زائد عليه بما تضمّنه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصّراط الذي هو سبيل النّجاة. وافتُتح الخبر بحرف التّأكيد لأنّ الخطاب للمشركين المكذّبين.

وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بمربوبية الرّسول ﷺ للّه تعالى، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلّهم أربابهم، ولو وحّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم.

وقولــه:{**هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} تمثيليّة: شبّهت هيئة الإرشاد إلى الحقّ المبلّغ إلى النّجاة بهيئة من يدلّ السّائر على الطّريق المبلّغة للمقصود.

والمناسـبة بين الهداية وبين الصّراـط تامّة، لأنّ حقيقة الهداية التّعريف بالطّريق، يقال: هو هاد خرِّيت، وحقيقة الصّراـط الطّريق الواسـعة. وقد صحّ أن تسـتعار الهداية للإرشـاد والتّ عليم، والصّرـاطُ للـدين القويم، فكـان تشــبيهاً مركّباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التّمثيليّة.

ووُصـف الصّراـط بالمسـتقيم، أي الذي لا خطأ فيه ولا فسـاد، وقد تقدّم عند قولــــه تعالى:{**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**}[1]، والمقصــود: إتمام هيئة التّشــبيه بأنّه دين لا يتطرّق متّبعه شكّ في نفعه كما لا يتردّد سالك الطّريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحيّر في أمره.

وفي قولـــه:{**دِيناً**} تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبّه، وانتصب على الحال من:{**صِرَاطٍ**} لأنّه نكرة موصوفة.

والدّين تقدّم عند قولـــه تعالى:{**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**}[2] وهو السّيرة التي يتّبعها النّاس.

والقَيِم بفتح القـاف وتشــديـد اليـاء كما قرأه نـافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: وصــف مبـالغـة قَـائم بمعنى معتـدل غير معوج، وإطلاق القيـام على الاعتـدال والاستقامة مجاز، لأنّ المرء إذا قام اعتدلت قامته، فيلزم الاعتدال القيام.

والأحسـن أن نجعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر، وهو مرادف القيّوم، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوّم عليه،

فالإسلام قيّم بالأمّة وحاجتها، يقال: فلان قيّم على كذا، بمعنى مدبّر لــــه ومصلح، ومنه وصـف الله تعالى بالقيّوم، وهذا أحسن لأنّ فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءاً من التّمثيليّة، فلا تكون إعادة لبعض التّشبيه.

وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي، وخلف:{**قِيماً**} بكسر القاف وفتح الياء مخفّفة وهو من صـيغ مصـادر قام، فهو وصـف للدّين بمصـدر القيام المقصـودِ به كفاية المصـلحة للمبـالغـة، وهذه زنة قليلة في المصـــادر، وقَلْبُ واوه ياء بعد الكسـرـة على غير الغالب: لأنّ الغالب فيه تصـحيح لامِه لأنَّها مفتوحة، فسواء في خفّتِها وقوعها على الواو أو على الياء، مثل عِوَض وحِوَل، وهذَا كشذوذ جياد جمع جواد، وانتصب{**قِيماً**} على الوصف ل{**دِيناً**}.

وقولـه:{**مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**} حال من:{**دِيناً**} أو من:{**صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} أو عطفُ بيان على{**دِيناً**}.

والملّة: الدّين، فهي مرادفة الدين، فالتَّعبير بها هنا للتَّفنّن ألا ترى إلى قولـه تعالى:{**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ**}[١].

و{**مِلّة**} فِعْلة بمعنى المفعول، أي المملول، من أمللت الكتاب إذا لقّنت الكاتب ما يَكتب، وكـان حقّهـا أن لا تقترن بهـاء التّأنيث لأنّ زنة (فِعْل) بمعنى المفعول تلزم التّذكير، كالذِّبح، إلاّ أنَّهم قرنوها بهاء التّأنيث لما صـيّروها اسـماً للدِّين، ولذلك قال الرّاغب: الملّة كالدّين، ثمّ قال: "والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملّة لا تضـاف إلاّ إلى النّبيء الذي تسـند إليه نحو ملّة إبراهيم، ملّة آبائي، ولا توجد مضافة إلى الله و لا إلى آحاد الأمّة، ولا تستعمل إلاّ في جملة الشّريعة دون آحادها لا يقال: الصّلاة ملّة الله، أي ويقال: الصّلاةُ دين الله ذلك أنَّه يراعى في لفظ الملّة أنَّها مملول من الله فهي تضاف للّذي أُملَّت عليه.

ومعنى كون الإســـلام ملّـةَ إبراهيم: أنَّه جاء بالأصـــول التي هي شريعة إبراهيم وهي: التّوحيد، ومسـايرة الفطرة، والشّـكر، والسّـماحة، وإعلان الحقّ، وقد بيّنتُ ذلك عند قولــــه تعالى:{**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياًّ وَلاَ نَصْرَانِياًّ وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً**}[٢].

والحنيف: المُجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي، وقد تقدّم عند قوله تعالى:**{قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[1].

وجملة:**{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** عطف على الحال من**{إِبْرَاهِيمَ}** عليه السّلام المضاف إليه، لأنّ المضاف هنا كالجزء من المضاف إليه.

استئناف أيضاً ، يتنزّل منزلة التّفريع عن الأوّل، إلاّ أنَّه استؤنف للإشارة إلى أنّه غرض مستقلّ مُهِمّ في ذاته، وإن كان متفرّعاً عن غيره، وحاصل ما تضمّنه هو الإخلاص لله في العبادة، وهو متفرّع عن التّوحيد، ولذلك قيل: الرياءَ الشّرك الأصغر. عُلّم الرّسول ﷺ أن يقوله عقب ما عُلّمه بما ذكر قبله لأنّ المذكور هنا يتضمّن معنى الشّكر لله على نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم، فإنَّه هداه ثمّ ألهمه الشّكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى. وأعيد الأمر بالقول لما علمتَ آنفاً.

وافتتحت جملة المقول بحرف التّوكيد: للاهتمام بالخبر ولتحقيقه، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كان يُرائي بصلاته، فقد قال بعض المشركين لمَّا رأى رسول الله ﷺ يصلّي عند الكعبة: «**ألاَ تنظرون إلى هذا المُرائي أيُّكم يقوم إلى جَزور بني فلان فيعمِد إلى فَرثها وسلاها فإذا سجد وضعه بين كتفيه**». **فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ** [2].

واللاّم في**{للّه}** يجوز أن تكون للملك، أي هي بتيسير الله فيكون بياناً لقوله:**{إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[3]. ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله.

وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام. ولذلك أردف بجملة:**{لاَ شَرِيكَ لَهُ}**.

والنّسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك.

والمحْيَا والممات يستعملان مصدرين ميميين، ويستعملان اسمي زمان، من حيي ومات، والمعنيَان محتمَلان فإذا كان المراد من المحيا والممات المعنى المصدري كان المعنى على حذف مضاف تقديره: أعمال المحيَا وأعمال الممات، أي الأعمال التي من شأنها أن يتلبّس بها المرء مع حياته، ومع وقت مماته. وإذا كان المراد منهما المعنى الزمني كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات.

ثمّ إنّ أعمال الحياة كثيرة وفيرة، وأمّا الأعمال عند الموت فهي ما كان عليه في مدّة الحياة وثباتُه عليه، لأنّ حالة الموت أو مدّته هي الحالة أو المدّة التي تنقلب فيها أحوال الجسم إلى صفة تؤذن بقرب انتهاء مدّة الحياة وتلك حالة الاحتضار، وتلك الحالة قد تؤثّر انقلاباً في الفكر أو استعجالاً بما لم يكن يستعجل به الحي، فربّما صدرت عن صاحبها أعمال لم يكن يصدرها في مدّة الصحّة، اتّقاءَ أو حياءً أو جلباً لنفع، فيرى أنَّه قد يئس ممّا كان يُراعيه، فيفعل ما لم يكن يفعل، وأيضاً لتلك الحالة شؤون خاصّة تقع عندها في العادة مثل الوصيّة، وهذه كلّها من أحوال آخر الحياة، ولكنّها تضاف إلى الموت لوقوعها بقربه، وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت.

ويجوز أن يكون المراد من الممات ما يحصل للرسول عليه الصّلاة والسّلام بعد وفاته من توجهاته الرّوحيّة نحو أمّته بالدّعاء لهم والتّسليم على من سلّم عليه منهم والظّهور لخاصّة أمّته في المنام فإنّ للرّسول بعد مماته أحكام الحياة الرّوحيّة الكاملة كما ورد في الحديث: «**إذا سلّم عليّ أحد من أمَّتي رَدّ الله عليّ روحِي فرددتُ عليه السّلام**» وكذلك أعماله في الحشر من الشّفاعة العامّة والسّجود لله في عرصات القيامة فتلك أعمال خاصة به ﷺ وهي كلّها لله تعالى لأنَّها لنفع عبيده أو لنفع أتباع دينه الذي ارتضاه لهم، فيكون قوله:{**وَمَمَاتِي**} هنا ناظراً إلى قوله في الحديث: «**حياتي خير لكم ومماتي خير لكم**».

ويجوز أن يكون معنى مماته لله الشهادة في سبيل الله فإن رسول الله ﷺ سمّته اليهودية بخيبر في لحم شاة أطعموه إياه حصل بعض منه في إمعائه. ففي الحديث: «**ما زالت أكلة خيبر تعتادني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبْهَري**».

وبقوله:{**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} تحقّق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنّفس إلى المُسْلَم له، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله:{**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ**}[1] ، وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام في قوله:{**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**}[2].

وقوله:{**رَبِّ الْعَالَمِينَ**} صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد{**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**} وجملة:{**لاَ شَرِيكَ لَهُ**} حال من اسم الجلالة مصرّحة بما أفاده جمع التّوكيد مع لام الملك من إفادة القصر. والمقصود من الصّفة والحال الردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم، وبأنّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة.{**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**} إلخ، أي أنّ ذلك كان لله بهدي من الله وأمرٍ منه، فرجع إلى قوله:{**إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**}[3] يعني أنّه كما هداه أمره بما هو شكر على تلك الهداية، وإنّما أعيد هنا لأنّه لما أضاف الصّلاة وما عطف عليها لنفسه وجعلها لله تعالى أعقبها بأنّه هَدْي من الله تعالى، وهذا كقوله تعالى:{**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**}[4]. وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بالمشار إليه.

وقوله:{**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**} مثل قوله:{**وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ**} خبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو لازم معناه، يعني قبول الإسلام والثّبات عليه والاغتباط به،

لأنّ من أحبّ شـيئاً أسرع إليه فجاءه أوّل النّاس، وهذا بمنزلة فعل السـبق إذ يطلق في كلامهم على التمكّن والترجّح، كما قال النّابغة:

سـبقْتَ الرجالَ الباهشـين إلى العلا ::: كسـبق الجواد اصـطادَ قبل الطوارد

لا يريد أنّه كان في المعالي أقدم من غيره لأنّ في أهل المعالي من هو أكبر منه سِـنّاً، ومن نال العلا قبل أن يولد الممدوح، ولكنّه أراد أنّه تمكّن من نوال العلا وأصبح الحائز لـه والثّابت عليه.

وفي الحـديث: « **نحـن الآخِـرون السّـابقون يـوم القيامـة**». وهـذا المعنـى تـأييس للمشركين مـن الطّمـع في التّنـازل لهـم في ديـنهم ولـو أقـلّ تنـازلِ. ومـن اسـتعمال (أوّل) في مثـل هـذا قولـه تعـالى:{**وَلاَ تَكُونُـوا أَوَّلَ كَـافِرٍ بِـهِ**}[1] ولـيس المـراد معنـاه الصّريـحَ لقلّـة جـدوى الخـبر بـذلك، لأنّ كـلّ داع إلى شيء فهـو أوّل أصـحابه لا محالـة، فـماذا يفيـد ذلـك الأعـداء والأتبـاعَ، فـإن أريـد بالمسـلمين الـذين اتَّبعـوا حقيقـة الإسلام بمعنـى إسلام الوجـه إلى اللـه تعـالى لم يسـتقم، لأنّ إبـراهيم عليـه السّـلام كـا ن مسـلماً وكـان بنـوه مسـلمين، كـما حـكى اللـه عـنهم إذ قـال إبـراهيم عليـه السّـلام:{**فَـلاَ تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنـتُم مُّسْـلِمُونَ**}[2] وكذلك أبناء يعقوب كانوا مسلمين إذ قالوا[3]:{**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**} [4].

{**أَغَيْرَ اللـه أَبْغِي رَبّاً**} أى: أغير اللـه - تعالى - تريدوننى أن أطلب رباً فأشركه فى عبادته، والحال والشأن أنه - سبحانه - هو رب كل شىء ومليكه، وهو الخالق لكل شىء.

فجملة{**وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**} حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال.

ثم بين - سـبحانه - أن كل إنسـان مجازى بعمله فقال:{**وَلاَ تَكْسِـبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا**} أى: لا تجترح نفس إثما إلا عليها من حيث عقابه. فلا يؤاخذ سواها به، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به.

{وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى} أى: ولا تحمل نفس مذنبة ولا غير مذنبة ذنب نفس أخرى، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب.

قال القرطبى: وأصل الوزر: الثقل، ومنه قوله تعالى:**{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}** وهو هنا الذنب كما فى قوله تعالى:**{وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ}** ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال:**{ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ}** أى: رجوعكم بعد الموت يوم القيامة**{فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** بتمييز الحق من الباطل، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله.

ثم ختمت السورة بهذه الآية:**{وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض}** أى: خلائف القرون الماضية، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم.

وخلائف: جمع خليفة، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه.

وقوله:**{وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** أى: فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك.

ثم بين - سبحانه - العلة فى ذلك فقال:**{لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ}** أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره.

وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة. وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء**».

ثم رهب - سبحانه - من معصيته، ورغب فى طاعته فقال:**{إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب}** لمن عصاه وخالف رسله.**{وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}** لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين[1].

* * * * *

المطلب التاسع:

تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

إنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد. جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته. فهو " النبي الأمي»، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به. وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله.. وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي؛ ويعظمونه ويوقرونه، وينصرونه ويؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه**{أولئك هم المفلحون}**..

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل - على يد نبيهم موسى عليه السلام - كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مستقر رحمته.. فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين.

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى - عليه السلام - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به. وفيه التخفيف عنهم والتيسير، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين!

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً.. فقد سجل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم ألأم خلق وقف لهذا النبي وللدين الذي جاء به.. اليهود أولاً والصليبيون أخيراً.. وأن الحرب التي شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا؛ وما يزالون يصرون ويدأبون!

والذي يراجع - فقط - ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين - وقد سبق منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق - يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم!

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك - منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة - إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود!

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب، والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية.. وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة.. لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها - بالإضافة إلى ما استحدثته منها - جملة واحدة!

ذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام في كل مكان؛ ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس - سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة!) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية! تنكر «الغيبية» لأنها «علمية»! و«تطوّر» الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في «حرية!»، و«تطوّر» كذلك الفقه الإسلامي، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره.

كيما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية!!

إنها المعركة الوحشـية الضـارية يخوضـها أهل الكتاب مع هذا الدين، الذي بشرـوا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد. ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد!

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}..

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالته الناس جميعاً، هي آية مكية في سـورة مكية.. وهي تجبه ا لمزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً ﷺ لم يكن يـدور في خلـده وهو في مكة أن يمد بصر-ـه برسـالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشـاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب. وليسـت البلية في أن يرصـد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله. وأن يكون «المستشرقون» الذين يكتبون مثل هذا الكـذب هم طليعـة الهجوم على هـذا الـدين وأهله.. إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السـذج الأغرار ممن يسـمون أنفسـهم بالمسـلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم. المحاربين لهم ولعقيدتهم، أسـاتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسـه، ويسـتشهدون بما يكتبونـه عن تـاريخ هـذا الـدين وحقـائقه، ثم يزعم هؤلاء السـذج الأغرار لأنفسـهم أنهم "مثقفون"!

* * * * *

المطلب العاشر:

ألوان التهديد والعقاب لبني إسرائيل!!!

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[1].

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}..

فهو إِذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدروه؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب. والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب. وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف..

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ.. ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة.

لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة - كما أخبر الله نبيه في قرآنه - معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة.

{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}..

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب - كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر - وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسـول النبي الـذي يجدونه مكتوباً عندهم، في التوراة والإنجيل.. فليس عذابه - سـبحانه - عن نقمة ولا إحنة. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة..

ثم تمضيـ خطوات القصـة مع خطوات التـاريخ، من بعد موسى وخلفائه، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة:

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّـالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَـنَاتِ وَالسَّـيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَـابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُـوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ}..

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة في هذا السـياق تكملة لقصـة بني إسرائيل من بعد موسى..

ذلـك حين تفرق اليهود في الأرض؛ جماعـات مختلفـة المـذاهـب والتصـورات، مختلفة المشـارب والمسـالك. فكان منهم الصـالحون وكان منهم من هم دون الصـلاح. وظلت العناية الإلهيـة تواليهم بالابتلاءات. تارة بالنعماء وتارة بالبأسـاء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم:

{وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}..

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسـيان المؤدي إلى الاغترار والبوار..

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}..

وصــفـة هـذا الخلف الـذي جاء بعد ذلك السـلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسـوه.. ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سـلوكهم.. شـأن العقيدة حين تتحول إلى ثقـافـة تـدرس وعلم يحفظ.. وكلما رأوا عرضـاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا:{سَيُغْفَرُ لَنَا}.. وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ويسأل سؤال استنكار:

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}.

ألم يؤخـذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصـوص، وألا يخبروا عن اللـه إلا بـالحق.. فما بـالهم يقولون:{سَيُغْفَرُ لَنَا} ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويبررون لأنفســهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً؛ وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!

بلى! ولكن الدراسـة لا تجدي ما لم تخالط القلوب. وكم من دارسـين للدين وقلوبهم عنه بعيد. إنما يدرسـونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضـعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضـة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا.. وهل آفة الدين إلا الذين يدرسـونه دراسـة؛ ولا يأخذونه عقيدة؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!

{وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}.

نعم! إنها الدار الآخرة! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة.

وهو وحـده الذي يعصـم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا.. نعم إنها هي التي لا يصـلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها.. وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة

في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون.. مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين..

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة «الاشتراكية العلمية» أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه: «العلمية»..

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس؛ وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلاَّ ذلك اليقين.. ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان. وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال..

إن «العلمية» التي تناقض «الغيبية» جهالة من جهالات القرن الثامن عشر ــ والقرن التاسع عشر. جهالة يرجع عنها «العلم البشري» ذاته، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين إلا الجهال! جهالة تناقض فطرة «الإنسان» ومن ثم تفسد «الحياة» ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار! ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها. ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية المطاف! والذي تردده الببغاوات هنا وهناك، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض تمضي عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك!

ولأن قضـية الآخرة، وقضـية التقوى قضـيتان أسـاسـيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السـياق القرآني المخـاطبين الـذين يتهـافتون على عرض هذا الأدنى.. عرض الحياة الدنيا.. إلى العقل:

{وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}..

ولو كـان العقل هو الذي يحكم لا الهوى.. ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسـمى العلم هو الـذي يقضي.. لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى. ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً:

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}.

وهو تعريض بـالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسـوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسـكون بالكتاب الذي درسـوه، ولا يعملون به، ولا يحكمونه في تصـوراتهم وحركاتهم؛ ولا في سـلوكهم وحياتهم.

غير أن الآيـة تبقى - من وراء ذلـك التعريض - مطلقـة، تعطي مـدلولها كاملاً، لكل جيل ولكل حالة.

إن الصـيغة اللفظية:{**يُمَسِّكُونَ**}.. تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة.. الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه.. في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت.. فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ـ ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سـعة الأفق ولكنها تنافي الاسـتهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله! فهو الذي يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله!

والتمسـك بالكتاب في جد وقوة وصرامة؛ وإقامة الصـلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لصـلاح الحياة.. والتمسـك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشـعائر يعني مـدلو لاً معينـاً. إذ يعني تحكيم هـذا الكتـاب في حياة الناس لإصـلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس

. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه.. والإشارة إلى الإصلاح في الآية:

{إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}..

يشير إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين.

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني.. ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

إنه منهج متكامل. يقيم الحكم على أساس الكتاب؛ ويقيم القلب على أساس العبادة.. ومن ثم تتوافق القلوب مع الكتاب؛ فتصلح القلوب، وتصلح الحياة.

إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب!

وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق:

{وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

إنه ميثاق لا ينسى.. فقد أخذ في ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق؛ فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس. ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي. وتظل موصولة بالله لا تنساه!

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! نقضت الميثاق، ونسيت الله، ولجت في المعصية، حتى استحقت غضب الله ولعنته. وحق عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها، وأفاء عليها من عطاياه. فلم تشكر النعمة، ولم ترع العهد، ولم تذكر الميثاق، وما ربك بظلام للعبيد [١].

قال ابن عباس: (اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به، وحرم عليهم الصيد فيه، وأمرهم بتعظيمه، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت المقبل، وذلك بلاء ابتلاهم الله به، فذلك معنى قوله تعالى:{**وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ**}.

وقال الإمام القرطبى: (وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء. فيأخذونها يوم الأحد).

وقوله تعالى:{**كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**} معناه: بمثل هذا الابتلاء، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم، وتحايلهم القبيح على شريعتهم، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعة سهل له أمور دنياه، وأجل له ثواب أخراه، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى:{**وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**}.

والـذى يفهم من هـذه الآية الكريمة، - وعليه جمهور المفسرـــين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

١- فـرقـة المعتـدين فى الســبـت، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار.

٢- فرقة الناصـحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم.

٣- فرقة اللائمين للناصـحين ليأســهم من صلاح العادين فى السبت.

وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقولـــه:{**وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللـه مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَـذِّبُهُمْ عَـذَابـاً شَـــدِيـداً**} أى: قـالت فرقة من أهل القرية، لإخوانهم الـذين لم يألوا جهدا فى نصــيحة العادين فى الســبت، لم تعظون قوما لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذاباً شــديداً، جزاء تماديهم فى الشرـ وصــممهم عن ســماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم:{**مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**}.

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين:

الأولى: الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والثـانية: الأمل فى صـــلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجو من العقوبة، ويســـيروا فى طريق المهتدين.

وقيل: إن أهل القرية كانوا فرقتين، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت فى الســبت، وفرقة أحجمـت عن الإقـدام، ونصــحـت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية،

قالت لها الفرقة العادية على سـبيل التهكم والاسـتهزاء: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معـذبهم عـذابـاً شـــديداً فى زعمكم؟ فأجابتهم الناصــحة بقولها:{**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**}.

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرــين - لأن هذا هو الظاهر من الضـــمائر فى الآية الكريمة، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصـــية (ولعلكم تتقون) بكاف الخطاب، بدل قولهم:{**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**} الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة، والفرقة الناصحة.

قال الإمام القرطبى عند تفســيره الآية الكريمة: إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق، فرقة عصـت وصـد ت، وكانوا، نحوا من سبعين ألفاً، فرقة نهت واعتزلت، وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفـاً، وفرقـة اعتزلـت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية، لم تعظون قوما - عصـاة - الله مهلكهم، أو معذبهم على غلبة الظن. وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية؟).

وقولـه:{**مَعْذِرَةً**} بالنصب على أنها مفعول لأجله أى: وعظناهم لأجل المعذرة، أو منصوبة على أنها مصــدر لفعل مقدر من لفظها أى: نعتذر معذرة وقرئت: " معذرة " بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى: موعظتنا معذرة وقد اختار سـيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً ولكنهم قيل لهم: لم تعظون؟ فقالوا: موعظتنا معذرة.

ثم بين - سـبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصــية فقال تعالى:{**فَلَماَّ نَسُــواْ مَا ذُكِّرُواْ بِـهِ أَنجَيْنَـا الـذين يَنْهَوْنَ عَنِ السـوءِ وَأَخَـذْنَـا الـذين ظَلَمُواْ بِعَـذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُـقُونَ**} أى: فلما لج الظالمون فى طغيانهم، وعموا وصـموا عن النصـيحة أنجينا الناصـحين، وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله.

والآيـة الكريمـة صريحـة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السـوء، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السـوء على وعظهم للمعتدين، فقد سكتت عنها.

ويرى بعض المفسرين: أنها لم تنج، لأنها لم تنه عن المنكر. فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم.

ويرى جمهور المفسرين: أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبوه، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه، فلا جدوى وراء وعظهم، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً - من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين.

قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين، غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهى حال المنهى، وأن النهى لا يؤثر فيه، سقط عنه النهى، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين، ولم يخبرهم كما خبروهم. أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله:{**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً**} وقال الإمام ابن كثير: (ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة، ما أدرى ما فعل بهم، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقال:{**لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً**} قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة).

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للنا اصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين ولم تذكر فى السبت موقفاً سلبياً استحقت معه الإهمال، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة.

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى:{**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**} أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك.

قال الآلوسى: (والأمر فى قوله تعالى:{**قُلْنَا**} تكوينى لا تكليفى، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به، وهذا كقوله تعالى:{**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**} فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل).

وقيل فى تفسير الآية: إن الله تعالى - عاقب القوم أولا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة، فلما لم يرتدعوا ويتوبوا إلى رشدهم، مسخهم مسخا خلقيا وجسميا، فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية، وعليه الجمهور:

وقيل: مسخهم مسخاً خُلقياً ونفسياً، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، وهذا مروي عن مجاهد.

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصحية، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان[1].

* * * * *

المبحث الخامس: الإسلام دين الحق والتوحيد:

المطلب الأول:

عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[١].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى. وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله فى ذلك:**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}** الآية.

و " عزير " كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق. م تقريباً، ومن أعامله أنه جمع أسفار التوراة؛ وأدخل الأحرف الكلدانية عوضاً عن العبرانية القديمة، وألف أسفار: الأيام، وعزرا، ونحميا.

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب " ابن الله".

قال البيضاوى: وإنما قالوا ذلك - أى: عزير ابن الله - لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة "بختنصر" - سنة ٥٨٦ ق. م. م من يحفظ التوراة. وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوارة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله.

وقال صاحب المنار ما ملخصه: جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره، وعبق شذا ورده. وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة..

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً متعددة فى الأسباب التى حملت اليهود على أن يقولوا "عزير ابن الله " وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل، ولذا فقد ضربنا عنها صفحا.

وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال، وفيما يترتب على ذلك من عقاب.

وأما قول النصارى: " المسيح ابن الله " فهو شائع مشهور، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل، فقالوا عنه: "ابن الله".

وقد حاجهم - سبحانه - فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم، فكان أولى بنسبة البنوة إليه، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك، فينبغى أن يكون عيسى كآدم.

قال - تعالى:{**إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لـه كُن فَيَكُونُ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين**} وقوله:{**ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ**} ذم لهم على ما نطقوا به يمجه العقل السليم، والفكر القويم.

أى: ذلك الذى قالوه فى شأن " عزير والمسيح " قول تلوكه ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك.

قال - تعالى:{ **وَمَا يَنبَغِي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السـماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيه يَوْمَ القيامة فَرْداً**}[1] ولقد أنذر، سبحانه، الذين نسـبوا إليه الولد بالعقاب الشـديد فقال:{**وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً**}[2] وأسـند، سـبحانه، القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها، لاسـتحضـار الصـورة الحسـية الواقعية، حتى لكأنها مسـموعة مرئية ولبيان أن هذا القول لا وجود لـــه فى عالم الحقيقة والواقع، وإنما هو لغو سـاقط وليد الخيالات والأوهام، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم، أى: أنه قول صادر منهم وليس محكيا عنهم.

قال صـاحب الكشـاف: فإن قلت: كل القول يقال بالفم فما معنى قولـــه:{**ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ**}؟.

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضـــده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من أى معنى تحتـه، كـالألفـاظ المهملـة التى هى أجراس ونغم، لا تـدل على معـان. وذلك أن القول الدال على معنى، لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر فى القلب وما لا معنى لـــه مقول بالفم لا غير.

والثـانى: أن يراد بـالقول: المـذاهب، كقولهم: " قول أبى حنيفة " يريدون مذهبه ما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شـبهة، حتى يؤثر فى القلوب، وذلك أنهم اعترفوا أنه لا صاحبة لـه لم تبق شبهة فى انتفاء الولد.

وقولـــه:{**يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ**} ذم آخر لهم على تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر.

قال الجمل ما ملخصه: قرأ العامة:{**يُضَاهِئُونَ**} بضم الهاء بعدها واو - وقرأ عاصم: "يضاهئون" بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة - فقيل: هما بمعنى واحد وهو المشابهة، وفيه لغتان: ضاهات وضاهيت...

والمراد بالذين كفروا من قبل: قيل، أهل مكة وأمثالهم من المشركين السابقين الذين قالوا، الملائكة بنات الله وقيل: المراد بهم قدماء أهل الكتاب، أى، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبى ﷺ يشابه قولهم فى العزير وعيسى قول آبائهم الأقدمين، - أى المعاصرين للعهد النبوى - قد ورثوا الكفر كابراً عن كابرٍ.

والأولى من هذين الوجهين: أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل. جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى.

قال صاحب المنار: وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصرين وقدماء الفرس.

وهذه الحقيقة التاريخية - والتى بينها القرآن فى هذه الآية - من معجزاته لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان.

والمعنى. أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم:{**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**} وقال البعض الآخر:{**الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**} ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم{**فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**} وقوله:{**قَاتَلَهُمُ الله**} تعجيب من شناعة قولهم، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لا بد أن يقتل، ومن غالبه لا بد أن يغلب.

وعن ابن عباس، أن معنى:{**قَاتَلَهُمُ الله**} لعنهم الله وكل شئ فى القرآن قتل فهو لعن.

وقوله:{**أنى يُؤْفَكُونَ**} تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد.

و{**أنى**} بمعنى كيف. و{**يُؤْفَكُونَ**} من الإفك بمعنى الانصراف عن الشىء والابتعاد عنه، يقال: أفكه عن الشىء يأفكه أفكا، أى، صرفه عنه وقلبه. ويقال: أفكت الأرض أفكا، أى: صرف، عنها المطر.

والمعنى: قاتل الله هؤلاء الذين قالوا:{**عُزَيْرٌ ابن الله**} والذين قالوا:{**المسيح ابن الله**} لأنهم بقوله هذا محل مقت العقلاء وعجبهم، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك..؟!

إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم.

وقوله - سبحانه:{**اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ**} بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة، وأفعال ذميمة.

والضمير فى قوله:{**اتخذوا**} يعود إلى الفريقين اللذين حكت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان.

والأحبار: علماء اليهود جمع حبر، بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة والحسن، والرهبان: علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى.

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم، وفيما حرموه عليهم، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفاً لشرع الله.

وهذا التفسير مأثور " عن رسول الله ﷺ فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله، ﷺ، فر إلى الشام: وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومها، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها. فرجعت إلى أخيها، فرغبته فى الإسلام

وفى القدوم على رســول الله ﷺ فقدم عدى المدينة، وكان رئيســا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفى عنق عدى صـليب من فضــة، وكان الرســول يقرأ هذه الآية:{**اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله...**}[1] ".

قال عدى: فقلت، إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**».

قـال ابن كثير: وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفســير الآية: أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدى: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقال الآلـوسى: وقيل اتخاذهم أرباباً بالســجود لهم ونحوه مما لا يصــلح إلا لله، تعالى، وحينئذ فلا مجاز، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ.

والآية ناعية على كثير من الفرق الضــالة الذين تركوا كتاب الله وســنة رســوله، لكلام علمائهم ورؤســائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر الحق فعلى المســلم اتباعه وإن أخطأه اجتهاد مقلده.

وقولـه:{**والمسيح ابن مَرْيَمَ**} معطوف على قولـه:{**أَحْبَارَهُمْ**} والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى: اتخذوه رباً وإلهاً.

قال صاحب المنار ما ملخصه: جمع - سبحانه. بين اليهود والنصارى فى اتخاذ رجال دينهم أربابا بأن أعطوهم حتى التشريـع فيهم: وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المســيح ربا وإلها يعبدونه واليهود لم يعبدوا عزيرا، ولم يؤثر عمن قال منهم إنه ابن اللـه، أنهم عنوا مـا يعنيه النصــارى من قولهم فى المســيح: إنه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد.

وقولــــــه:{ **وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ**} جملة حالية أى: اتخذ هؤلاء المفترون على اللـه الكذب من اليهود والنصـــارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، بأن أطـاعوهم فيما يحلونه لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان مخالفاً لشرـــع الله؛ وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً وإلهاً.

والحال أنهم جميعاً ما أمروا على ألسـنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده، فهو المعبود الذى لا تعنو الوجوه إلا لـه، ولا يكون الاعتماد إلا عليه، وكل ما سواه فهو مخلوق لـه.

وقولـــــه:{**لاَّ إله إِلاَّ هُوَ**} صـفة ثانية لقولــــه:{**إلها**}. أو هو اسـتئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك شرعا وعقلا.

وقولـــه:{**سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**} تنزيه لــــه عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة لـه.

أى: تنزه الله - عز وجل - وتقدس عن الشر.كاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، فهو رب العالمين، وخالق الخلائق أجمعين..

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: ومن النص القرآنى الواضح الدلالة، ومن تفســير رســول الله ﷺ للآية وهو فصــل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرــين الأوائل والمتـأخرين، تخلص لنـا حقـائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشـــير إليها هنا بغاية الاختصـار وهى: أن العبادة هى الاتباع فى الشرـائع بنص القرآن وتفسـير الرسـول ﷺ فاليهود والنصـــارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعقاد فى ألوهيتهم، أو تقديم الشـــعائر التعبدية إليهم.. ومع هذا فقد حكم الله، سـبحانه، عليهم بالشرـك فى هذه الآية، وبالكفر فى آية تالية فى السـياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرـــائع فأطاعوها واتبعوها - فهذا وحده دون الاعتقـاد والشـــعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشرـكا بالله، الشرـك الذى يخرجه من عداد المؤمنين، ويدخله فى عداد الكافرين.

إن النص القرآنى يســوى فى الوصـــف بالشرــك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الـذين قبلوا التشرـــيع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبيان النصـــارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاد وقدموا إليه الشعائر فى العبادة.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقاويلهم الكاذبة، ودعاواهم الباطلة فقال:{**يُرِيدُونَ أن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى الله إِلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون**}.

والمراد بنور الله: دين الإِسلام الذى ارتضاه سبحانه - لعباده ديناً وبعث به رسوله، ﷺ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب، ويشفى النفوس، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار.

وقيل المراد بنور الله: حججه الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقيل المراد به: القرآن، وقيل المراد به: نبوة النبى ﷺ وكلها معان متقاربة.

والمراد بإطفاء نور الله: محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه، كثغراهم للشبهات من حول تعاليمه، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف فى وجهه، وعلى محاربته.

والمراد بأفواههم. أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى تنطق بما لا وزن له ولا قيمة.

والمعنى: يريد هؤلاء الكافرين بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإِسلام، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها نبيه ﷺ عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه، أو أصل تستند إليه، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة..

قال الآلوسى ما ملخصه: فى الكلام استعارة تمثيلية، حيث شبه - سبحانه - حال أهل الكتاب فى محاولة إبطار نبوة النبى، ﷺ، عن طريق تكذيبهم له، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم مثبت فى الآفاق ليطفئه بنفخه.

وروعى فى كل من المشبه والمشبه به معنى الإِفراط والتفريط، حيث شبه الإِبطال والتكذيب بالإِطفاء بالفم، ونسب النور إلى الله - تعالى - العظيم الشأن.

ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيما، فكيف يطفأ بنفخ الفم..

وقوله:{**ويأبى الله إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون**} بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين، وتقرير لسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه.

والفعل{**يأبى**} هنا بمعنى لا يريد أو لا يرضى - أى: أنه جار مجرى النفى، ولذا صح الاستثناء منه.

قال أبو السعود: وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله:{**إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ**}. من الموجب، وهو قوله:{**وَيَأْبَى اللَّهُ**} - لكونه بمعنى النفى، ولوقوعه فى مقابلة قوله:{**يُرِيدُونَ**}، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإِرادة، أى: لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه، فضلا عن الإِطفاء.

وفى إظهار " النور " فى مقام الإِضمار مضافا إلى ضميره - سبحانه - زيادة اعتناء بشأنه، وتشريف له على تشريف، وإشعار بعلة الحكم.

وجواب{**وَلَوْ**} فى قوله:{**وَلَوْ كَرِهَ الكافرون**} محذوف لدلالة ما قبله عليه.

والمعنى: يريد أعداء الله أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، والحال أن الله - تعالى - لا يريد إلا إتمام هذا النور، ولو كره الكافرون هذا الإِتمام - سبحانه - دون أن يقيم لكراهتهم وزنا.

فالآية الكريمة وعد من الله تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى يمضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تثاقل، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم.

ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره، وبين كيفية هذا الإِتمام فقال:{**هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون**}.

والمراد بالهدى: القرآن الكريم المشتمل على الإِرشادات السامية، والتوجيهات القويمة، والأخبار الصادقة، والتشريعات الحكيمة.

والمراد بدين الحق: دين الإِسلام الذى هو خاتم الأديان.

وقولـــــه:{**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ**} من الإِظهار بمعنى الإِعلاء والغلبة بالحجة والبرهان، والسيادة والسلطان.

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإِرسال والغاية منه.

والضمير فى:{**لِيُظْهِرَهُ**} يعود على الدين الحق أو الرسول ﷺ والمعنى: هو الله - سبحانه - الذى أرسـل رسـوله محمدا ﷺ بالقرآن الهادى للتى هى أقوم، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسـخه دين آخر، وكان هذا الإِرسـال لإِظهار هذا الدين الحق على سـائر الأديان بالحدة والغلبة، ولاظهار رسـوله ﷺ على أهل الأديان كلها، بما أوحى إليه - سـبحانه - من هدايات، وعبادات، وتشريعات، وآداب فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة.

وختم - سبحانه - هذه الآية بقولـه:{**وَلَوْ كَرِهَ المشركون**} وختم التى قبلها بقولـه:{**وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**} للاشـعار بأن هؤلاء الذين قالوا:{**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَـارَى المَسِـيحُ ابْنُ اللَّهِ**} قد جمعوا بسـبب قولهم الباطل هذا، بين رذيلتى الكفر والشرك، وأنه، سبحانه، سيظهر أهل دينه على جميع أهل الأديان الأخرى.

هذا، وقد ساق الإِمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك، منها: ما ثبت فى الصحيح عن رسـول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زوى لى الأرض من مشـارقها ومغاربها، وسـبيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها**».

وروى الإِمام أحمد عن مسعود بن قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحى من محارب الصبح، فلما صلوا قال شـاب منهم: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة**» (١).

وروى أيضا عن تميم الدارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا بر إلا أدخله هذا الدين، يعز عزيزا ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإِسلام، وذلا يذل الله به الكفر**»

وكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية.

وأخرج أيضاً عن عدى بن حاتم قال: دخلت على رسول الله، ﷺ فقال: «**يا عدى أسلم تسلم**»، فقلت يا رسول الله: إنى من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**»، فقلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «**نعم، ألست من الركوسية، وأنت تأكل من مرباع قومك**». قلت: بلى. قال: «**فإن هذا لا يحل لك فى دينك**».

ثم قال ﷺ : « **أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام** » تقول: «**إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، ومن رمتهم العرب، أعرف الحيرة**»؟.

قلت: لم أرها وقد سمعت بها.

قال: «**فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز**».

قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**نعم. كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد**»[1].

قال عدى بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد. ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

وإلى هنا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب فى قولهم:{**عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله**}، وأرشدتهم إلى الطريق الحض الواضح المستقيم ليسيروا عليه، ووبختهم على تشبههم فى هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين، وعلى انقيادهم لأحبارهم ورهبانهم بدون تعقل أو تدبر، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذى ارتضاه الله هم على الأديان كلها.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الرذائل التى انغمس فيها الأحبار والرهبان، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون.. فقال - تعالى:{**يا أيها الذين آمَنُواْ... مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**}.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق، وصفهم فى هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس، تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر، أخذ أموال الناس بالباطل.

ولعمرى من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير فى زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا فى شأنهم، وفى شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه فى الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغيب الواحد تراه يتهالك عليه؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله.

المراد بالأكل فى قوله:{**لَيَأْكُلُونَ**} مطلق الأخذ والانتفاع.

وعبر عن ذلك بالأكل، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال، فسمى الشئ باسم ما هو أعظم مقاصده، على سبيل المجاز المرسل، بعلاقة العلية والمعلولية. وأكلهم أموالهم الناس بالباطل، يتناول ما كانوا يأخذونه من سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة. كما يتناول ما سوى ذلك ما كانوا يأخذونه بغير وجه حق.

وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهى أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأحبار والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم، إنصافا للعدد القليل منهم الذى لم يفعل ذلك، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام، ويقيدون أنفسهم بالحلال.

قال صـاحب المنار: وإسـناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفسـاد جميع أفرادها أو فسـقهم أو ظلمهم، بل يسـند ذلك إلى الكثير أو الأكثر، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه.

فمن الأول قولـه - تعالى - فى اليهود:{ **وترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَـارِعُونَ فِي الإثم والعدوان وَأَكْلِهِمُ السـحت لَبِئْسَ مَا كَـانُواْ يَعْمَلُونَ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**} ومن الثانى قولـه - تعالى - فى اليهود أيضـاً:{**قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**} ومن الثالث قولـه - سبحانه - فى شأن المحرفين للكلم الطاعنين فى الإسلام من اليهود - أيضـاً:{**مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَـمِعْنَا وَعَصَـيْنَا واسمع غَيْرَ مُسْـمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِـنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدين وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا واسـمع وانظرنا لَكَـانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللـه بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**} وقد نبهنا فى تفسـير هذه الآيات وأمثالها على العدل الدقيق فى أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظيم شأنه.

وقولـه:{**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله**} جريمة من جرائمهم الكثيرة.

والصد: المنع والصرف عن الشىء.. وسبيل الله: دينه وشريعته.

أى: أن هؤلاء الكثيرين من الأحبـار والرهبـان لا يكتفون بـأكـل أموال الناس بالباطل، بل إنهم يضـيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهى أنهم ينصرـفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشـهواتهم، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل، كأن يصفوه لهم بأنه دين باطل، أو بأن رسـوله ﷺ ليس هو الرسـول الذى بشرـت به الكتب السماوية السابقة.. إلى غير ذلك من وسائلهم المتنوعة فى صرف الناس عن الحق[1].

* * * * *

المطلب الثاني:

مقاصد القرآن وشرائعه

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}[1].

يا أيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب، وتخشع لها النفوس. وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم. ومن هداية لكل إلى طريق الحق والخير، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات.

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب، وأكمل بيان، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويتنبهوا من غفلتهم.

ووصفت الموعظة بأنها من ربكم، لتذكيرهم بما يزيدهم تعظيما وقبولاً، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها، العليم بما يصلحها ويشفيها.

وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين، لأنهم هم المستحقون لها، بسبب إيمانهم وتقواهم.

قال الآلوسى ما ملخصه: " واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية، فقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى قال: " جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إنى أشتكى صدرى، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**اقرأ القرآن، يقول الله - تعالى -{شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ}**».

وأخرج البيهقي في الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه، فقال لـه: «**عليك بقراءة القرآن**».

وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم، والخبر الثانى لا يدل عليه، إذ ليس فيه أكثر من أمره ﷺ الشاكى بقراءة القرآن إرشاداً لـه إلى ما ينفعه ويزول به وجعه.

ونحن لا ننكر أن للقراءة بركة، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك.

والخبر الأول وإن كان ظاهرا فى المقصود، لكن ينبغى تأويله، كأن يقال: لعله ﷺ اطلع على أن فى صدر الرجل مرضاً معنوياً قلبياً، قد صار سببا للمرض الحسي والبدني، فأمره ﷺ بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثاني.

والحسن البصري ينكر كون القرآن شفاء للأمراض، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال: "إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما فى الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم، والحق ما ذكرناه ".

وقوله:{**قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**} حض للناس على اغتنام ما في تعاليم الإسلام من خيرات، وإيثارها على ما فى الدنيا من شهوات.

أى: قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة: اجعلوا فرحكم الأكبر، وسروركم الأعظم، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد ﷺ، وبرحمته التي وسعت كل شيء وهي بالمؤمنين أوسع، لا بما تجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية.

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن، ورحمته بالإسلام. ومنهم من فسرهما بالجنة والنجاة من النار.

ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى: لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق ﷺ يحدد المراد منهما، وما دام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى.

قال ابن كثير: قولــه - تعالى:{**قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ**} أى: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة.

فعن أيفع بن عبد الكلاعي قال: لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضي الله عنه - خرج عمر ومولى لـه، فجعل يعد الإبل، فإذا هى أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله - تعالى - ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله - تعالى:{**قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**}[1].

أى: ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم، ورسول كريم، وقرآن مبين.

ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به.

والجار والمجرور فى كل منهما متعلق بمحذوف، وأصل الكلام: قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص، وأدخلت الفاء لإفادة السببية، فكأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضله ورحمته، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا.

قال القرطبى: " والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب. وقد ذم الله الفرح فى مواضع، كقوله - سبحانه:{**إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين**} وكقوله:{**إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**} ولكنه مطلق. فإذا قيد الفرح لم يكن ذما، لقوله - تعالى:{**فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ**} وكقوله - سبحانه - هنا:{**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ**} أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا".

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال:{**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ**}

أي: قل لهم يا محمد - أيضا - أخبروني أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم: إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنتم، وقسمتم هذا الرزق الحلال، فجعلتم منه حلالاً وجعلتم منه حراما.

وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا في آيات متعددة، منها قوله - تعالى:{**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا**}

قال الإمام ابن كثير: " قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى:{**وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً...**} الآيات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: «**هل لك مال؟**» قلت: نعم. قال: «**من أي المال؟**» قال: قلت: من كل المال.. من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «**إذا آتاك الله مالا فلير عليك**» ثم قال: هل تنتج إبلك صحاحا آذانها، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول: هذه بحر، وتشق جلودها وتقول؛ هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك؟. قلت: نعم. قال: «**فإن ما آتاك الله لك حل. ساعد الله أشد من ساعدك. وموسى الله أحد من موساك**».

وقوله:{**قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ**} استفهام قصد به التوبيخ والزجر أي: قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزجر: إن الله وحده هو الذي يملك التحليل والتحريم، فهل هو - سبحانه - أذن لكم في ذلك، أو إنما أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم. لأنه لو أذن لكم في ذلك لبينه على لسان رسوله ﷺ.

قال صاحب الكشاف: " وقوله:{**ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ**} متعلق بأرأيتم، وقيل: تكرير للتوكيد. والمعنى أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة، بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريرا للافتراء.

ثم قال: وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد فى شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله ".

ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال:{**وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب يَوْمَ القيامة**...}.

أى: هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة؟ أيظنون أن الله سيتركهم بدون عقاب؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افترائهم عليه الكذب.

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى، وقال - سبحانه:{**وَمَا ظَنُّ**...} بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض.

وقوله:{**إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ**} تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم، واتباع شريعته فيما أحل وحرم.

أى: إن الله لذو فضل عظيم على عباده، حيث خلقهم ورزقهم، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم، لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له[١].

* * * * *

المطلب الثالث:

الإسلام دين الحق

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[1].

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ}..

فهو الإعلان الأخير، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه. فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم.

{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}..

وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية.

والختام خطاب إلى الرسول - ﷺ - باتباع ما أمر به، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه:

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ}..

وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق [2].

{قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ} المتمثل فى كتاب الله وفى سنتى**{من رَّبِّكُمْ}** وليس من أحد سواه.**{فَمَنْ اهتدى}** إلى هذا الحق، وعمل بمقتضاه**{فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}** أى: فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره.

{**وَمَن ضَـلَّ**} عن هذا الحق وأعرض عنه{**فَإِنَّمَا يَضِـلُّ عَلَيْهَا**} أى: فإنما يكون وبال ضـلاله على نفسه.

{**وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**} أى بحفيظ يحفظ أموركم، وإنما أنا بشـير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم.

ثم أمره - سـبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال:{**واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين**}.

أى:{**وَاتَّبِعْ**} - أيهـا الرســول الكريم - فى جميع شــؤونـك{**مَا يُوحَى إِلَيْكَ**} من ربك من تشريعات حكيمة، وآداب قويمة..

{**وَاصْبِرْ**} على مشاق الدعوة وتكاليفها...

{**حَتَّى يَحْكُمَ اللَّـهُ**} بينـك وبين قومـك،{**وَهُوَ خَيْرُ الحَـاكِمِينَ**}. لأنـه هو العليم بالظواهر والبواطن، وهو الذى لا معقب لحكمه.

وبعد: فهذه هى سـورة يونس - عليه السـلام - رأينا ونحن نفسرـها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته، وشمول علمه، ونفاذ إرادته، وسعة رحمته، وسمو عزته..

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضـاً - على صـدق الرسـول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه [١].

* * * * *

المطلب الرابع:

موقف أهل الكتاب والمشركين من نبوة محمد ﷺ

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}[1].

قوله - سبحانه:{**والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ**} ثناء منه - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه.

والمراد بالكتاب هنا: التوراة والإنجيل.

والمعنى: والذين أعطيناهم التوراة والإنجيل، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيها الرسول الكريم -، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين.

هؤلاء الذين تلك صفاتهم، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك، يزيدهم إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم.

وقيل: المراد بالكتاب: القرآن الكريم، وبالموصول: أتباع النبى ﷺ من المسلمين.

فيكون المعنى: والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فآمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح، لأن الآية الكريمة سيقت بعد الحديث عن عاقبة الذين اتقوا وهم المؤمنون الصادقون، وعاقبة الكافرين. ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه.

ومن المفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم للآية على الرأى الأول: الإمام ابن كثير فقد قال: الله - تعالى:{**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ**} وهم قائمون بمقتضاه{**يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ**} أى: من القرآن، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى:{**الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِه أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ الخاسرون**} وقوله:{**وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ**} بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم، والأحزاب: جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى: ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم.. ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى ينكرونه، إهمالا لشأنهم، ولأنه لا يتلعق بذكره غرض.

وقوله - سبحانه:{ **قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ**} أمر منه - تعالى - لنبيه ﷺ بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل.

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لكل من خالفك فيما تدعو إليه:{**إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله**} وحده{**ولا أُشْرِكَ بِهِ**} بوجه من الوجوه إليه وحده " أدعو " الناس لكى يخلصوا له العبادة والطاعة{**وَإِلَيْهِ مَآبِ**} أى وإليه وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحد غيره.

فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده. والذم لمن أنكره جحوداً وعناداً، والأمر للنبى ﷺ بالسير فى طريقه بدون خشية من أحد.

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الفضائل التى امتاز بها القرآن الكريم فقال - تعالى:{**وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً...**}.

والكاف للتشبيه، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من{**أَنزَلْنَاهُ**} وضمير الغائب فى أنزلناه يعود إلى{**بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**} فى قوله فى الآية السابقة:{**يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...**} وقوله:{**حُكْماً عَرَبِيّاً**} حالان من ضمير الغائب.

والمعنى: ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز، أنزلنا عليك القرآن يا محمد{**حُكْمَا**} أى: حاكما بين الناس{**عَرَبِيّاً**} أى: بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك.

ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة، فيكون المعنى:

وكما أنزلنا الكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات أقوامهم أنزلنا عليك القرآن حاكماً بين الناس بلغتك وبلغة قومك، وهى اللغة العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه.

وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم: فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته، وهو المعبر عنها بكونه " حكما ".

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهى المعبر عنها بكونه " عربيا ".

أى: نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها.

ثم فى كونه " عربيا " امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء، حيث إنه نزل بلغتهم، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم، قال - تعالى:{**لَقَدْ أنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ**} أى: فيه بقاء شرفكم{**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**} وقال - تعالى:{**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**} وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب، حيث لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان.

ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمة كلها فى شخص نبيها ﷺ من اتباع أهواء كل كافرٍ أو فاسقٍ: فقال - تعالى:{ **وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ**}.

واللام فى قوله:{**وَلَئِن**} موطئة للقسيم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين.

والأهواء: جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق، ومطالبهم المتعنتة، والمراد بما جاءه من العلم: ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحى الصادق.

والولى: الناصر والمعين والقريب والحليف. والواقى: المدافع عن غيره.

والمعنى: " ولئن اتبعت " - يا محمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك، " من بعد ما جاءك من العلم " اليقينى بأن الإِسلام

هو الدين الحق، " مالك من الله " أى من عقابه " من ولى " يلى أمرك وينصرك " ولا واق " يقيك من حسابه.

وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول ﷺ للتأكيد من مضمونه.

فكأنه - سبحانه يقول: لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى:{ **وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين**} ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول ﷺ ليس إلا من قبيل التعنت والجحود، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر فقال - تعالى:{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً...**}

أى: " ولقد أرسلنا رسلا " كثيرين " من قبلك " يا محمد " وجعلنا لهم " أى لهؤلاء الرسل " أزواجا " يسكنون إليهن " وذرية " أى: وأولادا تقرّ بهم أعينهم.

قال الشوكانى: " وفى هذا الرد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء.

أى: هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه".

وقوله - سبحانه:{**وَمَا كَانَ لِرَسُولِ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله...**} رد على ما طلبوه منه ﷺ من معجزات.

أى: وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات.

وقوله - سبحانه:{**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**} تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه ﷺ.

أى: لكل وقت من الأوقات " كتاب " أى: حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته، وسعة علمه، وعظيم حكمته فقال:{**يَمْحُواْ الله مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب**}.

وقوله:{**يَمْحُو**} من المحو وهو إذهاب أثر الشىء بعد وجوده.

وقوله:{**وَيُثْبِتُ**} من المحو وهو إذهاب أثر الشىء بعد وجوده.

وقوله:{**وَيُثَبِّتْ**} من الإِثبات وهو جعل الشئ ثابتا قارا فى مكان ما.

وأم الكتاب: أصل الكتاب والمراد بأم الكتاب: اللوح المحفوظ، أو علمه - سبحانه - المحيط بكل شئ.

قال الفخر الرازى: " والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أما له ومنه أمّ الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب ".

والمعنى: يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه، ويثبت ما تريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة، ومن الصحة أو المرض، ومن الغنى أو الفقر، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه.

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون.

قال - تعالى:{ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ**...}

وقال - تعالى:{ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ**} وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل، لخصه الإِمام الشوكانى تلخيصا حسنا فقال:

قوله - سبحانه:{**يَمْحُواْ الله مَا يَشَآءَ وَيُثْبِتُ**} أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب،

فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر.. ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم.

وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة. وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب.

وقيل: " يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه، ويثبت ما لا يشاء فلا ينسخه.. والأول أولى كما تفيده " ما " فى قوله: " ما يشاء " من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله: "لكل أجل كتاب " ومع قوله: " وعنده أم الكتاب " أى أصله وهو اللوح المحفوظ.

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته.

وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «**جفَّ القلم**» وذلك لأن المحو والإِثبات هو من جملة ما قضاه - سبحانه.

وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى -: بما خلق وبما هو خالق [1].

* * * * *

المطلب الخامس:

النهى عن تعدد الألهة

{وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ولـه الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [1].

وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام: لا تتخذوا شركاء معى فى العبادة والطاعة، بل اجعلوهما لى وحدى، فأنا الخالق لكل شىء والقادر على كل شئ.

قال الآلوسى: وقوله:{**وقال الله..**} معطوف على قوله - سبحانه:{**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..**} وإظهار الفاعل، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر، للإيذان بأنه - تعالى - متعين الألوهية والمنهى عنه هو الإشراك به، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين...

{**اثْنَيْنِ**} صفة للفظ إلهين أو مؤكد له. وخص هذا العدد بالذكر، لأنه الأقل، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولى.

وقوله - سبحانه:{**إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**} بيان وتوكيد لما قبله، وهو مقول لقوله - سبحانه:{**وَقَالَ اللَّهُ**}.

أى: وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر، وقال - أيضا: إنما المستحق للعبادة إله واحد، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة، أى: الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية.

وقد نهى - سبحانه - عن الشرك فى آيات كثيرة، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله - تعالى:{... **وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً**} وقوله - سبحانه:{**لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ**}

والفاء فى قولــه{**فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**} واقعة فى جواب شرط مقدر و{**إِيَّايَ**} مفعول به لفعل محذوف يقدر مؤخرا، يدل عليه قولـه:{**فَارْهَبُونِ**}.

والرهبة: الخوف المصحوب بالتحرز، وفعله رهب بزنة طرب.

والمعنى: إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شىء.

وفى الجملـة الكريمـة التفـات من الغيبـة إلى الخطاب، للمبالغة فى التخويف، إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء.

وقدم المفعول وهو إياى لإفادة الحصر، وحذف متعلق الرهبة، للعموم.

أى: ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون.

والمتـأمـل فى هـذه الآية الكريمة يراها قد اشـــتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن الشرك، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، تارة عن طريق التقرير{**وَقَالَ اللَّهُ**..} وتارة عن طريق النهى الصريح، وتارة عن طريق القصر وتارة عن طريق التخصيص.

وذلك لكى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء، ويؤمنوا بالله الواحد القهار.

ثــم ســاق - ســبحانه - بعــد ذلــك مــا يــدل عــلى كــمال قدرتــه، ونفــاذ إرادتــه، فقال - تعالى:{**وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً**..}.

والمراد بالدين هنا: الطاعة والخضــوع بامتثال أمره واجتناب نهيه، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته:

وأيــامــا لــنــا غــرا كــرامــا ::: عصــيـنـا المـلـك فيهـا أن نـدينـا

أى: عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع لـه.

قولـــه:{**وَاصِباً**} من الوصـوب بمعنى الدوام والثبات، يقال: وصب الشىء يصب - بكسر الصاد - وصوبا، إذا دام وثبت. ومنه قولـه - تعالى:{**دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ**} أى: دائم.

أى: ولله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً، لا شريك لـه فى ذلك، ولا منازع لــه فى أمره أو نهيه.. ولـه - أيضا - الطاعة الدائمة، والخضوع الباقى الثابت الذى لا يحول ولا يزول.

والآية الكريمة معطوفة على قولـه:{**إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**}.

والاســتفهام فى قولـــــه:{**أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ**} للإنكار والتعجيب، والفاء للتعقيب، وهى معطوفة على محذوف، والتقدير، أفبعد أن علمتم أن الله - تعالى - لــــه ما فى الســموات والأرض، ولـه الطاعة الدائمة.. تتقون غيره، أو ترهبون سواه؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء، وإنما يكون من الضالين الجاهلين.

ثم بين - ســبحانه - أن كل نعمة فى هذا الكون، هو - ســبحانه - مصــدرها وموجدها، فقال:{**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ الله..**}.

أى: وكـل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم، ونماء فى مالكم، وكثرة فى أولادكم، وصــلاح فى بالكم.. فهى من الله - تعالى - وحده.

فالمراد بالنعمة هنا: النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس، لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأســاليب الكلامية، و" ما " موصــولة مبتدأ، متضـمنة معنى الشرـط. وقولـه:{**فَمِنَ اللَّه**} خبرها.

وقولـه{**مِن نِّعْمَةٍ**} بيان لما اشتملت عليه " ما " من إبهام.

وقولـه - سبحانه:{**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**} بيان لطبيعة الإنسـان، ولموقفه من خالقه - عز وجل - والضر: يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان.

وقولــــه:{**تَجْأَرُونَ**} من الجؤار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون، يقال: جأر فلان يجأر جأراً وجؤاراً، إذا رفع صـوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله: صياح الوحش.{**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**}

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك،{**فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**} يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكا.

القول في تأويل قوله تعالى:{**وله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وله الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ**}

يقول تعالى ذكره: ولله ملك ما في السموات والأرض من شيء، لا شريك له في شيء من ذلك، هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم. وقوله:{**وله الدِّينُ وَاصِباً**} يقول جلّ ثناؤه: وله الطاعة والإخلاص دائماً ثابتاً واجباً، يقال منه: وَصَبَ الدِّينُ يَصِبُ وُصُوبا ووَصْبا كما قال الدِّيلِيّ:

لا أَبْتَغِي الحَمْدَ القَلِيل بَقاؤُهُ ::: يَوْما بِذَمّ الدّهْرِ أجمَعَ وَاصِبا [1]

ومنه قول الله تعالى:{**وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ**}.

وقول حسان:

غَـيرَتْـهُ الـريـحَ تَسْــــفِي بِـهِ :::: وهَـزِيـمٌ رَعْـدُهُ وَاصِــــبُ (١)

فأما من الألم، فإنما يقال:

وصب الرجل يوصب وصبا، وذلك إذا أعيا وملّ، ومنه قول الشاعر:

لا يغْمِزُ السَّــاقَ مِنْ أيْنٍ ولا وَصَـــبٍ :::: ولا يعَضّ على شُرسَــوفِهِ الصّــفَرَ (٢)

قال: والصـــفر دويبة تكون في البطن، تدعيها الأعراب، ويكون منها الجوع. وخطأ رواية البيت الصـاغاني، وأورده كرواية المؤلف. (انظر هامش اللســان: أرى). والغمز: العصر- باليد. والشرسوف: جمعه شراسيف، وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن.

وقولــــه:{**أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ**} يقول تعالى ذكره: أفغير الله أيها الناس تتقون، أي ترهبون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم، وإفرادكم الطاعة لــــه، وما لكم نافع سواه.

القول في تأويل قولــــه تعالى:{**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**}.

اختلف أهل العربية في وجه دخول الفاء في قولــــه{**فَمِنَ اللَّهِ**} فقال بعض البصريـين: دخلـت الفـاء، لأن "مـا" بمنزلـة "من" فجعل الخبر بالفاء. وقال بعض الكوفيين: "ما" في معنى جزاء، ولها فعل مضمر، كأنك قلت: ما يكن بكم من نعمة فمن الله، لأن الجزاء لا بدّ لـه من فعل مجزوم، إن ظهر فهو جزم، وإن لم يظهر فهو مضمر،

{**ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**}،{**لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**}

يقول تعالى ذكره: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرّج البلاء عنكم{**إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**} يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضر{**لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ**} يقول: ليجحدوا الله نعمته فيماآتاهم من كشف الضرّ عنهم{**فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**}، وهذا من الله وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم جلّ ثناؤه: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم [1].

لقد أمر الله الا يتخذ الناس إلهين اثنين. إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر{**فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**} دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير.. ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

إنما هو إله واحد.. وإنما هو كذلك مالك واحد:{**وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**} ودائن واحد{**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً**} (أي واصلاً منذ ما وجد الدين، فلا دين إلا دينه) ومنعم واحد:{**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**} وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق، وتنتفي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك:{**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**} وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه.

وهكذا يتفرد سـبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه؛ وتشــهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك.. ومع هذا فإن فريقا من البشر يشر-كون بـالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر-ـ المحيق! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم، وبالهدى الذي آتاهم.. فلينظروا إذن ما يصـيبهم بعد المتاع القصـير:{**فَتَمَتَّعُوا فَسَـوْفَ تَعْلَمُونَ**}....

هـذا النمـوذج الـذي يرسـمه التعبـير هنـا{**ثُـمَّ إِذَا مَسَّـكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْأَرُونَ * ثُـمَّ إِذَا كَشَـفَ الضُّرَّ عَـنكُمْ إِذَا فَرِيـقٌ مِّـنكُم بِـرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**}.. نمـوذج متكـرر في البشر-ية. ففـي الضـيق تتوجـه القلـوب إلى اللـه، لأنهـا تشـعر بـالفطرة ألا عاصـم لهـا سـواه. وفي الفـرج تتلهـى بالنعمـة والمتـاع، فتضـعف صـلتها بالله، وتزيـغ عنـه ألوانـا مـن الزيـغ تبـدو في الشرك به وتبدو في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله.

ولقـد يشـتد انحـراف الفطـرة وفسـادها، فـإذا بعضـهم في سـاعة العسرـة لا يلجـأ إلى اللـه؛ ولكـن يلجـأ إلى بعـض مخاليقـه يـدعوها للنصرـة والإنقـاذ والنجـاة، بحجـة أنهـا ذات جاه أو منزلـة عنـد اللـه، أو بغـير هـذه الحجـة في بعـض الأحيـان، كالـذين يـدعون الأوليـاء لإنقـاذهم مـن مـرض أو شـدة أو كـرب.. فهـؤلاء أشـد انحرافـا مـن مشرـكي الجاهليـة الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذي رأيناه!.

{**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِـيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ**}. فإذا هم يحرمون على أنفســهم بعض الأنعام. لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها. أو يبيحونها للذكور دون الإناث كما أسلفنا في سورة الأنعام باسـم الآلهة المدعاة؛ التي لا يعلمون عنها شـيئا، إنما هي أوهام موروثة من الجاهلية الأولى.

والله هو الذي رزقهم هذه النعمة التي يجعلون لما لا يعلمون نصـيبا منها، فليست هي من رزق الآلهـة المدعاة لهم ليردوها عليها، إنما هي من رزق الله، الذي يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه!.

وهكذا تبدو المفارقة في تصـورهم وفي تصرـفهم على السـواء.. الرزق كله من الله. والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة. وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة!.

ومـا يـزال أنـاس بعـد أن جـاءت عقيـدة التوحيـد وتقـررت، يجعلـون نصـيبا مـن رزق اللـه لهـم موقوفاً عـلى مـا يشـبه آلهـة الجاهليـة. مـا يـزال بعضـهم يطلـق عجـلا يسـميه "عجـل السـيد البـدوي" يأكـل مـن حيـث يشـاء لا يمنعـه أحـد، ولا ينتفـع بـه أحـد، حتـى يـذبح عـلى اسـم السـيد البـدوي لا عـلى اسـم اللـه! ومـا يـزال بعضـهم ينـذرون للأوليـاء ذبـائح يخرجونهـا مـن ذمـتهم لا للـه، ولا باسـم اللـه، ولكـن باسـم ذلـك الـولي، عـلى مـا كـان أهـل الجاهليـة يجعلـون لمـا لا يعلمـون نصـيبا مـما رزقهـم اللـه. وهـو حـرام نـذره على هذا الوجه. حرام لحمه. ولو سمي اسم الله عليه. لأنه أهلّ لغير الله به!.

{تَاللَّهِ لَتُسْـأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ} بالقسـم والتوكيد الشـديد. فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد. (1)

* * * * *

المطلب السادس:

وعيد المكذبين للرسل

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَـا أَنْزَلْنَـا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(2).

فوظيفة الكتاب الأخير والرسـالة الأخيرة هي الفصـل فيما شـجر من خلاف بين أصـحاب الكتب السـابقة وطوائفهم. إذ الأصـل هو التوحيد، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شـابه من شرك في صـورة من الصـور، ومن تشـبيه وتمثيل.. كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه. وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه.

وعند هذا الحد يأخذ السـياق في اسـتعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله في الكون، وفيما أودع الإنسـان من صفات واستعدادات، وفيما وهبه من نعم وآلاء، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله.

وقد ذكر في الآية السـابقة إنزال الكتاب وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام:

{ **وَاللَّهُ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**}..

والماء حياة كل حي. والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشـمول لكل ما عليها ومن عليها. والذي يحول الموت إلى حياة هو الذي يسـتحق أن يكون إلها:{**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْـمَعُونَ**} فيتدبرون ما يسـمعون. فهذه القضـية. قضـية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا، ففيها آية لمن يسـمع ويعقل ويتدبر ما يقال.

{ **تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**}.

{**فَزَيَّنَ**} من التزيين وهو تصـيير الشـئ زينا، أى: حسـنا والزينة: هى ما فى الشىـء من محاسن ترغب الناس فيه.

والمعنى: أقسـم لك - أيها الرسـول الكريم - بذاتى، لقد أرسـلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك، فكانت النتيجة أن اسـتحوذ الشـيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسـل اليهم، حيث زين لهم الأفعال القبيحة، وقبح لهم الأعمال الحسـنة، وجعلهم يقفون من رسـلهم موقف المكذب لأقوالهم، المعرض عن إرشاداتهم، المحارب لدعوتهم.

وقولـه - سبحانه:{**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} بيان لسـوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا.

قال الإمام الشـوكانى ما ملخصـه: " والمراد باليوم فى قولـــه - تعالى:{**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ**} يحتمـل أن يكون المراد بـه زمـان الـدنيا - أى مدة أيام الدنيا - فيكون المعنى: فهو قرينهم فى الـدنيا. ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده. فيكون للحال الآتية. ويكون الولى بمعنى الناصر. والمراد نفى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الآخرة.

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذى مضىـــ وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضــية من الشــيطان، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضــية.. الثانى: أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول الآية. والمراد: تزيين الشـيطان لكفار قريش أعمالهم، فيكون الضمير فى:{**وَلِيُّهُمَ**} لكفار قريش. فيكون المعنى: فهو ولى هؤلاء المشركين اليوم أى: معينهم على الكفر والمعاصى لهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة ".

ثم بين - ســبحـانـه - أهم الوظـائف التى من أجلهـا أنزل كتـابـه على نبيـه محمـد ﷺ فقال:{ **وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**}.

أى: وما أنزلنا عليك - أيها الرسـول الكريم - هذا القرآن، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجـه الصـــواب فيما اختلفوا فيـه من أمور العقـائـد والعبـادات والمعـاملات والحلال والحرام... وبذلك يعرفون الحق من الباطل، والخير من الشر.

وسـيقت هذه المعانى بأسـلوب القصر، لقصد الإِحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم، ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منشرحة، وقلب متفتح. (١)

* * * * *

المطلب السابع:

اتباع ملة إبراهيم

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}(1).

القرآن الكريم يرسم إبراهيم عليه السلام نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله. ويقول عنه هنا: إنه كان أمة. واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير. وورد في التفسير المأثور هذا المعنى وذاك. وهما قريبان فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد.

{قَانِتاً لِّلَّهِ}: طائعاً خاشعاً عابداً**{حَنِيفاً}**: متجها إلى الحق مائلاً إليه**{وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون!**{شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ}**: بالقول والعمل. لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولاً، ويكفرونها عملاً، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء.**{اجْتَبَاهُ}** اختاره**{وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**: هو صراط التوحيد الخالص القويم.

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون.**{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد، ويؤكدها النص من جديد على أن إبراهيم**{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** فالصلة الحقيقية هي صلة الدين الجديد. فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه، وليس من ديانة إبراهيم، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم:**{إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}** وأمرهم موكول إلى الله**{وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}**.

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل، وكملت في الدين الأخير، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود. وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيانه. فليأخذ الرسول ﷺ في طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن. فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل ما اعتدوا. إلا أن يعفو ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل؛ مطمئناً إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين. فلا يحزن على من لا يهتدون، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين.

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية فقال:{**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا**} فأما "الأمة"، فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال:{**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

وقال الأعمش، عن الحكم عن يحيى بن الجزار، عن أبي العُبَيدين؛ أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعو د رقَّ لـه، فقال: أخبرني عن الأمة فقال: الذي يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثني فروَة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذًا كان أمة قانتا لله حنيفا، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله:{**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**} فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله [ورسوله] أعلم. قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير. وكان مطيعا لله ورسوله.

وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير.

وقال مجاهد:{**أُمَّةً**} أي: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضًا: كان إبراهيم أمة، أي: مؤمنا وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هُدى، والقانت: المطيع لله.

وقوله:{**شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ**} أي: قائما بشكر نعم الله عليه، كما قال:{**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**}(١)، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله:{**اجْتَبَاهُ**} أي: اختاره واصطفاه، كما قال:{**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**}(٢).

ثم قال:{**وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

وقوله:{**وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**} أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة،{**وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**}

وقال مجاهد في قوله:{**وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**} أي: لسان صدق.

وقوله:{**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**} أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء:{**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} كما قال في "الأنعام":{**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}(٣)، ثم قال تعالى منكراً على اليهود.

{**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**}

لا شك أن الله تعالى شرَع في كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت الناس فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل

على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى:{**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**}

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظًا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد**» لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة، وحذيفة، رضي الله عنهما، قالا قال رسول الله ﷺ : «**أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق**» [(١)، (٢)].

* * * * *

المطلب الثامن:

حقيقة عيسى عليه السلام

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}(١).

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}..

ذلك عيسى ابن مريم، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه في مولده.. ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته. ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون. يقولها لسانه ويقولها الحال في قصته:{مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ} تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولداً.

والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعاف للنصرة. والله باق لا يخشى فناء، قادر لا يحتاج معيناً. والكائنات كلها توجد بكلمة كن. وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون.. فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين.. وينتهي ما يقوله عيسى عليه السلام ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس،

ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك:{**وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**}.. فلا يبقى بعد شهادة عيسى- وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير.. وهذا هو المقصود بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير.

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى- فيبدو هذا الاختلاف مستنكراً نابياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة:{**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**}..

ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجمعاً من الأساقفة وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفاً فاختلفوا في عيسى- اختلافاً شديداً، وقالت كل فرقة فيه قولاً.. قال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء. وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة: الله إله وهو إله وأمه إله. وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى. ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مائة وثمانية اتفقوا على قول. فمال إليه الإمبراطور ونصر- أصحابه وطرد الآخرين وشرد المعارضين وبخاصة الموحدين.

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين:

{**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**}.

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم. بهذا التنكير للتفخيم والتهويل. المشهد الذي يشهده الثقلان: الإنس والجن، وتشهده الملائكة، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار.

ثم يأخذ السـياق في التهكم بهم وبإعراضـهم عن دلائل الهدى في الدنيا. وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس:

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}..

فما أعجب حالهم!.. لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة. وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولأسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم!

{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}.. يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها، فهي الغالبة على جوه، البارزة فيه. أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات:**{إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون.

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شـك فيه؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد!:

{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}..

جاءت آيات كثيرة منها قولـه - تعالى - فى هذه السورة:**{وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً}** ثم بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال:**{ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** أى: لا يتصور فى حقه - سبحانه - اتخاذ الولد، لأنه إذا أراد قضاء أمر، فإنما يقول لـه: كن، فيكون فى الحال، بدون تأخير أو تردد.

بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال:**{فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}**.

والأحزاب: جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه - عليه السلام - فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه، وهم اليهود

كما فى قولـــه:{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً} ومنهم من قال هو ابن الله، أو هو اللـه، أو إلـه مع الله، أو هو ثالث ثلاثة... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى.

ولفظ{وِيلٌ} مصدر لا فعل لـه من لفظه، وهو كلمة عذاب ووعيد.

و{مَّشْهَدِ} يصح أن يكون مصدراً ميما بمعنى الشهود والحضور.

والمعنى: هكذا قال عيسى - عليه السـلام - لقومه:{اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ} ولكن الفرق الضـالة من اليهود والنصـارى اختلفوا فيما بينهم فى شـأنه اختلافاً كبيراً، وضـلوا ضـلالا بعيدا، حيث وصفوه بما هو برىء منه، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة، حيث سيلقون عذاباً شديداً من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان.

وعبر عنهم بالموصـول فى قولــــه{لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشـعاراً بعلة الحكم.

قال أبو حيان: " ومعنى:{مِن بَيْنِهِمْ} أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم ".

وجاء التعبير فى قولـــه:{مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} بالتنكير، للتهويل من شأن هذا المشهد، ومن شـــأن هذا اليوم وهو يوم القيامة، الذى يشـــهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى.

وقولـــــه - سـبحانه:{أَسْـمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} تهكم بهم، وتوعد لهم بالعذاب الشديد، فهو تأكيد لما قبله.

و{أَسْـمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} صـيغتا تعجب، لفظهما لفظ الأمر، ومعناهما التعجيب، أى حمل المخاطب على التعجيب، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء، وهى زائدة فيهما لزوما، والمعنى: ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم، لما يخلع قلوبهم، ويسود وجوههم، مع أنهم كانوا فى الدنيا صماً وعمياناً عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم.

فالمراد باليوم فى قولـــه:{**لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**} هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق.

أى: أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسـمعون ولا يبصرـون فى الدنيا حين يكون السـمع والبصرـ وسـيلة للهدى والنجاة. وهم أسـمع ما يكون السـمع وأبصر ما يكون البصر، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة.

ثم أمر اللـه - تعـالى - نبيـه محمـدا ﷺ بـأن يخوف المشرـكين من أهوال يوم القيـامة، فقال:{**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**} [1].

والإنـذار: الإعلام بـالمخوف منـه على وجـه الترهيب والتحذير، وأشـــد ما يخوف به يوم القيامة.

والحسرة: أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه.

أى: وأنذر - أيها الرسـول الكريم - المشركين، وخوفهم من أهوال يوم القيامة، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله، ولكن هذا التحسرـــ لن ينفعهم، لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضىـ الأمر بنجاة المؤمنين، وبعذاب الفاسقين، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

وقولـه:{**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**} حال من الضمير المنصوب فى{**أَنْذِرْهُمْ**}

أى: أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان.

هذا، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقولـه - تعالى:{**إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ**}.

أى: ذبح الموت. فقد روى البخارى عن أبى سـعيد الخدرى قال: قال رسـول الله ﷺ : «**يؤتى بـالموت كهيئـة كبش أملح فينـادى منـاد: يـا أهل الجنة فيشرـئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هـذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادى يا أهل النار، فيشرـئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم. هذا الموت**

وكلهم قـد رآه. فيـذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت». ثم قرأ ﷺ{**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**}.

ثم سـاق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته، وشمول ملكه فقال:{**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا...**} أى: إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، فلا يبقى لأحد غيرنـا من ســلطـان عليهم أو عليهـا، وهؤلاء الخلائق جميعـاً{**وَإِلَيْنَـا**} وحـدنا{**يُرْجَعُونَ**} يوم القيامة، فنحاسبهم على أعمالهم.

وشـبيه بهذه الآية قولـــه - تعالى:{**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون**}(1) وإلى هنا تكون السـورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى، وعن قصة مريم وعيسى، حديثاً يهدى إلى الرشـــد، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق.

* * * * *

المطلب التاسع:

نسبة الولد إلى الله تعالى

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[1].

قال سيد قطب رحمه الله:**{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداًّ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداًّ * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً}**..

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو: جو الغضب والغيرة والانتفاض! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية، والمساس بقداسة الذات العلية، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره.

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف.

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق:**{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً}** حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع:**{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداًّ}** ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئه. وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته؛ وتجافي ما وقر في ضميره وما استقر في كيانه؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها:**{تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداًّ * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً}**..

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب:

{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً}.

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد.

وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان..{**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً**} فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد{**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً**} فعين الله على كل فرد. وكل فرد يقدم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد. حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان.

وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة، إذا المؤمنون في ظلال ندية من الود السامي: ود الرحمن:{**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ**}.

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدا - تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علوّا كبيراً - فقال:{**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ**} أي: في قولكم هذا،{**شَيْئًا إِدًّا**} قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا.

ويقال:{**إِدًّا**} بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضا، ثلاث لغات، أشهرها الأولى.

وقوله:{**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**} أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالا؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وفي كُلّ شَيء لَهُ آيَةٌ ::: تَدُل عَلى أنه واحِدُ...

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، في قوله:{ **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**}

قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ : «**لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة**». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟

قال: «**تلك أوجب وأوجب**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لو جيء بالسماوات والأرضين وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن**»(١).

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.

وقال الضحاك:{**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**} أي: يتشققن فَرَقًا من عظمة الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:{**وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ**} أي: غضبًا لله، عز وجل.

{**وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**} قال ابن عباس: هدمًا.

وقال سعيد بن جبير:{**هَدًّا**} ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْد المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرَ الله عز وجل؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ:{**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**}(٢)، (٣).

* * * * *

المطلب العاشر:

عبادة اليهود العجل

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا}[1].

وهكذا فوجئ موسى.. إنه عجلان إلى ربه، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوماً، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة. وقد استخلصهم من الذل والاستعباد، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف.

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه؛ وترك في كيانهم النفسي خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح.. فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار. ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي. وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري:**{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}** ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء، حتى لقي ربه، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناء يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها.

وينهي السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه، ليصور انفعال موسى عليه السلام مما علم من أمر الفتنة، ومسارعته بالعودة،

وفي نفسه حزن وغضب، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة في الصحراء؛ وذكرهم منذ قليل بآلائه، وحذرهم الضلال وعواقبه. ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية، وإلى عبادة العجل!

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة، استعجالاً في عرض موقف العودة إلى قومه. ولكن السياق يشي بهذه التفصيلات. فلقد عاد موسى غضبان أسفاً يوبخ قومه ويؤنب أخاه. فلا بد أن كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها:

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}.

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه؛ وقد أخر كشفها عن موقف المناجاة، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى.

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون: هذا إلهكم وإله موسى. وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر!

فراح موسى يسألهم في حزن وغضب:{**يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ؟**} وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت. ويؤنبهم في استنكار:{**أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ**} فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمداً، ويقصد إليه قصداً!.. أفطال عليكم العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب{**فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي**} وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم، لا تغيرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي:{**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا**} فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا!{**وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا**}.. وقد حملوا معهم أكداساً من حلي المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن. فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. ويقولون: لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام. فأخذها السامري فصاغ منها عجلاً. والسامري رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب. وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب؛ وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا:{**هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى**} راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا. وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه!

وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه!

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة:{**أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراًّ وَلاَ نَفْعاً**}

والمقصود أنه حتى لم يكن عجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية! فهو درجة أقل من درجة الحيوانية. وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة. فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية! [1]

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك، لأنه جلّ ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثر موسى.

وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل.

وقوله{**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ**} يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة{**غَضْبَانَ أَسِفًا**} متغيظا على قومه، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقوله{ **قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا**} يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم، وقوله{ **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ**} يقول: أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: يقول: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى{**لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**}.

وقوله{**بِمِلْكِنا**} يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

{**فَتَنَّا**} من الفَتْن ومعناه لغة: وضع الذهب فى النار ليتبين أهو خالص أو زائف.

والفتنة تطلق فى القرآن بإطلاقات متعددة منها: الدخول فى النار كما فى قوله - تعالى:{**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**} ومنها الحجة كما فى قوله - تعالى:{**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**} ومنها: الاختبار والامتحان، كما فى قوله - سبحانه:{**أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ**} ومنها الاضلال والاشراك، كما فى قوله - تعالى:{**وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**} وقوله - سبحانه:{**وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً..**} ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل فى غيبه موسى - عليه السلام.

ويدل على هذا قوله - تعالى:{**واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ..**} والسامرى: اسم للشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل، قيل: كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة.

وقيل: إنه كان من قوم يعبدون البقر، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة.

أى: قال الله - تعالى - لموسى: فإنا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم، وكان السبب فى ضلالهم السامرى، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه.

وقوله - تعالى:{**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً**} بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن علم بضلال قومه.

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه، وتلقى منه التوراة.

قال الآلوسى ما ملخصه:{**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ**} عند رجوعه المعهود أى: بعد ما استوفى الأربعين " ذا القعدة وعشر ذى الحجة " وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار

المذكور، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد منه قوله:{غَضْبَانَ أَسِفاً} لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فقال بنوإسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه لهم السامرى: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، لأن موسى نسى إلهه هنا، وذهب ليبحث عنه فى مكان آخر، فالضمير فى قوله:{فَنَسِيَ} يعود لموسى.

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل، بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه.

وقيل: إن الذى حدث منه النسيان هو السامرى، وأن النسيان بمعنى الترك، أى: فترك السامرى ما كان عليه من الإيمان الظاهرى، ونبذ الدين الذى بعث الله - تعالى - به موسى، وحض الناس على عبادة العجل الذى صنعه لهم.

والقول الأول هو أرجح، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه هو المأثور عن السلف.

قال ابن جرير: " وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون:{فَنَسِيَ} خبرا من الله - تعالى - عن السامرى، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه، وأن ربه الذى ذهب يريده هو العجل الذى أخرجه السامرى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، ولأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامرى عنه بذلك أشبه من غيره ".

وقوله - تعالى:{ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً} تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: ابلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذى اتخذوه إلها،

لا يســتطيع أن يجيــبهم إذا ســألوه أو خــاطبوه، ولا يــرد علــيهم قــولا يقولونــه لــه، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع.

وشبيه بهذه الآية قولـــه - تعالى:{**واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لـه خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ**}[1].

المبحث السادس: عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات:

المطلب الأول:

جزاء المعرضين عن القران

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا}[1].

بدأت السورة بالحديث عن القرآن، وأنه لم ينزل على الرسول ﷺ ليشقى به أو بسببه. ومن القرآن قصة موسى عليه السلام وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه.

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته، وعاقبة من يعرض عنه. ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى، وتخشع الأصوات للرحمن، وتعنو الوجوه للحي القيوم. لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس، ويذكرها بالله ويصلها به.. وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول ﷺ من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه. إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً.

وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله. وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم. ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى.

وتختم السورة بتسلية الرسول ﷺ

عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم، فلهم أجل معلوم. ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم. وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن. ولقد هلكت القرون من قبلهم، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير، فلينفض يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم.

{قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى}.

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}..

كذلك القصص الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق. نقصه عليك في القرآن ويسمى القرآن ذكراً، فهو ذكر لله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى.

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً في يوم القيامة. فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله.

ويا لسوئها من أحمال! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم. يتخافتون بينهم بالحديث، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر. وفيم يتخافتون؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام. وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم، وقصرت أيامها في مشاعرهم، فليست في حسهم سوى أيام قلائل:**{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً}** فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر:**{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}**. وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي؛ ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان، وشيئاً ضئيلاً في القيمة. فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها والمتاع؟

وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة. ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع؟!

{**وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً**} تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم.

أى: وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا{**ذِكْراً**} عظيما. وهو القرآن الكريم، كما قال - تعالى:{ **وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لـه مُنكِرُونَ**} قال الفخر الرازى: وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال - سبحانه:{**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**} ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال:{**مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً**}.

والوزر فى الأصل يطلق على الحمل الثقيل، وعلى الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام.

قال صاحب الكشاف: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذى يفدح الحامل، وينقض ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

وقد أخبرنا القرآن فى كثير من آياته، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم، أى: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، ومن ذلك قوله - تعالى:{ **لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ**} أى: من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة: تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله - تعالى:{**وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً**}

أى: وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم.

قال الآلوسى: قوله:{**وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً**} إنشاء الذم، على أن " ساء " فعل ذم بمعنى بئس... وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على " حملا " الواقع تمييزا... والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ساء حملهم حملا وزرهم.

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال:{**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً**}.

أى: اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول، أو حالة كونهم " زرقا " أى: عميا، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها. أو " زرقا " معناه: عطاشا، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق.

قال - تعالى:{ **وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**} وقوله - سبحانه:{**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً**} استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت.

أى: إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم فى هذا اليوم العصيب، قائلين: ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام.

ومقصدهم من هذا القول: استقصار المدة، وسرعة انقضائها، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب، بعد أن تبين لهم أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون.

وقوله - تعالى:{**نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ..**} بيان لشمول علمه - سبحانه -.

أى: نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم، لا يخفى علينا شىء مما يتخافتون به من شأن مدة لبثهم فى قبورهم أو فى الدنيا.

{إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَـةً} أى: أعـد لهم رأيـا، وأرجحهم عقلا{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمـاً} واحدا وقيـل المراد بـاليوم مطلق الوقـت، وتنكيره للتقليـل والتحقير. أى: ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا.

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدلى على شدة الهول.

قال - تعالى:{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}: أى الساعة{لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}.

المطلب الثاني:

مساوئ القول بتعدد الألهة

{**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**}(1).

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل{**اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ**} أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك. فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه.

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات الأرض، فقال:{**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ**} أي: في السماء والأرض،{**لَفَسَدَتَا**}، كقوله تعالى:{**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**}(2)، وقال هاهنا:{**فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**} أي: عما يقولون إن له ولدًا أو شريكًا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًا كبيرًا.

وقوله:{**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**} أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه،{**وَهُمْ يُسْأَلُونَ**} أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله:{**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}(3).

وهذا كقوله تعالى:{**وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ**}[1].

{**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**} [2].

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم. ووصف هؤلاء بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء. فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها. فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض. فهل الآلهة التي اتخذوها تفعل هذا؟ إنها لا تفعل، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة. فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله.

ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض. وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود:{**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**}..

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً؛ وينسق بين أجزائه جميعاً؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم.. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد. فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات. ولتعددت النواميس تبعاً لها فالإرادة مظهر الذات المريدة. والناموس مظهر الإرادة النافذة ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق.. هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره:

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}..

وهم يصفونه بأن لــه شركاء. تنزه الله المتعالي المسيطر:**{رَبِّ العَرْشِ}** والعرش رمز الملك والسـيطرة والاسـتعلاء. تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسـلامته من الخلل والفسـاد يكذبهم فيما يقولون.

{لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}..

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل؛ ومن ذا الذي يسأله؛ وهو القاهر فوق عباده، وإرادتـه طليقـة لا يحـدهـا قيـد من إرادة أخرى، ولا حتى من النـاموس الذي ترتضـــيه هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود؟ والسـؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ومقياس يوضــع. والإرادة الطليقة هي التي تضــع الحدود والمقاييس، ولا تتقيد بما تضــع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد. والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون.

وإن الخلق ليسـتبد بهم الغرور أحياناً فيسـألون سـؤال المنكر المتعجب: ولماذا صنع الله كـذا. ومـا الحكمـة في هذا الصـــنيع؟ وكأنما يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع!

وهم يتجـاوزون في هـذا حـدود الأدب والواجـب في حق المعبود، كما يتجـاوزون حـدود الإدراك الإنســـاني القاصر الذي لا يعرف العلل والأســـباب والغايات وهو محصـــور في حيزه المحدود..

إن الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويســـيطر على كل شيء، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم.**{لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}**..

وإلى جانب الدليل الكوني المسـتمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك التي لا تعتمد على دليل:

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}.

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ﷺ وهناك ذكر من سبقه من الرسل. وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء. فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد. فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ}.

* * * * *

المطلب الثالث:

عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}(1)

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}..

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن يبعث الله الرسل للناس. لا تبديل فيها ولا تحويل. توحيد الإله وتوحيد المعبود؛ ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة.. قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها.

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً.

وهي إحدى مقولات الجاهلية السخيفة:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}..

ودعوى البنوة لله سبحانه دعوى اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة. فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله. وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزير لله. وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله.. وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور.

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة. وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة. فهم ليسوا بنات لله كما يزعمون{**بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ**} عند الله. لا يقترحون عليه شيئاً تأدباً وطاعة وإجلالاً. إنما يعملون بأمره لا يناقشون. وعلم الله بهم محيط. ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه. وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها. وهم لا يدعون الألوهية قطعاً. ولو ادعوها جـ دلاً لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائناً من كان، وهو جهنم. فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق، ولكل أحد، ولكل شيء في هذا الوجود.

وكذلك تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة، لا يدعيها أحد. ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم!

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله، مشفقين من خشيته. بينما المشركون يتطاولون ويدعون!

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد؛ والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب.. يجول السياق بالقلب البشري في مجالي الكون الضخمة، ويد القدرة تدبره بحكمة، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب. وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأفهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخضوع لى وحدى.

هـذا، والمتـدبر لهـذه الآيات الكريمة، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبـادة للـه الواحد القهار، وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى ســـفهاء جاهلون.

* * * * *

المطلب الرابع:

أدلة توحيد الله تعالى

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّـمَاءَ سَـقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُـونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[1].

وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها: أن معنى{**كَانَتَا رَتْقاً**}: أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها.

وهذا التفسـير منسـوب إلى ابن عباس، فقد سئل عن ذلك فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق - سبحانه - للأرض أهلا، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات.

ومنهم من يرى أن المعنى: كانت السـموات والأرض متلاصـقتين كالشىء الواحد، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما، فرفع السماء إلى مكانها، وأبقى الأرض فى مقرها، وفصل بينهما بالهواء.

قال قتادة: قولـه:{**كَانَتَا رَتْقاً**} : يعنى أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء.

ومنهم من يرى أن معنى " كانتا رتقا " أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سـبع سـموات منفصـلة، والأرضـون كانت كذلك رتقا، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا.

قال مجاهد: كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة، ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا ".

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه: كونهما " كانتا رتقا " بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت، ففتق - سبحانه - السماء بالمطر والأرض بالنبات، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله - تعالى - منها:

أن قوله - تعالى:{**أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا..**} يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر فى رأى أنها بصرية، والذى يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض لا نبات فيها. فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء، وخروج النبات من الأرض.

ومنها: أنه - سبحانه - أتبع ذلك بقوله:{**وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**} والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله. أى: وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض، كل شىء حى.

ومنها: أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى، كقوله - تعالى:{**والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع**} والمراد بالرجع: نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح، لأن المطر لا ينزل من السموات، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا؟

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع، لأن كل قطعة فيها سماء كما يقال: ثوب أخلاق - أى: قطع.

والآية الكريمة مسوقة بتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، ويعلمون أن من كان كذلك، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه، مما لا يضر ولا ينفع.

والمعنى: أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم، ويعلموا بعقولهم، أن السموات والأرض كانتا رتقا، بحيث لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

إنهم بلا شــك يشــاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم. ولكنهم لاســتيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفع من عَبَده، ولا يضر من عصاه.

وقال - ســبحانه:{**كَانَتَا**} بالتثنية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع الســماء، ونوع الأرض، كما فى قولــه - تعالى:{**إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أن تَزُولاَ..**} وقولــه - تعالى:{**وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...**} تأكيد لمضـمون ما سبق، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق. و{**مِنَ**} ابتدائية.

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شىء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شىء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو.

وهذا العام مخصــوص بما ســوى الملائكة والجن مما هو حى، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض الأخبار - خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار.

قال - تعالى: {**خَلَقَ الإنســان مِن صَــلْصَــالٍ كالفخار وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**} قال القرطبى: وفى قولــه - تعالى:{**وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**} ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كـل شىء من المـاء. قـالـه قتـادة: الثـانى: حفظ حيـاة كـل شىء بالماء: الثالث: وجعلنا من ماء الصلب - أى: النطفة - كل شىء حى..

وقولـه:{**أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ**} إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار.

أى: أيشـــاهـدون بـأعينهم مـا يدل على وحدانية الله وقدرته. ومع ذلك لا يؤمنون؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب، وأغرب الغرائب!!

ثم ســاق - ســبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال:{**وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ...**}.

الرواسى: جمع راسـية، من رسـا الشىـء إذا ثبت ورسخ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض.

أى: وجعلنـا فى الأرض جبالا ثوابت، كراهة أن{**تَمِيدَ بِهِمْ**} أى: أن تضـــطرب وتتحرك بهم الأرض. يقال: ماد الشىء يميد ميدا - من باب باع - إذا تحرك واهتز.{**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**}، والفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع.

والسبل: جمع سبيل وهو الطريق. وهو بدل من{**فِجَاجاً**}.

أى: وجعلنا فى الأرض طرقا واسـعة، ومنافذ متعددة، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأمـاكن التى يريـدون الوصـــول إليهـا. ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا لـه العبادة والطاعة.

{ **وَجَعَلْنَا السـمآء سَـقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُـونَ**} أى: وجعلنا السـماء سـقفا للأرض كما يكون السـقف للبيت، وجعلناه محفوظا من السـقوط ومن التشـقق، ومن كل شيطان رجيم. وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا. معرضون ذاهلون، لا يتعظون ولا يتذكرون.

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط، قولـــه - تعالى:{... **وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِـهِ إِنَّ اللـه بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**} ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قولــه - سبحانه: {**أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**}[١] وعلى حفظها من الشـياطين قولـــــه - تعالى:{**وَحَفِظْنَاهَا من كُلِّ شَـيْطَانٍ رَّجِيمٍ**}[٢] ومن الآيـات الـدالـة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظـات قولـــــه - سـبحانه: {**وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السـماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُـونَ**} ثم ختم - سـبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقولـــه - تعالى:{**وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**}.

أى: وهو وحده - ســبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب " كل " أى: كل واحد من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر لـه بسرعة وانتظام، كالسابح فى الماء.

وقولـه:{يَسْبَحُونَ} من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء.

وجاء يسـبحون بضـمير العقلاء. لكون السـباحة المسـندة إليهما من فعل العقلاء، كما فى قولــــه - تعالى:{والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته.

ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعا إلى الفناء، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها، وأن المشركين لو علموا المصير السيىء الذى ينتظرهم يوم القيامة، لما قالوا ما قالوه من باطل، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح[1].

إنهـا جولـة في الكون المعروض للأنظـار، والقلوب غـافلـة عن آياته الكبار، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ.

وتقريره أن السـماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقتا، مسـألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريـات الفلكيـة في محـاولـة تفسـير الظواهر الكونيـة، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام.

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية كالمجموعة الشـمسـية المؤلفة من الشـمس وتوابعها ومن ها الأرض والقمر.. كانت سـديماً. ثم انفصـلت وأخذت أشـكالها الكروية وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت..

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية. تقوم اليوم وقد تنقض غداَ، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية..

ونحن أصـحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المسـتيقن على نظرية غير مسـتيقنة، تقبل اليوم وترفض غداً. لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية. وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعـادن بـا لحرارة وتحول المـاء بخاراً وتجمده بالبرودة.. إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية. وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الظلال.

إن القرآن ليس كتـاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علماً تجريبياً كذلك. إنما هو منهج للحياة كلها. منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده. ولتقويم المجتمع ليسـمح للعقل بـالعمل والانطلاق. دون أن يدخل في جزئيات وتفصـيليات علمية بحتة. فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه.

وقد يشـير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا:{**أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**} ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن. وإن كنا لا نعرف منـه كيف كـان فتق السـماوات والأرض. أو فتق السـماوات عن الأرض. ونتقبـل النظريـات الفلكيـة التي لا تخـالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن. ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر. وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال!

فأما شـطر الآية الثاني:{**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**} فيقرر كذلك حقيقة خطيرة. يعد العلماء كشـفها وتقريرها أمراً عظيماً. ويمجدون «دارون» لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول.

وهي حقيقـة تثير الانتبـاه حقـاً. وإن كـان ورودهـا في القرآن الكريم لا يثير العجـب في نفوسـنا، ولا يزيدنا يقينا بصـدق هذا القرآن. فنحن نسـتمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله. لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية لـه. وأقصى مـا يقـال هنـا كـذلـك: إن نظرية النشـوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صـنع الله في الكون، ويسـتنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود:{**أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ؟**} وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟

ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة:{**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ**}.

فيقرر أن هـذه الجبـال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضــطرب. وحفظ التوازن يتحقق في صـور شـتى. فقد يكون توازناً بين الضـغط الخارجي على الأرض والضـغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة: وقد يكون بروز الجبال في موضـع معادلاً لانخفـاض الأرض في موضـــع آخر.. وعلى أيـة حـال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واسـتقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشـف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل. ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير:{**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**}..

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ ســبلاً وطرقاً.. ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولاً، ثم يشير من طرف خفي إلى شـأن آخر في عالم العقيدة. فلعلهم يهتدون إلى سـبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال!

{**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً**}.. والسـماء كل ما علا. ونحن نرى فوقنا ما يشـبه السـقف. والقرآن يقرر أن السـماء سـقف محفوظ. محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق. ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تتنزل منه آيات الله..{**وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ**}..

{**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**}.

والليـل والنهـار ظـاهرتـان كونيتان. والشـــمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة بحياة الإنســان في الأرض. وبالحياة كلها.. والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشــمس والقمر. بهذه الدقة التي لا تختل مرة؛ وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة.. جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير.

وفي نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه؛ ونواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها.

* * * * *

المطلب الخامس:

وحدة الأديان السماوية

{**إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَأَنَـا رَبُّكُمْ فَـاعْبُـدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَـهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَـةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ**}[1].

لفظ الأمة يطلق بإطلاق متعددة. يطلق على الجماعة كما فى قولـــه - تعالى:{**وَلَمَّا وَرَدَ مَـآءَ مَـدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْـقُونَ..**}[2] ويطلق على الرجل الجامع للخير، كما فى قولـــه - تعالى:{**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّه حَنِيفاً...**}[3] ويطلق على الحين والزمان، كما فى قولـه - سبحانه:{**وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ..**} أى وتذكر بعد حين من الزمان.

والمراد بالأمة هنا: الدين والملّة. كما فى قولـــه - تعالى:{**إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ...**} أى: على دين وملة معينة.

والمعنى: إن ملـة التوحيـد التى جـاء بهـا الأنبياء جميعا. هى ملتكم ودينكم أيها الناس، فيجـب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبيـاء، وأن تخلصـــوا للـه - تعالى - العبادة والطاعة، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شىء، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته

ثم بين - سـبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذى جاء به الرسـل، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال:{**وتقطعوا أَمْرَهُمْ...**}.

والضمير فى قوله - تعالى:{وَتَقَطَّعُوا} يعود للناس الذين تفرقوا فى شأن الدين شيعا وأحزابا. أى: وافترق الناس فى شأن الدين الحق فرقا متعددة، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا، يجازى فيه المحسن خيرا، ويعاقب فيه المسىء على إساءته.

وقال - سبحانه:{فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ} بالنفى المفيد للعموم، لبيان كمال عدالته - تعالى - وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد، أو أخذ شىء مما يستحقه.

وعبر عن العلم بالسعى، لإظهار الاعتداد به، وأن صاحب هذا العمل الصالح، قد بذل فيه جهدا مشكورا، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته.

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب، فقال:{وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها:

أن المعنى: وحرام - أى: وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا فى الآخرة للحساب.

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم، والذين آمنوا وعملوا صالحا فى دنياهم، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة.

وقد أكدت الآية الكريمة ورجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع، حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد.

قال صاحب فتح القدير:{وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ...} قرأ أهل المدينة "حرام"، وقرأ أهل الكوفة " وحرم " - بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل: حلال وحل.

ومعنى{أَهْلَكْنَاهَآ}: قدرنا إهلاكها. وجملة:{أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} فى محل رفع مبتدأ، وقوله: " حرام " خبرها... والمعنى: وممتنع ألبتة عدم رجوعها إلينا للجزاء.

وقال بعض العلماء: " وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و" لا " فيها على بابها. وهى مع لفظ " حرام " من قبيل نفى النفى. فيدل على الإثبات، والمعنى:

وحرام على القريـة المهلكـة. عدم رجوعها إلى الآخرة، بل واجب رجوعها للجزاء، فيكون الغرض إبطـال قول من ينكر البعـث. وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لســعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه وبعمله يجزيه.

ومنهم من يرى أن " لا " زائـدة، وأن المراد بـالرجوع رجوع الهـالكين إلى الـدنيـا فيكون المعنى: وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسـبب كفرهم ومعاصيهم، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم.

ومنهم من يرى أن المراد بقولــه - تعالى:{**أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**} أى: لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان.

قال صـاحب الكشـاف: اسـتعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قولــــه - تعالى:{**إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكـافرين**} أى. منعهما منهم... ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإســلام والإنابة، ومجاز الآية: إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصـور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة..

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصــواب، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية، ولأنه هو المسـتقيم مع سياق الآيات، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضـت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسـبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيـامـة ليحـاســبوا على أعمالهم كما قـال - تعالى:{**قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**}[1] ولعل مما يؤيد هذا الرأى قولـــه - تعالى - بعد ذلك:{**حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ...**}[2].

فـإن حتى هنـا ابتـدائيـة: ومـا بعـدهـا غاية لما يدل عليه ما قبلها، فكأنه قيل: إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب، ويقولوا عند مشاهدته: يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا.

ويأجوج ومأجوج اســـمان أعجميان لقبيلتين من الناس، قيل: مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر، وقيل: من الأوج وهو سرعى الجرى.

والمراد بفتحهما: فتح الســد الذى على هاتين القبيلتين، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس.

{**وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**} والحدب: المترفع من الأرض كالجبل ونحوه.

و{**يَنسِلُونَ**} من النسل - بإسكان السين - وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى السير، يقال: نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع، وفعله من باب قعد وضرب.

أى: وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضـــمير " هم ": يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضمير " هم " يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر.

وقولـــــه:{**وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ**...} معطوف على{**فُتِحَتْ**} أى: فتح الســد الذى كان على يأجوج ومأجوج، وقرب موعد الحساب والجزاء.

قال الآلوسى: وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى. وهذا الفتح لســـد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء، وبعد قتله الدجال.

فقد أخرج مسـلم وأبو داود والترمذى والنسـائى وابن ماجة من حديث طويل: إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسىـــ بعد أن يقتل الدجال: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى، لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - ســبحانه:{**مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِــلُونَ**} ثم يرســل الله عليهم نغفا - فى رقابهم فيصـبحون موتى كموت نفس واحدة ".

وقولـه:{**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**}... جواب للشرط وهو قولـه: تعالى - قبل ذلك{**إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**}.

والضمير " هى " للقصة والشأن. و" إذا " للمفاجأة.

قال الجمل: قولـه:{**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ**...} فيه وجهان: أحدهما - وهو الأجود - أن يكون هى ضمير القصة. وشاخصة: خبر مقدم. وأبصار: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر لهى لأنها لا تفسير إلا بجملة مصرح بجزأيها.

والمعنى: لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات السـاعة، ومن خروج يأجوج ومأجوج، ومن عودة الخلق إلينا للحساب... ورأى المشركون كل ذلك، فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع.

يقال: شـخص بصرـ فلان يشـخص شـخوصا فهو شاخص، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما.

وقولـه:{**ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا**} مقول لقول محذوف.

أى: أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصوا البصر: يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك، فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب.

وقولـــه:{**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**} إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود.

أى: لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم وأهواله، فقد أخبرنا رسلنا به، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعمهم، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم.

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لا ينفعهم فيه ذلك.

وقولـــه - سبحانه:{**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ**..} زيادة فى تقريعهم وتوبيخهم.

والحَصَــب - بفتحتين: ما تحصــب به النار. أى: يلقى فيها لتزداد به اشــتعالا كالحطب والخشب.

أى: إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - وقود جهنم، وزادها الذى تزداد به اشتعالا.

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقل، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم، النظر إلى وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة، وينتفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم.

وجملة:{**أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**} بدل من:{**حَصَبُ جَهَنَّمَ**}، أو مستأنفة.

أى: أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا لا مفر لكم منه وجاء الخطاب بقوله:{**أَنتُمْ**} على سبيل التغليب، وإلا فالجميع داخلون فيها.

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاءالمشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده.

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال:{**لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا**}.

أى: لو كان هؤلاء الأصنام المبعودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم فى النار، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب، وحيث تبين لكم دخولهم إياه، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها.

وقوله:{**وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**} تذييل مقرر لما قبله. أى: وكل من العابدين والمعبودين باقون فى هذه النار على سبيل الخلود الأبدى.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين فى جهنم فقال:{**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ**}. أى: لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر، كما هو شأن المغموم المحزون. وأصل الزفير: تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع.

{**وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْـمَعُونَ**} أى: وهم فى جهنم لا يسـمعون ما يريحهم، وإنما يسـمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم، أو: وهم فيها لا يسـمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف.

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود؛ والذي دعت إليه الرسـل منذ أولى الرسـالات إلى أخراها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير.

إنما كانت التفصـيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد، بقدر اسـتعداد كل أمة، وتطور كل جيل؛ وبقدر نمو مدارك البشريـة ونمو تجاربها، واسـتعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريـعات؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشـأت من التجارب، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلاً بعد جيل.

ومع وحدة أمة الرسـل، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسـالات.. فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها. وثار بينهم الجدل، وكثر بينهم الخلاف، وهاجت بينهم العداوة والبغضـاء.. وقع ذلك بين أتباع الرسـول الواحد حتى ليقتل بعضـهم بعضاً باسم العقيدة. والعقيدة واحدة، وأمة الرسل كلها واحدة.

لقـد تقطعـوا أمـرهم بيـنهم في الـدنيا. ولكـنهم جميعـاً سـيرجعون إلى اللـه في الآخـرة:{**كُـلٌّ إِلَيْنَـا رَاجِعُـونَ**} فـالمرجع إليـه وحـده، وهـو الـذي يتـولى حسـابهم ويعلـم مـا كـانوا عليـه مـن هـدى أو ضـلال:{**فَمَـن يَعْمَـلْ مِـنَ الصَّـالِحَاتِ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَـلاَ كُفْـرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**}[1].

* * * * *

المطلب السادس:

نفى اتخاذ الله ولدا

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}(١).

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة، لا ينكرون الله، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض، مدبر السماوات والأرض، المسيطر على السماوات والأرض.. ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة، يقولون: إنهم يعبدونها لتقربهم من الله، وينسبون له البنات. سبحانه وتعالى عما يصفون، فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه ملسماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون:

{قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}(٢).

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطق، ولا يرتكن إلى عقل؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام.

{قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.. فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها:**{سَيَقُولُونَ لِلَّه}**.. ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله:**{قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}**.

{**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**}.. فهو سؤال عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم. والسماوات السبع قد تكون أفلاكاً سبعة، أو مجموعات نجمية سبعة، أو سدماً سبعة، أو عوالم سبعة، أو أية خلائق فلكية سبعة. والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود.. فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟{**سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**} ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش، ولا يتقون رب السماوات السبع، وهم يشركون معه أصناماً مهينة، ملقاة على الأرض لا تريم..{**قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**}..

{**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**}.. فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان. سؤال عمن بيده ملكية كل شيء ملكية استعلاء وسيطرة. ومن هو الذي يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد؛ ولا يملك أحد أن يجير عليه، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده.. من؟{**سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**} فما لهم يصرفون عن عبادة الله؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذي مسه السحر:{**قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**}.

ألا إنه الاضطراب والتخبط الذي يصاب به المسحورون!

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، في اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير:

{**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**}[١].

يجيء هذا التقرير في أساليب شتى.. بالإضراب عن الجدل معهم، وتقرير كذبهم الأكيد:{**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**}. ثم يفصل فيما هم كاذبون:{**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**}.. ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة:{**إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**} مستقلاً بما خلقه، يصرفه حسب ناموس خاص؛ فيصبح لكل جزء من الكون، أو لكل فريق من المخلوقات

ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع.{**وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**} بغلبة سـيطرته وتصرـيفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصرـيف واحد، وتدبير واحد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، وتشهد وحدة ناموسـه بوحدة مدبره. وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسـقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب..{**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**}.

{**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**} فليس لغيره من خلق يسـتقل بـه، ويعلم من دون الله أمره.{**فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**} (١).

أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء لـه في الإلهيـة. وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصـولها عقب القياس تسـمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو القياس تسـمى مطلوباً كما في علم المنطق. ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقولـه:{**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**} هو المطلوب وقولـه:{**إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**} إلى آخر الآية هو الدليل. وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل.

وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله.

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظراً إلى أن شـبهة عبدة الملائكة أقوى من شـبهة عبدة الأصـنام لأن الملائكة غير مشـاهدين فليست دلائل الحدوث

بادية عليهم كالأصـــنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً عند قولـه تعالى:{**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ**}[1].

و (إذن) حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقـدر. والكلام المجـاب هنـا هو مـا تضـمنه قولـــه:{**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**} فالجواب ضد ذلك النفي. وإذ قد كان هذا الضد أمراً مستحيل الوقوع تعين أن يقدر لـــه شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد لمثل هذا الشرط هو (لو) الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق.

وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد (إذن) دليل على أن المقدر شرط (لو) لأن اللام تلزم جواب (لو) ولأن غـالـب مواقع (إذن) أن تكون جواب (لو) فلـذلـك جاز حذف الشرـط هنا لظهور تقديره.

وقد تقدم بيان ذلك عند قولـه تعالى:{.. **إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ**..}[2].

فقولـه:{**إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**} استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة.

وإنما لم يسـتدل على امتناع أن يتخذ الله ولداً لأن الاسـتدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان لله ولد لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصـــله كما دل عليه قولـــــه تعالى:{**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ**}[3] أي لـه.

والذهاب في قولـه:{**لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ**} مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره لـه فيه.

وبيان انتظام هذا الاسـتدلال أنه لو كان مع الله ءالهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقاً لمخلوقات لثبوت الموجودات الحادثة وهي مخلوقة، فلا جائز أن تتوارد الآلهة

على مخلوق واحد لأن ذلك: إما لعجز عن الانفراد بخلق بعض المخلوقات وهذا لا ينافي الإلهية، وإما تحصيل للحاصل وهو محال، فتعين أن ينفرد كل إله بطائفة من المخلوقات.

ولنفرض أن تكون مخلوقات كل إله مساوية لمخلوقات غيره بناء على أن الحكمة تقتضي مقداراً معيناً من المخلوقات يعلمها الإله الخالق لها؛ فتعين أن لا تكون للإله الذي لم يخلق طائفة من المخلوقات ربوبيةٌ على ما لم يخلقه وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقتضي الكمال لا النقص. ولا جرم أن تلك المخلوقات ستكون بعد خلقها معرضة للزيادة والنقصان والقوة والضعف بحسب ما يحف بها عن عوارض الوجود التي لا تخلو عنها المخلوقات كما هو مشاهد في مخلوقات الله تعالى الواحد. ولا مناص عن ذلك لأن خالق المخلوقات أودع فيها خصائص ملازمة لها كما اقتضته حكمته، فتلك المخلوقات مظاهر لخصائصها لا محالة فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين:

أولهما: أن يكون كل إله مختصاً بمخلوقاته فلا يتصرف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أن كل إله من الآلهة عاجز عن التصرف في مخلوقات غيره. وهذا يستلزم المحال لأن العجز نقص والنقص ينافي حقيقة الإلهية. وهذا دليل برهاني على الوحدانية لأنه أدى إلى استحالة ضدها. فهذا معنى قوله تعالى:{**لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهِ بِمَا خَلَقَ**}.

وثاني: اللازمين: أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الآلهة أقوى من بعض وهو مناف للمساواة في الإلهية. وهذا معنى قوله تعالى:{**وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**}.

وهذا الثاني بناء على المعتاد من لوازم الإلهية في أنظار المفكرين، وإلا فيجوز اتفاق الآلهة على أن لا يخلقوا مخلوقات قابلة للتفاوت بأن لا يخلقوا إلا حجارة أو حديداً مثلاً؛ إلا أن هذا ينافي الواقع في المخلوقات.

ويجوز اتفاق الآلهة أيضاً على أن لا يعتز بعضهم على بعض بسبب تفاوت ملكوت كل على ملكوت الآخر بناء على ما اتصفوا به من الحكمة المتماثلة التي تعصمهم عن صدور ما يؤدي إلى اختلال المجد الإلهي؛ إلا أن هذا المعنى لا يخلو من المصانعة وهي مشعرة بضعف المقدرة.

فبذلك كان الاستدلال الذي في هذه الآية برهانياً، وهو مثل الاستدلال الذي في قوله تعالى{**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**} [1]. إلا أن هذا بني على بعض لزوم النقص في ذات الآلهة وهو ما لا يجوزه المردود عليهم، والآخر بني على لزوم اختلال أحوال المخلوقات السماوية والأرضية وهو ما تبطله المشاهدة.

أما الدليل البرهاني الخالص على استحالة تعدد الآلهة بالذات فله مقدمات أخرى قد وفّى أيمة علم الكلام بسطها بما لارواج بعده لعقيدة الشرك. وقد أشار إلى طريقة منها المحقق عمر القزويني في هذا الموضع من «حاشيته» على «الكشاف» ولكنه انفرد بادعاء أنه مأخوذ من الآية وليس كما ادعى. وقد ساقه الشهاب الآلوسي فإن شئت فتأمله.

ولما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم عقب الدليل بتنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين بقوله تعالى:{**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**} وهو بمنزلة نتيجة الدليل. وما يصفونه به هو ما اختصوا بوصفهم الله به من الشركاء في الإلهية ومن تعذر البعث عليه ونحو ذلك وهو الذي جرى فيه غرض الكلام.

وإنما أتبع الاستدلال على انتفاء الشريك بقوله:{**عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**} المراد به عموم العلم وإحاطته بكل شيء كما أفادته لام التعريف في{**الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**} من الاستغراق الحقيقي، أي عالم كل مغيب وكل ظاهر، لدفع توهم أن يقال:

إن اســتقلال كل إله بما خلق قد لا يفضي ـ إلى علو بعض الآلهة على بعض، لجواز أن لا يعلم أحد من الآلهة بمقدار تفاوت ملكوته على ملكوت الآخر فلا يحصــل علو بعضــهم على بعض لاشــتغال كل إله بملكوته. ووجه الدفع: أن الإله إذا جاز أن يكون غير خالق لطائفة من المخلوقات التي خلقها غيره لئلا تتداخل القُدَر في مقدورات واحدة لا يجوز أن يكون غير عالم بما خلقه غيره لأن صفات العلم لا تتداخل، فإذا علم أحد الآلهة مقدار ملكوت شركائه فالعالم بأشدية ملكوته يعلو على من هو دونه في الملكوت. فظهر أن قولــه:{**عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**} من تمام الاستدلال على انتفاء الشركاء، ولذلك فرع عنه بالفاء قولـه:{**فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**}.

وقرأ نـافع وحمزة والكســائي وأبو بكر عن عـاصــم وأبو جعفر وخلف:{**عَـالِمُ الغَيْبِ**} برفع{**عَـالِمِ**} على أنـه خبر مبتدأ محذوف وهو من الحذف الشــائع في الاســتعمال إذا أريد الإخبار عن شيء بعد أن أجريت عليه أخبار أو صفات.

وقرأه ابن كثير وابن عـامر وأبو عمرو وحفص عن عـاصــم ويعقوب بجر{**عَـالِمُ**} على الوصف لاسم الجلالة في قولـه:{**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**}.

و (ما) مصدرية. والمعنى فتعالى عن إشراكهم، أي هو أعظم من أن يكون موصوفاً بكونه مشاركاً في وصفه العظيم، أي هو منزه عن ذلك [1].

* * * * *

المطلب السابع:

القرآن والنبوة

{ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّـذِي هُمْ فِيـه يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّـهُ لَهُـدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِه وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لاَ تُسْـمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}[1].

قال الإمام الرازى: اعلم أنه - سبحانه - لما تمم الكلام فى إثبات المبدأ والمعاد. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت الدلالة الكبرى فى إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، لا جرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة...

أى: إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - أنه يقص على بنى إسرائيل، الذين هم حملة التوراة والإنجيل، أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه.

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل: اختلافهم فى شأن عيسى - عليه السلام - فاليهود كفروا به، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان، والنصارى قالوا فيه إنه الله، أو هو ابن الله، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال: من بين ما قاله:**{إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ..}** وقال - سبحانه:**{يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها، ولأن فى عدم ذكرها سترا لهم، عما وقعوا فيه من أخطاء...

وقوله - تعالى:**{وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى.

أى: وإن هـذا القرآن لمن صــفاته - أيضــا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصرـاط المستقيم، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله.

وخص هـدايتـه ورحمتـه بالمؤمنين، لأنهم هم الذين آمنوا به، وصــدقوا بما فيه، وعملوا بأوامره، واجتنبوا نواهيه، وطبقوا على أنفسهم أحكامه، وآدابه، وتشريعاته.

ثم بين - سـبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال:{**إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ**..}.

أى: إن ربك - أيها الرســول الكريم - يقضىـ بين بنى إسراءيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا، بحكمه العادل، كما يقضىـ بين غيرهم، فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

{**وَهُوَ**} - سبحانه:{**وَهُوَ العَزِيزُ**} الذى لا يغالب{**العَلِيمُ**} بكل شىء فى هذا الوجود، والفاء فى قولــــه - تعالى:{**فَتَوَكَّلْ عَلَى الله**..} للتفريع. أى: ما دمت قد عرفت ذلك - أيها الرســول الكريم - ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده، وتوكل عليه دون سـواه، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه.

وجملة " إنك على الحق المبين " تعليل للتوكل على الله وحده.

أى: توكل على الله - تعالى - وحده، لأنك - أيها الرسول الكريم - على الحق الواضح البين، الذى لا تحوم حولـه شبهة من باطل.

وقولـــه - تعالى:{**إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ**..} تعليل آخر لوجوب التوكل على الله - تعالى.

وقد شبه - سحبانه - أولئك المشركين، بالأموات الذين فقدوا الحياة، وبالصم الذين فقدوا السمع، وبالعمى الذين فقدوا البصر، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس، فصاروا كالفاقدين لها.

أى: دُمْ - أيها الرسول الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين. ما يردهم عن شركهم، لأنهم كالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع.

وقولـه:{**إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ**} لتتميم التشبيه. وتأكيد نفى السماع. أى: إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما، وأدبروا عن الاستماع إليك.

قال الجمل: فإن قلت: ما معنى قولـه:{**مُدْبِرِينَ**} والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر؟

قلت: هو تأكيد ومبالغة للأصـم. وقيل: إن الأصـم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع الصوت، أو يفهم بالإشارة، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم.

ومعنى الآية: إنهم لفرط إعراضـهم عما يدعون إليه كالميت، الذى لا سـبيل إلى إسـماعه، وكالأصم الذى لا يسمع ولا يفهم.

وقولـــه - سـبحانه:{**وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ**..} أى: وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه، لأن الهداية إلى طريق الحق، مردها إلى الله - تعالى - وحده.

ثم بين - سـبحانه - فى مقابل ذلك، من هم أهل السماع والبصر فقال:{**إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**}.

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع إسماعا مجديا نافعا، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا، المسلمون وجوههم لنا.

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد سـاقت الكثير من وسـائل التسـلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، كما ساقت ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى: وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده.

{**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**} يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحقّ، في أكثر الأشـــياء التي اختلفوا فيهـا، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسىـــ فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم:

إن هـذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيـه فـاتبعوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحقّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد.

إن هذا القرآن لهدى، يقول: لبيان من الله، بَيّنَ به الحق فيما اختلف فيه خلقه من أمور دينهم{**وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**} يقول: ورحمة لمن صـدق به وعمل بما فيه،{**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ**} يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن منهم المحقّ بجزائه،{**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**} يقول: وربك العزيز في انتقامه من المبطـل منهم ومن غيرهم، لا يقـدر أحـد على منعـه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المبطل الضالّ عن الهدى.

يقول تعـالى ذكره لنبيـه محمـد ﷺ : ففوِّض إلى اللـه يا محمد أمورك، وثق به فيها، فإنه كافيك{**إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**} لمن تأمّله، وفكر ما فيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحقّ، دون ما عليه اليهود والنصارى، المختلفون من بني إسرائيل، ودون ما عليه أهل الأوثان، المكذّبوك فيما أتيتهم بـه من الحقّ، يقول: فلا يحزنـك تكـذيـب من كـذّبك، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به.

وقولــه:{**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**} يقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهم الحقّ من طبع الله على قلبه فأماته، لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه{**وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**} يقول: ولا تقدر أن تسـمع ذلك من أصـمّ الله عن سـماعه سـمعه{**إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**} يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه، لا يسمعون لـه لغلبة دين الكفر على قلوبهم، ولا يُصغون للحقّ، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع لـه.

القول في تأويل قولـه تعالى:{**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْـلِمُونَ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ**}[١].

اختلف القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين:{**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي**} بالياء والألف وإضافته إلى العمي بمعنى: لست يا محمد بهادي من عمي عن الحقّ{**عَنْ ضَلالَتِهِمْ**}. وقراءة عامة قرّاء الكوفة{**وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ**} بالتاء ونصب العمي، بمعنى: ولست تهديهم{**عَنْ ضَلالَتِهِمْ**} ولكن الله يهديهم إن شاء.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مشهورتان في قرّاء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وتأويل الكلام ما وصفت{**وَمَا أَنْتَ**} يا محمد{**بِهادِي**} من أعماه الله عن الهدى والرشاد فجعل على بصره غشاوة أن يتبين سبيل الرشاد عن ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد [1] .

ولقد اختلف النصارى في المسيح عليه السلام وفي أمه مريم. قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة: إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس. فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والابن وروح القدس (والابن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وولد منها في صورة يسوع! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب. وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن رو ح القدس منبثق من الابن أيضاً. فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين.. فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً. وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر..{**إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**} وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون.

واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف. منهم من قال: إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء. ومنهم من قال: إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب.

ومنهم من قال: ألقي شبهه على الحواري سيمون وأخذ به.. وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال:{**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**} وقال:{**يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ**..} وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف.

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله:{**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأنفَ بِالأنفِ وَالأذُنَ بِالأذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**} وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً!..

إبراهيم بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو! ولوط بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر. وكان ما أرادتا! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته! وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم. مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم عليه السلام.

وهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله الذي يفصل في خلافات القوم فيها، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين!

{**وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**}..

{**هُدًى**} يقيهم من الاختلاف والضلال، ويوحد المنهج، ويعين الطريق، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد،{**وَرَحْمَةً**} يرحمهم من الشك والقلق والحيرة، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل.

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون في يسر وبساطة، بلا تكلف ولا تعمل. ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه. وهذا التناسق بين النفس والكون، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة، والسلام بين البشر، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها..

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة.. يقرر لرسول الله ﷺ أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه، ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له. حكمه القوي المبني على العلم اليقين:{**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ**} [1]..

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار. سنة لا تتخلف.. قد تبطئ لحكمة يعلمها الله، وتتحقق بها غايات يقدرها الله. ولكن السنة ماضية. وعد الله لا يخلف الله وعده. ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه. ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر.

ويمضي في تسلية الرسول ﷺ وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن.. يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله؛ فهو لم يقصر في دعوته. ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي آذانهم فتتحرك قلوبهم، فيقبلون على الناصح الأمين. فأما الذين ماتت قلوبهم، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان، فما له فيهم حيلة، وليس له إلى قلوبهم سبيل؛ ولا ضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل:{**إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**}[1].

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة. حالة جمود القلب، وخمود الروح، وبلادة الحس، وهمود الشعور. فيخرجهم مرة في صورة الموتى، والرسول ﷺ يدعو، وهم لا يسمعون الدعاء، لأن الموتى لا يشعرون! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي، لأنهم لا يسمعون! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور!

وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون. فهم الأحياء، وهم السامعون، وهم المبصرون:{**إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**}..

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله، بالحياة والسمع والبصر. وآية الحياة الشعور. وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور. والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم. وعمل الرسول ﷺ هو أن يسمعهم، فيدلهم على آيات الله، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم{**فَهُم مُّسْلِمُونَ**}.

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه، حتى يستسلم له، فلا يشاق فيه.

وهكـذا يصـور القـرآن تلـك القلـوب، القابلـة للهـدى، المسـتعدة للاسـتماع، التـي لا تجـادل ولا تمـاري بمجـرد أن يـدعوها الرسـول فيصـلها بآيـات اللـه، فتـؤمن لهـا وتستجيب[1].

* * * * *

المطلب الثامن:

المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب

{الَّـذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِـهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْـلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَـبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَـنَةِ السَّـيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَـمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُـوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}(١).

يخبر تعـالى عن العلماء الأوليـاء من أهـل الكتـاب أنهم يؤمنون بـالقرآن، كما قـال تعـالى:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** (٢)، وقال:**{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِـاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِـعِينَ لِلَّهِ}**(٣)، وقال:**{إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُـجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُـبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا}**(٤).

وقال:**{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَـمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** (٥).

قال سـعيد بن جبير: نزلت في سـبعين من القسـيسـين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم:**{يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}** حتى ختمهـا، فجعلوا يبكون وأسـلموا، ونزلـت فيهم هـذه الآيـة الأخرى:**{الَّـذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَـالُوا آمَنَّـا بِـهِ إِنَّـهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْـلِمِينَ}** يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين لـه.

قال الله:{**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا**} أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بـالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرســـول الأول ثم بالثاني؛ ولهذا قال:{**بِمَا صَبَرُوا**} أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تجشُّـم مثل هذا شـديد على النفوس. وقد ورد في الصـحيحين من حديث عامر الشـعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى الأشـعري، رضي الله عنه، قال: قال رســـول الله ﷺ : « **ثلاثة يُؤْتَونَ أَجْرهم مَرّتَين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورَجُل كانت لـه أَمَة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوّجها**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السّـيلَحيني، حدثنا ابن لَهِيعة، عن سـليمان ابن عبد الرحمن، عن القاسـم، عن أبي أمامة قال: إني لتحتَ راحلة رسـول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولا حسناً جميلا وقال فيما قال: "مَنْ أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، ولـــه ما لنا وعليه ما علينا، ومَنْ أسلم من المشركين، فله أجره، ولـه ما لنا وعليه ما علينا.

وقولـــــه:{**وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَـنَةِ السَّـيِّئَةَ**} أي: لا يقابلون السـيئ بمثله، ولكن يعفون ويصـفحون.{**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**} أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضـة والمسـتحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقربات.

وقولـــه:{**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**} أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى:{**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**}(1).

{**وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**} أي: إذا سَـفه عليهم سَـفيه، وكلمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضـوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصـدر عنهم إلا كلام طيب. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا:{**لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**} أي: لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحبّها.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خَيّبَكُم الله مِنْ ركب. بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفسَنا خيرًا[1].

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أيّ ذلك كان.

قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات:{**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ**} إلى قوله:{**لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**}.

قال: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن، قال: ما زلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلهن في النجاشي وأصحابه، رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة:{**ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا**} إلى قوله:{**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**} [2].

{**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**}[3].

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ فلما قدموا عليه، قرأ عليهم سورة يس، فجعلوا يبكون وأسلموا.

وقيل: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود.

وقيل: نزلت فى نصارى نجران.

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا، وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام، مع أن فى اتباعها سعادتهم ورشدهم.

والضمير فى قوله:{**مِن قَبْلِهِ**} يعود إلى القرآن الكريم، أو إلى النبى ﷺ والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب، والمراد بالكتاب: التوارة والإنجيل.

أى: الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه، والهداية التى لا تشوبها ضلالة.

{**وَإِذَا يُتْلَى**} عليهم هذا القرآن{**قَالُوا**} بفرح وسرور{**آمَنَّا بِهِ**} بأنه كلام الله - تعالى:{**إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا**} أى: إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا{**إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ**} أى: من قبل نزوله{**مُسْلِمِينَ**} وجوهنا لله - تعالى، ومخلصين له العبادة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أى فرق بين الاستئنافين{**إِنَّهُ**} و{**إِنَّا**}؟

قلت: الأول تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. والثانى: بيان لقوله:{**آمَنَّا بِهِ**} لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم، لأن آباءهم القدماء قرؤوا فى الكتب الأول ذكره؛ وأبناءهم من بعدهم.

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال:{**أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ**}.

أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة شهواتهم، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف.

قال القرطبى: قولـــــه - تعالى: {**أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ**} ثبت فى صحيح مسـلم عن أبى موسى أن رسـول اللـه ﷺ قـال: «**ثلاثـة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصـدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله - عز وجل - وحق سيده فله أجران، ورجل كانت لـه أمة فغذاها فأحسن تغذيتها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران**».

قـال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين اسـتحق كل واحد منهم أجرين، فـالكتـابى كـان مخـاطبـا من جهـة نبيـه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين.

وقولـه - تعالى: {**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**} بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة.

و{**وَيَدْرَؤُنَ**} من الدرء بمعنى الدفع ومنه الحديث الشريف: " ادرؤوا الحدود بالشبهات ".

أى: لا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة.

{**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**} أى: ومما أعطيناهم من مال يتصدقون، بدون إسراف أو تقتير.

{ **وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ**} أى: وإذا سـمعوا الكلام السـاقط الذى لا خير فيه. انصرفوا عنه تكرما وتنزها.

{**وَقَالُواْ**} لمن تطاول عليهم وآذاهم: لنا أعمالنا، التى سيحاسبنا الله - تعالى - عليها{**وَلَكُمْ**} - أيضا - أعمالكم، التى سيحاسبكم الله - تعالى - عليها.

{**سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ**} أى: سلام متاركة منا عليكم، وإعراض عن سفاهتكم، فليس المراد بالسلام هنا: سلام التحية، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض.

{**لاَ نَبْتَغِي الجاهلين**} أى: إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين، وعن المجادلة معهم.

قال ابن كثير ما ملخصـه: لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبى ﷺ، وآمنوا به، وقاموا عنه، اعترضهم أبو جهل

فى نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتـادون لهم لتـأتوهم بخبر الرجـل، فلم تكـد تطمئن مجالســـكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصـدقتموه فيما قاله، ما نعلم وفدا أحمق منكم... فقالوا لهم: سـلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه [١].

المطلب التاسع:

الإسلام دين الفطرة والتوحيد

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}(1).

يقول تعالى ذكره: فسدّد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين،{**حَنِيفًا**} يقول: مستقيما لدينه وطاعته{**فطرةَ اللهِ التي فَطَر النَّاس عَلَيْهَا**} يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت "فطرة" على المصدر من معنى قوله:{**فَأَقِم وَجْهَكَ للدّينِ حَنِيفًا**} وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

قال ابن جرير: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله:{**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها**} قال: الإسلام مُذ خلقهم الله من آدم جميعا، يقرّون بذلك، وقرأ:{**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**} قال: فهذا قول الله:{**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ**}.

عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرّ عمر بمُعاذ بن جبل، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة{**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها**}، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر: صدقت.

قال صاحب الكشاف: قوله:{**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**} أى: فقوم وجهك له وعدله، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلا به عليه.

والمراد بالفطرة فى قولـــــه - تعالى:{**فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس**} الملة. أى: ملة الإِســلام والتوحيد.

أو المراد بها: قابلية الدين الحق، والتهيؤ النفسى لإدراكه. والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة.

أى: اثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين الحق، والزموا - أيها الناس.

قال ابن كثير عند تفسـيره لهذه الآية: يقول - تعالى: فسـدد وجهك واسـتمر على الدين الـذى شرعـه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السـليمة، التى فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى: فطر خلقه على معرفته وتوحيده.

وفى الحـديـث: «**إنى خلقـت عبـادى حنفـاء، فـاجتالتهم - أى حولتهم - الشـياطين عن دينهم**».

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرـانه أو يمجسـانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسـون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: فطرة الله التى فطر الناس عليها**».

وقال صـاحب الكشـاف: فإن قلت: لم وحّد الخطاب أولا، ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله ﷺ أولا، وخطاب الرسول خطاب لأمته، مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

وقولـــه:{**لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله**} تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر - سبحانه - الناس عليها.

أى: الزموا فطرة الله التى هى دين الإِســلام، وقبول تعاليمه والعمل بها، لأن هذا الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم.

و{**ذَلِكَ**} الدين الذى اختاره - ســبحانه - لكم، هو{**الدين القيم**} أى: القويم المســتقيم، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

فاسم الإِشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه، فى قولـه:{**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**}.

وقولـــــه - تعالى: {**ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ**} اســتدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم.

أى: ذلـك الدين الذى ارتضـــيته لكم هو الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، بسبب استحواذ الشيطان عليهم، واتباعهم للأهواء الزائفة، والتقاليد الفاسدة.

ثم حرضـهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال: {**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة**}.

قال القرطبى: وفى أصـــل الإِنابة قولان: أحدهما، أنه القطع. ومنه أخذ اســـم الناب لأنه قـاطع، فكـأن الإِنـابة هى الانقطاع إلى الله - عز وجل - بالطاعة. والثانى: أن أصـــله الرجوع، مـأخوذ من نـاب ينوب إذا رجع مرة بعـد أخرى، ومنـه النوبـة لأنهـا الرجوع إلى عـادة، ولفظ {**مُنِيبِينَ**} منصوب على الحال.

والمعنى: أقيموا وجوهكم - أيهـا النـاس - لخـالقكم وحـده، كونكم راجعين إليـه بالتوبة والطاعة، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة، ومتقين لـــه فى كل أحوالكم، ومداومين على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع واطمئنان.

{**وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين**} المبدلين لفطرة الله - تعالى - المتبعين لأهوائهم وشهواتهم.

وقولـه {**مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً**} بدل مما قبله.

أى: ولا تكونوا من المشـركين، الذين اختلفوا فى شـأن دينهم اختلافات شـتى على حسـب أهوائهم، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة.

{**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**} أى: كل حزب منهم صـار مسـرورا بما لديه من دين باطل، وملة فاســدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرح بالباطل ســببه جهلهم، وانطماس بصـــائرهم عن الانقياد للحق.

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده، وفي موضعه، بعد تلك الجولات في ضـــمير الكون ومشـــاهده، وفي أغوار النفس وفطرتها.. يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله؛

كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح.. وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن. السلطان الذي لا تقف لـــه القلوب ولا تملك رده النفوس.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} .. واتجه إليه مستقيماً. فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، إنما تتبع الشهوات، والنزوات بغير ضابط ولا دليل... أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على نهيه دون سواه:

{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}.. وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين؛ وكلاهما من صنع الله؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود؛ وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه. والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب لـه من المرض ويقومه من الانحراف. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت:**{لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}**. فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة[1].

* * * * *

المطلب العاشر:

أسباب المجادلة فى آيات الله وتفنيدها

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[1].

تكملة لتوجيه الرسول ﷺ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل. فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان. إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور.

ومن ثم يجيء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذي خلقه الله، وصغر الناس جميعاً بالقياس إلى السماوات والأرض. ويمضي الدرس يعرض بعض الآيات الكونية. وفضل الله في تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضأل. ويشير إلى فضل الله على الناس في ذوات أنفسهم. وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذي يشركون به. ويوجه الرسول ﷺ إلى الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله. وينتهي الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل.

ويختم كما ختم الشوط الماضي. بتوجيه النبي ﷺ إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم، أم توفاه إليه قبل مجيء وعد الله. فالأمر لله. وهم إليه راجعون على كل حال.

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1].

إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة، ينسى أنه كائن صغير ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول. من الله. فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى. يحيك في صدره الكبر. يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر. ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله!

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر. وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة. وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن. والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر، يقرر أنه الكبر. والكبر وحده. هو الذي يحيك في الصدر. وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه. الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته. ومحاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهله له حقيقته.

وليست له حجة يجادل بها، ولا برهان يصدع به. إنما هو ذلك الكبر وحده: **{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}**..

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود. ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه. ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود،

وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود.. لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله. وفي استسلام لله وإسلام.

{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}..

والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه واستفظاعه. فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح، الذي يتوقع منه الشر والأذى.. وفي الكبر هذا كله. وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله؛ وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه ويؤذي صدور الآخرين. فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه..**{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**.. الذي يسمع ويرى، والكبر الذميم يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع. فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه.

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير. وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته:**{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}**.

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراهما، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما. ولكنه حين «يعلم» حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى، يطامن من كبريائه، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة. إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه، والذي من أجله كرمه. فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم..

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفي لهذا الإدراك.

هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس.

وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشموس في المجرة القريبة منا؛ والتي نحن منها. وقد كشف البشر حتى اليوم نحو مائة مليون من هذه المجرات! متناثرة في الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون تائهة فيه!

والذي كشـفه البشرـ جانب ضـئيل صـغير لا يكاد يذكر من بناء الكون! وهو على ضآلته هائل شـاسـع يدير الرؤوس مجرد تصوره. فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميـال. ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصـــغير. بل هي على الأرجح أم هذه الأرض الصغيرة.

ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة: ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال!

أما المجرة التي تتبعها الشـمس فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة.. ضوئية.. والسنة الضـوئية تعني مسـافة سـت مائة مليون ميل! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية!

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية..!

ونذكر مرة أخرى أن هذه المسـافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشرـ الضـئيل أن يكشـف عنها. وعلم البشرـ هذا يعترف أن ما كشـفه قطاع صـغير في هذا الكون العريض!

والله سـبحانه يقول:{**لَخَلْقُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**}..

وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر. ولا أصعب ولا أيسر. فهو خالق كل شيء بكلمة.. إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها، وكما يعرفها الناس ويقدرونها.. فأين الإنسان من هذا الكون الهائل؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير؟

{**وَمَا يَسْـتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِـيرُ**}..{**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ وَلاَ المُسِيءُ**}.. فالبصير يرى ويعلم؛ ويعرف قدره وقيمته، ولا يتطاول، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصرـ والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه، ولا نسبته إلى ما حولـــه، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به، ويتخبط هنا وهنالك من ســوء التقدير.. وكذلك لا يســتوي الذين آمنوا وعملوا الصــالحات والمسيء. إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير. وهذا عمي وجهل فهو يسيء.. يسيء كل شيء. يسيء إلى نفسه، ويسيء إلى الناس. ويسيء

قبل كل شيء إدراك قيمته وقيمة ما حولــه. ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حولــه. فهو أعمى.. والعمى عمى القلوب!

{قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ}..

ولو تذكرنا لعرفنا. فالأمر واضح قريب. لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير..

ثم لو تذكرنا الآخرة، ووثقنا من مجيئها، وتصورنا موقفنا فيها، واستحضرنا مشهدنا بها:

{إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}..

ومن ثم فهم يجـادلون ويســـتكبرون، فلا يذعنون للحق، ولا يعرفون مكانهم الحق، فلا يتجاوزوه.

والتوجه إلى الله بالعبادة، ودعاؤه والتضرــع إليه، مما يشــفي الصــدور من الكبر الذي تنتفخ بـه، فيـدعوهـا إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان. والله ســبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه، ويعلن لنا ما كتبه على نفســه من الاســتجابة لمن يدعوه؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار:

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَــيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}..

وللدعاء أدب لا بد أن يراعى. إنه إخلاص القلب لله. والثقة بالاســتجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها، أو تخصيص وقت أو ظرف، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال.

والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله. والاســتجابة فضـل آخر. وقد كان عمر رضي اللـه عنـه يقول: «أنـا لا أحمـل همّ الإجـابـة إنما أحمل همّ الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه» وهي كلمة القلب العارف، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاســتجابة يقدر معها الدعاء. فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان.

فأما الذين يسـتكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صـاغرين لجهنم! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصـــدور في هذه الأرض الصــغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله. فضلاً على نسيانها عظمة الله.

ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها. ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار.

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس، تلك النعم التي توحي بعظمته تعالى والتي لا يشكرون الله عليها، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه:

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ * هُوَ الحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}[1].

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان. والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك. وهي تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم، ومع رزق الله لهم من الطيبات.. وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله. فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق.

إن بناء الكون على القاعدة التي بناه الله عليها، ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة في هذه الأرض ونموها وارتقائها، كما أنه هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته. وهو الذي جعل الليل مسكناً له وراحة واستجماماً، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية والحركة، والأرض قراراً صالحاً للحياة والنشاط، والسماء بناء متماسكاً لا يتداعى ولا ينهار، ولا تختل نسبه وأبعاده ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه الأرض وربما وجود الحياة!

وهو الذي سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان، الذي صوره الله فأحسن صورته، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون، الصالحة للظروف التي يعيش فيها فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى؛ ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد، بهذا الترابط. ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق. ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصاً له الدين، هاتفاً: الحمد لله رب العالمين. ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلهاً. وهو الله رب العالمين. فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحي الارتباط في تصميم هذا الكون وعلاقته بحياة الإنسان.. مجرد لمحات تسير مع اتجاه هذه الإشارة المجملة في كتاب الله..

«لو كانت الأرض لا تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار»..

«لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل، وتفككت الأرض، وتناثرت هي الأخرى في الفضاء»..

«لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد. وسرعة دوران الأرض حول نفسها، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم، هي سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها».

«لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها».

«ماذا يحدث لو استقام محور الأرض، وجرت الأرض في مدارها حول الشمس في دائرة، الشمس مركزها؟ إذن لاختفت الفصول، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء، وما ربيع وما خريف».

«لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين. ولما أمكن وجود حياة النبات».

« ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية،

وهي تسـير بسرعة تتراوح بين سـتة أميال وأربعين ميلاً في الثانية. وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة. أما الإنسـان فإن اصـطدامه بشـهاب ضـئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره».

«لو كان الأوكسـجين بنسـبة ٥٠ في المائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضـة للاشتعال. لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر. ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المائة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور. ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان كالنار مثلاً تتوافر لـه».

إ رتبطاً بهذا الوجود الكبير هناك آلاف الموافقات في تصميم هذا الكون لو اختل منها أدنى اختلال ما كانت الحياة في صورتها هذه التي نعرفها، موافقة هكذا لحياةالإنسان.

فأما الإنسـان ذاته فمن حسـن صـورته هذه الهيئة المتفردة بين سـائر الأحياء؛ وهذا الاكتمال من نـاحيـة الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسـمح لـه بالوجود والحركة في هذا الوسـط الكوني كما هو كائن؛ وذلك كله فوق خاصـيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض؛ مجهزاً بأداة الخلافة الأولى: العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض.

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه بوصفها داخلة في قولـه تعالى:{**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**}[1] لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب.

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسـان ووضـع الأسـنان فيه من الناحية الآلية البحتـة. إن هـذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان، يزحم اللثة واللسان؛

وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة!

ثم.. إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش في هذا الكون.. عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضي- وظيفته في الأرض أن يراها. وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضي- وظيفته في الأرض أن يسمعها. وكل حاسة فيه أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف.

إنه مخلوق لهذا الوسط. ليعيش فيه، ويتأثر به، ويؤثر فيه. وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان. وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه. أي بالأرض والسماء. ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسماء.. ألا إنه الإعجاز في هذا القرآن..

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان.

ونقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية:{**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً**}[1].. إن السكون بالليل ضرورة لكل حي. ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها في النور. ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون. بل لا بد من ليل. لا بد من ظلام. فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون.

{**وَالنَّهَارَ مُبْصِراً**}.. والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص. وكأنما النهار حي يبصر ويرى. وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه. لأن هذه هي الصفة الغالبة..

وتقلب الليل و النهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم. ولو كان أحدهما سرمداً. بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة. فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس:

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}..

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين، بأن الذي خلقهما هو الذي يكون إلهاً يستحق هذا الاسم العظيم:**{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}**..

وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله في كل شيء، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد. عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار..**{فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}**..

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح. هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن. كذلك كان في كل زمان؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان:

{كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}..

وينتقل من ظاهرتي الليل والنهار، إلى تصميم الأرض لتكون قراراً، والسماء لتكون بناء:**{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}**..

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً. والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان، المحسوب حسابهم في تصميم هذا الوجود، المقدرة في بنائه تقديراً..

ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذي أشرنا إلى بعض أسراره:**{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ}**..

ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى:**{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**..

ذلكم الـذي يخلق ويقـدر ويـدبر، ويراعيكم ويقـدر لكم مكـانـاً في ملكـه.. ذلكم اللـه ربكم.{**فَتَبَارَكَ اللَّهُ**}.. وعظمت بركته وتضاعفت.{**رَبِّ العَالَمِينَ**}.. أجمعين.

{**هُوَ الحَيّ**}..

أجـل. هو وحـده الحي. الحي حيـاة ذاتيـة غير مكســوبة ولا مخلوقة. وغير مبتدئة ولا منتهية. وغير حائلة ولا زائلة. وغير متقلبة ولا متغيرة. وما من شيء لــــــه هذه الصــفة من الحياة. سبحانه هو المتفرد بالحياة.

وهو المتفرد بالألوهية. بما أنه المتفرد بالحياة. فالحي الواحد هو الله:

{**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**}..

ومن ثم..{**فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**}.. واحمدوه في الدعاء:{**الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**}..

وأمـام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشــد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية، وحقيقة الألوهية.

وحقيقـة الربوبيـة، يجيء التلقين لرســول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهي عن عبادة ما يدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين[1].

* * * * *

المطلب الحادى عشر:

وحدة أصول الشرائع

المراد بالبينات فى قولـه - تعالى:{**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ**} الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - وتدخل فيها المعجزات دخولا أوليا.

والمراد بالكتاب: جنس الكتب. وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما.

والميزان: الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى المكاييل وغيرها... والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم.

وشاع إطلاق الميزان على العدل، باستعارة لفظ الميزان على العدل، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، والمراد بإنزاله، تبليغه ونشره بين الناس.

أى: بالله لقد أرسلنا رسلنا، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحينا، وأنزلنا معهم العدل بأن أرشدناهم إلى طرقه، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه.

قال ابن كثير: يقول الله - تعالى:{**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ**} أى: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات{**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ**} وهو النقل الصدق{**وَالْمِيزَانَ**} وهو العدل أو وهوالحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة.

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبى ﷺ ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام، وأن رسالته إنما هى امتداد لرسالتهم... وقوله - تعالى:{**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**} علة لما قبله. أى: أرسلنا الرسل. وأنزلنا الكتاب وشرعنا العدل، ليقوم الناس بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم، واستقامة أحوالهم، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم.

قال الآلوسى: " والقيام بالقسط " أى: بالعدل، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب، وهو - أى: القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به، معاشا ومعادا.

وقولـه - تعالى:{**وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**} معطوف على ما قبله.

والمراد بإنزال الحديد: خلقه وإيجاده. وتهيئته للناس، والإنعام به عليهم، كما فى قولـــه - سبحانه:{**وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ**} والمراد بالبأس الشـديد: القوة الشـديدة التى تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرـر بمن توجه إليه، أى: لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم.

وأوجدنا الحديد، وأنعمنا به عليكم، ليكون قوة شـديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم، وفى تأديب أعدائكم، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم.

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب.. ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارهة، والمبانى العالية الواسعة، والمصانع النافعة... وآلات الزراعة والتجارة.

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سـنة من سـنن الله - تعالى - قد أرسـل الرسـل وزودهم بالهدايات السـماوية التى تهدى الناس إلى ما يسعدهم... وزودهم - أيضا - بالقوة المادية التى تحمى الحق الذى جاؤوا به وترد كيد الكائدين لـــه فى نحورهم، وترهب كل من يحـاول الاعتداء عليه، كما قال - تعالى: {**وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسـتطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ**}[1] ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسـيره لهذه الآية ما ملخصه: أى: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، تنزل عليه السور المكية، لبيان أن دين الله حق.

فلما قـامـت الحجة على من خالفه، شرع الله القتال بعد الهجرة، حماية للحق، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسـول الله ﷺ : «**بعثت بالسيف بين يدى السـاعة حتى يعبد الله وحده لا شريك لـــه، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم**».

ولهذا قال - تعالى:{**وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**} يعنى السلاح كالسيف والحراب.

{**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**} أى: فى معايشهم كالفأس والقدوم... وغير ذلك.

هذا، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد، وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر: الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله الله سهل الوجدان، كثير الوجود. والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود.

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده، فإن كل شىء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر.

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله تعالى - الحصول عليه سهلا ميسورا... فعلمنا من ذلك أن كل شىء كانت الحاجة إليه أكثر، كان وجدانه أسهل.

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شىء، فنرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا، كما قال الشاعر:

سبحان من خص العزيز بعزة ::: والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذى ::: نفس، فمحتاج إلى أنفاسه

وقوله: - سبحانه:{**وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب..**} معطوف على محذوف يدل عليه السياق.

والمراد بقوله:{**وَلِيَعْلَمَ**} أى: وليظهر علمه - تعالى - للناس، حتى يشاهدوا آثاره.

أى: وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس، من الذى سيتبع الحق منهم، فينصر دين الله - تعالى - وينصر رسله، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله - تعالى - بعينيه، وإنما يتبع أمره، ويؤمن بوحدانيته ووجوده وعلمه وقدرته... عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسول ﷺ.

فقولـه:{**بِالْغَيْبِ**} حال من فاعل{**يَنصُرُهُ**}.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقولـــه:{**إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ**} أى: أن الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة وبالعزة التى لا تقاربها عزة.

وختمت الآية بهذا الختام، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل، ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس.

فكـان هـذا الختـام تعليـل لما قبله. أى: لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى انتقامه فعل ما فعل من إرسال الرسل، ومن إنزال الحديد.

وقولـــه - سـبحانه: {**وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب..**} معطوف على جملة:{**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات**} عطف الخاص على العام.

أى: لقد أرسلنا رسلا كثيرين... وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبيـاء، وأوحينـا إليهم كتبنا، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق، كالتوراة التى أنزلناها على موسى، وكالزبور الذى أنزلناه على داود.

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر، لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما.

والضـمير فى قولـــــه - تعالى:{**فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِـقُونَ**} أى: فمن ذريتهم من اهتدى إلى الدين الحق، وآمن به، وقام بأداء تكاليفه. وكثير من أفراد هذه الذرية فاســـقون. أى: خارجون عن الاهتداء إلى الحق منغمسون فى الكفر والضلال.

{**ثُمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُـلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ**} والتقفيه إتباع الرسـول برسول آخر يقال: قفا فلان أثر فلان... إذا اتبعه، وقفى على أثره بفلان، إذا اتبعه إياه... وأصـــله من القفا وهو مؤخر العنق... فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه.

وضـمير الجمع فى قولـــــه:{**عَلَى آثَارِهِم**} يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب.

أى: ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول. حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام:{**وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ**} أى: أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه.

قالوا: والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل، يقال: رحم الله ناجليه، أى: والديه، وقيل: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء إذا استخرجته وأظهرته. ويقال للماء الذى يخرج من البئر: نجل. وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين، ومنه قولهم: طعنة نجلاء، أى: واسعة.

وسمى الإنجيل بهذا الاسم، لأنه سعة ونور وضياء، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى، ليكون بشارة وهداية لقومه.

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة{**قَفَّيْنَا**} للإشعار بأن المسافة التى كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة.

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التى كانت واضحة فى أتباع عيسى فقال:{**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله**}.

والرأفة: اللين وخفض الجناح، والرحمة: العطف والشفقة.

قالوا: وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص، لأن الرأفة، رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر أما الرحمة فهى أشمل وأعم، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليه.

و " الرهبانية " معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان. وهم النصارى المبالغون فى الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد فى متاع الحياة الدنيا.

قال بعض العلماء: والرهبانية: اسم للحالة التى يكون عليها الراهب متصفا بها فى غالب شؤون دينه، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس، لأن قياس النسب إلى الراهب: الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة، كما زيدت فى قولهم: شعرانى، لكثير الشعر، ولحيانى لعظيم اللحية.

وقولـه - تعالى:{**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**}... منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر.

أى: وابتدعوها رهبانية ابتدعوها، فهو من باب الاشتغال.

ويصح أن يكون معطوفا على قولــه:{**رَأْفَةً وَرَحْمَةً**} وقولـه:{**ابْتَدَعُوهَا**} فى موضع الصفة، والكلام على حذف مضاف، أى: وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة لهم.

وجملة: ما كتبناها عليهم، مستأنفة مبينة لجملة{**ابْتَدَعُوهَا**}.

والاستثناء فى قولـه:{**إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ**} منقطع.

والضمير فى قولـه:{**فَمَا رَعَوْهَا**} يعود لهؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية.

والمعنى: ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى عيسى - عليـه السـلام - فأرسـلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا بـه{**رَأْفَةً**} أى لينـا وخفض جناح{**وَرَحْمَةً**} أى: شـفقة وعطفا، وحب رهبانية مبتدعة منهم، أى: هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم، زهداً فى متاع الحياة الدنيا.

ونحن ما كتبنا هذه الرهبانية، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم{**فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**} أى: ولكنهم بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف... بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم.

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقولــه:{**فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**}.

أى: أما الذين اسـتمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السـلام - وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا مما يفسده... فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة.

وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - حيث كفروا به وقالوا: الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب.

وقولـــه:{**وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**} يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم... أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا.

قـال الإمـام ابن جرير: واختلف أهـل التـأويـل فى الـذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها. فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، ولم يقوموا بها، ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى، فتنصروا وتهودوا.

وقال آخرون: بل هم قوم جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حق رعايتها، لأنهم كانوا كفارا... فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها.

وأولى الأقوال فى ذلك بالصـحة أن يقال: إن الذين وصـفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعـايتهـا، بعض الطوائف التى ابتـدعتهـا، وذلـك لأن الله - تعالى - قد أخبر أنه أتى الذين آمنوا منهم أجرهم، فدل ذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها.

وكثير منهم - أى: من الـذين ابتـدعوا الرهبـانيـة - أهل معاص، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به.

وقال الإمام الآلوسى ما ملخصه: وقولـه - تعالى:{**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**} جملة مستأنفة.

وقولـــه - سبحانه:{**إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله**} استثناء منقطع، أى: ما فرضناها نحن عليهم رأسا، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله.

وقولـه - تعالى:{**فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**} أى: ما حافظوا عليها حق المحافظة، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته، لا سـيما إذا قصـد به رضاه - عز وجل.

وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل. أى: ما قضيناها عليهم لشىء من الأشياء، إلا ليبتغوا بها رضـوان الله، ويسـتحقوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها... إلا أنهم لم يحافظوا عليها، ولم يرعوها حق رعايتها.

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضىـ أنهم لم يؤمروا بها أصـلا، وأن الثانى يقتضىـ أنهم أمروا بها، لابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها.

والظاهر أن الضمير فى قولـــه:{**فَمَا رَعَوْهَا**} يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد: نفى وقوع الرعاية من جميعهم، أى: فما رعاها كلهم بل بعضهم.

فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسـنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا... وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسىـ - عليه السـلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى:

ثم ختم - سحبانه - السورة الكريمة بهذا النداء للؤمنين فقال - تعالى:{**يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا...**}.

أى: يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون، وداوموا على الإيمان برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك.

{**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ**} أى: يعطكم بســبب ذلك نصــيبين وضــعفين من رحمته - سبحانه - وفضله.

وأصـل الكفر - كما يقول القرطبى - كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط... أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى، كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط.

{**وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُـونَ بِهِ**} أى: ويجعل لكم بفضـله نورا تمشون به يوم القيامة. كما قال - تعالى: {**يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**} {**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**} أى: ما فرط منكم من ذنوب، بأن يزيلها عنكم.

{**والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} أى: واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه.

فـأنـت ترى أن اللـه - تعـالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برســوله، أن يؤتيهم نصـيبين من رحمته... وأن يجعل لهم نورا يمشون به، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى كل شئونهم، وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم... فضلا منه وكرما.

قـالوا: وأعطى اللـه - تعـالى - للمؤمنين نصــيبين من الأجر، لأن أولهما بســبب إيمانهم بالرسول ﷺ.

وثانيهما: بسبب إيمانهم بالرسل السابقين، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين من الأجر: أحدهما للإيمان بالرسول ﷺ والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى نسخت شريعته بالشريعة المحمدية.

وقوله - سبحانه: {**لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله...**} رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية.

قال الجمل ما ملخصه: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى:{**أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ..**} قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم. ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم، فبأى شىء فضلتم علينا؟ فأنزل الله هذه الآية.

و{**لاَّ**} زائدة، واللام متعلقة بمحذوف، هو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا وتؤمنوا برسوله، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا - وقد أعلمناكم بذلك - لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شىء من فضل الله.

أى: أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله... كالكفلين من رحمته وكمغفرة الذنوب - لأنهم لم يؤمنوا برسوله ﷺ ولم يخلصوا العبادة له - عز وجل..

وقوله - سبحانه: {**وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم**} مؤكد لما قبله، ومقرر له.

أى: ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشىء من فضل الله إلا إذا آمنوا بالله ورسله. وليعلموا - أيضا - أن الفضل والعطاء بيد الله - تعالى - وحده، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده، وهو - سبحانه - صاحب الفضل الواسع العظيم.

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله - تعالى - واتباع رسوله ﷺ فى كل ما جاء به، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك.

والرد على المتفاخرين من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم ليس أحد أفضل منهم، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول ﷺ أم استمروا على كفرهم.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية:{ **ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ...**} فى حق هذه الأمة.

وهى كقوله - تعالى: {**يا أيُّهَا الذين آمنوا إن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذُو الفضل العظيم**} ومما يؤيد هذا القول - أى: أن هذه الآية فى حق هذه الأمة - ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «**مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود. ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى. ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئا، قالوا لا: قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء**» [1].

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، فيكون المعنى: يا من آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته.

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، أنهم لن ينالوا شيئا مما ناله المؤمنون منهم.

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير، فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى ذكره -: يأيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، خافوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم.

أى: يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما الصلاة والسلام.

ويبدو لنا أن الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة، على سبيل الحض والتبشير، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك:{ **لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله...**} واضح فى ذلك، وأن جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه.

ولذا قال بعض المحققين: هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، فى المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح فى ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب [(١)]

* * * * *

المطلب الثاني عشر:

بشارة عيسى بالرسول محمد ﷺ

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[1].

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه:{**لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**} أي: لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال ﷺ : «**رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» [2].

وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصّلوا إليه أذى، كما قال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا**} [3].

وقوله:{**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**} أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى:

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[1] وقال{ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**}[2] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية:{**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**}.

وقوله:{ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**} يعني: التوراة قد بَشَّرَت بي، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشِّرٌ بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديثَ الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جُبَير بن مُطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يَمحُو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشرُ الناس على قدمي، وأنا العاقب**».

ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه [3].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي عُبَيدة، عن أبي موسى قال: سَمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماءَ، منها ما حفظنا فقال: «**أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة**».

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به[4].

وقد قال الله تعالى:{**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**}(١) وقال تعالى:{**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**}(٢)

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يَزيد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام**»(٣).

وهذا إسناد جيد. ورُوي له شواهد من وجوه أخر، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العِرْباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ : «**إني عند الله لـ خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَين**» (٤).

وقال أحمد أيضا: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام**» (٥).

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن بن موسى: سمعت خُدَيجًا أخا زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفُطَة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى. فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سَجَدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: هم في أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة.

قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول، التي لم يمسها بَشَر ولم يَفْرِضْها ولد. قال: فرفع عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا. مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه. وأَمَرَ بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلَغه موته[1].

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة. والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث. وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: "أخبرنا عن بَدْء أمرك" يعني: في الأرض،

قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت" أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه.

وقولـــه:{**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**} قال ابن جريج وابن جرير:{**فَلَمَّا جَاءَهُمْ**} أحمد، أي: المبشر به في الأعصار المتقادمة، المنّوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون:{**هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**}

{**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**}[١].

ثم قال:{**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ**} أي: يحاولون أن يَرَدّوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل؛ ولهذا قال:{**وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**} وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة "براءة"، بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة.[٢].

جاء عيسى ابن مريم. جاء يقول لبني إسرائيل:{**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم**}..

فلم يقل لهم: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله.

{**مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**}..

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسة الطويلة المتصلة..

وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه. فهو منهج واحد في أصله، متعدد في صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها،

ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته.

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها. فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن.

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه:{**النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**} وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية. ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم. فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار. وهو القول الأخير..

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل اليهود والنصارى للنبي الذي بشرت به كتبهم. والتنديد بهذا الاستقبال، وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله، وأن يكون هو الدين الأخير!

{**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**}[1].

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم. حاربوه بالاتهام:{**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**}.. كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد. وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار. وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة. وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب. وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله ابن أبي بن سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ. وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم.

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال. حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب،

وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه «الرجل الأبيض».. واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً»!.. ونفخوا فيه.

وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه. بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين.{**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**}..

وهـذا النص القرآني يعبر عن حقيقـة، ويرســـم في الوقـت ذاتـه صــورة تدعو إلى الرثاء والاسـتهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم:{**هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**}.. ويدسـون ويكيدون محاولين القضــاء على الدين الجديد. وهي صــورة بائســة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!

{**وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**}.. وصـدق وعد الله. أتم نوره في حياة الرسـول ﷺ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحدود مرســومة، تترســمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع. وأتم نوره فـأكمـل للمســلمين دينهم وأتم عليهم نعمتـه ورضي لهم الإســلام ديناً يحبونه، ويجاهـدون في ســبيلـه، ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض ســواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قـائمـة على الرغم من كل ما جرد على الإســلام والمســلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد.

لأن نور اللـه لا يمكن أن تطفئـه الأفواه، ولا أن تطمســه كـذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصــنوعين على أعين الصــليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون:

{**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ**}[1].

وشـهادة الله لهذا الدين بأنه{**الْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ**} هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة. ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كدين، فما يثبت لــه دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال، وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصـورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته. فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى..

وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعد الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى. وكانت تطميناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله[1].

* * * * *

المطلب الثالث عشر:

التوحيد والتنـزيه لله تعالى

{قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَم يَكُنْ لـه كُفُوًا أَحَدٌ}.

سـألوا رسـول الله ﷺ عن نسـب ربّ العزّة، فأنزل الله هذه السـورة جوابا لهم. وقال بعضـهم: بل نزلت من أجل أن اليهود سـألوه، فقالوا لـه: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فأنزلت جوابا لهم.

ذكر من قال: أنزلت جوابا للمشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الربّ تبارك وتعالى.

نزل ذلك من أجل مسألة اليهود:

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سـلمة، قال: ثني ابن إسحاق، عن محمد، عن سعيد، قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ ، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبيّ ﷺ حتى انتُقِع لونه، ثم ساورهم غضبا لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سـألوه عنه. قال: " يقول الله:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَم يَكُنْ لـه كُفُوًا أَحَدٌ}**[1] " فلما تلا عليهم النبي ﷺ، قالوا: صف لنا ربك كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه، فغضب النبيّ ﷺ أشدّ من غضبه الأول، وساورهم غضبا، فأتاه جبريل فقال لـه مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه:**{وَمَا قَدَرُوا اللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَـتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[2].

قال المشركون للنبي ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَم يَكُنْ لـه كُفُوًا أَحَدٌ}**

لأنه ليس شيء يولد إلا سـيموت، وليس شيء يموت إلا سـيورث، وإن الله جلّ ثناؤه لا يموت ولا يورث{**وَلَمْ يَكُنْ لـه كُفُوًا أَحَدٌ**} : ولم يكن لـه شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء [١].

هذه السـورة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصـحيحة. قال البخاري: حدثنا إسـماعيل: حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سـعد، «أن رجلاً سـمع رجلاً يقرأ:{**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**} يرددها. فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك لـه وكأن الرجل يتقالها فقال النبي ﷺ : «**والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن**» [٢].

وليس في هـذا من غرابـة. فإن الأحدية التي أمر رسـول الله ﷺ أن يعلنها:{**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**} هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة.. وقد تضمنت السورة من ثم أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة..

{**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**}.. وهو لفظ أدق من لفظ «واحد».. لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شئ غيره معه. وأن ليس كمثله شيء.

إنهـا أحـديـة الوجود.. فليس هنـاك حقيقـة إلا حقيقتـه. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يسـتمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويسـتمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي من ثم أحدية الفاعلية. فليس سـواه فاعلاً لشيـء، أو فاعلاً في شيء، في هذا أصـلاً. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً..

فإذا اسـتقر هذا التفسـير، ووضـح هذا التصـور، خلص القلب من كل غاشـية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه اللذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً! فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي.

ولا حقيقة لفاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة.. فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهام.

يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت.. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله:{**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**} {**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ**} {**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**} وغيرها كثير..

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده.

وأن لا فـاعـلـيـة إلا فـاعـلـيـتـه ::: ولا يريـد طريقـاً غير هـذا الطريق!

من هنـا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسـير وما يشـيعه في النفس من تصـورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة. في السراء والضراء. في النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن اللـه وحـده. تلقي العقيـدة والتصـور والقيم والموازين، والشرـائع والقوانين والأوضـاع والنظم، والآداب والتقـاليـد. فـالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحـد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

ومنهج للتحرك والعمـل للـه وحـده.. ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط مع هـذا بين القلـب البشرـي وبين كـل موجود بربـاط الحـب والأنس والتعـاطف والتجـاوب. فليس معنى الخلاص من قيودهـا هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها.. فكلها خارجة من يد الله؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق.. الأرض فيه صـغيرة، والحياة الدنيا قصـيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشـوائب غاية وأمنية.. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب..

إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها.. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريده. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص.

إنه طريق أشـق، ولكنه هو الذي يحقق إنسـانية الإنسـان. أي يحقق انتصـار النفخة العلويـة في كيانه.. وهذا هو الانطلاق. انطلاق الروح إلى مصـدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم..

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصـورتها هذه في القلوب، لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصـيلات وتفريعـات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاسـتقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصـابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسـدت عقائدهم وتصـوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبـدو في الاعتقـاد سـواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحيـاة. فـإذا تخلفـت هـذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة..

ومعنى أن الله أحد: أنه الصـمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن لـه كفواً أحد.. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

{**اللَّهُ الصَّمَدُ**} .. ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمراً إلا بإذنه. والله سبحانه هو السـيد الذي لا سـيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل لـه عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصـحاب الحاجات. وهو الذي يقضي ـ في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه.. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد.

{لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَدْ}.. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال. صــفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال. والولادة انبثـاق وامتـداد، ووجود زائـد بعـد نقص أو عـدم، وهو على الله محال. ثم هي تقتضي ــ زوجية. تقوم على التماثل. وهذه كذلك محال. ومن ثم فإن صفة{أَحَدٌ} تتضمن نفي الوالد والولد..

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}.. أي لم يوجد لــه مماثل أو مكافئ. لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صــفة من الصــفات الذاتية. وهذا كذلك يتحقق بأنه{احد} ولكن هذا توكيد وتفصــيل.. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشرــ إلهاً يعاكس الله بزعمهم ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض.

وأشــهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولـة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشــابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرــك.. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه. وقد كان الرسـول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين.. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه[١].

* * * * *

الفصل الثاني: في مجال العبادات

المبحث الأول: قصة البقرة وتلاعب اليهود بالدين:

المطلب الأول:

الأمر بذبح البقرة

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}(١).

روى المفسرون أنه كان في بني إسرائيل رجل غني، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى:{**إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً...**}.

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

{وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين}.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث في أسلافكم قتيل ولم يعرف الجاني. فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقي، فقال لهم:{**إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**} فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة:{**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**} أي أتجعلنا موضع سخريتك؟{**قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين**} الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به.

والذي عليه جمهور المفسرين أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم في شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقي إذا ضرب القتيل ببعضها، كما سيأتي في قوله تعالى:{**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادارأتم فِيهَا والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**}.

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفي أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة، لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وقولهم:{**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**} يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك. ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله:{**أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين**}: أي ألتجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفي هذا الجواب تبرؤ وتنزهه عن الهزء، وهو المزاح الذي يخالطه احتقاره واستخفاف بالممازح معه

- لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضاً - رداً لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهلٌ كبيرٌ، ومن الجهل ما يلقى صاحبه في أسوأ العواقب، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع)[1].

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافياً لحملهم على أن يذبحوا أي بقرة تنفيذاً لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله:{**ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**}؟

أي: قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها. وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التي يكون لها أثر في معرفة قاتل القتيل، لا بد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا{**ادع لَنَا رَبَّكَ**} فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربي الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال:{ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ**}.

أي: قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصـفتها: إنه - تعالى - يقول: إن البقرة التي آمركم بذبحها لا مسـنة ولا صـغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح في الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

وقد أكد - سـبحانه - جملة:{**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ**} تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم في السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به.

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين{**لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ**} للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ في جوابهم إلى تكرير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة.

وقولـه تعالى:{**فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ**} يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال.

وما موصـولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسـع، أي: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصـلوا إلى معرفة القاتل الحقيقي بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست في مصلحتكم.

ومع ذلك فقد أ بوا إلا تنطعاً، واسـتقصـاء في السـؤال، فأخذوا يسـألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

{ قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ الناظرين}.

والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشـددين على أنفسـهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكي يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقولـه: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التي أمرتكم بذبحها صـفراء فاقع لونها، تعجب في هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها..

قال ابن جرير: " والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، وهو شدته وصفاؤه ".

وقال صاحب الكشاف: "الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه يقال في التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسـود حالك... ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صـفراء فاقعة، وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسـم للهيئة وهي الصـفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده ".

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصـف البقرة من حيث سـنها ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصـاف؟ كلا! ما أغنتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم في غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم:{**قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَـآءَ الله لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْـقِي الحرث مُسَـلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآن جِئْتَ بالحق فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**}.

ومعنى الآيتين الكريمتين: قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنـا ربـك أن يزيـدنـا إيضـاحـاً لحال البقرة التي أمرنا بذبحها. حيث إن البقر الموصـوف بالوصـفين السـابقين كثير، فاشـتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شـاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقولـه:{**إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْـقِي الحرث مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا**} أي قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السـقي، وهي بعد ذلك سـليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو الصـفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشـخصـاتها ومميزاتها قد اكتملت{**الآن جِئْتَ بالحق فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**} لكثرة أسئلتهم وترددهم.

فقولـه - تعالى:{**قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**} حكاية لسؤالهم الثالث الذي وجهوه إلى نبيهم - عليه السـلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصـفتها من حيث نفاسـتها، بعد أن عرفوا سنها ولونها.

فكأنهم يقـولون لـه: إن في أجوبتك السـابقة عنها تقصيراً يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بياناً لحالها، وكأنما أحسـوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة في الطلب، فعللوا ذلك بقولهم:{**إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا**} أي: لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا في هذا التكرار.

لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التي تريدنا أن نذبحها.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: " وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا في الثالثة، لأن للثلاثة في التكرير وقعاً من النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة ".

وقولهم:{**إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ**} حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم في كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له:

اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحاً، وكشفاً لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدي إليها، ثم إلى القاتل الحقيقي، وبذلك ندرك الحكمة، التي من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير: وأما قوله تعالى:{**إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ**} فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم في هذا الموضع: تبينهم ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر ".

وفي قوله تعالى:{ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْقِي الحرث مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا**} إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهي، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقيى الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو في الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى:{**لاَّ ذَلُولٌ**} صفة لبقرة، يقال: بقرة ذلول، أي: ريضة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض: تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها.

والمراد: نفي التذليل ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة.

أي: هي بقرة صعبة لم يذللها العمل في حراثة الأرض، ولا في سقي الزرع، فهي معفاة من العمل في هذه الأشياء.

{لاَّ} في قوله تعالى:{**لاَّ ذَلُولٌ**} للنفي، وفي قوله تعالى:{**وَلاَ تَسْقِي الحرث**} مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقى، وأعيد في قوله تعالى:{**وَلاَ تَسْقِي الحرث**} مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله - تعالى:{**مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا**} صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة.

والشية: اللون المخالف لبقية لون الشيء، وأصله من وشى الشيء، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته.

والمعنى: إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من بياض أو سواد أو غيرهما، بل هي صفراء كلها.

وأرادوا بالحق في قوله تعالى:{**قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بالحق**} الوصف الواضح الذي لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له: الآن - فقط - جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا.

والفاء في قوله تعالى:{**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**} قد عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أي: فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم في صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طلتهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى:{**وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**} استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل ".

ثم كشـــف اللـه - تعـالى - بعـد ذلك عن الغاية التي من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى:{ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْســاً فادارأتم فِيهَا والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِــهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**}.

المعنى: وا ذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفســاً، فاختلفتم وتنازعتم في قاتلها، ودفع كل واحـد منكم التهمة عن نفســه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل، فقد بين - ســبحانه - الحق في ذلك فقال على لســان رســوله موسى - عليه الســلام - اضربوا القتيل بأي جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضـها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته، يحيى الله الموتى للحســاب والجزاء يوم القيـامـة، ويبين لكم الـدلائـل الـدالـة على أنـه قدير على كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم.

وجمهور المفســرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصــلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرهـا في الـذكر ليعـدد على بني إسرائيـل جنـايـاتهم وليشـــوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها؟ وأن يقال: وإذ قتلتم نفســاً فادارأتم فيها فقلنـا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضـــهـا؟ قلت: كل ما قص من قصــص بني إسرائيل إنما قص تعـديـداً لمـا وجـد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما حدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة وإلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصــة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكســه لكانت القصــة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما،

بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قولـه:{**اضربوه بِبَعْضِهَا**} حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيتـه، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة ".

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جمعهم في قولـه تعالى:{**وَإِذْ قَتَلْتُمْ**} مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضاً - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال.

وقولـه تعالى:{**فادارأتم فِيهَا**} بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التي ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها: اختلفتم وتخاصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أي يدفعه ويزحمه، أي تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره.

وقولـه تعالى:{**والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} معناه: والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذي قتلتموه، ثم تنازعتم في شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة:{**والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} معترضة بين قولـه تعالى:{**فادارأتم**} وبين قولـه تعالى:{**فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا**}. وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سنكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: " وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه، ليس أول قتيل طل دمه في الأمم - إكراماً لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه،

فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا ".

وقوله تعالى:{**فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا**} إرشاد لهم إلى الوسيلة التي عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقي، والضمير في قوله:{**اضربوه**} يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل.

وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى. وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة في قوله تعالى:{**كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى**} مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام.

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا في شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى في الآخرة للثواب والعقاب.

وبذلك تكون الآية ظاهرة في أن الذي ضرب ببعض البقرة قد صار حياً بعد موته.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله: فإن قيل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل: ليحيا فينبئ نبى الله والذين ادارؤوا فيه عن قاتله.

فإن قال: وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل: ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى:{**كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**}.

والمقصود بالآيات في قوله تعالى:{**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير والتي منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعض وميت، وأخباره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقي. وذلك لكي تستعملوا عقولكم في الخير. وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس واحدة، فهو قادر على إحياء الأنفس جميعاً لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء.

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى في تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإِحياء في قولـه تعالى:{**كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى**} حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به عنده الإِحياء الحقيقي بعد الموت.

فقد قال في تفسيره: وأما قولـه تعالى:{**فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى**} فهو بيان لإخراج ما يكتمون، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة. قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها، وقالوا: أنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال: قتلني أخي أو ابن فلان، الخ ما قالوه، والآية ليست أيضاً نصاً في مجملة فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية.

ومعنى إحياء الموتى على هذا: حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإِحياء على حد قولـه تعالى:{**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**} وقولـه تعالى:{**وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ**} فالإِحياء هنا معناه: الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين...

والذي نراه أن المراد بالإِحياء في قولـه تعالى:{**كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى**} الإِحياء الحقيقي للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتي:

أولا: مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " لما ضرب المقتول ببعضها - يعني ببعض البقرة - جلس حياً، فقيل لـه من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني ثم قبض.

ثانياً: ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالاً ولا تفصيلا، ولا تصريحاً ولا تلميحاً، لأن قولـه تعالى:{**كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى**} ظاهر كل الظهور، في أن المراد بالأحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر،

ولا توجد أيضـاً قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كـذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضـحة، ومن التعسـف الظاهر أن يراد من الموتى: الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريـع العقوبات صـوناً لدماء الأحيـاء منهم واللـه تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال:{**وَلَكُمْ فِي القصـاص حَيَاةٌ ياأولِي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجنة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

ثـالثاً: تفسـير الإِحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرـون، يودى إلى غرس الإِيمان بصحة البعث في القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإِحياء العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قـاتلـه - يحيى اللـه الموتى بـأن يبعثهم من قبورهم يوم القيـامـة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتاً للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر.

رابعاً: قولـــه تعالى بعد ذلك:{**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} قرينة قوية على أن المراد بالإِحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد بــــ{**آيَاتِهِ**} في هذا الموضـع، - كما قال المفسرـون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتي ليســت في طاقة البشرـ، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحســاب والجزاء.

ثم بين القرآن الكريم، بعـد ذلـك أن هذه المعجزات الباهرة التي تزلزل المشــاعر، وتهز القلوب، وتبعث في النفوس الإِيمان، لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل الصـلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم، فقال تعالى:{**ثُمَّ قَسَـتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَـدُّ قَسْـوَةً وَإِنَّ منَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّـقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**}.

والمعنى: ثم صـلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيت ما رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام عينكم، فهي كالحجارة في صـلابتها ويبوسـتها، بل هي أشـد صلابة منها، لأن من الحجرة ما فيه ثقوب متعددة، وخروق متسعة، فتتدفق منه مياه الأنهار

التي تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يا بني إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات، وما الله بغافل عما تعملون.

وقوله تعالى:{**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**} بيان لما طرأ على قلوب بني إسرائيل من بعد عن الاعتبار، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من المواثيق التي أقروا بها على أنفسهم وجيء (بثم) التي هي للترتيب والتراخي. لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بني إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات: فقست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا.

وقوله تعالى:{**بَعْدِ ذلك**} فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في الآيات السابقة.

واسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة.

و (أو) في قوله تعالى:{**فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**} قيل: للتنويع، فإن قلوبهم متفاوتة في القسوة، فمنها ما هو قاس كالحجارة، ومنها ما هو أشد منها قسوة، أي: فبعض قلوبكم كالحجارة في صلابتها وبعضها أشد من الحجارة في صلابتها.

وقيل: للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم، كأن يقول أحد الناس لآخر: إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها.

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة بل هي أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، والحجارة ليست كذلك.

وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة في القسوة، لأن صلابة الحجرة أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة. كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة ".

وقوله تعالى:{**وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله**} بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقاً واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة. ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتثال. أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس.

وقوله تعالى:{**وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**} تهديد وتخويف، حيث إنه - سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما هم أهله. من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت. وبالأيات مهما توالت.

ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر:

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك:

١- دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسـوء أدب مع مرشـيدهم، وإحفاء في الأسـئلة بلا موجب، وعدم اسـتعداد للتسـليم بما يأتيهم به الرسـل، ومما طلة في الانصـياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم.

٢- دلالتها على أن التنطع في الدين، والإلحاف في المسـألة يؤديان إلى التشـديد في الأحكـام، لأن بني إسرائيـل لو أنهم أول الأمر عمـدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

أخرج ابن جرير - رحمـه اللـه - عن ابن عبـاس - رضي اللـه عنهما - قـال: " لو أن القوم أخـذوا أدنى بقرة لأجزأهم لكنهم شـددوا فشـد اللـه عليهم ". وقـد أدى بهم هـذا التنطع والتشـديد إلى تضييق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التي يجب توافرها في البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مما طلتهم وبلادة عقولهم، وسـوء تلقيهم للشريـعة بأنواع من التقصـير عملا وشـكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما، وأن ما أمروا به بعـد ذلـك من كونهـا صـفراء سـالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم.

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهي عن كثرة السؤال قال تعالى:{**يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ عَفَا الله عَنْهَا والله غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَـأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْـبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ**}[١] وفي الحديث الشريـف: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سـؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم**» [٢].

قال صاحب المنار: " وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطرياً وحنيفياً سمحاً، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت ".

٣- قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وفي هذه القصة أنواع من العبر منها:

أ- أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم:{**إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**} قابلوا هذا الأمر بقولهم:{**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**} فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألو عنه قالوا:{**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**}. وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، فلما قال لهم:{**أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين**} وتيقنوا أن الله - تعالى - أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم:{**الآن جِئْتَ بالحق**} فإن أردوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله:{**إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**} فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال الإمام ابن جرير: " وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى:{**الآن جِئْتَ بالحق**} وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك،

وأن ذلـك كفر منهم، وليس الأمر كما قـال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم ".

ب- منها: الدلالة على صـحة ما اتفقت عليه الرسـل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ج- ومنهـا: إقـامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المنوعات، زيادة في هداية المهتدى، وأعذارا وإنذارا للضال.

د- ومنها: الإِخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإِيمان فيها.

قال عبد الصـمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: " إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق ".

هـ- ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصـده شرعاً وقدراً، فإن القاتل قصـد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسـه، ففضـحه الله - تعالى - وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

و- ومنهـا: أن بني إسرائيـل فتنوا بـالبقرة مرتين من سـائر الدواب ففتنوا بعبادة العجـل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل في البلادة.

ثم قـال الإِمام ابن القيم في ختام حديثه عن هذه القصـة: والظاهر أن هذه كانت بعد قصـة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسـقي، لا يصـلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله، وأنه إنما يصـلح للذبح والحرث والسقي والعمل ".

٤- دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسـم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإِحياء والإِماتة وما هذا الضرب

٥- إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التي لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول:{**فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**}.

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بني إسرائيل برذيلة التنطع في الدين، والتعنت في الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات. لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم{**ومن يُضْلِلِ الله فَمَا لَه مِنْ هَادٍ**} ثم ساق القرآن بعد ذلك لوناً آخر من ألوان رذائلهم. ويتمثل هذا اللون في تحريفهم للكلم عن مواضعه، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً، وذلك لقسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا [١].

* * * * *

المطلب الثانى:

التلاعب بالدين

{ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}(١).

أنت إذا تأملت فى هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة، هى تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثى العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أى عداء للنبى ﷺ بل إن الذى حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم فى الإسلام وجدوه دينا باطلا وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر في دين الإسلام.

ولا شك أن هذه الطريقة التى سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطانى، لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام، وبعد إظهارهم الإيمان به، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ويوقع ضعاف الإيمان فى حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب - فى مجموعهم - قوم أميون ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين. فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه.

والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا يرى أن الدهاة فى السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب فى صفوف أعدائه.

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله: " هذا النوع الذى تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر

وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه. وقد وفقه هذا، هرقل، ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى ﷺ أنه قال لـــه: " هل يرتد أحد من أتباع محمد ســخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو ســفيان: لا. وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيـه، واطلعوا على بواطنـه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنســـان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب ".

هذا، وقد روى المفسرـون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذى قررناه.

ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال فى قولـــه - تعالى:{**وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتـاب آمِنُواْ**}.. إلخ قال بعض أهل الكتاب لبعض: " أعطوهم الرضـــا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره فغنه أجدر أن يصـــدقوكم ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم ".

وعن السـدى: كان - هؤلاء - أحبار قرى عربية، اثنى عشرـ حبرا، فقالوا لبعضهم: ادخلوا فى دين محمد أول النهار، وقولوا: نشـهد أن محمدا حق صـادق. فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشـــكون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله ﷺ بذلك ".

والمعنى:{**وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب**} أى: فيما بينهم ليلبســـوا على الضـــعفاء أمر دينهم{**آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَجْهَ النهار**} أى قال بعضهم لبعض: نافقوا وأظهروا التصـديق بالإســلام ونبيه ﷺ وبما أنزل عليه وعلى أصـحابه من قرآن{**وَجْهَ النهار**} أى فى أول النهار.

وســـمى أول النهـار وجهـا، لأنـه أول مـا يواجهـك منـه، وأول وقت ظهوره ووضـــوحه. وقولـه:{**واكفروا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} معطوف على{**آمَنُواْ**}.

أى: آمنوا فى أول النهـار واكفروا فى آخره، بـأن تعودوا إلى اليهوديـة، أملا فى أن ينخـدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين، فيشكوا في دينهم، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام.

وقولـــه:{**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} كشـف عن مقصـدهم الخبيث، وهو ابتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل.

قال الفخر الرازي: " والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضـعهم على هذه الحيلة من وجوه:

الأول: أن هـذه الحيلـة كـانـت مخيفـة فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً.

الثـانى: أنـه - تعـالى - لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصـــل لهذه الحيلـة أثر فى قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان في إيمانه ضعف

الثالث: أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس ".

ثم حكى - ســبحانه - لونا من عصــبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال تعالى:{**وَلاَ تؤمنوا إلاَّ لمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله أن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ**}[(١)].

وقولـــه - سبحانه - حكاية عنهم:{**وَلاَ تؤمنوا**} معطوف على قولـــه - تعالى - فى الآية السابقة{**آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ**}.

وقد فسر بعضهم:{**وَلاَ تؤمنوا**} بمعنى ولا تقروا، أو ولا تعترفوا؛ فتكون اللام فى قولــه:{**إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**} أصلية.

وعليه يكون المعنى: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوا دينهم الإسلام، ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضا على سبيل المكر والخديعة: ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحداً من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل، أو بأن أحدا فى قدرته أن يحاججكم أى يبادلكم الحجة عند ربكم يوم القيامة، ولا تقروا ولا تعترفوا بشىء من ذلك " إلا لمن تبع دينكم " أى إلا لمن كان على ملتكم اليهودية دون غيرها.

فالمستثنى منه على هذا التفسير محذوف، والتقدير: ولا تؤمنوا أى تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحداً يحاججكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين أو غيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين.

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من الدين والفضائل عن طريق محمد ﷺ الذى أرسله الله رحمة للعالمين، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبى ﷺ ولأتباعه، قد تواصوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم، وصدق الله إذ يقول فى شأنهم:{**الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ**} وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال: " قوله:{**وَلاَ تؤمنوا**} بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا، فتكون اللام فى قوله:{**لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**} زائدة للتقوية.

فيصير المعنى على هذا الوجه: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذى كان عليه، ولا تصدقوا أن أحدا من البشر يؤتى مثل ما أوتيتم يا بنى إسرائيل من الكتاب والنبوة، أو أن أحدا في قدرته أن يحاججكم عند ربكم فأنتم الأعلون فى الدنيا والآخرة وأنتم الذين لا تخرج النبوة من بينكم إلى العرب،

مـا دام الأمر كـذلـك فلا تتبعوا إلا نبياً منكم يقرر شرائع التوراة، أما من جاء بتغيير شىء من أحكامها أو كان من غير بنى إسرائيل كمحمد ﷺ فلا تصدقوه.

فالمســتثنى منه على هذا الوجه هو قولـــــه: " أحد " المذكور في الآية، والمســتثنى هو قولـه:{**إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**}.

والتقدير: ولا تصــدقوا أن أحدا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاججكم عند ربكم{**إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**} أى إلا من كـان على ملتكم اليهودية، أما أن يكون من غيركم كهذا النبى العربى فلا يمكن أن يؤتى مثـل مـا أوتيتم من الكتـاب والنبوة، لأنهما - فى زعمهم - حكر على بنى إسرائيل.

فهم على هذا الوجه من التفسـير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتاباً وديناً وفضائل مثل ما أوتوا هم أى اليهود، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطماس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر.

وعلى كل من الوجهين يكون قولـــه تعالى:{**أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ**} حكاية من الله - تعالى - لما تواصى به بعض اليهود فيما بينهم من أقوال خبيثة، وأفكار ماكرة.

ويكون قولـــــه - تعالى:{**قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله**} كلاماً معترضاً بين أقوالهم ساقه الله - تعالى - للمسارعة بالرد على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ويزدادوا هم رجسا إلى رجسهم، وينكشف ما أضمروه وما بيتوه للمؤمنين من سوء وحقد.

أى قل لهم يا محمد: إن هداية الله - تعالى - ملك لـه وحده، وهو الذى يهبها لمن يشاء من عباده، فهى ليست حكراً على أحد، ولا أمرا مقصورا على قوم دون قوم، وإذا كانت النبوة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل، فالله - تعالى - قادر على أن يســـلبها منهم لأنهم لم يشـــكروه عليها وأن يجعلها فى محمد العربى ﷺ لأنه أهل لها وهو - ســـبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته.

هذا، ويرى بعض المفسريـن أن أقوال اليهود التى حكاها القرآن عنهم قد انتهت بنهاية قولـه - تعالى:{**وَلاَ تؤمنوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**}. وأما قولـه - تعالى:{**قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله أن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ**} فهو من كلام الله - تعالى - وقد ساقه - سبحانه - للرد عليهم.

فيكون المعنى عليه: أن بعض اليهود قد قال لبعض: أظهروا إسـلامكم أول النهار واكفروا آخره لعل بعض المسـلمين يرجع عن دينه بسـبب فعلكم هذا، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم هذا سرا لـه أثره فى بلبلة أفكار المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام.

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ بالرد عليهم وبالكشـف عن مكرهم فيقول: قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله، أى إن هداية الله ملك لـه وحده فهو الذى يهدى من يشـاء وهو الذى يضـل من يشـاء، وقد هدانا - سـبحانه - إلى الإسـلام وارتضـيناه دينا لنا ولن نرجع عنه.

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم: أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتـاب والنبوة: أو مخـافة أن يحاججكم المسـلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بـالحق وأنتم كفرتم بـه، أمخـافـة ذلـك دبرتم مـا دبرتم من هـذه الأقوال السـيئة والأفعال الخبيثـة؟ لا شـك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السـيىء إلا الحسـد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضـل منهم لأنكم - كما تـدعون - أبنـاء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه.

و قولـه - تعالى:{**أن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ**} من كلام الله - تعـالى - فقد قرا ابن كثير:{**أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَـاطِيرُ الأولين**}. والمعنى أمن أجـل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشر‍ـائع تنكرون اتباعه، ثم حذف الجواب للاختصار، وهذا الحذف كثير.

يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه. وبعد كثرة إحسانه إليه: أمن قلة إحسانى إليك؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ".

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد عليهم مرة ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فقال:{**قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ**} أى قل لهم يا محمد: إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده - هذا الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى - وحده، وهو - سبحانه - المتفضل به على من يشاء التفضل عليه من عباده، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة فى بنى إسرائيل لفترة من الزمان، فذلك بفضل منه وبرحمته، وإذا كان قد سلبها عنهم لأنهم لم يرعوها حق رعايتها وجعلها فى هذا النبى العربى فذلك - أيضا - بفضله ورحمته، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته، وهو - سبحانه - صاحب الاختيار المطلق في أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده. وهو - سبحانه:{**وَاسِعٌ**} الرحمة والفضل{**عَلِيمٌ**} بمن يستحقها وبمن لا يستحقها.

ثم قال - تعالى:{**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ**} أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده.

وقوله:{**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**} أى هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة التى أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين، وفى هذا الكشف تنبيه للمسلمين إلى ما يبيته لهم هؤلاء الأعداء من شرور وآثام حتى يحذروهم [1].

ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة، وأقاويلهم الكاذبة، وهو دعواهم أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، أى أن كل من كان على غير ملتهم فإنه مهدور الحقوق، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم ويثبت أنهم ليسوا أهلا لاختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى:{**وَمِنْ أَهْلِ..**}.

* * * * *

المطلب الثالث:

ادعاء النجاة في الآخرة

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (١).

قال الإمام ابن كثير(٢): روى جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله - تعالى - وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى؛ فأنزل الله - تعالى - فيهم.

{وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ}.. الآية.

وقوله - تعالى: **{وَقَالَتِ اليهود والنصارى}** حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ودعاوي باطلة، يدل على سفاهة عقولهم، وبلادة تفكيرهم، حيث قالوا في حق الله - تعالى - ما لا يليق بعظمته - سبحانه.

قال الآلوسي(٣): ما ملخصه: " ومرادهم بالأبناء: المقربون. أي نحن مقربون عند الله - تعالى - قرب الأولاد من والدهم. ومن مرادهم بالأحباء: جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب.

ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة، كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قالوا أنهم أشياع وأتباع من وصف بالبنوة. أي قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزير. وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه عيسى. وأطلق الأبناء على الأشياع مجازاً إما تغليباً أو تشبيهاً لهم بالأبناء في قرب المنزلة. وهذا كما يقول أتباع الملك: نحن الملوك.

وقيل الكلام على حذف المضاف. أي: نحن أبناء أنبياء الله - تعالى - وهو خلاف الظاهر.

ومقصود الفريقين بقوله - تعالى - حكاية عنهم: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ}** هو المعنى المتضمن مدحا، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا ومزية عند الله - تعالى - على سائر الخلق.

والمعنى: وقالت طائفة اليهود التي تزعم أنها شعب الله المختار، وقالت طائفة النصارى التي تزعم أنها على الحق دون غيرهم قالت كل طائفة منهما: نحن في القرب من الله - تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين، وأحبائه المختارين، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر.

والذي حملهم على هذا القول الباطل، جهلهم بما اشتلمت عليه كتبهم، وتخبطهم في الكفر والضلال وفهمهم السقيم لمعاني الألفاظ.

قال ابن كثير [1]: " ونقلوا عن كتبهم أن الله - تعالى - قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري. فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم. وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام. كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى - عليه السلام - وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا:{**نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ**}.

وعطف - سبحانه - قولهم:{**وَأَحِبَّاؤُهُ**} على قولهم:{**نَحْنُ أَبْنَاءُ الله**} للإشارة إلى غلوهم في الجهل والغرور، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون وليسوا مغضوبا عليهم من أبيهم بل هم محل رضاه وإكرامه.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يكتبهم فقال:{**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**}.

والفاء في قوله:{**فَلِمَ يُعَذِّبُكُم**} للإفصاح، لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر أي: قل يا محمد لهؤلاء المغرورين، إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه فلأي شيء يعذبكم إذ الحبيب لا يعذب حبيبه.

وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم، فقد عذبكم - سبحانه - في الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسخ وتهييج العداوة والبغضاء بينكم إلى يوم القيامة.

أما في الآخرة فإن كتبكم التي بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون في الآخرة على ما تقترفون من آثام في دنياكم.

وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم - في زعمهم - أياما معدودات في الآخرة وحكى القرآن عنهم ذلك في قوله - تعالى: **{قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ}** وأقر النصارى بأن الله - تعالى - سيحاسب الناس يوم القيامة، وسيجازي كل إنسان على حسب عمله إن خيرا فخير، وإن شراً فشر.

قال القرطبي[1]: " رد الله عليهم قولهم فقال:**{فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم}** فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين، إما إن يقولوا هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذا أبناءه ولا أحباءه فإن الحبيب لا يعذب حبيبه. وأنتم تقرون بعذابه، فذلك دليل على كذبكم - وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف - أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم. ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم وقوله:**{بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}** رد على أصل دعواهم الباطلة، وبيان لما هو الحق من أمرهم وهو معطوف على كلام مقدر.

أي: ليس الأمر كما زعمتم يا معشر اليهود والنصارى من أنكم أبناء الله وأحباؤه، بل الحق أنكم كسائر البشر من خلق الله. فإنكم إن آمنتم وأصلحتم أعمالكم نلتم الثواب من الله، وإن بقيتم على كفركم وغروركم حق عليكم العقاب، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.

قال أبو حيان قوله:**{بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}** إضراب عن الاستدلال من غير إبطال له إلى استدلال آخر من ثبوت كونهم بشرا من بعض خلقه، فهم مساوون لغيرهم في البشرية والحدوث، وهما يمنعان البنوة، فإن القديم لا يلد بشرا، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوجهين البنوة. وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله، فبطل الوصفان اللذان ادعوهما.

وقولـــه - سـبحانه:{**يَغْفِرُ لِمَن يَشَـآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَـآءُ**} بيان لعموم قدرته، وشـمول إرادته.

أي أنه - سـبحانه - يغفر لمن يشـاء أن يغفر لـــه من خلقه، وهم المؤمنون به وبرسله، ويعذب من يشـاء أن يعذبه منهم، وهم المنحرفون عن طريق الحق والهدى، لا راد لقضـائه، ولا معقب لحكمه.

وقولـــه:{**وَللَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المصير**} تذييل قصد به تأكيد ما قبله من عموم قدرته، وشمول إرادته وهيمنته على سائر خلقه.

أي: والله - تعالى - وحده ملك جميع الموجودات وهو صـــاحب التصرــف المطلق فيها، إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وإليه وحده مصير الخلق يوم القيامة فيجازيهم على ما عملوا من خير أو شر. قـال - تعـالى:{**فَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**}(1) وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت حجة اليهود والنصـارى الذين زعموا أنهم{**أَبْنَاءَ الله وَأَحِبَّاؤُهُ**} وأثبتت بالمنطق الواضــح أنهم كذابون فيما يدعون؛ وأنه لا فضـــل لأحد على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.

وبعد أن بين - ســبحانه - فســاد أقوال أهل الكتاب وبطلان عقائدهم، ورد عليهم بما لا يـدع للعـاقل متمســكا بتلك الضـــلالات. أتبع ذلك بتوجيه نداء آخر إليهم تكريرا لوعظهم، وتحريضاً لهم على اتباع الحق.

* * * * *

المطلب الرابع:

موالاة غير المؤمنين

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} [1].

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات منها:

ما رواه السدي من أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد واقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأواليه وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث. وقال الآخر: وأما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأواليه وأنتصر معه. فأنزل الله تعالى الآيات.

وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حيث بعثه رسول الله ﷺ: إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح.

وقيل نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول فقد أخرج ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم. وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أُبي: يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه قال: قد قبلت. فأنزل الله تعالى:{ **ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ**...} إلى قوله:{**نَادِمِينَ**}.

والخطاب في قولـــــه عز وجل:{**ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصــارى أَوْلِيَآءَ**} للمؤمنين جميعا في كل زمان ومكان، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الأولياء جمع ولي ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبيب.

والمراد بالولاية هنا: مصــافاة أعداء الإِســلام والاســتنصــار بهم، والتحالف معهم دون المسلمين.

أي: يـا أيهـا الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورســله واليوم الآخر.، لا يتخذ أحد منكم أحدا من اليهود والنصـارى وليا ونصـيرا، أي: لا تصافوهم مصافاة الأحباب، ولا تستنصروا بهم، فـإنهم جميعـا يـد واحدة عليكم، يبغونكم الغوائل، ويتربصــون بكم الدوائر، فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟

وقد نادى - ســبحانه - المؤمنين بصــفة الإِيمان، لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه، إذ أن وصـفهم بما هو ضـد صـفات الفريقين - اليهود والنصارى - من أقوى الزواجر عن موالاتهما:

وقولــــه:{**بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**} جملة مسـتأنفة بمثابة التعليل للنهي، والتأكيد لوجوب اجتناب المنهي عنه.

أي لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصـارى أولياء، لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم، وبعض النصـارى أولياء لبعض منهم، والكل يضـمرون لكم البغضـاء والشر، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على كراهية الإِسلام والمسلمين.

وقولـه:{**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**} تنفير من موالاة اليهود والنصارى بعد النهي عن ذلك.

والولاية لليهود والنصـارى إن كانت على سـبيل الرضـا بدينهم، والطعن في دين الإِسـلام، كانت كفرا وخروجا عن دين الإِسلام.

وإلى هذا المعنى أشار ابن جرير بقولـه: قولـه:{**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**} أي: ومن يتول اليهود والنصـارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه راض. وإذا رضى دينه، فقد عادى من خالفه وسخطه. وصار حكمه حكمه ".

وإذا كانت الولاية لهم ليست على سبيل الرضا بدينهم وإنما هي على سبيل المصافاة والمصادقة كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة.

قال الفخر الرازي: قولـه:{**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**} قال ابن عباس: يريد كأنه مثلهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين.

روى عن أبي موسى الأشعري أنـه قال: قلت لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إن لي كاتبا نصرانيا فقال: مالك قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفيا؟ أما سمعت قول الله تعالى:{**ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ**} قلت: لـه دينه ولي كتابته. فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله. ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال: مات النصراني والسلام.

يعني: هب أنه مات فما تصنع بعد، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره.

وقولـه:{**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ**} تعليل لكون من يواليهم منهم وتأكيد للنهي عن موالاتهم.

أي: إن الله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم إلى الطريق المستقيم، وإنما يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلال، والفسوق والعصيان، بسبب وضعهم الولاية في غير موضعها الحق، وسيرهم في طريق أعداء الله.

وبعد هذا النهي الشديد عن موالاة أعداء الله، صور القرآن حالة من حالات المنافقين بين فيها كيفية توليهم لأعداء الله، فقال:{**فَتَرَى الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نخشى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ**}.

والدائرة: من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها. وأصلها داورة. لأنها من دار يدور. ومعناها لغة: ما أحاط بالشيء. والمراد بها هنا: المصيبة من مصائب الدهر التي تحيط بالناس كما تحيط الدائرة بما في داخلها.

والمعنى: فترى - يا محمد أولئك المنافقين الذين ضعف إيمانهم، وذهب يقينهم، يسارعون في مناصرة أعداء الإسلام مسارعة في الداخل في الشيء، قائلين في أنفسهم أو للناصحين لهم بالثبات على الحق: اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التي تدور بها الزمان كأن تمسنا أزمة مالية، أو ضائقة اقتصادية، أو أن يكون النصر في النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافيهم لنتقي شرهم، ولننال عونهم عند الملمات والضوائق.

وقوله:{**يَقُولُونَ نخشى أن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ**} حال من ضمير يسارعون.

والتعبير بقوله:{**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**} تعبير قوي رائع، وصف القرآن به المنافقين وأشباههم في الكفر والضلال في مواطن كثيرة، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك.

كان ضعف القلب الذي عبر عنه بالمرض يضرب مثلا للخور، والتردد والتزلزل، وانهيار النفس.

وهذه طبيعة المنافقين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان. إنهم لا يمكن أن يكونوا صرحاء في انحيازهم إلى ناحية معينة. وإنما هم يترددون بين الناحيتين، ويلتمسون الحظوة في الجانبين - فهم كما يقال: يصلون خلف على ويأكلون على مائدة معاوية - وأبلغ من كل ذلك وصف الله لهم بقوله:

{**مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء**} والتعبير بقوله - سبحانه - ترى.. تصوير للحال الواقعة منهم بأنها كالمرئية المكشوفة التي لا تخفى على العقلاء البصراء.

وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتحذير له ولأصحابه من مكر أولئك الذين في قلوبهم مرض.

والتعبير بقوله:{**يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**} يشير إلى أنهم لا يدخلون ابتداء في صفوف الأعداء " وإنما هم منغمرون فيهم دائما " ولا يخرجون عن دائرتهم بل ينتقلون في صفوفهم بسرعة ونشاط من دركة إلى دركة، ومن إثم إلى آثام.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم:{ **يَقُولُونَ نخشى أن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ**} بيان لما اعتذروا به من معاذير كاذبة تدل على سقوط همتهم، وقلة ثقتهم بما وعد الله به المؤمنين من حسن العاقبة.

ولذا فقد رد الله عليهم بما يكذبهم، وبما يزيدالمؤمنين إيمانا على إيمانهم فقال تعالى:{ **فَعَسَى الله أن يَأْتِيَ بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ على مَآ أَسَرُّواْ في أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**}.

وعسى: لفظ يدل على الرجاء والطمع في الحصول على المأمول، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع لأنه صادر من أكرم الأكرمين الذي لا يخلف وعده، ولا يخيب من رجاه.

والفتح يطلق بمعنى التوسعة بعد الضيق كما في قوله:{**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء**} ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل. ومن ذلك قوله - تعالى: {**رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق**} ويطلق بمعنى الظفر والنصر كما في قوله - تعالى: {**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**} ولفظ الفتح هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة فهو سعة بعد ضيق، وفصل بين حق وباطل، ونصر بعد جهاد طويل.

والمعنى: لا تهتموا أيها المؤمنون بمسارعة هؤلاء الذين في قلوبهم مرض إلى صفوف أعدائكم وارتمائهم في أحضانهم خشية أن تصيبهم دائرة، فلعل الله - عز وجل - بفضله وصدق وعده أن يأتي بالخير العميم والنصر

المؤزر الذي يظهر دينه. ويجعل كلمته هي العليا... أو يأتي بأمر من عنده لا أثر لكم فيه فيزلزل قلوب أعدائكم، وينصركم عليهم، ويجعل الهزيمة والندم للموالين لأعدائكم، وبسبب شكهم في أن تكون العاقبة للإسلام والمسلمين.

ولقد صدق الله وعده، ففضح المنافقين وأذلهم، وأنزل الهزيمة باليهود، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم.

وقد جاء التعبير في قوله - تعالى: {**فَعَسَى الله أن يَأْتِيَ بالفتح**} بصيغة الرجاء، لتعليم المؤمنين عدم اليأس من رحمة الله، ومن مجيء نصره، ولتعويدهم على أن يتوجهوا إليه - سبحانه - في مطالبهم بالرجاء الصادق، والأمل الخالص.

قال الفخر الرازي: فإن قيل: شرط صحة التقسيم أن يكون ذلك بين قسمين متنافيين.

وقوله:{ **فَعَسَى الله أن يَأْتِيَ بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**} ليس كذلك، لأن الإتيان بالفتح داخل في قوله:{**أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**}.

قلنا: قوله:{**أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**} معناه: أو أمر من عنده لا يكون للناس فيه فعل ألبتة، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر.

والضمير في قوله:{**فَيُصْبِحُواْ**} يعود على أولئك المنافقين الذين في قلوبهم مرض والجملة معطوفة على{**أن يَأْتِيَ**} داخل معه في حيز خبر عسى.

وعبر - سبحانه - عن ندمهم بالوصف{**نَادِمِينَ**} لا بالفعل، للإيذان بأنه ندم دائم تصحبه الحسرات والآلام المستمرة، بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد، وأمل خائب.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المؤمنون الصادقون على سبيل الإنكار لمسالك المنافقين الخبيثة وتوبيخهم على ضعف إيمانهم، وهوان نفوسهم فقال - تعالى:{ **وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ أهؤلاء الذين أَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ**}.

قال الآلوسي: قوله:{**وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ**} كلام مستأنف لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة: - وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي بإثبات الواو مع الرفع.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر بغير واو على أنه استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب: ويقول بالنصب عطفا على{**فَيُصْبِحُواْ**}.

وقوله:{**جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**} أي: أقوى أيمانهم وأغلظها. والجهد: الوسع والطاقة والمشقة.

يقال: جهد نفسه يجهدها في الأمر إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه. والمراد: أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق.

والمعنى: ويقول الذين آمنوا بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر عن المنافقين من خداع وكذب، ومتعجبين من ذبذبتهم والتوائهم: يقولون مشيرين إلى المنافقين: أهؤلاء الذين أقسموا بالله مؤكدين إيمانهم بأقوى المؤكدات وأوثقها، بأن يكونوا مع الرسول ﷺ ومعنا في ولايتهم ونصرتهم ومعونتهم.

وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر في معنى ويقول الذين آمنوا فقال: فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجبا من حالهم، واغتباطا بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص{**أهؤلاء الذين أَقْسَمُواْ**} لكم بأغلظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار.

وإما أن يقولوه لليهود، لأنهم - أي المنافقون - حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة كما حكى الله عنهم:{**وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ**} ثم خذلوهم:

وعلى كلا الوجهين فالجملة الكريمة تنعى على المنافقين كذبهم وجبنهم، وتعجب الناس من طباعهم الذميمة، وأخلاقهم المرذولة.

وقولـــه:{**حَبِطَـتْ أَعْمَالُهُــمْ فَأَصْـبَحُواْ خَـاسِرِينَ**} أي: فسـدت أعمالهـم وبطلـت فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة.

ويحتمـل أن تكـون هـذه الجملـة مـما حكـاه اللـه - تعـالى - مـن قـول المـؤمنين ويحتمـل أنهـا مـن كـلام اللـه - تعـالى - وقـد سـاقها عـلى سـبيل الحكـم علـيهم بفسـاد أعمالهم، وسوء مصيرهم.

هذا، وقـد اشـتملت هـذه الآيـات الكريمـة عـلى ضروب مـن توكيـد النهـي عـن مـوالاة أعداء الله - تعالى - بأساليب متعددة.

منها: النهي الصريح كما في قولـه - تعالى:{**لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ**}.

ومنها: بيان علة النهي كما في قولـه:{**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**}.

ومنهـا: التصريـح بـأن مـن يـواليهم فهـو مـنهم وذلـك في قولـه:{**وَمَـن يَتَـوَلَّهُمْ مِّـنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**}.

ومنهـا: تسـجيل الظلـم عـلى مـن يـواليهم كـما في قولـه:{**إِنَّ اللـه لاَ يَهْـدِي القـوم الظالمين**}.

ومنهــا: الإخبــار بــأن مــوالاتهم مــن طبيعــة الــذين في قلــوبهم مــرض قــال - تعالى:{**فَتَرَى الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**}.

ومنهـا: قطـع أطـماع المـوالين لهـم وتبشـير المـؤمنين بـالفوز قـال - تعـالى:{**فَعَسَى اللـه أَن يَأْتِيَ بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**}.

ومنهــا: الإخبــار عــن حــال المــوالين لهــم بقولــه:{**حَبِطَــتْ أَعْمَالُهُــمْ فَأَصْــبَحُواْ خَاسِرِينَ**}.

وهنـا قـد يـرد سـؤال وهـو: إن الآيـات الكريمـة ومـا يشـبهها مـن الآيـات القرآنيـة تؤكد النهي عن موالاة غير المسلمين ومودتهم فهل هذا النهي على إطلاقه؟

والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة:

القسم الأول: وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم؛ ولم يبدر منهم ما يفضي- إلى سوء الظن بهم وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا مانع من مودتهم والإحسان إليهم كما في قوله - تعالى: {**لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين**}[1].

والقسم الثاني: وهم الذين يقاتلون المسلمين، ويسيئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم، ولا تجوز موالاتهم، وهم الذين عناهم الله في الآيات التي معنا وفيما يشبهها من آيات كما في قوله - تعالى:{**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ على إِخْرَاجِكُمْ أن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فأولئك هُمُ الظالمون**}[2].

والقسم الثالث: قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدي.

ومهما تكن أحوال غير المسلمين؛ فإنه لا يجوز لولي الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية. أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التي يؤدي إفشاؤها إلى خسارة الأمة في السلم أو الحرب.

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم، وبين لهم فيه أن موالاة أعداء الله

قد تجر إلى الارتداد عن الدين، وأنهم إن ارتدوا فسوف يأتي الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم، وإن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولا يتهم لله ولرسوله وللمؤمنين[1].

* * * * *

المبحث الثاني: المحرمات فى شريعتنا وشريعة اليهود

المطلب الأول:

المقارنه بين المحرمات فى شريعتنا وبين شريعة اليهود

{ قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[1].

{**قُلْ**} يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما{**لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ**}.

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى من القرآن طعاما محرما على أكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى رداً على قولهم:{**مُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا**} والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم.

و{**مُحَرّماً**} صفة لموصوف محذوف، أى: شيئاً محرماً، أو طعاماً محرماً، وهو المفعول الأول لأجد، أما المفعول الثانى فهو:{**فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ**} قدم للاهتمام به.

وقوله:{**يَطْعَمُهُ**} فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعا للمجاز كما فى قوله:{**وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**} ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال:{**إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ**}.

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئاً محرما من المطاعم إلا أن يكون هذا الشىء أو ذلك الطعام{**مَيْتَةً**} أى: بهيمة ماتت حتف أنفها.

{**أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً**} أى: دما مصبوبا سائلا كالدم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه، لا الدم الجامد كالكبد والطحال، والسفح: الصب والسيلان.

{**أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ**} أى اللحم لأنه المحدث عنه، أو الخنزير لأنه الأقرب أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير.

{**رِجْسٌ**} أى: قذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان{**أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ**} أى: خروجا عن الدين، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاعون أو نحو ذلك.

والإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا.

وإنما سمى{**مَاأُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ**} فسقا، لتوغله فى باب الفسق، والخروج عن الشريعة الصحيحة، ومنه قوله - تعالى:{**وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**}.

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال:{**فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ**}.

أى: فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغ فى أكله، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره. أو غير طالب له للذته، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر.

أو حالة كونه - أيضاً - غير عاد فيما يأكل، أى: غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال.

وباغ: مأخوذ من البغاء وهو الطلب تقول: بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى: طلبته.

وعاد: اسم فاعل بمعنى متعد، تقول: فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى:{**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**} وقوله:{**فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} أى: فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين، ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم، وإنما هو رؤوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

والجملـة الكريمـة جواب الشرـط بـاعتبار لازم المعنى وهو عدم المؤاخذة. وقيل جواب الشرط محذوف: أى فمن اضطر، فلا مؤاخذة عليه وهذه الجملة تعليل لـه.

هذا، والآية الكريمة ليس المقصـود منها حصرـ المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصـود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها.

قال ابن كثير: الغرض من سـياق هذه الآية الرد على المشرـكين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسـهم بآرائهم الفاسـدة من البحيرة والسـائبة والوصـيلة والحام ونحو ذلـك. فأمر - تعالى - رســوله أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مســكوت عنه. فكيف تزعمون أنـه حرام؟! ومن أين حرمتموه ولم يحرمـه الله - تعالى؟! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشــياء أخر فيما بعد هذا. كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السـباع وكل ذى مخلب من الطير ".

وقال القرطبى: والآية مكية، ولم يكن فى الشرـيعة فى ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلـت ســورة المـائدة بالمدينة وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك، وحرم رســول الله ﷺ بالمدينة أكل كل ذى ناب من الســباع وكل ذى مخلب من الطير، وقد اختلف العلماء فى حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال:

الأول: ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء فى الكتاب مضــموم إليها، فهو زيادة حكم من الله على لســان نبيه. على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر ".

والخلاصــة: أن الآية الكريمة ليس المقصــود منها حصرــ المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصـود منها الرد على مزاعم المشركين، وذلك أن الكفار. كما قال الإمام الشافعى - لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه الله وكانوا على المضـادة والمحادة جاءت الآية مناقضـة لغرضهم، فكأنه قال - سبحانه - لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة.

فتقول: لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا للنفى والإثبات على الحقيقة.

فهو - تعالى - لم يقصد ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

قال إمام الحرمين: وهذا فى غاية الحسن، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك - رضى الله عنه - فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ".

وفى حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطها العلماء فارجع إليها إذا شئت.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى:{**وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**}.

فقوله - تعالى:{**وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا**} بيان لما حرمه الله - تعالى - على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم، وفى هذا البيان رد على اليهود، وتكذيب لهم، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئاً، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التى كانت حلالا لهم - بسبب فسقهم وطغيانهم.

والمراد بقوله تعالى:{**كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**} ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، كالإبل والنعام والإوز والبط، كما روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة.

قال الإمام الرازى: قوله - تعالى:{**وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**} يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين:

الأول: أن قوله - تعالى:{**وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا**} كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة، لتقدم المعمول على عامله.

الثانى: أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل لم يبق لقوله:{**وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا**} فائدة.

ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من غير ذوى الظفر فقال - تعالى:{**وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايآ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ**}.

والشحم: هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها يكون لحمه سمينا والعرب تسمى سنام البعير، وبياض البطن شحماً، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان.

والحوايا: - كما قال ابن جرير - جمع حاوياء وحاوية، وحوية هى ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وفسرت بالمباعر، والمرابض التى هي مجتمع الأمعاء فى البطن.

والمعنى: كما حرمنا على اليهود كل ذى ظفر، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة، إلا ما استثنيناه من هذه الشحوم وهو ما حملت ظهورهما أو ما حملت حواياهما، أو اختلط من هذه الشحوم بعظمهما. فقد أحللناه لهم.

ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم فقال تعالى:{**ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ**} أى: هذا الذى حرمناه على الذين هادوا من الأنعام والطير ومن البقر والغنم، وهذا التضييق الذى حكمنا به عليهم، إنما ألزمناهم به، بسبب بغيهم وظلمهم، وتعديهم حدود الله تعالى.

قال قتادة: إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديداً عليهم.

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود، من الأنباء التى لم يكن النبى ﷺ وقومه يعلمون عنها شيئاً لأميتهم، وكان تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم، لما كان الأمر كذلك، أكد الله هذا النبأ بقوله:{**وِإِنَّا لَصَادِقُونَ**}. أى: وإنا لصادقون - يا محمد - فيما أخبرناك به، ومن بينه ما أعلمناك عنه مما حرمناه على اليهود من الطيبات وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه.

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم، فإنهم تحايلوا على شرع الله، وأخذوا يذيبونها ويستعملونها فى شؤونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها، ولقد لعنهم النبى ﷺ بسبب هذا التحايل فى أحاديث متعددة.

من ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رســول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام، فرفع بصره إلى السـماء وقال: «**لعن الله اليهود - ثلاثا - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها وإن الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه**»[١].

وعن جابر بن عبد الله قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول عام الفتح: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» فقيل: يا رسـول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس، فقال: «**لا. هو حرام**» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قاتل الله اليهود**»، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها. أى: أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها "[٢].

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان، فقال - تعالى:{**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين**} أى: فإن كذبوك - يا محمد - هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين، فيما أخبرناك عنه من أنا حرمنا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم، فقل لهم: إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقاً ورحمته وسعت كل شىء، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستمرين على اقتراف المنكرات، وارتكاب السيئات.

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران، حتى يعودوا إلى طريق الحق. إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى، ويعتبر بالموعظة[٣].

* * * * *

الفصل الثالث: في أحكام المعاملات

المبحث الأول: نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود وتخريب المساجد:

المطلب الأول:

تناقضات اليهود وأكاذيبهم

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١].

قوله:{**أَفَتَطْمَعُونَ**} هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ{**يُؤْمِنُواْ لَكُمْ**} أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب، أي: أتطمعون أن يستجيبوا لكم و{**كَلاَمَ الله**} أي: التوراة. وقيل: إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش:{**كلم الله**}. والمراد من التحريف: أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال: أي: ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتدون بهم، متبعون سبيلهم.

ومعنى قولـــه:{**مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**} أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وأبين لضلالهم.

{**وَإِذَا لَقُواْ الـذين ءامَنُواْ**} يعني أن المنـافقين إذا لقوا الـذين آمنوا:{**قَـالُواْ ءامَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**} أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم:{**أَتُحَدّثُونَهُم بِمَـا فَتَحَ اللـه عَلَيْكُمْ**} أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناســاً من اليهود أســلموا، ثم نـافقوا، فكـانوا يحـدثون المؤمنين من العرب بما عذّب به آباؤهم، وقيل إن المراد: ما فتح الله عليهم في التوراة من صــفـة محمد ﷺ، وقد تقدم معنى خلا. والفتح عند العرب: القضــاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلغة اليمن. والفتح: النصر، ومن ذلك قولــه تعالى:{**يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ**}[1].

وقولـه:{**إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح**}[2] ومن الأوّل:{**ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق**}[3].

{**وأنت خير الفاتحين**}[4] أي: الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين، والمحاجة: إبراز الحجـة، أي: لا تخبروهم بمـا حكم اللـه بـه عليكم من العـذاب، فيكون ذلـك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على اللـه منكم، وأحق بـالخير منـه. والحجـة، الكلام المســتقيم، وحـاججـت فلانـاً، فحججتـه أي غلبته بالحجة.{**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**} ما فيه الضرــر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم. ثم وبخهم الله سبحانه:{**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**} من جميع أنواع الإسرار وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وروى ابن جرير عن مجـاهد، أن ســبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ قام لقوم قريظة تحـت حصــونهم فقال: «**يا إخوان القردة، والخنازير، ويا عبدة الطاغوت**» فقالوا: من أخبر هـذا الأمر محمـداً؟ مـا خرج هـذا الأمر إلا منكم:{**أَتُحَـدّثُونَهُم بِمَـا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ**}» أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم.

واخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قولـــه:{**أولا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**} يعني من كفرهم بمحمد ﷺ، ولكذبهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمناً.

ومعنى:{**لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ**} أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأماني التي يتمنونها، ويعللون بها أنفسهم. والأمانيّ: جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرؤون المكتوب. والاستثناء منقطع، أي: لكن الأمانيّ ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدّعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم. وقيل الأمانيّ: الأكاذيب، كما سيأتي عن ابن عباس. ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت، حكاه عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأماني: التلاوة، ومنه قولـــه تعالى:{**إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ**}(1)

أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتابَ اللهِ أوّلَ ليلةٍ ::: وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر:

تمنّى كتابَ الله آخِرَ ليلةٍ ::: تَمَنِّي داودَ الزَبورَ على رِسلَ

وقيل الأماني: التقدير. قال الجوهري: يقال: مني له، أي قدّر، ومنه قول الشاعر:

لا تأمنَنّ وإن أمسيتَ في حَرم ::: حتى تُلاقي ما يَمني لك الماني

أي: يقدر لك المقدر. قال في الكشاف: " والاشتقاق من مَنّي إذا قدّر؛ لأن المتمني يقدر في نفسه، ويجوّز ما يتمناه، وكذلك المختلق، والقارئ يقدران كلمة كذا بعد كذا ". انتهى. و«إن» في قوله:{**وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**} نافية، أي: ما هم. والظن هو: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم. كذا في القاموس

. أي: مـا هم إلا يترددون بغير جزم، ولا يقين، وقيل الظن هنا بمعنى: الكذب. وقيل: هو: مجرد الحدس، لما ذكر الله سـبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرّفون كلام الله من بعـد مـا عقلوه، وهم يعلمون، ذكر أهـل الجهـل منهم بـأنهم يتكلمون على الأمـاني، ويعتمدون على الظن، الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره، ولا يظفرون بسواه [١].

وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسـلمين، كيف تسـألون أهـل الكتـاب عن شيء، وكتـابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضًـا لم يشب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الـ كتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشـتروا به ثمنًا قليلا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم[٢].

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقولـه تعـالى:{**فَوَيْـلٌ لَهُـمْ مِـمَّا كَتَبَـتْ أَيْـدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُـمْ مِـمَّا يَكْسِـبُونَ**} أي: فويـل لهـم مـما كتبـوا بأيـديهم مـن الكـذب والبهتـان، والافـتراء، وويـل لهـم مـما أكلـوا بـه مـن السـحت، كـما قـال الضحاك عـن ابـن عبـاس:{**فَوَيْـلٌ لَهُـمْ**} يقـول: فالعـذاب علـيهم، مـن الـذي كتبـوا بأيـديهم مـن ذلـك الكـذب،{**وَوَيْـلٌ لَهُـمْ مِـمَّا يَكْسِـبُونَ**} يقـول: مـما يـأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

{ **وَقَـالُوا لَنْ تَمَسَّـنَـا النَّـارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**}.

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسـهم، من أنهم لن تمسـهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقولـه:{**قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا**} أي: بـذلـك؟ فـإن كـان قـد وقع عهـد فهو لا يُخْلِف عهـده. ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ"أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

و عـن ابـن عبـاس: أن اليهـود كـانوا يقولـون: هـذه الـدنيا سـبعة آلاف سـنة، وإنمـا نُعَـذَّب بكـل ألـف سـنة يومًـا في النـار، وإنمـا هـي سـبعة أيـام معـدودة. فـأنزل اللـه تعـالى:{ **وَقَـالُوا لَـنْ تَمَسَّـنَا النَّـارُ إِلا أَيَّامًـا مَعْـدُودَةً** } إلى قولـه:{ **خَالِـدُونَ** } [1].{ **بَـلَى مَـنْ كَسَـبَ سَـيِّئَةً وَأَحَاطَـتْ بِـهِ خَطِيئَتُـهُ فَأُولَئِـكَ أَصْـحَابُ النَّـارِ هُـمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** }.

يقـول تعـالى: لـيس الأمـر كـما تمنيـتم، ولا كـما تشـتهون، بـل الأمـر: أنـه مـن عمـل سـيئة وأحاطـت بـه خطيئتـه، وهـو مـن وافى يـوم القيامـة ولـيس لـه حسـنة، بـل جميـع عملـه سـيئات، فهـذا مـن أهـل النـار، والـذين آمنـوا باللـه ورسـوله، وعملـوا الصـالحات - مـن العمـل الموافـق للشريـعة - فهـم، مـن أهـل الجنـة. وهـذا المقـام شـبيه بقولـه تعـالى:{ **لَـيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَـنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً يُجْـزَ بِـهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِـنْ دُونِ اللَّـهِ وَلِيّـاً وَلا نَصِـيراً * وَمَـنْ يَعْمَـلْ مِـنَ الصَّـالِحَاتِ مِـنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَـى وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** }[2].

وسـاق ابن جرير بسـنده: عن ابن عباس:{ **بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً** } أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما لـه من حسنة.

وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

وقال الحسن - أيضًا - والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جريج، عن مجاهد:{ **وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ** } قال: بقلبه.

وقـال أبو هريرة، وأبو وائـل، وعطـاء، والحســن:{ **وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ** } قالوا: أحاط به شركه.

عن ابن عباس:{**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**} أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله، لا انقطاع له أبدًا (١).

* * * * *

المطلب الثاني:

مخالفات اليهود ومتناقضاتهم

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ}[1].

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه.. أن ذلك المـيثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله. هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فتنكروا لها وأنكروها.

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله.. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق. وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين. وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة. وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه..

ومن ثم تتقرر حقيقتان: الأولى هي وحدة دين الله؛ وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله. والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق.

وهنـا - في هـذا الموقـف المخجـل - يتحـول السـياق مـن الحكايـة إلى الخطـاب، فيوجـه القـول إلى بنـي إسرائيـل. وكـان قـد تـرك خطـابهم والتفـت إلى خطـاب المـؤمنين. ولكـن توجيـه الخطـاب إلـيهم هنـا أخـزى وأنـكى:{**ثُـمَّ تَـوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِـيلاً مِّـنكُمْ وَأَنـتُم مِّعْرِضُونَ**}.

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب!

ويسـتمر السياق يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله..

{**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْـفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَـكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**}..

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟

{**ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنْفُسَـــكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَـارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**}..

ولقـد كـان هـذا الـذي يواجههم بـه واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسـلام على الأوس والخزرج. كان الأوس والخزرج مشـركين، وكان الحيّان أشـد ما يكون حيّان من العرب عداء. وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشـركين.. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشـبت بينهم قـاتـل كـل فريق مع حلفـائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر - وهـذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلـب فريقهم وينهبون أموالهم ويـأخـذون سـبـاياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضـعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء - وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته.

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن؛ وهو يسـألهم في اسـتنكار:{**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟**}..

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشـد في الآخرة. مع التهـديـد الخفي بـأن اللـه ليس غـافلاً عنـه ولا متجاوزاً:{**فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلكَ منكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**}..

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

{**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**}.

وكـذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسـهم النـار إلا أيـامـاً معدودة.. فهؤلاء هم هناك:{**فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**}..

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو اسـتمسـاكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي ـ مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسـامهم فريقين، وانضـمامهم إلى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمسـاك العصـا من الوسـط؛ والانضـمام إلى المعسـكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال.

وضـمان صـوالح اليهود في النهاية سـواء انتصر ـ هذا المعسـكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بـالعبـاد لا برب العبـاد. والإيمـان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.

يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء.. أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاؤوهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء..[١].

* * * * *

المطلب الثالث:

موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[٢].

في «تفسير ابن عطية» و«الكشاف» و«أسباب النزول» للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار: «ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم» فردا عليهم وثبتا على الإسلام.

وإنما أسند هذا الحكم أي الكثير منهم وقد أسند قوله:**{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}**[٣] إلى جميعهم لأن تمنيهم أن لا ينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنيهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعاً فأما علماؤهم وأحبارهم

فخابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشراك لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى- وإن لم يتبعوا ديننا، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمني الكفر وهو رضي به. وأما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبي ﷺ قال تعالى:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**}[1] وفي هذا المعنى المكتنز ما يدلكم على وجه التعبير بـ{**يَرُدُّونَكُم**} دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية. وبه يظهر وجه مجيء{**كُفَّاراً**} معمولاً لمعمول{**وَدَّ كَثِيرٌ**} ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفاراً بالله أي كفارا كفراً متفقاً عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك فليس ذلك من التعبير عن ما صْدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه، وبه يظهر أيضاً وجه قوله تعالى:{**مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**} فإنه تبيّنُ أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسل بخلاف الشرك، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله ﷺ عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم.

وإنّما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر.

قال تعالى:{**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ**} [2] فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل.

والعفو ترك عقوبة المذنب. وا لصفح بفتح الصاد مصدر صفح صفحاً إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيء ولاه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق.

وقوله:{**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**} أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليلكم قيل هو إجلاء بني النضير وقتل قريظة، وقيل الأمر بقتال الكتابيين أو ضرب الجزية.

والظاهر أنه غاية مبهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول الناس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية، ومن ذلك إجلاء بني النضير.

ولعل في قوله:{**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} تعليماً للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفي الحديث الصحيح: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل يدعون له نداً وهو يرزقهم**» أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمركم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الائتساء بصنع الله تعالى وقد قيل: إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية. فجملة{**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} تذييل مسوق مساق التعليل، وجملة:{**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا**} إلى قوله:{**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ**}[1] تفريع مع اعتراض فإن الجملة المعترضة هي الواقعة بين جملتين شديدتي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له ولكن للكلام والغرض به علاقةً وتكميلاً

قد جاء التفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذي هو أذى وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً [1]. وقد جوزه صاحب «الكشاف» عند قوله تعالى:{**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**}[2].

معنى الآية الكريمة: أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسداً لكم وبغضاً لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وضرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن ألإاله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير ".

وقوله تعالى:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً**} بيان للون من ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه.

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمني الذ ميم إلى الكثرة منهم، انصافاً للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى:{**بَعْدِ إِيمَانِكُمْ**} مبالغة في ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا التمني الذميم هو الحقد والحسد، فقال تعالى:{**حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق**} أي: أن هذا التمني لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم،

واســتحوذ على قلوبهم فجعلهم يحســدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة، من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضـيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: " والحسد: قلق النفس من رؤية نعمة يصـيبها إنســان، وينشــأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمني زوال النعم مذموم بكل لسـان، إلا نعمة أصـابها فاجر أو جائر يسـتعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفسـاد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شــخص وإنما تمنيت لنفســك مثلها فهي الغبطة والمنافســة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسـعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه ".

وقولــــه تعالى:{**مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِـهِمْ**} إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسـهم وسوء طباعهم رسخ الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.

والجملة الكريمة:{**حَسَـداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِـهِمْ**} تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صـحة دين الإسـلام، إذ الإنسـان لا يحسـد غيره على دين إلا إذا عرف في نفسـه صـحته، وأنه طريق الفوز والفلاح.

وقولـه تعالى:{**مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق**} يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبي ﷺ بوعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشـأن المبشرـ به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كـان عن عنـاد وجمود على الباطل، وذلك هو شــأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبي ﷺ.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى:{**فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}.

والعفو: ترك العقاب على الذنب. والصفح: ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركو معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفو صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شيء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى.

فالمراد بالأمر في قوله تعالى:{**حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ**} الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: " وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل، للضعيف الجاهل وفي إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غيره مرة، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه ".

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله:{**إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} أي أن كل شيء داخل تحت قدرته النافذة التي لا يعجزها شيء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين في الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرد والقتل لليهود الحاقدين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين في الآية الســابقة بالعفو والصــفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل ال عفو والصـــفح خيراً من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التي تطهر قلوبهم، وتزكي نفوسهم فقال - تعالى:{**وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة...**}.

{**مَا يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَلاَ الْمُشْرِـكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**}[١].

فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشرـكين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الـذي كـان عنـد اللـه فنزلـه عليكم. فتمنى المشرـكون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسدا وبغيا منهم على المؤمنين.

وفي هـذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهـل الكتـاب والمشرـكين، والاســتماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصـيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يسـتبطنه لهم أهل الكتاب والمشرـكون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون[٢].

وهذه الآية رجوع إلى كشـف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم:{**آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**} فقالوا:{**نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**}[٣] أي ليس الصــارف لهم تمســكهم بما أنزل إليهم بل هو الحســد على ما أنزل على النبي، والمســلمين من خير، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقولـــه:{**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ**}[٤] وما تخلل ذلك ونشــأ عنه من المجادلات وبيان إعراضــهم عن أوامر دينهم واتباعهم الســحر وبين الآن حقيقة الصـارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشـتم وقول البهتان ليتخلص من ذلك إلى بيان النسخ.

و (الود) بضـــم الواو المحبة ومن أحب شـــيئاً تمناه فليس الود هو خصــوص التمني ولا المحبة المفرطة كما حققه الراغب.

وذكر (الذين كفروا) هنا دون اليهود لقصــد شــمول هذا الحكم اليهود والنصــارى معاً تمهيداً لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قولــه:{**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**} [1].

ونبه بقولـه:{**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**} دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه وبالإيمان بالنبي المقفي على آثارهم وفي التوراة والإنجيل مواضـع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبيء ﷺ على النبوءة وحســدوا المســلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود.

ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقولـــه:{**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**} قد يوهم كون البيـان قيـداً وأن الكـافرين من غير أهـل الكتاب لا يحســـدون المســـلمين عطف عليه قولــه:{**وَلاَ المُشْرِكِينَ**} كالاحتراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع فيكون لـه حظ في التمهيد لقولــه فيما يأتي:{**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**}[2] وقرأ الجمهور (أن ينزل) بتشـــديـد الزاي مفتوحـة. والتعبير بـالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجماً لتســهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيســير على المكلفين في شرع الأحكام تدريجاً. وقرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاي مفتو حة أيضـاً وذلك على أن نفي ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجماً.

والخير النعمة والفضـل، قال النابغة: فلست على خير أتاك بحاسد... وأراد به هنا النبوءة ومـا أيـدها من الوحي والقرآن والنصرـ وهو المعبر عنه بالرحمة في قولـــــه:{**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ**}.

وقولـــه:{**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**} عطف على{**مَا يَوَدُّ**} لتضمنه أن الله أراد ذلك وإن كانوا هم لا يريدونه.

والرحمـة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم ومعنى الاختصـاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصـل الاختصـاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصـاً غير عام سـواء خص واحداً أو أكثر. ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة.

والمشـــيئـة هي الإرادة ولمـا كـانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشـــيئتـه أي إرادتـه جارية على وفق حكمته التي هي من كيفيات علم الله تعالى فهي من تعلقات علم الله بإبراز الحوادث على ما ينبغي.

فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوءة فإن الله يختص بها مَن خلقه قابلاً لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شـيئاً فشـيئاً قال تعالى:{**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُـدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**}[1] وقال:{**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَـــالَتَهُ**}[2] ولذلك لم تكن النبوءة حاصـــلة بالاكتســـاب لأن الله يخلق للنبوءة من أراده لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضـائل فهو ممكن الاكتسـاب كالصلاح والعلم وغيرهما فرب فاســق صـلحت حاله ورب جاهل مطبق صـار عالماً بالسـعي والاكتســاب ومع هذا فلا بد لصـــاحبها من اســـتعداد في الجملة ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده. ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوءة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها

تعذره ووكل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقاً بأفهام المخاطبين.

وقوله:{**وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**} تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1].

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2].

قوله تعالى:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**} الآية نزلت في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانا، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك فقال رسول الله ﷺ : «**قد أصبتما الخير وأفلحتما**».

فأنزل الله تعالى:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ**} أي تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود{**لَوْ يَرُدُّونَكُمْ**} يا معشر المؤمنين{**مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا**} نصب على المصدر، أي يحسدونكم حسدا{**مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**} أي من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك،{**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**} في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق{**فَاعْفُوا**} فاتركوا{**وَاصْفَحُوا**} وتجاوزوا، فالعفو: المحو والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال{**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**} بعذابه: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير،

قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قولـــه:{**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ**} - إلى قولـــــه:{**وَهُمْ صَــاغِرُونَ**}[1] وقال ابن كيســان: بعلمه وحكمه فيهم حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية{**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}[2]

* * * * *

المطلب الرابع:

تخريب المساجد وهدمها وآداب الخطاب

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[١].

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه. ويرى آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بذمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها.

ومن اسم استفهام يراد منه النفي، أي: لا أظلم. والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيما.

والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا.

وذكر اسم الله كناية عما يؤدي فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى.

والسعي في الأصل: المشي بسرعة في معنى الطلب والعمل.

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل لمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع لـه.

قال القرطبي: " وخراب المســاجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصرــ والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه. ويكون مجازاً كمنع المشرـكين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسـجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها ".

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المســاجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل في خرابها بـالهـدم كما فعـل الرومـان وغيرهم ببيت المقدس، وها هم اليهود أحرقوا بيت المقدس عدة مرات، وكذلك قاموا بحفر الأنفاق تحته،والكثير من الحفريات حولـه تمهيدا لهدمه.

قال صـاحب الكشـاف: " فإن قلت: فكيف قيل مسـاجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مســجد وا حد هو بيت المقدس أو المســجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل:{**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ**} والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق ".

وقولـــــه - تعالى:{**أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ**} معناه: ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المسـاجد وذكر الله ويسـعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعـالى - لمكانها من الشرــف والكرامة بإضـــافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها.

قال ابن كثير: " وفي هذا بشـارة من الله للمسـلمين بأنه سـيظهرهم على المسجد الحرام، ويـذل لهم المشرـكين حتى لا يـدخل المســجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسـلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشرـكين من دخول المسـجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسـلمين أمر النبي ﷺ من العام القابل منادياً ينادي برحاب منى " ألا يحجن بعد العام مشرــك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان لــــه أجل فأجله إلى مدته ".

وعندما حج النبي ﷺ عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام. وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى:{**لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ**} أي: لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه في النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه في هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا.

ثم أخذ القرآن في تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:{**وَلِلَّهِ المشرق والمغرب...**}.

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جمع جهات الأرض.

واللام في قوله:{**وَلِلَّهِ**} تفيد معنى الملك.

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى. و(ثم) اسم إشارة للمكان.

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة.

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففي أي مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التي أمرتم بها، والتي تبرأ ذممكم باستقبالها.

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة في أي مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففي الحديث الشريف: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**».

وكأن الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين في منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها.

وذيلت الآية بقوله:{**إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ**} لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده في أمر الدين: أي: إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التي افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى: {**وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ**...}.

قوله - تعالى: {**وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً**} معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ ".

واتخذ: من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل. والولد: يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع.

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنه قالوا: {**عُزَيْرٌ ابن الله**} وحكى عن النصارى أنهم قالوا: {**المسيح ابن الله**} وحكى عن المشركين أنهم قالوا: " الملائكة بنات الله " فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً على الفرق الثلاث أو على بعضهم. فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال: {**وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله**} أصبح من السائغ في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم:

وقوله: {**سُبْحَانَهُ**} تنزيه له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية: النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم**» [1].

وسبحانه: مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل: أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه.

وقوله: {**بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**} إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع في الاستدلال على بطلانها.

واللام في قوله: {**لَّهُ**} للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي، و(ما) اسم موصول يراد منه الكائنات: ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله.

والمقصـــود إثبـات أن قولهم:{**اتَّخَـذَ اللَّـهُ وَلَـداً**} زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السـموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسـعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أوليســتعين به على القيام بأعباء الحيـاة. واللـه - تعـالى - منزه عن أمثـال هـذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضــعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقـائـه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصــفاته، الباقي على الدوام، كما قال تعالى:{**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام**} وقولــه - تعالى:{**كُلٌّ لـــه قَانِتُونَ**}.

معناه: كل لـــه مطيعون طاعة تسـخير وانقياد، خاضـعون لا يسـتعصي منهم شيء على مشيئته وإرادته: شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء{**قَانِتُونَ**} بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم.

ثم بين - سـبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال:{**بَدِيعُ السـماوات والأرض**} أي: مبدعهما ومنشـئهما بلا احتذاء ولا اقتداء. وبلا آلة ولا مادة، وبديع صـفة مشـبهة من أبدع، والذي ابتدعهما من غير أصـل ولا مثال هو الله - تعالى -. وخص السـموات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال القرطبي: " قولـه - تعالى:{**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**} فعيل للمبالغة. وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله - تعالى - بديع السـموات والأرض، أي منشـئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل لــه مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام... "

وقولــه:{ **وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لــه كُنْ فَيَكُونُ**} معناه: وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حـدث فوراً. " وكن فيكون فعلان من الكون بمعنى الحـدوث. ويرى كثير من أهل الســنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - ســبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففي الكلام استعارة تمثيلية.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى ســـنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشــبهات الباطلة التي أوردها الضــالون حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

ثم أورد القرآن بعـد ذلـك الشـــبهـات التي أثـارها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى:{ **وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله أَوْ تَأْتِينَآ**..}.

عن ابن عبـاس قـال: قـال رافع بن حريملة اليهودي لرســـول الله ﷺ يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية.

فالآية الكريمة معطوفة على قولــه:{**وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً...**} ومعنى الآية الكريمة.{**وَقَالَ الـذين لاَ يَعْلَمُونَ**} علماً نـافعاً أمثـال هؤلاء اليهود الـذين طـالبوك بـالمطـالـب المتعنتة - يا محمد:{**لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله**} إما مشـــافهة، أو بواســـطة الوحي إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صـدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً.

وقد رد الله عليهم بقولـه:{**كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ**} أي: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسـلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسـلية للرســول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرســل من قبله.

{**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**} أي تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال.

{قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي: جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة.

قال الإمام الرازي: وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهةً، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله:**{كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ}** وحاصل هذا الجواب: أنا قد أيدنا قول محمود بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب العنت. وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها:

١- لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجاً.

٢- أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

٣- ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح في كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة. فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة.

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد ب**{الذين لاَ يَعْلَمُونَ}** اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركوا العرب وبعضهم يرى أن المراد يهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً من هذه الآية للأسباب الآتية:

١- الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.

٢- جملة:{**كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ**} قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له:{**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً**} وقالوا:{**أَرِنَا الله جَهْرَةً**} وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة.

٣- الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركي العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق.

٤- سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولياً في هذه الآية.

٥- القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركوا العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى:{ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السمآء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ من ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات فَعَفَوْنَا عَن ذلك وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً مُّبِيناً**} .

٦- الإمام ابن جرير رجح أن المراد ب{**الذين لاَ يَعْلَمُونَ**} النصارى، مستدلا بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول.

{ **وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَه مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَه قَانِتُونَ**} والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي:

١- لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحججهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

٢- ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك، قال تعالى:{**وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله**} لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب).

هذا وبعد ذلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً مهما دخل غيرهم معهم في السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي ﷺ.

ثم ساق القرآن للنبي ﷺ ما يسلبه ويثبته فقال:{**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً...**}[(١)].

* * * * *

المطلب الخامس:

جزاء كتمان آيات الله

{**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**}(١).

قولـه:{**إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ**} قيل: المراد بهذه الآية: علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ . والاشتراء هنا: الاستبدال، وقد تقدّم تحقيقه، وسماه قليلاً؛ لانقطاع مدّته وسوء عاقبته، وهذا السبب، وإن كان خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله، و أخذ عليه الرشا، وذكر البطون دلالة، وتأكيداً أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلان أرضى، ونحوه، وقال في الكشاف: إن معنى:{**فِي بُطُونِهِمْ**} ملء بطونهم: قال: يقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه. انتهى.

وقوله:{**إِلاَّ النار**} أي: أنه يوجب عليهم عذاب النار، فسمى ما أكلوه ناراً؛ لأنه يؤول بهم إليها، هكذا قال أكثر المفسرين، وقيل: إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة، ومثله قوله سبحانه:{ **إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً**} (٢) وقوله:{**وَلاَ يُكَلّمُهُمُ الله**} فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم، وعدم الرضا عنهم، يقال فلان لا يكلم فلاناً: إذا غضب عليه. وقال ابن جرير الطبري: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبونه لا بما يكرهونه. كقوله تعالى:{**اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلّمُونِ**}(٣)، وقوله:{**وَلاَ يُزَكّيهِمْ**} معناه: لا يثنى عليهم خيراً. قاله الزجاج. وقيل معناه: لا يصلح أعمالهم الخبيثة، فيطهرهم.

وقولـه:{**اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**} قد تقدّم تحقيق معناه. وقولـه:{**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار**} ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب، والمراد: تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم.

وحكى الزجاج أن المعنى: ما أبقاهم على النار، من قولهم: ما أصبر فلاناً على الحبس، أي: ما أبقاه فيه، وقيل المعنى: ما أقلّ جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبراً. وقال الكسائي وقُطْرُب: أي ما أدومهم على عمل أهل النار. وقيل: «ما» استفهامية، ومعناه التوبيخ: أي أيّ شيء أصبرهم على عمل النار؟ قاله ابن عباس، والسدي، وعطاء، وأبو عبيدة.

{**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**} الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر، أي: ذلك الأمر، وهو العذاب. قاله الزجاج. وقال الأخفش: إن خبر اسم الإشارة محذوف، والتقدير: ذلك معلوم. والمراد بالكتاب هنا: القرآن،{**بِالْحَقِّ**} أي: بالصدق. وقيل بالحجة. وقولـه:{**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ**} قيل: المراد بالكتاب هنا التوراة، فادّعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكرهم اليهود، وقيل: خالفوا ما في التوراة من صفة محمد ﷺ واختلفوا فيها. وقيل: المراد: القرآن، والذين اختلفوا كفار قريش، يقول بعضهم هو سحر، وبعضهم يقول: هو أساطير الأوّلين، وبعضهم يقول غير ذلك.

{**لَفِى شِقَاقٍ**} أي: خلاف{**بَعِيدٍ**} عن الحق، وقد تقدم معنى الشقاق.

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قولـه:{**إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ الله**} قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً. وأ خرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه. وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت في اليهود.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قولـه:{**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**} قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة{**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**} قال: ما أجرأهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قولـه:{**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**}

قـال: مـا أعملهم بـأعمال أهـل النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسـن في قولـــه:{**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**} قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول: ما أجرأهم على النار. وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه. وأخرج ابن جرير أيضـاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه الاسـتفهام، يقول: ما الذي أصـبرهم على النار؟ وقولـــه:{**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ**} قال: هم اليهود والنصارى{**لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ**} قال: في عداوة بعيدة[1].

قال سـيد قطب رحمه الله: والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصـود به أولاً أهـل الكتـاب. ولكن مـدلول النص العـام ينطبق على أهـل كل ملة، يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشـترون به ثمناً قليلاً. إما هو النفع الخاص الذي يحرصـون عليه بكتمانهم للحق، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان، ويخشون عليها من البيان. وإما هو الدنيا كلها - وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله، ومن ثواب الآخرة.

وفي جو الطعـام مـا حرم منه وما حلل يقول القرآن عن هؤلاء:{**مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ**}..

تنسـيقاً للمشـهد في السـياق. وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم! وكأنما هم يأكلون النار! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة، فإذا هي لهم لباس، وإذا هي لهم طعام!

وجزاء مـا كتموا من آيـات اللـه أن يهملهم اللـه يوم القيـامة، ويدعهم في مهانة وازدراء والتعبير القرآني عن هذا الإهمال وهذه المهانة وهذا الازدراء هو قولـه:

{**لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ**}..

لتجسيم الإهمال في صورة قريبة لحس البشر وإدراكهم.. لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران..{**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**}..

وتعبير آخر مصور موح:{**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ**}..

فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب.. فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنها لحقيقة. فقد كان الهدى مبذولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة.

وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب..

{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!}..

فيا لطول صبرهم على النار، التي اختاروها اختياراً، وقصدوا إليها قصداً.

فيا للتهكم الساخر من طول صبرهم على النار! وإنه لجزاء مكافئ لشناعة الجريمة. جريمة كتمان الكتاب الذي أنزله الله ليعلن للناس. وليحقق في واقع الأرض، وليكون شريعة ومنهاجاً. فمن كتمه فقد عطله عن العمل. وهو الحق الذي جاء للعمل:**{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ}**..

فمن فاء إليه فهو على الهدى، وهو في وفاق مع الحق، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل.

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}..

شقاق مع الحق، وشقاق مع ناموس الفطرة، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم.. ولقد كانوا كذلك، وما يزالون. وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها. فلا تأخذ به جملة، وتمزقه تفاريق.. وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام. ونحن نرى مصداقه واقعاً في هذا العالم الذي نعيش فيه [1].

* * * * *

المطلب السادس:

موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من إطاعتهم

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١].

قولــه عزّ وجلّ:{**قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات الله والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**}. هذه الآياتُ: توبيخٌ لليهود المعاصِرينَ للنَّبِيِ ﷺ واليهود المعاصِرينَ ومن كان على شــاكلتهم إلى قيام الســاعة، والكتابُ: التوراةُ، وآياتُ اللّه يحتملُ أنْ يريدَ بها القُرآن، ويحتملُ العلاماتِ الظاهرةَ على يَدَي النبيِ ﷺ، وقولــه سبحانه:{**والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**} وعيدٌ محضٌ، قال الطبريّ: هــاتــان الآيتــانِ:{ **قُلْ يــاأهــل الكتــاب لِمَ تَكْفُرُونَ بــآيــات اللــه**}، ومــا بعــدهما إلى قولـــه:{**وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}[٢]، نزلَتْ بسبب رَجُلٍ من اليهودِ، حاول الإغراء بَيْن الأوس والخَزْرَج.

قال ابنُ إسْحَاق: حدَّثني الثِّقَةُ عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَم، قال: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليَهُودِيُّ، وكان شَيْخاً قَدْ عَسَا فِي الجَاهليّةِ عَظِيمَ الكُفْرِ، شَدِيدَ الضِّغْنِ على المُسْلمين، والحَسَدِ لهم؛ على نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رسولِ اللّه ﷺ مِنَ الأوْسِ والخَزْرَجِ، وَهُمْ فِي مَجْلِسٍ يتحدَّثُونَ، فغَاظَهُ مَا رآه مِنْ جماعَتِهِمْ وصَـلاَحِ بَيْنِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ بينَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدِ اجتمع مَلأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ البِلاَدِ، واللّـه، مَـا لَنَا مَعَهُمْ، إذَا اجتمع مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمر فَتًى شَــابًّا مِنْ يَهُودَ، فَقَالَ: اعمد إلَيْهِمْ، واجلس مَعَهُمْ، وذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أَيَّامِ حَرْبِهِمْ، وَأَنْشِــدْهُمْ مَا قَالُوهُ مِنَ الشِّعْرِ فِي ذَلِكَ، فَفَعَلَ الفتى، فَتَكَلَّمَ القَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَتَفَاخَرُوا، وَتَنَازَعُوا حتى تَوَاثَبَ رَجُلاَنِ مِنَ الحَيَّيْنِ عَلَى الرَّكَبِ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ مِنَ الأَوْسِ

، وَجَبّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلاَ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنْ شِئْتُمْ، وَاللَّه، رَدَدْنَاهَا الآنَ جَذَعَةً، فَغَضِبَ الفَرِيقَانِ، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، السِّلاَحَ السِّلاَحَ! مَوْعِدُكُمُ الظَّاهِرَةُ، يُرِيدُونَ: الحَرَّةَ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَتَجَاوزَ النَّاسُ على دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، اللَّه اللَّه، أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَوَعَظَهُمْ، فَعَرَفَ القَوْمُ؛ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَلْقُوا السِّلاَحَ، وَبَكَوْا، وَعَانَقَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وانصرفوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَاسِ بْنِ قيسٍ، وما صَنَعَ هذه الآيات.

وقال الحَسَنُ وغيره: نزلَتْ في أَحْبَارِ اليَهُودِ الَّذِينَ يَصُدُّون المُسْلِمِينَ عَنِ الإسلام، ويَقُولُون: إن محمَّداً ليس بالموصُوفِ في كتابنا.

ولا شَكَّ في وقوعِ هَذَيْنِ الشيئَيْنِ، وما شاكَلَهما مِنْ أفعال اليهود وأقوالِهِمْ، فَنَزلَتِ الآيَاتُ فِي جميعِ ذلك، ومعنى «تَبْغُونَ» أي: تطلبون لها الاعوجاجَ والانفســادَ، وأَنْتُمْ شُــهَدَاءُ: يريدُ جَمْعَ شاهدٍ على ما في التوراة مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وصدْقه، وباقي الآية وعيدٌ.

وقولــه تعالى:{**يأيها الذين ءامَنُواْ إن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الذين أوتُواْ الكتاب يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين...**} الآية: خطابٌ عامٌّ للمؤمنين، والإشارة بذلك وقْتَ نزولـه إلى الأوْسِ والخَزْرَجِ بسبب نَائِرَةِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ.

قولــه تعالى:{**يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين**}، ردَّ: بمعنى صَيَّر، فيتعدى إلى مفعولَيْنِ الأول: الكافُ، والثاني: الكافِرِينَ؛ كقولـه: [الوافر]

فَرَدَّ شُــعُورَهُنَّ السُّــودَ بِيضــاً ::: وَرَدَّ وُجُـوهَـهُـنَّ الْـبِـيـضَ سُــودَا

و{**يَعْتَصِم**} : معناه: يتمسَّك، وعُصِمَ الشَّيْءُ، إذا مُنِعَ وحُمِيَ؛ ومنه: قولـــه:{**يَعْصِمُنِي مِنَ الماء**}[1] وباقي الآية بيِّنٌ[2].

أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله بتوبيخ أهل الكتاب على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال: قل لهم: يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلأى سبب تكفرون بدلائل الله الدالة على نبوة محمد وصدقه، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها.

يا أهل الكتاب كيف تحاولون صرف مَن آمن بالله ورسوله وأذعن للحق عن سبيل الله الحق المستقيمة، وتحاولون أن تصوروها معوجة، وأنتم عالمون أنها حق، وليس الله غافلا عن أعمالكم وسيجازيكم عليها.

وقد حذَّر المؤمنين مما يثيره بعض أهل الكتاب من شُبَهٍ قائلا: إن تطيعوا بعض أهل الكتاب فيما يبثونه من الشُّبَهِ فى دينكم تعودوا إلى الضلال بعد الهداية، ويردوكم جاحدين بعد الإيمان.

وتصوروا حالكم العجيبة وأنتم تضلون وتكفرون بعد الإيمان، والقرآن يتلى عليكم، ورسول الله بينكم، يبين لكم ويدفع الشبه عن دينكم، ومن يلجأ إلى ربه ويستمسك بدينه فنعم ما فعل، فقد هداه ربه إلى طريق الفوز والفلاح.

وإن باب النار مفتوح إذا لم تتقوا الله، فيأيها الذين آمنوا خافوا الله الخوف الواجب بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ودوموا على الإسلام حتى تلقوا الله [1].

* * * * *

المطلب السابع:

المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتابيات

{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [١].

{اليوم أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}.

يجيء في التقييد (باليوم) هنا ما جاء في قولـــه:**{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ}**[٢] وقولـه:**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}** [٣]، عدا وجه تقييد حصول الفعل حقيقة بذلك اليوم، فلا يجي ء هنا، لأنّ إحلال الطيّبات أمر ســابق إذ لم يكن شيء منها محرّماً، ولكن ذلك اليوم كان يوم الإعلام به بصــفة كليّة، فيكون كقولـــــه:**{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}** [٤] في تعلّق قولـه:**{الْيَوْمَ}** به، كما تقدّم.

ومناسبة ذكر ذلك عقب قولـه:**{الْيَوْمَ يَئِسَ}** و**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ}** أنّ هذا أيضاً منّة كبرى لأنّ إلقاء الأحكام بصفة كلّيّة نعمة في التفقّه في الدين.

والكلام على الطيّبات تقدّم آنفاً، فأعيدَ ليَبنى عليه قولــه:**{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}**. وعطفُ جملـة:**{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}** على جملة:**{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}** لأجل ما في هذه الرخصــة من المنّة لكثرة مخالطة المسـلمين أهل الكتاب فلو حرّم الله عليهم طعامهم لشقّ ذلك عليهم.

والطعام في كلام العرب ما يطعَمه المرء ويأكله، وإضـافته إلى أهل الكتاب للملابسـة، أي ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح. قال ابن عطية:

الطعام الذي لا محاولة فيه كالبُرّ والفاكهة ونحوهما لا يغيّره تملّك أحد لــــه، والطعام الذي تقَع فيه محاولة صنعته لا تعلّق للدين بها كخَبز الدقيق وعصر الزيت. فهذا إن تُجنِّبَ من الـذميّ فعلى جهة التقذّر. والتذكية هي المحتاجة إلى الدّين والنية، فلمّا كان القياس أن لا تجوز ذبـائحهم رخص الله فيها على هـذه الأمّـة وأخرجها عن القياس. وأراد بالقياس قياس أحوال ذبـائحهم على أحوالهم المخـالفـة لأحوالنـا، ولهـذا قـال كثير من العلماء: أراد اللـه هنا بـالطعـام الـذبـائح، مع اتّفـاقهم على أنّ غيرهـا من الطعـام مبـاح، ولكن هؤلاء قالوا: إنّ غير الذبائح ليس مراداً، أي لأنّه ليس موضــع تردّد في إباحة أكله. والأولى حمل الآية على عمومها فتشـــمل كلّ طعام قد يظن أنَّه محرّم علينا إذ تدخله صـــنعتهم، وهم لا يتَوَقَّوْنَ ما نتوقّى، وتدخله ذكاتهم وهم لا يشترطون فيها ما نشترطه. ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح.

و{**الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَـابَ**} : هم أتبـاع التوراة والإنجيـل، ســـواء كـانوا ممّن دعاهم موسى وعيسى- عليهما السلام- إلى اتّباع الدين، أم كانوا ممّن اتّبعوا الدينين اختياراً؛ فإنّ موسى وعيسى ودعَوا بني إسرائيل خاصّة، وقد تهوّد من العرب أهل اليمن، وتنصّر من العرب تغلب، وبهراء، وكلب، ولخم، ونَجران، وبعض ربيعة وغسّــان، فهؤلاء من أهل الكتاب عند الجمهور عدا عليّا بن أبي طالب فإنه قال: لا تحلّ ذبائح نصـارى تغلب، وقال: إنّهم لم يتمسّـكوا من النصرـانية بشيء سوى شرب الخمر.

وقال القرطبي: هذا قول الشـافعي، وروى الربيع عن الشـافعي: لا خير في ذبائح نصارى العرب من تغلـب. وعن الشـــافعي: من كـان من أهل الكتاب قبل البعثة المحمّدية فهو من أهـل الكتاب، ومن دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فلا يقبل منه إلاّ الإســـلام، ولا تقبل منه الجزية، أي كالمشركين.

وأمّا المجوس فليســـوا أهل كتاب بالإجماع، فلا تؤكل ذبائحهم، وشـــذّ من جعلهم أهل كتاب. وأمّا المشركون وعبدة الأوثان فليسوا من أهل الكتاب دون خلاف.

وحِكمة الرخصـة في أهل الكتاب: لأنّهم على دين إلهي يُحرّم الخبَائث، ويتقي النجاسـة، ولهم في شـؤونهم أحكام مضبوطـة متّبعة لا تظنّ بهم مخالفتها، وهي مستندة للوحي الإلهي، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان.

وأمّـا المجوس فلهم كتـاب لكنّـه ليس بـالإلهي، فمنهم أتبـاع (زَرَادشْـــت)، لهم كتـابَ (الزندفسـتا) وهؤلاء هم محلّ الخلاف. وأمّا المجوس (المَانَويَّة) فهم إباحية فلا يختلف حالهم عن حال المشركين وعبدة الأوثان، أو هم شرّ منهم. وقد قال مالك: ما ليس فيه ذكاة من طعام المجوس فليس بحرام يعني إذا كـانوا يتّقون النجـاســة. وفي «جـامع الترمـذي»: أنّ أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله ﷺ عن قدور المجوس. فقال لـــه: «**أنْقُوها غسلاً واطبخوا فيها**» وفي البخاري: أنّ أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن آنِيَة أهل الكتاب. فقال لــه: «**إن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسـلوها ثمّ كلوا فيها**» قال ابن العربي: «فغسل آنية المجوس فرض، وغســـل آنيـة أهـل الكتاب ندب». يُريد لأنّ الله أباح لنا طعام أهل الكتاب فقد علم حالهم ، وإنَّما يسري الشكّ إلى آنيتهم من طعامهم وهو مأذون فيه، ولم يبح لنا طعام المجوس، فذلك منزع التفرقة بين آنية الفريقين.

ثم الطعامُ الشـــامل للذكاة إنّما يعتبر طعاماً لهم إذاكانوا يســـتحلّونه في دينهم، ويأكله أحبـارهم وعلماؤهم، ولو كـان ممّا ذكر القرآنُ أنَّـه حرّمـه عليهم، لأنَّهم قـد تـأوّلوا في دينهم تـأويلات، وهـذا قول مـالـك. وأرى أنّ دليلـه: أنّ الآيـة عمّمـت طعـامهم فكان عمومها دليلاً للمســـلمين، ولا التفات إلى ما حكَى الله أنّه حرّمه عليهم ثم أباحه للمســـلمين، فكان عموم طعامهم في شرعنا مُباحاً ناسخاً للمحرّم عليهم، ولا نصِيرُ إلى الاحتجاج «بشرع من قبلنا...» إلاّ إذا لم يكن لنـا دليل على حُكمهِ في شرعنا. وقيل: لا يؤكل ما علِمْنا تحريمه عليهم بنصّ القرآن، وهو قول بعض أهل العلم، وقيل به في مذهب مالك، والمعتمدُ عن مالك كراهة شـــحوم بقر وغنم اليهود من غير تحريم؛ لأنّ الله ذكر أنه حرّم عليهم الشحوم.

ومن المعلوم أن لا تعمـل ذكـاة أهـل الكتـاب ولا إبـاحـة طعامهم فيما حرّمه الله علينا بعينـه: كـالخنزير والـدم، ولا مـا حرّمـه علينـا بوصـــفـه، الذي ليس بذكاة: كالميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردّيـة والنطيحـة وأكيلة الســـبع، إذا كانوا هم يســـتحلّون ذلك، فأمّا ما كانت ذكاتهم فيه مخالفة لذكاتنا مخالفةً تقصير لا مخالفة زيادة فذلك محلّ نظر كالمضروبة بمحدّد على رأسها فتموت، والمفتولة العنق فتتمزّق العروق، فقال جمهور العلماء: لا يؤكل.

وقال أبو بكر ابن العربي من المالكية: تؤكل. وقال في «الأحكام»: فإن قيل فما أكلوه على غير وجه الز كاة كالخنق وحطْم الرأس فالجواب: أنّ هذه ميتة، وهي حرام بالنصّ، وإن أكلوها فلا نـأكلها نحْن، كـالخنزير فـإنّـه حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا يريد إباحته عند النصارى ثم قال: ولقد سُئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها؛ هل تؤكل معه أو تؤخـذ طعـاماً منه؟ فقلت: تؤكل لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عنـدنـا ولكن اللـه تعالى أباح طعامهم مطلقاً وكلّ ما يرونه في دينهم فإنّه حلال لنا في ديننا». وأشــكل على كثير من الناظرين وجه الجمع بين كلام ابن العربي، وإنّما أراد التفرقة بين ما هو من أنواع قطع الحلقوم، والأوداج ولو بـالخنق، وبين نحو الخنق لحبس النفَس، ورَضّ الرأس وقول ابن العربي شذوذ.

وقولـــه:{**وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ**} لم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة بذكر{**وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ**}. والذي أراه أنّ الله تعالى نبّهنا بهذا إلى التيسـير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنـا أن نُطعمهم طعَـامنـا، فعُلم من هذين الحكمين أنّ علّة الرخصــة في تناولنا طعامهم هو الحاجة إلى مخالطتهم، وذلك أيضاً تمهيد لقولـــه بعد:{**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ**} لأنّ ذلك يقتضي شدّة المخالطة معهم لتزوّج نسائهم والمصَاهرة معهم.

{ والمحصـــنـات منَ المؤمنـات والمحصـــنـات منَ الـذين أوتُواْ الكتـاب مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ متخذى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الاخرة مِنَ الخاسرين}[1].

عُطف{**وَالْمُحْصَـــنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ**} على{**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ**} عطفَ المفرد على المفرد. ولم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة لذكر حلّ المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحةِ تزوّج نسائهم. وعندي: أنّه إيماء إلى أنّهنّ أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصودُ

هو حكم المحصـــنـات من الـذين أوتوا الكتـاب فـإنّ هـذه الآيـة جاءت لإباحة التزوّج بالكتابيات. فقولـــه:{**وَالْمُحْصَـنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ**} عطف على{**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ**} . فالتقدير: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم.

والمُحصنات: النسوة اللّاء أَحْصَنَهُنّ ما أَحْصَنَهُنّ، أي منعهنّ عن الخنا أو عن الريب، فأطلق الإحصان: على المعصومات بعصمة الأزواج كما في قولـــه تعالى في سورة النساء (٢٤) عطفاً على المحرّمات{**الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء**} ؛ وعلى المسلمات لأنّ الإسلام وَزَعَهن عن الخنا، قال الشاعر:

ويصـــدّهـن عـنَ الـخنـا َالإسـلام :::: وأطـلـق عـلى الـحـرائـر

لأنّ الحرائر يترفّعن عن الخنا من عهد الجاهلية. ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأوّل، إذ لا يحـلّ تزوّج ذات الزوج، ولا الثاني لقولـــــه:{**مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ**} الذي هو ظاهر في أنّهنّ بعض المؤمنـات فتعيّن معنى الحريـة، ففسّر-ـها مالك بالحرائر، ولذلك منع نكاح الحرّ الأمَةَ إلاّ إذا خشي_ العنـت ولم يجد للحرائر طَوْلا، وجوّز ذلـك للعبـد، وكـأنّه جعل الخطاب هنا للأحرار بالقرينة وبقرينة آية النساء (٢٥){**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**} وهو تفسـير بيّن ملتئم. وأصـل ذلـك لعمر بن الخطـاب ومجاهد. ومن العلماء من فسّر_ المحصنات هنا بالعفائف، ونقل عن الشعبي وغير ه، فمنعوا تزوّج غير العفيفة من النساء لرقّة دينها وسوء خلقها.

وكذلك القول في تفسـير قولـــه:{**وَالْمُحْصَـنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**} أي الحرائر عنـد مـالـك، ولذلك منع نكاح إماء أهل الكتاب مطلقاً للحرّ والعبد. والذين فسّر_وا المحصنات بالعفائف منعوا هنا ما منعوا هناك.

وشـــمـل أهلُ الكتاب: الذمّيّن، والمعاهدين، وأهل الحرب، وهو ظاهر، إلاّ أنّ مالكاً كره نكاح النسـاء الحربيّات، وعن ابن عبّاس: تخصـيص الآية بغير نسـاء أهل الحرب، فمنع نكاح الحربيات. ولم يذكروا دليله.

والأجور: المهور، وسـمّيت هنا (أجوراً) مجازاً في معنى الأعْواض عن المنافع الحاصـلة من آثار عُقدة النكاح، على وجه الاستعارة أوْ المجاز المرسل. والمَهْر شعار متقادم في البشر للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة. ولو كانت المهور أجوراً حقيقة لوجب تحْديد مدّة الانتفاع ومقدارِه وذلك مِمَّا تنزّه عنه عقدة النكاح.

والقول في قولـــــه:{**مُحْصَـنَـاتٍ غَيْرَ مُسَــافِحَـاتٍ وَلاَ مُتَّخِـذَاتِ أَخْـدَانٍ**} كالقول في نظيره:{**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**} [1].

وجملة{**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**} معترضـة بين الجمل. والمقصود التنبيه على أنّ إباحة تزوّج نسـاء أهل الكتاب لا يقتضي تزكية لحالهم، ولكن ذلك تيسـير على المسـلمين. وقـد ذُكر في ســبب نزولها أنّ نســاء أهل الكتاب قلن «لولا أنّ الله رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا». والمرادُ بالإيمان الإيمانُ المعهود وهو إيمان المســلمين الذي بســببه لُقّبوا بالمؤمنين، فالكفر هنا الكفر بالرســل، أي: ينكر الإيمان، أي ينكر ما يقتضـيه الإيمان من المعتقدات، إذ الإيمان صار لَقباً لمجموع ما يجب التصديق به.

والحبْط بسكون الموحّدة والحُبوط: فسـاد شيء كان صالحاً، ومنه سمّي الحَبَط بفتحتين مرض يصــيب الإبل من جرّاء أكل الخَضرِ في أوّل الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت. وفعل (حَبِط) يؤذن بأنّ الحابط كان صــالحاً فانقلب إلى فســاد. والمراد من الفســاد هنا: الضــياع والبطلان، وهو أشدّ الفساد، فدلّ فعل (حبِط) على أنّ الأعمال صالحة، وحُذف الوصف لدلالة الفعل عليه. وهذا تشبيه لضياع الأعمال الصـالحة بفَساد الذواتِ النافعة، ووجه الشبه عدم انتفاع مكتسبها منها. والمراد ضياع ثوابها وما يترقّبه العامل من الجزاء عليها والفوْز بها.

والمراد: التحـذير من الارتـداد عن الإيمـان، والترغيـبُ في الـدخول فيه كذلك، ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا تنفعهم قرباتهم وأعمالهم، ويعلم المشركون ذلك[2].

* * * * *

المطلب الثامن:

نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود الدينية

{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[1].

قال الفخر الرازي: قوله - تعالى:{**وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ**} اعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال:{**واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**} ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم في هذا الخلق الذميم.

الثاني: أنه لما ذكر قوله:{**اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ**} وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين. فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائحهم، وبيان أنهم كانوا أبدا مواظبين على نقض العهود والمواثيق.

الثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك التمرد والعصيان. فذكر - سبحانه - أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بهم، بل هي عادة جارية له مع جميع عباده[2].

فالآن يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم؛ واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً. ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم؛ وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم؛ التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم؛ وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه..

ويحتوى هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى، عند إنقاذهم من الذل في مصر؛ ثم نقضهم لهذا الميثاق؛ وما حاق بهم نتيجة نقضهم له؛ وما أصابهم من اللعنة والطرد من مجال الهدى والنعمة.. وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا: إنا نصارى. ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة. ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة التي أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها، فنكصوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم. وقالوا لموسى:{**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**}..

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها، كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ التي عاهدهم الله فيها على توحيده والإسلام له؛ في مقابل ما أعطاهم من النعم، وما ضمن لهم من التمكين؛ فأبوا ذلك كله على أنفسهم؛ فباؤوا باللعنة والفرقة والتشريد..

كذلك يتضمن دعوتهم من جديد إلى الهدى.. الهدى الذي جاءتهم به الرسالة الأخيرة؛ وجاءهم به الرسول الأخير. ودحض ما قد يدعونه من حجة في أنه طال عليهم الأمد، ومرت بهم فترة طويلة منذ آخر أنبيائهم، فنسوا ولبس عليهم الأمر.. فها هو ذا قد جاءهم بشير ونذير. فسقطت الحجة، وقام الدليل.

ومن خلال هـذه الدعوة، تتبين وحدة دين الله - في أســاســه - ووحده ميثاق الله مع جميع عباده: أن يؤمنوا به، ويوحدوه، ويؤمنوا برسله دون تفريق بينهم، وينصروهم، ويقيموا الصــلاة، ويؤتوا الزكاة، وينفقوا في ســبيل الله من رزق الله.. فهو الميثاق الذي يقرر العقيدة الصحيحة، ويقرر العبادة الصحيحة، ويقرر أسس النظام الاجتماعي الصحيح..

فالآن نأخذ في اسـتعراض هذه الحقائق كما وردت في السـياق القرآني الكريم:{**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللَّهَ قَرْضـاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْـفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**}[1].

{ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**}[2].

لقـد كـان ميثـاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين؛ متضـمناً شرطاً وجزاء. والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه، بعد ذكر عقد الميثاق وملابســات عقده.. لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الاثني عشرـ الذين يمثلون فروع بيت يعقوب - وهو إسرائيل - وهم ذرية الأسباط - أحفاد يعقوب - وعدتهم اثنا عشر سبطاً.. وكان هذا نصه:

{**وَقَـالَ اللَّـهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**}[3].

{**إِنِّي مَعَكُم**}.. وهو وعد عظيم. فمن كان الله معه، فلا شيء إذن ضده. ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود - في الحقيقة - لـــه ولا أثر. ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله - ســبحانه - تهديه كما أنها تكفيه. ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشــقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده.. وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما لـه زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ولكن الله - سبحانه - لم يجعل معيته لهم جزافاً ولا محاباة؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده.. إنما هو عقد.. فيه شرط وجزاء.

شرطه: إقامة الصلاة.. لا مجرد أداء الصلاة.. إقامتها على أصـولها التي تجعل منها صـلة حقيقيـة بين العبـد والرب؛ وعنصرـاً تهـذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر!

وإ يتاء الزكاة.. اعترافاً بنعمة الله في الرزق؛ وملكيته ابتداء للمال؛ وطاعة لــه في التصرف في هـذا المـال وفق شرطـه - وهو المـالـك والناس في المال وكلاء - وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أسـاسـه تقوم حياة المجتمع المؤمن؛ وإقامة لأسـس الحياة الاقتصـادية على المنهج الـ ذي يكفل ألا يكون المال دولـــة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة ســبباً في الكســاد العام بعجز الكثرة عن الشرـاء والاســتهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته؛ كما يفضيـ إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه.

كل هذا الشرـ الذي تحول دونه الزكاة؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال؛ وفي دورة الاقتصاد..

والإيمان برســل الله.. كلهم دون تفرقة بينهم. فكلهم جاء من عند الله؛ وكلهم جاء بدين الله. وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً..

وليس هو مجرد الإيمان الســلبي، إنما هو العمل الإيجابي في نصرـة هؤلاء الرســل، وشــد أزرهم فيما ندبهم الله لـه،

فيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه.. فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض لينصر ما آمن به، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس. فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية. إنما هو منهج واقعي للحياة. ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة. والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة، وتعزير، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه.. وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق.

وبعد الزكاة إنفاق عام.. يقول عنه الله - سبحانه - إنه قرض لله.. والله هو المالك، وهو الواهب.. ولكنه - فضلاً منه ومنة - يسمي ما ينفقه الموهوب له - متى أنفقه لله - قرضاً لله..

ذلك كان الشرط. فأما الجزاء فكان: تكفير السيئات.. والإنسان الذي لا يني يخطىء، ولا يني يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة.. تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره..

وجنة تجري من تحتها الأنهار.. وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق..

وكان هنالك شرط جزائي في الميثاق:{**فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**}..

فلا هدى له بعد ذلك، ولا أوبة له من الضلال. بعد إذ تبين له الهدى، وتحدد معه العقد، ووضح له الطريق، وتأكد له الجزاء..

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل.. عمن وراءهم. وقد ارتضوه جميعاً؛ فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم.. فماذا كان من بني إسرائيل!

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله.. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام - وهو آخر أنبيائهم - وحرفوا كتابهم - التوراة - ونسوا شرائعها فلم ينفذوها، ووقفوا من خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - موقفاً لئيماً ماكراً عنيداً، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه. فباؤوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى..

{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}.

وصدق الله. فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم.

لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية. وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا - مكراً - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة.. وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه. تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم.

{ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ}..

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة. فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة. بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه. ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر. إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة. أكثرهم كذلك.. كما وصفهم الله سبحانه في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة، تعبير طريف:

{وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ}..

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة.. يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة.. «خائنة».. لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم.. فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة..

{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}.

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}..

ودلالة هذا التعبير: أنهم قالوها دعوى، ولم يحققوها في حياتهم واقعاً.. ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله. وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة في خط النصرانية التاريخي. وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذكروا به؛ ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف. كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تعد. في القديم وفي الحديث (كما سنبين إجمالاً بعد قليل). وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة.. جزاء وفاقاً على نقض ميثاقهم معه، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به.. ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله - سبحانه - في كتابه الصادق الكريم؛ وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله.

سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات.. وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظا مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام. لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل.

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله.. وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعاً.. هؤلاء وهؤلاء.. لإعلانهم برسالة خاتم النبيين؛ وإنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين، وللناس أجمعين. فهم مخاطبون بها، مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم؛ والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه، ولم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة.. ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم: كقول النصارى: إن المسيح عيسى ـ ابن مريم هو الله. وكقولهم هم واليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه.. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عندالله بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة؛ ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم[1].

* * * * *

المطلب التاسع:

العلاقة مع غير المؤمنين

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}(١).

قال الآلوسي: أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما. فأنزل الله - تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا}**....

والدين: هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة. فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله. والذي يتخذ دين امرئ هزوا ولعبا، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا.

وقوله:**{هُزُواً}** أي سخرية يقال: فلان هزئ من فلان إذا سخر منه، واستخف به. وأصله هزءاً، فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها.

وقوله:**{لَعِباً}** أي ملهاة وعبثا. وأصله من لعاب الطفل. يقال عن الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعابه.

والمعنى: يـأيهـا الـذين اتصــفوا بـالإيمـان{**لاَ تَتَّخِذُواْ الذين اتخذوا دِينَكُمْ**} الذي هو سر سـعادتكم وعزتكم{**هُزُواً وَلَعِباً**} أي: اتخذوه مادة لسـخريتهم وتهكمهم، وموضــعا لعبثهم ولهوهم.

و{**مِّنَ**} في قولـه:{ **مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ والكفار أَوْلِيَآءَ**} بيانية.

أي: مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم.

والمراد بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى.

وسموا بذلك؛ لأن أصل شرعهم ينتمي إلى كتاب منزل هو التوراة والإِنجيل.

وفي وصــفهم بذلك هنا، توبيخ لهم، حيث إنهم اســتهزؤوا بالدين الحق، مع أن كتابهم ينهاهم عن ذلك.

والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم.

وقرأ الجمهور:{**وَالْكُفَّارَ**} بالنصـب عطفا على{**الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ**} المبين بقولـــه:{**مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب**}.

وقرأ أبو عمرو والكسائي (الكفار) بالجر عطفا على{**مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ**}.

وقرأ:{**أَوْلِيَاءَ**} أي: نصراء وأصفاء. وهو المفعول الثاني لقولـــه{**لاَ تَتَّخِذُواْ**} والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى - ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين؛ لأن الجميع يشتركون في الاستهزاء بتعاليم الإِسلام، وفي العبث بشعائره.

وقولـه:{**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**} تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتثال أمر الله - تعالى - وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط.

أي: واتقوا الله في سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاتكم في غير موضعها، ولا تخالفوا لله أمراً. إن كنتم مؤمنين حقا، ممتثلين صـدقا، فإن وصـفكم بالإِيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين.

قال سيد قطب رحمه الله:

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفي صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسذاجةٌ أية سذاجة، وغفلةٌ أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! - ناسين تعليم القرآن كله؛ وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:{**هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**}. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً وردءاً. وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال وأريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية الإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرؤون القرآن. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذي لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**}..

هـذا النـداء موجـه إلى الجماعة المســلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة:{**الَّذِينَ آمَنُوا**}..

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسـمة بين بعض المسـلمين في المدينه وبعض أهل الكتاب - وبخاصه اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا كله طبيعياً مع الوضـع التاريخي والاقتصـادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسـلام، بين أهل المـدينة من العرب وبين اليهود بصــفة خاصــة.. وكان هذا الوضـــع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله؛ بكل صنوف الكيد.

ونزل القرآن ليبـث الوعي اللازم للمســلم في المعركة التي يخوضــها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة. ولينشـئ في ضـمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المســلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصــة. المفاصــلة التي لا تنهي السـماحة الخلقية. فهذه صـفة المسلم دائماً. ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

بعضـــهم أوليـاء بعض.. إنهـا حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشـياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسـلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضـت القرون تلو القرون ترسـم مصـداق هذه القولة الصـادقة.. لقد ولي بعضـهم بعضـاً في حرب محمد ﷺ والجماعة المسـلمة في المدينة. وولي بعضـهم بعضـاً في كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ.. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة؛

ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو.. بعضهم أولياء بعض.. ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر. لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:

{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}..

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة.. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه. ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}..

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة. ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه. فهو عنيف. نعم؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذين يتولى الله ورسوله والذين آمنوا.. فهذا مفرق الطريق..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينة وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام؛ ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد؛ يختلف عن كل الأنظمة الأخرى؛ ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد ﷺ وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد ؛ لا نظير له بين سائر المناهج ؛

ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر؛ ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ؛ ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ؛ ولا يعفيه الله ولا يغفر لـــه ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه الاعتقادية والاجتماعية ؛ لم يأل في ذلك جهداً ولم يقبل من منهجه بديلاً ولا في جزء منه صغير ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو وحده الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس ؛ في وجه العقبات الشاقة والتكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره مما هو قائم في الأرض من جاهلية سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك أو في انحراف أهل الكتاب أو في الإلحاد السافر، بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة ؛ يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطؤون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ؛ ولا يقبل فيه تعديلاً ولو طفيفا هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر{**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**} {**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**} {**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**} {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**}

وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة ؛ والتي ينزل القرآن من أجلها بهذا التحذير فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة [1].

ثم ذكر - سبحانه - بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره، فقال تعالى:{**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً**}.

والمراد بالنداء للصلاة: الإعلام بها عن طريق الأذان.

قال القرطبي: كان إذا أذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا.

وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم. فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمحه من أمر.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله:{**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً**} قال: كان رجل من النصارى بالمدينة، إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله. قال: حرق الكاذب. فدخل خادمه ليلاً من الليالي بنار، وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت. فاحترق هو وأهله.

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس منها.

أي: وإذا ناديتم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان، اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم.

واسم الإشارة في قوله:{**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**} يعود إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية.

أي: ذلك الذي صدر عنهم من استهزاء وعبث سببه أنهم قوم سفهاء جهلاء، لا يدركون الأمور على وجهها الصحيح، ولا يستجيبون للحق الذي ظهر لهم بسبب عنادهم وأحقادهم.

قال ابن كثير: هذا تنفير من موالاة أعداء الإِسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإِسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروي، يتخذونها هزوا يستهزؤون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد.

كما قال القائل.

وكم من عائب قولا صحيحا ::: وآفته من الفهم السقيم

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيرا شديدا من موالاة أعدائه. عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي ينأى عنها العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى:{**قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ...**}

قال القرطبي: قال ابن عباس: " جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال: نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله: ونحن له مسلمون ". فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شراً من دينكم. فنزلت هذه الآية وما بعدها.

وتنقمون معناه: تسخطون. وقيل تكرهون. وقيل تنكرون. والمعنى متقارب يقال: نقم من كذا ينقم ونقم ينقم والأول أكثر.. وفي التنزيل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. وانتقم منه أي: عاقبة: والاسم النقمة والجمع نقم.

والاستفهام، للإنكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين ما هو المدح والثناء والتكريم.

والمعنى: قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكتاب، والتعجيب من أحوالهم قل لهم:{**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**} يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم{**هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا**} أي: ما تعيبون وتنكرون وتكرهون منا{**إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ**} الذي يجب الإيمان به، والخضوع له، لأنه الخالق لكل شيء، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال القرآن الكريم.

ولا شك أن إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر، بل يمدح ويشكر، ولكن لأن{**أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**} - أي: خارجون عن دائرة هذا الإيمان الحق - كرهتم منا ذلك، وأنكرتموه علينا، وحسدتمونا على توفيق الله إيانا لما يحبه ويرضاه.

وقال الجمل ما ملخصه: وقوله:{**إِلاَّ أَنْ آمَنَّا**} مفعول لقوله:{**تَنقِمُونَ**} بمعنى تكرهون.

وهو استثناء مفرغ. وقوله:{**مِنَّا**} متعلق به. أي ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وأصل نقم أن يتعدى بعلى. تقول: نقمت عليه بكذا. وإنما عدي هنا بمن؛ لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون.

وقوله:{**وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**} يحتمل أن يكون في محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي: وفسقكم ثابت عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وجمع الأموال حملكم على العناد.

والنصب على أن يكون معطوفا على قوله:{**أَنْ آمَنَّا**} ولكن الكلام فيه مضاف محذوف لفهم المعنى. والتقدير: واعتقاد أن أكثرهم فاسقون وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين أنهم - أي الكفار - فاسقون - أي: ما تعيبون منا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا. واعتقادنا أن أكثركم فاسقون.

وأما الجر فعلى أن يكون معطوفاً على علة محذوفة والتقدير: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل.

لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم.

هذا ومن بلاغة القرآن الكريم، وإنصافه في الأحكام، واحتراسه في التعبير أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم. بل جعل الحكم بالفسق منصباً على الأكثرين منهم، حتى يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب.

وشبيه بهذا قوله في آية أخرى:{**مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ**} قال بعض العلماء: في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر، موجبا للنقمة، مع كونه في نفسه موجباً للقبول والرضا. وهذا مما تقصد العرب في مثله تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضي إثباته فهو منتف أبداً. ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس. فمن الأول قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم :::: بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر:

فتى كملت أخلاقه غير أنه :::: جواد، فما يبقى من المال باقياً

ومن الثاني هذه الآية وما يشبهها. أي: ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئاً إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً إذاً فليس هناك شيء ينقمونه، وما دام الأمر كذلك، فينبغي لهم أن يؤمنوا ولا يكفروا. وفيه أيضاً تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع.

ثم تابع - سبحانه - التهكم بهم، وتعجب الناس من أفن رأيهم، مع تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال::{**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله**}؟

والمشار إليه بقوله:{**ذَلِكَ**} يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبر عنها بقوله:{**وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**} وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره. أو لتأويله بالمذكور ونحوه.

والخاطب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم وقيل للكفار مطلقاً، وقيل للمؤمنين.

والمثوبة: مصدر بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها في الخير.

وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة على طريقة التهكم بهم كما في قوله - تعالى:{**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**} وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله:{**بشر**}.

وقوله:{**مَن لَّعَنَهُ الله**} خبر لمبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله: والمراد اليهود لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دنيكم قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من{**لَّعَنَهُ الله**} أي أبعده من رحمته{**وَغَضِبَ عَلَيْهِ**} بأن منع عنه رضاه{**وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**} بأن مسخ بعضهم قردة وبضعهم خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي ابتعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم.

فإن قيل: إن قوله:{**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً**} يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر. إلا أن ما عليه اليهود أشد شراً، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك؟

فالجواب، أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ : إن هؤلاء اليهود - يا محمد - ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شراً - مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة:

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه - في زعمكم فشر منه عاقبة ومآلاً ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير،

وما عرف عنكم من عبادة لغير الله... وشـــبيه بهذه الآية في مجاراة الخصـــم في زعمه قولـــه - تعالى:{**وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مٌّبِينٍ**} وقولـــه:{**أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلٌّ عَن سَوَآءِ السبيل**} بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم..

أي: أولئك المتصـفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك{**شَرّ مَّكَاناً**} من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم في الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار.

وقولـه:{**أُوْلَئِكَ**} مبتدأ وقولـه:{**شَرّ**} خبره، وقولـه:{**مَّكَاناً**} تمييز محول عن الفاعل.

وأثبت - سبحانه - الشرية لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم، إذ أن إثبات الشر-ية لمكان الشيـ-ء كناية عن إثباتها للشيـ-ء نفسه. فكأن شرهم قد أثر في مكانهم، أو عظم وضخم حتى صار متجسما.

وقولـــه:{**وَأَضَـلٌّ**} معطوف على{**شَرّ**} مقرر لـــه. والمقصـود من صـيغتي التفضـيل في قولـــه:{**أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَـلٌّ**} الزيادة مطلقا من غير نظر إلى مشـاركة غيرهم في ذلك. أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم.

ثم حكى - سـبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال:{**وَإِذَا جَآءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ**}.

قال الآلوسي: نزلت كما قال قتادة والسدى - في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون لـه الإيمان والرضا بما جاء به نفاقا.

والخطاب للنبي ﷺ وأصحابه.

والضمير في:{**جَاءكُم**} يعود على اليهود المعاصرين للنبي ﷺ.

أي: وإذا جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإِســلام، وقالوا لكم: آمنا بأنكم على حق، وحالهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبســون به - أيضــاً - فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هي لا تتأثر بالمواعظ التي يلقيها الرسول ﷺ لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم.

وقولـــه:{**وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ**} جملتان في موضـع الحال من ضـمير الجمع في{**قَالُوا**}.

والباء في قولـه:{**بِالْكُفْرِ**} وقولـه:{**بِهِ**} للملابسة. أي: دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا تغيير فيه ألبتة.

قـال الفخر الرازي: وذكر عنـد الـدخول كلمـة{**قَـدْ**} وذكر عنـد الخروج كلمـة:{**هُمْ**} لأن الفائدة من ذكر كلمة{**قَدْ**} تقريب الماضي من الحال. والفائدة من ذكر كلمة:{**هُمْ**} التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون للنبي ﷺ في ذلك فعل، أي: لم يسمعوا منك يا محمد عند جلوســـهم معـك مـا يوجـب كفرا، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم.

ويبـدو لنـا أنـه عبر عن دخولهم بقولـــــه:{**وَقَـدْ دَّخَلُواْ بـالكفر**} وعبر عن خروجهم بقولـــه:{**وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ**} بإضـافة ضـميرهم مع قد، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفراً، وأقسى قلوبا منهم عند دخولهم.

وهذا شـــأن الجاحدون المنافقون، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة، ولا النذر مما كـانت قوية، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواعظ تزيدها يقينا على يقينها، وإيمانا على إيمانها. ألا ترى إلى قولـــه - تعالى: {**وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْـتَبْشِرُون. وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ**} وقولـه - تعالى:{**والله أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ**} وعيد شديد لهم على كفرهم ونفاقهم.

أي: والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع عند دخولهم وعند خروجهم، لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

ثم حكى - ســبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال:{**وترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَـــارِعُونَ فِي الإثم والعدوان وَأَكْلِهِمُ السحت**}.

والرؤية في قولـه:{**وترى**} بصرية.

والإِثم: هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله - تعالى.

والعدوان: مجاوزة الحد في الظلم والتعدي. والسحت: هو المال الحرام كالرشوة وغيرها.

أي: وترى - أيها الرسـول الكريم أو أيها السـامع - كثيراً من هؤلاء اليهود، يسـارعون في ارتكـاب الآثـام وفي التعـدي والظلم وأكـل المـال الحرام بـدون تردد أو تريـث. والتعبير بقولــه:{**وترى**} يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافياً أو مستوراً، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من جوههم.

والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها في الخير كما قال - تعالى:{**أولئك يُسَـارِعُونَ فِي الخيرات**} {**نُسَـارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات**} وقد اسـتعملت هنا في مسـارعتهم في الإِثم والعدوان وأكلهم السـحت، للإِشـارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها.

والتعدية بحرف{**في**} تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام؛ وأنهم ينتقلون فيها في حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكأن السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم.

وقولـــه:{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**} تذييل قصـد به تقبيح أعمالهم التي يأباها الدين والخلق الكريم.

أي: لبئس شـيئا كانوا يعملونه هذه المنكرات التي منها مسـارعتهم في الإِثم والعدوان وأكلهم السحت.

وهذه الجملة هي حكم من الله - تعالى - عليهم بذم أعمالهم. وقد جمع - سبحانه - في حكمه بين صيغة الماضي{**كانوا**} وصيغة المضارع{**يعملون**} للإِشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم.

وقد أكد - سـبحانه - هذا الحكم بالقسـم، وباللام الموطئة للقسـم، وبكلمة بئس الدالة على شـدة الذم. أي: أقسـم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسـارعتهم في الإِثم والعدوان وأكلهم السحت.

ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال:

{ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت}.

و**{لولا}** هنا للحض على الفعل في المستقبل، وللتوبيخ على تركه في الماضي فهي لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الماضي. ولحضهم على مباشرتهم في المستقبل. وهي هنا بمعنى هلا.

والربانيون: كما يقول ابن جرير - جمع رباني. وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم.

والأحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد في التوراة من أقوال وأحكام.

والمعنى: إن هؤلاء دأبهم المسارعة إلى اقتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام، فهلا ينهاهم علماؤهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة، وعن تلك المآكل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت.

والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة. سمي سحتا من سحته إذا ا ستأصله لأنه مسحوت البركة أي مقطوعها. أو لأنه يذهب فضيلة الإِنسان ويستأصلها واليهود أرغب الناس في المال الحرام وأحرصهم عليه.

وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيهم لهم عن قولهم الإِثم وأكلهم السحت، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل، إذ القول الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإِنسان هانت عليه الفضائل، وقال في الناس ما ليس فيهم بدون تحرج أو حياء.

وأكل السحت يقتل في نفسه المروءة والشرف، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم.

ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل سيغفره الله لهم، ألا ترى قول الله - تعالى: **{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}**

قال بعض العلماء: واقتصر - سبحانه - في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان - الذي ورد في الآية السابقة إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجؤون في زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه ضعف.

وقوله:{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**} تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله:{**يَصْنَعُونَ**} من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام.

أي: والله لبئس الصنع صنعهم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت.

وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله:{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**} وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله:{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**}.

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال: والمعنى، أن الله - تعالى - استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه - تعالى - ذم الفريقين.. بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**} وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**} والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخا متمكنا، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ. وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا. والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم ومازالت المعصية كان كمثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقي كما هو.

وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها.

وقال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن جرير قال: قال رسـول الله ﷺ : «**ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل المعاصي، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب**»[١].

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليـه ثم قـال: أيهـا النـاس!! إنمـا هلـك من كـان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبـار. فلما تمـادوا أخذتهم العقوبات. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثـل الـذي نزل بهم. واعلموا أن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقـاً، ولا يقرب أجلاً.

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضـله، ووصـفتهم بجملة من الصـفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون، ويجعلوا ولاءهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين[٢].

* * * * *

الفصل الرابع: في مجال الأخلاق والآداب

المبحث الأول: علاقة أهل الكتاب برسلهم وتعنت اليهود:

المطلب الأول:

بعض قبائح اليهود وجزاؤهم

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[1].

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء.. لقد أخرجهم الله - على يدي نبيهم موسى - عليه السلام - من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة.. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة. إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر- يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء.. وما إليها! وهذا ما يذكرهم القرآن به. وهم يدعون في المدينة دعواهم العريضة:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}..

ولقد تلقى موسى - عليه السلام - طلبهم بالاستنكار:

{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟}..

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية؟

{اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ}..

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء؛ فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها.. وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة. إلى حياتكم الخانعة الذليلة.. حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها.. ويكون هذا من موسى - عليه السلام - تأنيباً لهم وتوبيخاً..

وأنا أرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين [1]، أرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى:

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}..

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن - من الناحية التاريخية - في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم:{**اهْبِطُوا مِصْراً**} هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم - وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين - وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل!

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة. كانوا دائماً يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك.. وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه. يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح. وإن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه:

{**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**}[1]..

والذين آمنوا يعني بهم المسلمين. والذين هادوا هم اليهود - إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا - والنصارى هم أتباع عيسى - عليه السلام - والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة،

الـذين سـاورهم الشـك فـيما كـان عليـه قـومهم مـن عبـادة الأصـنام، فبحثـوا لأنفسـهم عـن عقيـدة يرتضـونها، فاهتـدوا إلى التوحيـد، وقـالوا: إنهـم يتعبـدون عـلى الحنيفيـة الأولى، ملـة إبـراهيم، واعتزلـوا عبـادة قـومهم دون أن تكـون لهـم دعـوة فيهم[1].

* * * * *

المطلب الثاني:

مؤمنوا أهل الكتاب

{لَيْسُـوا سَـوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَـــارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [1].

قولـــه تعالى:{**لَيْسُـوا سَـوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**} قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

واختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصــار تقديره: ليســوا ســواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاءَ بذكر أحد الفريقين وقال الآخرون: تمام الكلام عند قولـه:{**لَيْسُوا سَوَاءً**}.

قال ابن مسعود رضي الله عنه معناه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق، المستقيمة، وقولـــه تعالى:{**أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**} قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يُضيعُوه ولم يتركوه.

وقال مجاهد: عادلة. وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحدوده، وقيل: قائمة في الصلاة. وقيل: الأمة الطريقة.

ومعنى الآية: أي ذو أمة أي: ذو طريقة مستقيمة.

{**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ**} يقرؤون كتاب الله وقال مجاهد: يتبعون

{**آنَـاءَ اللَّيْلِ**} ســاعاته، واحدها: إنيٌ مثل نحى وأنحاء، وإنيً وآناء مثل: مِعىً وأمعاء وإِني مثل منا وأمناء.

{**وَهُمْ يَسْجُدُونَ**} أي: يصلون لأن التلاوة لا تكون في السجود.

واختلفوا في معناها فقال بعضـــهم: هي في قيام الليل، وقال ابن مســعود: هي صــلاة العتمة يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب.

وقال عطاء: "ليســوا ســواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة" الآية يريد: أربعين رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشـة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدّقوا محمدًا ﷺ وكان من الأنصـار فيهم عدة قبل قدوم النبي ﷺ منهم أسـعد بن زرارة والبراء بن معْرَور ومحمـد بن ســلمـة ومحمود بن مســـلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين، يغتســلون من الجنابة، ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبي ﷺ فصدقوه ونصروه(1).

قولـــه - تعالى:{**لَيْسُواْ سَوَآءً**} يعود لأهل الكتاب الذين تقدم الحديث عنهم وهو اسم ليس، وخبرها قولـه{**سَوَآءً**} والجملة مستأنفة للثناء على من يستحق الثناء منهم بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم.

قال ابن كثير: والمشـــهور عند كثير من المفسرــين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم. أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أســلموا، ولهذا قال - تعالى:{**لَيْسُـــواْ سَوَآءً**} أى ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم.

وقولـــه - تعالى:{**مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ**} استئناف مبين لكيفية عدم التساوى ومزيل لما فيه من إيهام.

أى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة لــه، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه.

فمعنى قائمة: مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام.

أو معناها: ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة لـه غير مضطربة فى التمسك به، كما فى قولـه - تعالى:{**إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً**} أى ملازمة لمطالبته بحقك. ومنه قولـه - تعالى:{**شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط**} أى ملازما لـه.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصــفها الله - تعالى - بأنها{**أُمَّةٌ**} قائمة أولئك الذين أســلموا منهم واســتقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السرـ والعلن، كعبد الله بن ســلام، وأصحابه، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى. فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

ثم تـابع القرآن حـديثـه عن أوصـــافهم الكريمة فقال:{**يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ**}.

وقولــــه:{**يَتْلُونَ**} من التلاوة وهى القراءة، وأصـل الكلمة من الاتباع، فكأن التلاوة هى اتباع اللفظ اللفظ.

والمراد بآيات الله هنا: ما أنزلـه على رسوله محمد ﷺ من قرآن.

وقولــــه:{**آنَآءَ الليل**} أى أوقاته وساعاته. والآناء جمع إِنَىَ - كمعاً وأمعاء - أو جمع أَنىَ - كعصاً - أو جمع أَنىَ وإنى وإنو. فالهمزة فى آناء منقلبة عن ياء كرداء: أو عن واو ككساء.

والمراد بالسـجود فى قولــــه:{**وَهُمْ يَسْجُدُونَ**} الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسـبيح، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «**ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ســاجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما الســجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم**».

والمعنى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار.

قال الآلوسى ما ملخصه: والمراد بصلاتهم هذه: التهجد - على ما ذهب إليه البعض - وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتيسر لهم التلاوة، لأنها فى المكتوبة وظيفة الإمام.

والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة. واستدل عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «**أما إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب**» وعبر عن الصلاة بالسجود، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجوداً وسجدة، وركوعاً وركعة.

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال:{**يُؤْمِنُونَ بالله**} والمراد بهذا: الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق به الشرع، وجاء به محمد ﷺ.

{**واليوم الآخر**} أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله:{**وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر**} إشعار بأنهم لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله، وتستنكره العقول السليمة.

وقوله - تعالى:{**وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات**} أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - بدون تردد أو تقصير.

وقال - سبحانه:{**وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات**} ولم يقل إلى الخيرات للإشعار بأنهم مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير، فهم ينتقلون من خيرٍ إلى خير فى دائرةٍ واحدةٍ هى دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها. فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير. وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بفى المفيدة للظرفية.

والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في الأمر يسارع فى توليه وفى القيام به، واختيار صيغة المفاعلة " يسارعون " للمبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير، وألوان البر.

قال صاحب الكشاف. وقولـه:{**يَتْلُونَ**} و{**يُؤْمِنُونَ**} في محل الرفع صفتان لأمة. أى: قائمة تالون مؤمنون. وصـفهم بخصـائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل سـاجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان، لإشراكهم به عزيرا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض: ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته.

ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسـارعة فى الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها ".

واسم الإشارة فى قولـه:{**وأولئك مِنَ الصالحين**} يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان بالله واليوم الآخر.

أى وأولئك المصـوفون بتلك الصـفات الجليلة الشـأن من جملة الصـالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم، واستحقوا ثناءه عليهم.

وفى التعبير بقولـه:{**مِنَ الصالحين**} إشارة إلى أنهم بهذه المزايا وتلك الصفات، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين.

فهم بسـبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صـفوف المذمومين إلى صـفوف الممدوحين.

قال الفخر الرازى: واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول. أمـا القرآن، فهو أن اللـه - تعـالى - مـدح بهذا الوصـف أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إدريس وإسـماعيل وذى الكفل وغيرهم:{**وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين**} وذكر حكاية عن سليمان أنه قال: " وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ". وأما المعقول، فهو أن الصلاح ضد الفساد،

وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات.

ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال:{**وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ**} أى أن هؤلاء الذين وصفهم بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح، وإنما سيجازيهم بما هم أهله من ثوابٍ جزيلٍ، وأجرٍ كبيرٍ بدون أى نقصان أو حرمان.

و{**وَمَا**} فى قوله:{**وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ**} شرطية وفعل الشرط قوله:{**يَفْعَلُواْ**} وجوابه قوله:{**فَلَنْ يُكْفَروهُ**}.

و{**مِنْ**} فى قوله:{**مِنْ خَيْرٍ**} لتأكيد العموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا أم كثيرا فلن يحرموا ثوابه.

وأصل الكفر: الستر والتغطية. وقد صح تعدية الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد؟ تقول: شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل: فلن يحرموه بمعنى: فلن يحرموا جزاءه ".

وقوله:{**والله عَلِيمٌ بالمتقين**} تذييل مقرر لمضمون ما قبله. أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة.

وصـــفتهم بـأنهم طـائفـة ثابتة على الحق. وأنهم يتلون آيات آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يـأمرون بـالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر. وأنهم يســارعون فى الخيرات، وأنهم من الصالحين.

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

الحـديـث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهـل الكتاب وبيان ما أعده الله لهم من، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى كفرهم وفسوقهم فقال - تعالى:{**إِنَّ الذين كَفَرُواْ...**}[1].

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِــعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [2].

القول في تأويل قولـــه:{**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا**} قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية.

فقال بعضهم: عنى بها أصحمة النجاشي، وفيه أنزلت[3].

يخبرُ تعـالى عن طـائفـة من أهـل الكتـاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشـعون لله، أي: مطيعون لــــه خاضــعون متذللون بين يديه،{**لا يَشْــتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا**} أي: لا يكتمون بأيديهم من البشـارات بمحمد ﷺ، وذكر صـفته ونعته ومبعثه وصـفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم،

سواء كانوا هودًا أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص:{**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا**}[١]، وقال تعالى:{**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**} [٢].

وقال:{**وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**} [٣]، وقال تعالى:{**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**}[٤].

وقال تعالى:{**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**}[٥]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا كما وجد في عبد الله ابن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عَشَرَةَ أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى:

{**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**}[٦]، وهكذا قال هاهنا:{**أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**}.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لَمّا قرأ سورة{**كهيعص**} بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطاركة والقساوسة بَكَى وبَكَوْا معه، حتى أَخْضَبوا لِحَاهُم.

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «**إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فصَلُّوا عليه**». فخرج بهم إلى الصحراء، فَصفَّهم، وصلّى عليه [١].

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوُفِي النجاشي قال رسولُ الله ﷺ : «**استغفروا لأخيكم**». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلْج مات بأرض الحبشة. فنزلت:{**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ**} [٢].

* * * * *

المطلب الثالث:

تعنت اليهود...

{ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ و**

ۨمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (١).

ساق ابن جرير بسنده: قال ابن جُرَيج: سألوه أن ينزل عليهم صحفا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به. وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفارُ قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة "سبحان":{**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا**}(٢).

ولهذا قال تعالى:{ **فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**} أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر في سورة "البقرة" حيث يقول تعالى:{ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**}(٣).

وقوله تعالى:{ **ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**} أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليمّ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى:{ **اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} (٤).

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة "الأعراف"، وفي سورة "طه" بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي

صنعوه وابتدعوه: أن يقتُلَ من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضا ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل:{**فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا**}.

ثم قال تعالى:{**وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ**} وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى:{**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**}[١].

{**وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**} أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا، وهم يقولون: حطة. أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد وتحولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة.

{**وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**} أي: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرّم الله عليهم، ما دام مشروعًا لهم{**وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**} أي: شديدا، فخالفوا وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب مناهى الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله:{**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**}[٢]، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة "

سبحان" عند قولــــه:{**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**}[1]، وفيه: "وعليكم - خاصة يهود - أن لا تعدوا في السبت".

{**فَبِمَا نَقْضِـهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَـلْ طَبَعَ اللَّـهُ عَلَيْهَـا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَـانًـا عَظِيمًا،وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا،بَلْ رَفَعَـهُ اللَّـهُ إِلَيْـهِ وَكَـانَ اللَّـهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**}[2].

وهـذه من الـذنوب التي ارتكبوهـا، مما أوجـب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضــهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام.

قولـــه:{**وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**} وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمّا غفيراً من الأنبياء بغير حق عليهم السلام.

وقولهم:{**قُلُوبُنَا غُلْفٌ**} قال ابن عباس، ومجاهد، وســعيد بن جُبَير، وعكرمة، والسّـــدّي، وقتادة، وغير واحد: أي في غطاء. وهذا كقول المشركين:{**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَـا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَـا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**}[3]. **وقيل**: معناه أنهم ادعَوْا أن قلوبهم غُلُف للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته. رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

قا

الله تعالى:{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى بل هو مطبوع عليها بكفرهم. وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادَّعَوْه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة.

{فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا} أي: مَرَدت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان.

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "يعني أنهم رموها بالـزنا". وكذا قال السدي، وجُوَيْبِر، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقولهم:{إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين:{يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}[1].

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهَدُ طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان - وأنهوا إليه: أن ببيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس.

فلما وصـــل الكتـاب امتثـل مُتَولِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى- عليه السـلام، وهو في جماعة من أصـحابه، اثنا عشر- أو ثلاثة عشر- - وقيل: سـبعة عشر- نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر- ليلة السـبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصــحابه: أيكم يُلْقَى عليه شـبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتَدَب لذلك شـاب منهم، فكأنه اسـتصـغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشـــاب - فقال: أنت هو - وألقى اللهُ عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو.

وفُتحَت رَوْزَنَة من سـقف البيت، وأخذت عيسى- عليه السـلام سِـنَةٌ من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى:{**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**}[1].

فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصـلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصـــارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المســيح، فإنهم شــاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصـلوب هو المسـيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلســت تحت ذلك المصــلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم.

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما لــــه في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضـح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزلـه على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضـحات، فقال تعالى - وهو أصـدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضـمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون -:

{**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَـــلَبُوهُ وَلَكِنْ شُـــبِّهَ لَهُمْ**} أي: رأوا شـــبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال:{**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَـكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**} يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سَـــلَّمه من جهال النصـــارى، كلهم في شـك من ذلك وحيرة وضـلال وسُـعُر. ولهذا قال:{**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**} أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شـاكين متوهمين.{**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**} أي منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه{**حَكِيمًا**} أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ولـه الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شـــاء ثم صـــعد إلى الســـماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شـــاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النســـطورية، وقـالـت فرقة: كان فينا عبد الله ورســـوله ما شـــاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المســـلمون، فتظـاهرت الكـافرتـان على المســـلمـة، فقتلوها، فلم يزل الإســـلام طامســـا حتى بعث الله محمدًا ﷺ (١).

القول في تأويل قولـه:{**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**}

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضـــهم: معنى ذلك: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به"، يعني: بعيسى ـــ "قبل موته"، يعني: قبل موت عيسى ـ يوجِّه ذلك إلى أنّ جميعهم يصدِّقون به إذا نزل لقتل الدجّال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفيّة، دين إبراهيم ﷺ (٢).

عن ابن عباس قولـه: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته"، يعني: أنه سيدرك أناسٌ من أهل الكتاب حين يبعث عيسى، فيؤمنون به، "ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا"(٣).

ثم سجل عليهم بعد ذلك رذيلة سابعة ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال:{**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ**} والمسيح: لقلب تشريف وتكريم لعيسى - عليه السلام - قيل: لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم. وقيل: لأنه مسح بالبركة كما فى قوله - تعالى:{**وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ**} وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب.

أى: وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لعنهم الله وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم السابقة.

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله، ورسولاً من أولى العزم من الرسل.

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلاً، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة، فدسوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه، بل زعموا أنهم أسلموا فعلا لهم، ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، حيث نجى عيسى - عليه السلام - من شرورهم، ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم.

ولا شك أن صدر عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه، لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد.

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى - عليه السلام - كما بينا، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم. ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره، وفى نيته، وفى شروعه الأثيم، لارتكاب ما نهى الله عنه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى - عليه السلام - أعداء له، عامدين لقتله، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فيكف قالوا:{**إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله**}؟

قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون:{**إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**} ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم، رفعا لعيسى ـ عما كانوا يذكرونه به، وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله:{**لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً**} وقوله - تعالى:{**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ**} رد على مزاعمهم الكاذبة، وأقاويلهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليه السلام -. أى: إن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى ـ - عليه السلام -، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى ـ - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا. إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله.

وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف: قوله:{**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ**} زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال:{**ولكن شُبِّهَ لَهُمْ**}. أى: شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع، إذ قد رفع الله عيسى ـ إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء.

وقيل لمعنى: ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى ـ كما أوهم بذلك أحبارهم.

هذا، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان:

الأول: أن الله - تعالى - ألقى شبه عيسى ـ - عليه السلام - على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو (يهوذا الإِسخريوطى) الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح،

والذى أرشـــد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: من أقبله أمامكم يكون هو المسيح، فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بين عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى.

وهذا الوجه قد جاء مفصلاً فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقولـــه: كان رجلٌ من الحواريين ينافس عيسىـ - عليه السلام - فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسىـ - عليه السـلام - فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى.

الثانى: أن الله - تعالى - ألقى شـــبه المســيح على أحد تلاميذه المخلصــين حينا أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه ســيرفعه إليه، فقال لأصــحابه: «**أيكم يرضى أن يلقى عليه شـبهى فيقتل ويصـلب ويدخل الجنة؟**» فقال رجل منهم أنا. فألقى الله صـورة عيسىـ عليه، فقتل ذلك الرجل وصلب.

وقد أطنب الإِمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه، ومنها قولـــه: عن ابن عباس قال: لما أراد الله - تعالى - أن يرفع عيسىـ إلى السماء، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشرـ رجلا من الحواريين فقال لهم: إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرـة مرة بعد أن آمن بى.

قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى، ويكون معى فى درجتى؟

فقال شاب من أحدثهم سنا. فقال لـــه: اجلس. ثم أعاد عليهم. فقال ذلك الشاب. فقال لـه: اجلس. ثم أعاد عليهم. فقام ذلك الشاب. فقال: أنا.

فقال لـــه عيسى، هو أنت ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السـماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشـبه فقتلوه ثم صـلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائى عن أبى كريـب عن أبى معـاويـة، وقال غير واحد من الســـلف: أنه قال لهم. أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة...

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليهم، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه.

ثم قال - تعالى: {**وَإِنَّ الذين اختلفوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن**}. أى: وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره. أى: فى حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه، أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة. ولا يقوم عليه برهان.

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيراً. فمنهم من زعم أنه ابن الله. وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهياً مع العنصر الإنسانى. وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى. ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى.

ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين معا.

ولقد اختلفوا فى أمر قتله. فقال بعض اليهود: إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقا، وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا. وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لا تنتهى حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه.

فالمراد بالموصول فى قوله:{**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا**} ما يعم اليهود والنصارى جميعا. والضمير فى قوله: (فيه) يعود إلى عيسى - عليه السلام.

وقوله:{**مِّنْهُ**} جار مجرور متعلق بمحذوف صفة الشك.

قال الآلوسى: وأصل الشك أن يستعمل فى تساوى الطرفين، وقد يستعمل فى لازم معناه وهو التردد مطلقا، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد هنا. ولذا أكده بنفى العلم الشامل لذلك أيضا بقوله - سبحانه:{**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن**}.

وقوله:{**إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**} الراجح أن الاستثناء فيه منقطع، أى مالهم به من علم لكنهم يتبعون الظن.

وقولـــه:{ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً**} تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه من قتلهم لـه، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف.

واليقين: هو العلم الجازم الذى لا يحتمل الشك والضمير فى قولـه:{**وَمَا قَتَلُوهُ**} لعيسى.

وقولـــه:{**يَقِيناً**} ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشـهرها: أنه نعت لمصـدر محذوف مأ خوذ من لفظ قتلوه: أى: ما قتلوه قتلاً يقيناً، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسىــ عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم.

أو هو حال مؤكدة لنفى القتل. أى انتفى قتلهم إياه إنتفاء يقيناً. فاليقين منصـــب على النفى. أى: أن نفى كونـه قـد قتـل أمر متيقـن مؤكـد مجزوم بـه، وليس ظنـا كظنكم أو وهماً كوهمكم يا معشر أهل الكتاب.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقولــه: قولــه:{**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**} أى: وما قتلوه قتلا يقينا. أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم:{**إِنَّا قَتَلْنَا المسـيح**} أو يجعل{**يَقِيناً**} تأكيداً لقولـه:{**وَمَا قَتَلُوهُ**} كقولك: ما قتلوه حقاً. أى حق انتفاء قتله حقا.

والمعنى: أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسىــ - عليه الســـلام - وزعمهم هذا أبعد ما يكون عن الحق والصـواب، لأن الحق المتيقن فى هذه المسـألة أنهم لم يقتلوه، فقد نجاه الله من مكرهم، ورفع عيسىــ إليه، وكان الله{**عَزِيزاً**} . أى منيع الجناب، لا يلجأ إليه أحدٌ إلا أعزه وحماه.{**حَكِيماً**} فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور.

هذا، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسىــ إليه بجســده وروحه لا بروحه فقط قال بعض العلماء: والجمهور على أن عيسىــ رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجســـده وروحه إلى السـماء. والخصـوصـية لـــه - عليه السلام - هى فى رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمر المقدر لـه.

وفى بعضهم الرفع فى قولـه - تعالى:{**بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ**} بأنه رفع بالروح فقط.

وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لسورة آل عمران فى قولـــه تعالى:{**إِذْ قَالَ الله ياعيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ**} و{**إِن**} هنا نافية بمعنى ما النافية، والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان:

الأول: أن الضـمير فى قولـــه:{**قَبْلَ مَوْتِهِ**} يعود إلى عيسىـ - عليه السـلام - وعليه يكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسىــ - عند نزولـــــه فى آخر الزمان - حق الإيمان،{**قَبْلَ مَوْتِهِ**} أى: قبل موت عيسىـ{**وَيَوْمَ القيامة يَكُونُ**} عيسى - عليه السلام:{**عَلَيْهِمْ**} أى: على أهل الكتاب{**شَهِيداً**} فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى.

وقد انتصرـ لهذا الاتجاه كثير من المفسرـين وعلى رأسـهم شيخهم ابن جرير. فقد قال - بعد سرد الأقوال فى الآية -: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال. تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى.

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقولـــه: ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصـحيح. لأن المقصـود من سـياق الآيات، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسىـ وصـلبه، وبطلان تسـليم من سـلم لهم من النصـارى الجهالة ذلك. فقد أخبر الله - تعالى - أن الأمر لم يكن كذلك، وإنما شـبه لهم فقتلوا الشـبه وهم لا يتبينون ذلك. ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى، وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة.

ثم عقد ابن كثير فصلاً عنونه بقولـه: ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من الســـماء فى آخر الزمـان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك به.

ثم ســـاق ابن كثير جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها: ما رواه الشــيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله

ﷺ : **«والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب، ويقتل الخنــزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً لـه من الدنيا وما فيها».**

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم:{**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**}.

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن الضمير فى قولـه:{**قَبْلَ مَوْتِهِ**} يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقولـه:{**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب**} وعليه يكون المعنى: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى لـه الحق، ويتبين لـه صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبد الله ورسوله، وأن الله واحد لا شريك لـه، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه جاء فى وقت الغرغرة، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان.

قالوا: ويؤيد هذا التأويل قراءة أبى:{**إلا ليؤمنن به قبل موتهم**} - بضم النون وبميم الجمع.

وقد صدر صاحب الكشاف كلامه بذكر هذا التأويل فقال ما ملخصه: والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى. وبأنه عبد الله ورسوله. يعنى: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه.

فإن قلت: ما فائدة الإخبار بعيسى قبل موتهم؟ قلت فائدته: الوعدي، وليكون عملهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به فى وقت الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم.

وقيل: الضميران لعيسى. بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزولـه.

والذى نراه أولى أنه لا تعارض بين التأويلين. فإن كلا منهما حق فى ذاته.

فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقاً فى نبوته، وأنه عبد الله، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده. وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه [1].

* * * * *

المطلب الرابع:

بعض أوصاف اليهود

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}[1].

يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك وقد قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة، وقالوا يد الله مغلولة يعللون بذلك بخلهم ؛ فالله بزعمهم لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ؛ فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا فقالوا يد الله مغلولة ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا وكذلك كانوا فهم أبخل خلق الله بمال ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان شاهدة باليد المبسوطة والفضل الغامر والعطاء الجزيل ناطقة بكل لسان ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم وبالكنود وبالجحود وبالبذاءة حتى في حق الله ويحدث الله رسوله عما سيبدو من القوم وعما سيحل بهم بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة

وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فبسبب من الحقد والحسد وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا لأنهم وقد أبوا الإيمان لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل ؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً وطغياناً وكفراً فيكون الرسول رحمة للمؤمنين ووبالا على المنكرين ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبا ؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله، وما تزال طوائف اليهود متعادية وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة ففي خلال ألف وثلاثمائة عام بل من قبل الإسلام واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه مهما تقم حولهم الأسناد ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله فأين هي العصبة المؤمنة اليوم التي تتلقى وعد الله وتقف ستارا لقدر الله ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء.

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام تؤمن به على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله واليهود يعرفون هذا ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض ويضربون لا بأيديهم ولكن بأيدي عملائهم ضربات وحشية منكرة ؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة ولكن الله غالب على أمره ووعد الله لا بد أن يتحقق وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض ؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفي عليه ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين.

الدرس السادس: أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السـواء لا افتراق بين دين ودنيا ولا افتراق بين دنيا وآخرة فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة ؛ للدنيا وللدين تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ؛ وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق{**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**}[1] إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ؛ والعقل البشري والموازين البشرية والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج بإزاء هذا الأمر الخطير إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب ويصـدق القول وينطبق على كل أهل كتاب إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سـيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم وهذا جزاء الآخرة وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزلـــه الله إليهم من التعاليم كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل لصـلحت حياتهم الدنيا ونمت وفاضـت عليهم الأرزاق ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج وحسـن التوزيع وصلاح أمر الحياة ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها وكثير منهم ساء ما يعملون.

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده وإن كان هو المقدم وهو الأدوم ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا

ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قولـه:{**لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**} وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ولكنه كذلك وتبعا لذلك منهج حياة إنسانية واقعية يقام وتقام عليه الحياة وإقامته مع الإيمان والتقوى هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية وفيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع حتى يأكل الناس جمعيا في ظل هذا المنهج من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا حقيقة إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله وعن منهجه للحياة اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع الدنيوية أن يتخلوا عن طريق الآخرة ؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف الذي يحض عليه الدين كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ولا مرضية لله سبحانه

ولكن تراها ضربة لازب ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ولا ســبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة كلا إنها ليســت ضربة لازب فالعداء بين الدنيا والآخرة ؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا إنما هي عارض ناشىء من انحراف طارئ.

إن الأصــل في طبيعة الحياة الإنســانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ وأن يكون الطريق إلى صــلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صــلاح الدنيا وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمـل الأرض هو ذاتـه المؤهـل لنيـل ثواب الآخرة كما أنـه هو المؤهـل لرخاء هذه الحياة الدنيا ؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصـالح هي أسـباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسـائل الحصـول على رضـوان الله وثوابه الأخروي هذا هو الأصـل في طبيعة الحياة الإنسـانية ولكن هذا الأصـل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضـيه للناس فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضــة والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم كما يقول الله في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله بإذن الله وفق شرط اللـه ومن ثم يجعـل العمل المنتج المثمر وتوفير الرخاء باســتخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها بل الخامات والموارد الكونية كذلك هو الوفاء بوظيفة الخلافة ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سـخرها الله لـــه ؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه كما يصور التعبير القرآني الجميل ووفق التصـور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض ولا يستغل طاقات الكون المســخرة لـــــه عاصــيا لله ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها وهو يقول للملائكة{**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**} وهو يقول كذلك للناس:{**وَسَـخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**} ومعطلاً لرزق الله الموهوب للعباد وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا والمنهج الإسلامي

بهذا يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق فلا يفوت على الإنسان دنياه لينال آخرته ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله.

فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة في المنهج الإسلامي لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج ؛ وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه الله فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون ولا يأكل من سحت ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع والمنهج يسجل للفرد عمله في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات عبادة لله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة.

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مراتٍ بالصلاة وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان وفي العمر كله بحج بيت الله وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج الذي ينظم أمر الحياة كلها ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق.

وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض وتقرير سلطانه في حياة الناس إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج المعين على أداء شطره الآخر وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض

كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين إن التصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا ولا العكس إنما يقدمهما معا في طريق واحد وبجهد واحد ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل والتصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ؛ بينما يدع الناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي فريضة الخلافة في الأرض والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا.

والطريق هو الطريق ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع لأنهما لا تجتمعان إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة وبين العبادة الروحية والإبداع المادي وبين النجاح في الحياة الدنيا والنجاح في الحياة الأخرى إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية إنما هو ضريبة بائسه فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى.

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشـــقاء قلب وبلبلة خاطر من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشـــاشـــته وزاده وريه إذا هم آثروا إطراح الدين كله على زعم أن هذا هو الطريق الوحيـد للعمـل والإنتـاج والعلم والتجربـة والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي ذلك أنهم في هذه الحالة يصـارعون فطرتهم يصـارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ولا تطيق الفراغ والخواء وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية على الإطلاق لأنها جوعة النزعة إلى إله، وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشـقاء قلب وبلبلة خاطر إذا هم حـاولوا الاحتفـاظ بعقيـدة في اللـه وحـاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضـاعه وتقوم تصـوراته وتقوم وسـائل الكسـب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السـائدة في هذا المجتمع المنكود وتعاني البشر-ية كلها ذلك الشقاء سـواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية وتتصـور أو يصـور لها أعداء البشرية أن الدين لله وأن الحياة للنـاس وأن الدين عقيدة وشـــعور وعبادة وخلق والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء لأنها لا تهتدي إلى منهج اللـه الذي لا يفصـــل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة بل ينســق ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي ولا تقيم منهج اللـه في حيـاتهـا وهي موفورة الخيرات كثيرة الإنتـاج عظيمة الرخاء إنه رخاء موقوت حتى تفعل السـنن الثابتة فعلها الثابت وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني.

والآن تظهر بعض هذه الآثار في صـــور شـــتى تظهر في ســـوء التوزيع في هذه الأمم مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء وحافلاً بالأحقاد وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هـذه الأحقـاد الكظيمة وهو بلاء على رغم الرخاء وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع

واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره إن عاجلاً أو آجلاً إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم وبخاصة أشدها رخاء ماديا مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.

ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي وليس هذا إلا مثلا للآخرين في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني ؛ وافتراق الدنيا والآخرة وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل جماعة من الناس أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة ؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ولكننا مع هذا التوكيد

لا نحب أن ننسى_ أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ؛ ويرفع كل قيم الحياة ؛ ويقوم كل موازين الحياة فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي.

وفي المنهج الإسلامي وكل شيء فيه يجيء تبعا له ومنبثقاً منه ومعتمداً عليه ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة كل أولئك ثمرته للإنسان وللحياة الإنسانية فالله سبحانه غني عن العالمين وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس وجعلها مناط العمل والنشاط ؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها وعده باطلاً لا يقبل وحابطاً لا يعيش وذاهبا مع الريح فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي_ وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»

رواه مسلم. وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله فهي كلها لحسابنا نحن لحساب هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب، فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن، أولى بالشرط الذين يقولون إنهم مسلمون فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد وقد انتهى إليه كل دين قبله ؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره أو يقبل من أحد غيره فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ؛ ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح وشرط الله قائم ؛ والطريق إليه معروف لو كانوا يعقلون.

الوحدة السادسة: الموضوع: بيان كفر وانحراف وإفساد أهل الكتاب

مقدمة الوحدة تقرير نوع العلاقة بين الجماعة المسلمة وأهل الكتاب يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكشف الانحراف فيما يعتقدون وكشف السوء فيما يصنعون ؛ في تاريخهم كله وبخاصة اليهود[1].

* * * * *

المطلب الخامس:

علاقة أهل الكتاب برسلهم

{ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[1].

{**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ**}: العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤدوا ما كلفهم به من تكاليف وأن يتبعوا النبي ﷺ عند ظهوره.

وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أي: بالله لقد أخذنا الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من المأمورات والمنهيات والشرائع والأحكام.

وقوله:{**وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً**} معطوف على{**أَخَذْنَا**} والتنكير في قوله:{**رُسُلاً**} للتكثير والتعظيم.

أي: أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم، وأرسلنا إليهم رسلاً ذوي عدد كثير، لكي يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، ولكي يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم.

فـأنـت ترى أن اللـه - تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملا، بل أرســـل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به

ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق، اكتفاء بذكره في مواطن أخرى كثيرة. ومن ذلك قولـه - تعالى - قبل ذلك في هذه السورة.

{ وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاة وَآتَيْتُمُ الزكاة وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً}،

وقولـــــه:{ **كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُـولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُــهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**} بيان لموقفهم الذميم من الميثاق الذي أخذ عليهم ومن الرسـل الكرام الذين أرسـلهم الله لهدايتهم وسعادتهم.

أي: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم، وأرســلنا إليهم رســلاً كثيرين لهدايتهم ولكنهم نقضــوا الميثاق، وعصـوا الرسل، فكانوا{**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ**} لما لا تشتيه نفوسهم الشقية، وبما لا تميل إليـه قلوبهم الرديـة، نـاصــبوه العـداء؛ فكـذبوا بعض الرســـل، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل.

ولقـد كـذب اليهود جميع الرســـل الـذين جـاءوا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم. وقتلوا من بين من قتلوا من الرسـل بعد أن كذبهم: زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله ﷺ إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرهم وكيدهم.

قال صــاحب الكشــاف: وقولــــه:{**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُــولٌ**} جملة شرطية وقعت صــفة لقولـه:{**رُسُلاً**} والرابط محذوف: أي: رسول منهم{**بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ**} أي بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم.

فإن قلت: أين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف يدل عليه{**فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**} فكأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه.

والتعبير بقولـــه:{**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**} يدل على أن حال بني إسرائيل بالنسـبة للرسـل يدور بين أمرين أما التكذيب لهم، والاسـتهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة.

فكأن التكذيب والقتل قد صار سجيتين لهم لا تختلفان في أي زمان ومع أي رسول، وذلك لأن لفظ: " كل " يدل على العموم. " وما " مصـدرية ظرفية دالة على الزمان، فكأنه - سبحانه - يقول في كل أوقات مجيء الرسـل إليهم كذبوا ويقتلوا دون أن يفرقوا بين رسـول ورسول أو بين زمان وزمان.

وقـال - ســبحـانـه:{**بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُــهُمْ**} للمبالغة في ذمهم، إذ هوى النفس ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا تنبغي، والرسل ما أرسلهم الله - تعالى - إلا لهداية الأنفس، وكفها عن شهواتها التي يؤدي الوقوع فيها إلى المفاسد.

وبنو إسرائيـل لا يكـذبون الرســل، ويقتلونهم إلا لأنهم جـاءهم بمـا يخـالف هواهم، ويتعارض مع أنانيتهم وشرهم ومطامعهم الباطلة.

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات، ترى الحسن قبيحا، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها.

وقدم - سبحانه - المفعول به في قولـــه:{**فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**} للاهتمام بتفصيل أحوال بني إسرائيل السيئة، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم.

وعبر عن التكـذيـب بـالفعـل المـاضي فقـال:{**فَرِيقاً كَذَّبُواْ**} وعن القتل بالفعل المضـــارع فقال:{**وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**} لحكاية الحال الماضـية التي صـدرت من أسـلافهم بتصوير ما حصل في الماضي كأنه حاصـل وقت التكلم، ولاسـتحضار جريمتهم البشعة في النفوس حتى لكأنها واقعة في الحال، وفي ذلك ما فيه من النعي عليهم. والتوبيخ لهم والتعجيب من أحوالهم التي بلغت نهاية الشناعة والقبح.

ثم بين - سـبحانه - بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسـلهم من التكذيب والقتل لم ينزجروا، ولم يندموا... بلغ بهم الغرور والسفه أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئاً هينا وأنه لن يكون لـه أثر سيئ في حياتهم. فقال - تعالى:{**وحسبوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**}.

وقولـه:{**وحسـبوا**} معطوف على قولـه:{**كَذَّبُواْ**} وهو من الحسـبان بمعنى الظن: وقولـه:{**فِتْنَةٌ**} من الفتن وهو إدخال الذهب في النار لتظهر جودته. والمراد بها هنا: الشدائد والمحن والمصائب التي تنزل بالناس.

والمعنى: إن بني إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد، وأرسـلنا إليهم الرسـل لهدايتهم، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسـل، وقتلوا البعض الآخر. ولم يكتفوا بهذا بل ظنوا - لسـوء أعمالهم وفسـاد قلوبهم واسـتيلاء الغرور والتكبر على نفوسـهم - أنهم لن يصـيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسـل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون البغي والفساد وعموا وصـموا عن دلائل الهدى والرشـاد التي جاء بها الرسـل واشـتملت عليها الكتب السماوية{**ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ**} أي: قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فسـاد{**ثُمَّ عَمُواْ وَصَـمُّواْ**} أي: ثم نكسوا على رؤوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على هداتهم، إلا عددا قليلاً منهم بقي على إيمانه وتوبته فأنت ترى أن الآية الكريمة مسـوقة لبيان فسـاد معتقدات بني إسرائيل وما جبلت عليه نفوسهم من جحود وغرور.

حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ومنكرات تقشـعر لها الأبدان ومع كل ذلك حسبوا أن اللـه - تعـالى - لا يعـاقبهم عليهـا، لأنهم - كما يزعمون - أبنـاء الله وأحباؤه. ثم إنهم بعد أن تاب الله عليهم نقضـوا عهودهم معه وعادوا إلى أعمالهم عن الدين الذي جاءتهم به رسـلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذي ألقوه إليهم.

وقولـه:{**أَلاَّ تَكُونَ**} قراءة أبو عمر والكسـائي وحمزة بضم النون على اعتبار " أن " هي المخففة من الثقيلة، وأصـله أنه لا تكون فتنة. فخفف{**أن**} وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا.

وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم.

وقراءة الباقون بفتح النون على اعتبار أن " أن " ناصبة لتكون. وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن.

وسد مسد مفعولي حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسند إليه وهو{**أن**} وما في حيزها.

وقوله:{**فعموا**} معطوف على{**حسبوا**} وجيء بالفاء التي للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها.

أي أن عماهم عن الطريق القويم وصمم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا.

ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أومأ إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم في الآخرة ببيان أن ظنهم لن تنزل بهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح.. أما الآخرة فلا مكان لها في تفكيرهم، لأنهم قوم تعساء يحرصون على الدنيا حرصا شديداً دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أي اهتمام.

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان وتغلب عليها حب الشهوات وضعف الوازع الديني في نفوس أفرادها. إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصوراً على تدبير شؤون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم أغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة.

وجيء بحرف العطف{**ثم**} المفيد للتراخي في قوله:{**ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ**} للإشارة إلى أن قبول توبتهم كان بعد مفاسد عظيمة وقعت منهم أي: ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعراض عن الرشد والهدى.

وقوله:{**ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ**} بيان لنقضهم لعهودهم مع الله، وارتكاسهم في الذنوب والخطايا والمنكرات. ارتكاساً شديداً بحيث صاروا ليسوا أهلا لقبول التوبة منهم بعد ذلك.

أي: بعـد أن قبـل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة. عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا في الذنوب والجرائم بإصرار وعناد فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يتب الله عليهم بعدها.

وقولـــه:{**كَثِيرٌ مِّنْهُمْ**} بدل من الضمير في قولـــه:{**عَمُواْ وَصَمّواْ**} وهذا الإبدال في غاية الحسـن. لأنه لو قال:{**عَمُواْ وَصَمّواْ**} بدون هذا البدل لأوهم ذلك أنهم جميعا صـاروا كذلك فلما قال:{**كَثِيرٌ مِّنْهُمْ**} دل على أن العمى والصمم قد حدث للكثيرين منهم، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها.

وهذا - كما قلنا مرارا - من إنصاف القرآن للناس في أحكامه، ودقته في ألفاظه، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه.

وقولـه:{**والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون**} تذييل قصد به بطلان حسبانهم المذكور، والبصير مبالغة في المبصرـ وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يكون منهم من أعمال سـواء أبصرـها الناس أم لم يبصروها.

والمقصـــود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء. وسيحاسبهم على أعمالهم.

أي: والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية، والصمم الذي أصابهم بعد ذلك وقد أجمل الإمام الرازي كلامهم فقال:

والآيـة تـدل على أن عماهم وصـــممهم عن الهـدايـة إلى الحق حصـــل مرتين. واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: المراد أنهم عموا وصـموا في زمان زكريا ويحيى وعيسىـ - عليهم السـلام - ثم تاب الله على بعضـهم حيث وفق بعضـهم للإيمان: ثم عموا وصـموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ بأن أنكروا نبوته، وقلة منهم هي التي آمنت به.

الثـاني: المراد أنهم عموا وصـــموا حيث عبدوا العجل، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طلبهم رؤية الله جهرة.

الثالث: ذكر الله - تعالى - في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية:{**وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً**} والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها هذا التحديد غير مقنع.

ولعل أحسن منه أن نقول: إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق. فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم. بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلا منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها.{**وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**} وبعد أن بين - سبحانه - أنماطا من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى:{**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ...**}.

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى.

واللام في قوله:{**لَقَدْ كَفَرَ**} واقعة جواباً لقسم مقدر.

والمراد بالكفر: ستر الحق وإنكاره والانغماس في الباطل والضلال.

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم.

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى- وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برئ منها.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى في الرد على من جعلوه إلها فقال:{**وَقَالَ المسيح يابني إِسْرَائِيلَ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ**}.

أي: وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية: يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، فهو ربي الذي خلقني وتعهدني بالتربية والرعاية، وهو ربكم - أيضاً - الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات.

والواو في قوله:{**وَقَالَ المَسِيحُ**} للحال. والجملة حالية من الواو التي هي فاعل{**قالوا**}.

أي: قالوا ما قالوا، والحال أن عيسى- قد تبرأ مما قالوه. وقال لبني إسرائيل حين إرساله إليهم: اعبدوا الله ربي وربكم.

وقوله:{**رَبِّي وَرَبَّكُمْ**} تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخلاق له ولهم ولكل شيء.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى- محذراً من الإشراك فقال:{**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة وَمَأْوَاهُ النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ**}.

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده. والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك: منعه من دخولها، لإشراكه مع الله آلهة أخرى.

والمأوى: المكان الذي يأوى إليه الإنسان. أي يرجع إليه ويستقر فيه.

أي: قال المسيح لبني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، لأنه أي الحال والشأن{**مَن يُشْرِكْ بالله**} شيئاً في عبادته - سبحانه:{**فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة**} أي: منعه من دخولها، بسبب شركه وكفره، وجعل{**وَمَأْوَاهُ النَّارُ**} أي: جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة{**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ**} ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم.

فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء.

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهي حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهي استقرارهم في النار، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التي تدل على جهلهم وسفاهتهم.

والمراد بالظالمين: المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون "أل" للعهد

ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً فتكون أل للجنس.

وقال - سبحانه:{**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**} بصيغة الجمع لكلمة " أنصار " وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم.

أي: ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأي طريقة من الطرق.

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذي حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك.

وقوله - تعالى:{**لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**} بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين يتفرقون في العقائد والنحل، ويتجمعون على الكفر والضلال، فهم شيع شتى، وفرق متنابذة، كل شيعة منهم تكفر الأخرى وتعارضها في معتقداتها.

قال الفخر الرازي ما ملخصه: في تفسير قول النصارى:{**إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**} طريقان:

الأول: أنهم أرادوا بذلك أن الله مريم وعيسى آلهة ثلاثة. والذي يؤكد ذلك قوله - تعالى - للمسيح:{**أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله**} فقوله:{**ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**} أي: أحد ثلاثة آلهة. أو واحد من ثلاثة آلهة.

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: أب، وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة. وعنوا بالأب الذات. وبالابن الكلمة. وبالروح الحياة. وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر أو اللبن فزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

ثم قال الإمام الرازي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل. فإن الثلاثة لا تكون وا حداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى: إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقوسية.

ومعنى ثالث ثلاثة: واحد من ثلاثة. أي: أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وشعرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها: أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير.

فتقول: رابع أربعة أي: واحد من أربعة وليس زائداً عليها، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله.

وقوله:{**وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ**} بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل.

وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر ـ وهو اشتمالها على " ما " و" إلا ". مع تأكيد النفي بمن المفيدة لاستغراق النفي.

والمعنى: لقد كفر الذين قالوا كذ باً وزوراً: إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس في هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين، الذي خلق الخلق بقدرته، ورباهم بنعمته. وإليه وحده مرجعهم وإيابهم.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى: {**وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**}.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قولـه:{**لَقَدْ كَفَرَ**} والمراد بانتهائهم: رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر.

والمراد بقولـه:{**عَمّا يَقُولُونَ**}: أي عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان.

أي: لقـد كفر أولئك الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة كفراً شـــديدا بينا والحق أنه ليس في الوجود ســـوى إلـه واحـد مســـتحق للعبـادة، وإن لم يرجع هؤلاء الـذين قالو بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاســـدة ويعتصـموا بعروة التوحيد{**لَيَمَسّـــنَّ الذين كَفَرُواْ**} أي: ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم.

فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار في هذا القول الكاذب.

والاعتقاد الفاسد الذي يتنافى مع العقول السليمة، والأفكار القويمة.

وقولـــه:{**لَيَمَسّـنَّ**} جواب لقسـم محذوف، وهو سـاد مسـد جواب الشرط المحذوف في قولـه:{**وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ**} والتقدير: والله إن لم ينتهوا ليمسن.

وأكد - سـبحانه - وعيدهم بلام القسـم في قولـــه:{**لَيَمَسّـنَّ**} رداً على اعتقادهم أنهم لا تمسهم النار، لأن صلب عيسى - في زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر.

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام: لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضـع الإحسـاس فيهم إصـابة مسـتمرة، كما قال - تعالى - في آية أخرى:{**كُلَّمَا نَضِـجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب**} وقال - سـبحانه:{**لَيَمَسّـــنَّ الذين كَفَرُواْ**} بالتعبير بالظاهر دون الضـــمير للإشـــارة إلى ســـبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم.

ومن في قولـه:{**منهم**} يصح أن تكون تبعيضية أي: ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصـارى عذاب أليم، لأن كثيرا منهم لم يسـتمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا في دين الإسلام.

ويصح أن تكون بيانية، وقد وضح ذلك صاحب الكشاف بقولـه: ومن في قولـه:{**لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ**} للبيان كالتي في قولـــه{**فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان**} والمعنى: ليمســن الذين كفروا من النصـارى خاصــة{**عَذَابٌ أَلِيمٌ**} أي نوع شـديد الألم من العذاب.. كما تقول: أعطني عشرــين من الثياب. تريد من الثياب خاصــة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون.

وبعـد هذا الترهيب الشـــديد للكافرين من العذاب الأليم، فتح لهم - ســبحانه - باب رحمته، حيث رغبهم في الإيمان، وأنكر عليهم تقاعســهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم عليه من عقائد فقال - تعالى: {**أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}.

والاســتفهام هنا يتضــمن حضــهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضــلال والتعجيب من اســتمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاســدة التي لا يقبلها عقل سليم، ولا تصور قويم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضــيه الكلام. أي: أيســمعون ما يســمعون من الحق الذي يزهق بـاطلهم ومن النـذر التي ترقق القلوب لا يحملهم ذلـك على التوبـة والرجوع إلى اللـه وطلب مغفرته، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا.

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله، وبعد تحذيرهم من سـوء عاقبة الكافرين ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم.

قال أبو الســعود: وقولـــــه:{**والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} جملة حالية من فاعل{**وَيَســتَغْفِرُونَهُ**} مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار.

أي: والحال أن الله: - تعالى - مبالغ في المغفرة. فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله.

وقـال ابن كثير: هـذا من كرمـه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه. مع هذا الذنب العظيم، وهـذا الافتراء والكـذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. فكل من تاب إليه تاب عليه. كما قال:{**والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم.

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى:{**مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام**}.

وقوله:{**صديقة**} صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك.

قال الراغب: والصديق من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لم يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يأتي منه الكذب لتعوده الصدق. وقيل، لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله.. قال - تعالى:{**فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين**}.

فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة.

والمعنى: إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. قد قالوا منكرا وزورا، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعي واحد منهم الألوهية. وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها. وهما - أي عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوهما بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافياً تاماً مع صفات الألوهية: إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم، وعظيم جهلكم.

وقوله:{**مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ**} جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في عيسى أنه الله، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة.

وقولـــه:{**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسـل**} صـفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ وأنه ليس بدعا في هذا الوصف وإذا فلا شبهة للذين زعموا أنه إله " لأنه لم يجئ بشيء زائد على ما جاء به الرسل ".

وقولـه:{**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**} معطوف على قولـه:{**مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ**} والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها، ونفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، فهي ليست إلها. كما أنها ليست رسولا.

ولذا قال ابن كثير: دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سـارة أم إسـحاق ونبوة أم عيسىـ ونبوة أم موسى - اسـتدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله:{**وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ**} والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى:{**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى**} وقولـه:{**كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام**} جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى -.

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس. لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس، ودالة على احتياجهما لغيرهما في مطلب حياتهما، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلها.

وقال صاحب الكشاف: لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصابٍ وأخلاطٍ وأمزجةٍ مع شهوةٍ.

وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا لله أن يكون كذلك.

ففي هذه الجمل الكريمة رد على ما زعمه النصـارى في شـأن عيسىـ وأمه بأبلغ وجه وأحكمه، ولـذا عجـب اللـه - تعالى - رسـوله وكل من يصـلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال:{**انظر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيات ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ**} أي: يصرفون.

يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشيء.

أي: انظر - يا محمد - كيف تبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحاً ظاهراً. ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن التأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم.

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة. مع أنه - سبحانه - أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك.

وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب من أحوالهم الغريبة وجيء بثم المفيدة للتراخي في قوله:{**ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ**} لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد أي: أن بياناً للآيات أمر بديع في بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات. وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم.

ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فأمر رسوله ﷺ أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى:{**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ...**}[1].

* * * * *

المطلب السادس:

علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [١].

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا، قال: فأنزل الله فيهم:**{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود}** إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلماً حتى مات، فقال رسول الله ﷺ : «**إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه**» فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشي بالحبشه[٢].

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى في سبب نزول هذه الآيات أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا: إنا نصارى، وأن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به ق وم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا، لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه[٣].

فقوله - تعالى: **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود والذين أَشْرَكُواْ}** جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيراً من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة.

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها، والخطاب للنبي ﷺ ويصح أن يكون لكل من يصلح للخطاب للإيذان بأن حالهم لا تخفى على أحد من الناس.

والمعنى: أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق، ستجد أشـدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم: وهما اليهود والذين أشركوا، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسـد والعناد والغرور. وهـذه الرذائـل متى تمكنـت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق.

وقولـه:{**أَشَدَّ النَّاسِ**} مفعول أول لقولـه:{**لَتَجِدَنَّ**} ومفعول الثاني{**الْيَهُودُ**} وقولـه:{**عَدَاوَةً**} تمييز.

قال الآلوسي: والظاهر أن المراد من اليهود العموم، أي من كان منهم بحضرة الرسول الله ﷺ من يهود المدينة وغيرهم ويؤيده ما أخرجه أبو الشـيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله**» وقيل المراد بهم: يهود المدينة وفيه بعد، وكما اختلف في عموم اليهود اختلف في عموم الذين أشركوا. والمراد من{**النَّاسَ**} كما قال أبو حيان - الكفار: أي لتجدن أشد الكفار عداوة هؤلاء.

ووصفهم - سبحانه - بذلك لشدة كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، وقد قيل: إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصـال الشرـ إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة.

وقولـه:{**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الذين قالوا إِنَّا نصـارى**} معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان.

أي: لتجدن يا محمد أشـد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى.

قال ابن كثير: أي الذين زعموا أنهم نصـارى من أتباع المسـيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة: وما ذاك إلا لما في قلوبهم -

من لين عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال - تعالى:{**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً**} وفي كتابهم: " من ضربك على خدك الأيمن فأدر لـــــه خدك الأيسر " وليس القتال مشروعا في ملتهم.

وقال الجمل: فإن قلت: كفر النصـــارى أشـــد من كفر اليهود لأن النصـــارى ينازعون في الألوهيـة فيدعون أن لله ولدا، واليهود ينازعون في النبوة فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلت: هذا مدح في مقابلة ذم وليس مدحاً على إطلاقه، وأيضاً الكلام في عداوة المسـلمين وقرب مودتهم لا في شدة الكفر وضعفه.

وقولـــــه:{**ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّـيسِـينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْـتَكْبِرُونَ**} تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين.

والقسـيسـين: جمع قسـيس. وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم.

والرهبان: جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع، والراهـب هو الرجـل العـابـد الزاهـد المنصر ــف عن الدنيا، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف. يقال: رهب فلان ربه يرهبه، أي: خافه.

والمعنى: ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى، وذلك لأن منهم القســيســين الذين يرغبون في طلب العلم ويرشـــدون غيرهم إليه، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضاً فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصـارى من صـفاتهم أنهم لا يسـتكبرون عن اتباع الحق والانقياد لـــــه إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين.

وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين لأن غرورهم واستكبارهم جعلهم ينصرفون عن الحق فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار، وأن النبوة يجب أن تكون فيهم والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم،

وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبي ﷺ لأنهم وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء.

قال الآلوسي: وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت.

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال:{ **وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق**} والمراد بالرسول: محمد ﷺ وبما أنزل إليه: القرآن الكريم.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله:{**وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**} والضمير في قوله:{**سَمِعُواْ**} يعود على الذين قالوا: إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به.

أي، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم. وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزرة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه.

وفي التعبير عنهم بقوله:{**ترى**} الدالة على الرؤية البصرية والتي هي أقوى أسباب العلم الحسي، مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق.

فلقد كانوا يحسون أنهم في ظلام وضلال فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم ودخلوا في نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له.

وقوله:{**تَفِيضُ**} من الفيض وهو انصباب عن امتلاء: يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه.

وقد أجاد صاحب الكشاف في تصوير هذا المعنى فقال: فإن قلت: ما معنى قوله:{**تَفِيضُ مِنَ الدمع**} قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء

فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها. أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعا.

فإن قلت: أي فرق بين من ومن في قولـــــه:{**مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق**}؟ قلت: الأولى: لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصـــول الـذي هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟

ثم حكى - ســبحانه - ما قالوه بعد ســماعهم للحق فقال:{**يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين**}.

أي: يقولون بعد أن سـمعوا الحق: يا ربنا إننا آمنا بما سـمعنا إيماناً صادقاً فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ التي آمنت به وشـهدت بصـدق رسـولك محمد ﷺ وبصـدق كل رسـول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ثم حكى - ســبحـانـه - بعـد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول في الدين الحق، فقـال:{ **وَمَـا لَنَـا لاَ نُؤْمِنُ بـالله وَمَـا جَـآءَنَـا مِنَ الحق وَنَطْمَعُ أَن يُـدْخِلَنَـا رَبَّنَا مَعَ القوم الصالحين**}.

فالآية الكريمة من تتمة قولهم.

والاســتفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته، وظهور أماراته ووضـــوح أدلته وشواهده.

والمعنى: وأي مـانع يمنعنـا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصــمد، وبما جاءنا على لسـان رسـوله محمد ﷺ من قرآن يهدي إلى الرشـد ومن توجيهات توصـل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسـبب إيماننا - مع القوم الذين صـلحت أنفسـهم بالعقيدة السليمة، وبالعبادات الصـحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبي الأمي محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القر آن تأثرت نفوسهم به تأثراً شديدا فاضت معه أعينهم بالدمع. ثم بعد

ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التي تشهد على غيرها يوم القيامة. ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته. وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس.

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم:{**وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا**} يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق والمسارعة إلى العمل الصالح، لم يجزموا بحسن عاقبتهم، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع في مغفرته، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ.

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء.

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئاً عظيماً، عبر عنه - سبحانه - بقوله:{ **فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك جَزَآءُ المحسنين**}.

أي: فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار{**خَالِدِينَ فِيهَا**} أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه،{**جَزَآءُ المحسنين**} أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم.

والمراد بقوله:{**بِمَا قَالُواْ**}: ما سبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم:{**رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين**} ورتب الثواب المذكور على القول: لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم، وعلى صدق يقينهم، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان.

قال الآلوسي: قوله:{**فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ**} أي بسبب قولهم أو بالذي قالوه عن اعتقاد، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الاعتقاد يكون المراد به المقارن له، كما إذا قيل: هذا قول فلان، لأن القول إنما يصدر عن صاحبه لإفادة الاعتقاد.

وقيـل: إن القول هنـا مجـاز عن الرأي والاعتقـاد والمـذهـب كما يقـال: هـذا قول الإمام الأعظم أي: هذا مذهبه واعتقاده.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذا القول قولهم:{**رَبَّنَآ آمَنَّا**} وقولهم:{**وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ**}.

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا مع القوم الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين. فأعطاهم - سبحانه - جنات تجري من تحتها الأنهار. وسماهم محسنين. والإِحسان أعلى درجات الإِيمان، وأكرم أوصاف المتقين.

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فآمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم. أما الذين سمعوا فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيئ بقوله:{ **والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أولئك أَصْحَابُ الجحيم**}.

أي: والذين كفروا وجحدوا الحق الذي جاءهم، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم، أي: النار الشديدة الاتقاد. يقال: جحم فلان النار إذا شدد إيقادها.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا في الدين الحق بسرعة ورغبة، فأكرمهم الله غاية الإِكرام، وهذا ينطبق على كل نصراني ينهج نهجهم، ويسلك مسلكهم، فيدخل في الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون.

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير[١].

* * * * *

المطلب السابع:

إفساد الإسرائليين وتشريدهم في الأرض مرتين

{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً}[1].

{وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً}..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم. فالله سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد{**قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**} إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن. فما سيكون بالقياس إلى علم الله كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر ـ لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار.

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون. وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً:

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً}.

فهذه هي الأولى: يعلون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسدون فيها.

فيبعث الله عليهم عباداً من عباده أولي بأس شـديد، وأولي بطش وقوة، يسـتبيحون الـديار، ويروحون فيها ويغدون باسـتهتار، ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيب{**وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً**} لا يخلف ولا يكذب.

حتى إذا ذاق بنو إسرائيـل ويلات الغلـب والقهر والـذل؛ فرجعوا إلى ربهم، وأصـلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم. وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسـدوا في الأرض، أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمسـتضـعفين من المستكبرين:{**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**}..

ثم تتكرر القصة من جديد!

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

{**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**}..

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله لـه، بكل ثماره ونتائجه. وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسـان مسؤولاً عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء.

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة:

{**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً**}..

ويحذف السـياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفسـاد في الأرض، اكتفاء بذكره من قبل:{**لَتُفْسِـدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**} ويثبت ما يسـلطه عليهم في المرة الآخرة:{**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ**} بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال. ويسـتبيحون المقدسـات ويستهينون بها:{**وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**} ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار{**وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً**}.. وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء، والذي لا يبقي على شيء.

ولقد صـــدقت النبوءة ووقع الوعد، فســـلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميرا.

ولا ينص القرآن على جنســية هؤلاء الذين ســلطهم على بني إسرائيل، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً. والعبرة هي المطلوبة هنا. وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود.

ويعقب الســياق على النبوءة الصـادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة:{**عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ**} إن أفدتم منه عبرة.

فأما إذا عاد بنوا إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية:{**وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**}..

ولقد عادوا إلى الإفســاد فســلط الله عليهم المســلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفســاد فســلط عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصرـ الحديث فســلط عليهم «هتلر».

ولقد عادوا اليوم إلى الإفســاد في صــورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصــحاب الأرض الويلات. وليسـلطن الله عليهم من يسـومهم سـوء العذاب، تصـديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف.. وإن غداً لناظره قريب!

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكله:

{**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً**}.. تحصرـهم فلا يفلت منهم أحد؛ وتتسـع لهم فلا يند عنها أحد.

{**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**...} إخبار من الله - تعالى - لهم، بما سـيكون منهم، حسـب ما وقع فى علمه المحيط بكل شـئ، والذى ليس فيه إجبار أو قسر، وإنما هو صفة انكشافية، تنبئ عن مآلهم وأحوالهم.

والمراد بالكتاب: التوراة، وقيل: اللوح المحفوظ.

واللام فى قولـــه:{**لَتُفْسِدُنَّ**...} جواب قسـم محذوف تقديره: والله لتفسـدن والمقصـود بالأرض: عمومها أو أرض الشام.

و{**مَرّتَيْنِ**} منصـوب على أنه مفعول مطلق لقولـــه:{**لَتُفْسِـدُنَّ**} من غير لفظه، والمراد لتفسدن إفسادتين وقولـــه - عز وجل:{**وَلَتَعْلُنَّ**..} من العلو وهو ضد السفل، والمراد به هنا: التكبر والتجبر والبغى والعدوان.

والمعنى: وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبراً مؤكداً: وأوحينا إليهم بواسطة رسلنا، بأن قلنا لهم: لتفسدن فى الأرض مرتين، ولتستكبرون على الناس بغير حق، استكبارا كبيرا، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار.

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضـاء وأنه فى الكتاب، يدل على ثبوته، إذ أصـل القضاء - كما يقول القرطبى - الإِحكام للشىء والفراغ منه.

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان.

وكـان من مظـاهر إفســادهم فى الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركهم العمـل بمـا فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء والمصلحين.

ثم بين - ســبحـانـه - أنه يسـلط عليهم بعد إفســادهم الأول فى الأرض، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم، ويدمرهم تدميراً، فقال - تعالى:{**فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً**}.

والمراد بالوعد: الموعد المحدد لعقابهم بسـبب إفســادهم فى الأرض، فالكلام على حذف مضاف، والضمير فى{**أولاهُمَا**} يعود على المرتين المعبر عنهما بقول:{**لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرّتَيْنِ**}.

وقولـه:{**فَجَاسُوا**} ممعطوف على:{**بَعَثْنَا**} وأصل الجوس: طلب الشىء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب.

والمعنى: فإذا حان وقت عقابكم - يابنى إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم{**عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَـــدِيدٍ**} أى أصــحاب بطش شــديد فى الحروب والقتال، فأذلوكم وقهروكم، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار،

لقتـل من بقى منكم على قيـد الحيـاة، وكـان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم، وهتك أعراضكم، وتخريب دياركم.. وعدا نافذا لا مرد لـه، ولا مفر لكم منه.

قـال الآلوسى: واختلف فى تعيين هؤلاء العبـاد - الـذين بعثهم اللـه لمعـاقبة بنى إسرائيل بعـد إفســادهم الأول - فعن ابن عبـاس وقتـادة: هم جالوت وجنوده، وقال ابن جبير وابن إسحاق: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده. وقيل: هم العمالقة، وقيل: بختنصر.

وســنبين رأينا فيمن ســلطه الله - تعالى - عليهم فى المرتين، بعد تفســيرنا لهذه الآيات الكريمة.

فإن قال قائل: وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسـدون فى الأرض مرتين. وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من اســتعلاء وطغيان، بأن يســلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم؟.

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفسـاد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم.

وهنـاك فـائـدة أخرى لهـذا الإِخبـار، وهو تنبيـه العقلاء فى جميع الأمم أن يحـذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك، وأن يحذروا أممهم من ذلك، ويبصرـوهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل.

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للنبى ﷺ ومن على شاكلتهم فى الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله فى خلقه، وهى أن الإِفساد عاقبته الخسران.

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسـول ﷺ الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه، لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

ثم أشـــار - ســـبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها. تسـتطيع أن تسـترد مجدها، متى أصـلحت من شـأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه:{**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**}.

ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم، بعد أن أصـــابهم ما أصابهم من أعدائهم.

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقولـه:{**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**}.

والكَرّة: المرة من الشـئ: وأصــلها من الكَرّ وهو الرجوع، مصــدر كر يكر - من باب قتل يقال: كرّ الفارس كَرّا، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال.

والمراد بالكرة هنا: الدولة والغلبة على سبيل المجاز.

أى: ثم أعـدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة علىأعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم، بعد أن أحسنتم العمل، ورجعتم إلى الله - تعالى - واتبعتم ماجاءكم به رسلكم.

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشـاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر.

قال أبو حيان: وجعل - سـبحانه:{**رَدَدْنَا**} موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع، عبر عن المستقبل بالماضى.

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقولـه:{**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**}.

أى: لم نكتف بأن جعلنا النصرـ لكم على أعدائكم، بل فضــلا عن ذلك، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم.

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قولـه - تعالى:{**وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**}.

والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته، وهو منصوب على التمييز. والمفضل عليه محذوف، والتقدير: وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم..

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم، وأن تحسنوا الاستفادة منها، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة، فقد نصركم بعد هزيمتكم، وأغناكم بعد فقركم، وكثّركم بعد قتلكم.

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف، وهى أن الإِحسان عاقبته الفلاح، والعصيان عاقبته الخسران، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه، فقال - تعالى:{**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**}.

أى: إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإِحسان للعمل، وإن أسأتم أعمالكم، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى.

وقد رأيتم كيف أن الإِفساد كانت عاقبته أن{**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار**} {**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَّنَآ**} فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى: ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل.

قال الجمل ما ملخصه: وقوله:{**ليسوءوا**} الواو للعباد أولى البأس الشديد.

وفى عود الواو على العباد نوع استخدام، إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده.

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل{**ليسوء**} والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد، وإما البعث.

وقرأ الكسائى لنسوء - بنون العظمة. أى: لنسوء نحن وهو موافق لما قبله، من قوله: بعثنا، ورددنا، وأمددنا، ولما بعده من قوله: عدنا، وجعلنا، وقرأ الباقون. ليسوءوا، مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد، وهو موافق لما بعده من قوله:{**وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ**} {**وَلِيُتَبِّرُوا**}.

وقال الإمام الرازى: ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنه، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب، ظهر الكلوح فى الوجه.

وقوله - سبحانه:{**وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**} معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه:{**ليسوءوا وجوهكم**}.

والمراد بالمسجد: المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس، وقوله:{**كَمَا دَخَلُوهُ**} صفة لمصدر محذوف.

والمعنى: وليدخلوا المسجد دخولاً كائناً كدخولهم إياه أول مرة.

قال أبو حيان: ومعنى:{**كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**} أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال.

أى: أن المراد من التشبيه، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم.

وقوله - تعالى:{**وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً**} يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه. ومنه قول الشاعر:

وما الناس إلا عاملان فعامل ::: يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى: يخرب ويهدم ما يبنى.

و " ما " فى قوله{**مَا عَلَوْاْ**} اسم موصول مفعول يتبروا: وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها، والعائد محذوف، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله.

أى: وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها، وصـــارت فى حوزتهم، تدميرا تاما لا مزيد عليه.

وبذلك نرى أن العباد الذين ســلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل، عقب إفســادهم الثانى فى الأرض، لم يكتفوا بجوس الديار، بل أضــافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم، ودخول المسـجد الأقصىـ فاتحين ومخربين، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف.

ثم ختم - سـبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسـبب إفســادهم فى الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم، وســببا فى توبتهم وإنابتهم، إن فتحوا قلوبهم للحق، واعتبروا بالأحداث الماضــية، وفهموا عن الله - تعالى - ســنته التى لا تتخلف، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه. فقال - تعالى:{**عسىـ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً**}.

أى: عسىـ ربكم أن يرحمكم: ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصـتم لـــــه العبادة والطاعة، وأصـلحتم أقوالكم وأعمالكم، فقد علمتم أنه - سـبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفعه إلا بتوبة.

قال أبو حيان: وهذه الترجية ليســت لرجوع دولــــــة، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا.

وقولـــــه - ســبحانه:{**وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**} إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم.

أى: وإن عـدتم إلى المعـاصى ومخـالفة أمرى، وانتهاك حرماتى، بعد أن تداركتكم رحمتى، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار.

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها الرسول ﷺ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله ﷺ وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى ﷺ وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل..

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: " عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين ".

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال:{**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً**} أى: إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم{**حصيرا**} أى: سجنا: حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه، أو الفكاك عنه، أو فراشا تفترشونه، كما قال - تعالى:{**لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين**} قال بعض العلماء: " قوله:{**حصيرا**} فيه وجهان: الأول: أن الحصير المحبس والسجن. من الحصر وهو الحبس: يقال حصره يحصره حصرا، إذا ضيق عليه وأحاط به.

والثانى: أن الحصير: البساط والفراش، من الحصير الذى يفرش، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا.. ".

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكت لنا قضاء الله - تعالى - فى بنى إسرائيل، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف، والتى من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

هذا، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض، يرى أقوالاً متعددةً يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف.

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة{**لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ**}

فكان أول الفسـادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى " صحابين " فبعث الجنود، وكانوا من أهل فارس.. فتحصنت بنو إسرائيل.. ودخل فيهم " بختنصر " - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم.. إلخ.

وهذا الأثر من وجوه ضـعفه، أن غزو النبط ومعهم بختنصرـ لبنى إسرائيل سـابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالى ستة قرون.

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات: الأولى فى سنة ٦٠٦ ق. م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق. م، والثالثة فى سنة ٥٨٨ ق. م.

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل.

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى.

وإذاً فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومع " بختنصر " يتنافى مع الحقائق التاريخية.

وفضـلا عن ذلك، فإن هذا الأثر اضـطرابه ظاهر، لأن " صـحابين " ملك النبط، هو الذى يسـميه المؤرخون " سـنحاريب " وكان ملكا للأشوريين، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق. م أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة، أى: أن بختنصر لم يكن معاصرا لـه.

والرأى الذى نختاره: هو أن العباد الذين سـلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسـادهم الأول، هم جالوت وجنوده. ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلي:

١- ذكر القرآن الكريم فى سـورة البقرة، عند عرضـه لقصـة القتال الذى دار بين طـالوت قـائـد بنى إسرائيل، وبين " جالوت " قائد أعدائهم، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم.

ويتجلى هذا المعنى فى قولـه - تعالى:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ من بني إِسْرَائِيلَ من بَعْد موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا..**}

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم: {**وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا من دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا**} يدل دلالة قوية، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم، وإلى مفارقة أبنائهم.

٢- قوله - تعالى:{**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ**} صريح فى أن الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم.

وهذا المعنى ينطبق على ماقصه القرآن علينا، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده.

قال - تعالى:{**وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الملك والحكمة وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ..**} ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم. ولاشك أن النصر فى هذه الحالة، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه.

٣- قوله - تعالى:{**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**} أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت، وداود، وسليمان لهم.

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة، ازدهرت مملكتهم، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة، وبالبنين الكثيرة، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة.

أما بعد هذا العهد، بل وقبل هذا العهد، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق. م تقريبا، انقسمت مملكتهم إلى قسمين: مملكة يهوذا فى الجنوب، ومملكة إسرائيل فى الشمال، واستمرتا فى صراع ونزاع حتى قضى الأشوريون سنة ٧٢١ ق. م على مملكة إسرائيل، وقضى " بختنصر " على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق. م.

٤- ذكر بعض المفسـرين أن العباد الذين سـلطهم الله عليهم بعد إفسـادهم الأول هم جـالوت وجنوده. أخرج ابن جرير وابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قولـه:{**فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**} قال: بعث الله عليهم فى الأولى جالوت، فجاس خلال ديارهم، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا، فبعث لهم طالوت، فقاتلوا جالوت، وانتصـروا عليه، وقتل داود جالوت، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم. فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة " بختنصر " فخرب المساجد، وتبر ما علوا تتبيرا.

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سـلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض، هم: جالوت وجنوده.

أما العباد الذين سـلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى، فيرى كثير من المفسرين أنهم: " بختنصر " وجنوده.

وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق. م.

إلا أننا نؤثر على هذا الرأى، أن يكون المسـلط عليهم بعد إفسـادهم الثانى، هم الرومان بقيادة زعيمهم، تيطس سنة ٧٠ م. لأمور من أهمها:

أ- أن الـذى يتتبع التـاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سـبقت تنكيل "تيطس " بهم، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال " بختنصر " لهم. فهم - على سـبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السـلام -، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم.

ب- ضربـات الرومـان - فى ذاتها - كانت أشـد وأقسى على بنى اسرائيل. من ضربات " بختنصر " لهم.

فمثلا عـدد القتلى من اليهود على يـد الرومـان بقيادة " تيطس " بلغ مليون قتيل، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير. بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد " بختنصر " كان أقل من هذا العدد بكثير.

ولقد وصــف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم، بأوصــاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم.

يقول أحد الكتاب واصــفاً ما حل باليهود على يد " تيطس " الرومانى: كان " تيطس " فى الثلاثين من عمره، حين وقف سـنة ٧٠ م أمام أسـوار أورشليم على رأس جيشه، بعد أن بدأت المدينة تعانى من أهوال الحصار.

وبعد أن اقتحم " تيطس " وجنوده المدينة، أصـدر أمره إليهم: أن احرقوا وانهبوا واقتلوا، فـأموال اليهود وأعراضــهم حلال لكم، وقـد أحرق الرومـان معبـد اليهود ودمروه، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام - حين قال: ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا، وسيحل الغضب على أهلها، وسـيسـقطون صرعى على حد السـيف، ويسـيرون عبيداً إلى كل مصر، وستطأ أورشليم الأقدام.

ج- النكبة التى أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشــنع بكثير من النكبة التى أنزلها بختنصر بهم. لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم فى الأسر زهاء خمســين ســنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى، بمساعدة " قورش " ملك الفرس، الذى انتصر على " بختنصر " سنة ٥٣٨ ق. م تقريبا، وبدؤوا يتكاثرون من جديد.

أمـا بعـد تنكيـل " تيطس " بهم فلم تقم لهم قائمة، ومزقوا فى الأرض شر ممزق، وانقطع دابرهم كأمة.

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإِسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه " تيطس " بهم من ضربات: إلى هنا ينتهى تاريخ الإِسرائيليين كأمة، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد " تيطس " تفرقوا فى جميع بلاد الله، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها [1].

* * * * *

المبحث الثاني:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق:

المطلب الأول:

الأسلوب الأفضل فى الجدال

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}[1].

{وَقُل لِّعِبَادِى} وقل للمؤمنين:**{يَقُولُواْ}** للمشركين الكلمة**{التى هِىَ أَحْسَنُ}** وألين ولا يخاشنوهم، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن. وفسر التي هي أحسن بقوله:**{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ}** يعني يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله:**{إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}** اعتراض، يعني يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشادّة والمشاقة**{وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً}** أي رباً موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف. وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله. وقرأ طلحة: «ينزغ» بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون.

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوّع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله:**{ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ}**

إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقولـــه:{**وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً**} دلالة على وجه تفضيله، وهو أنـه خـاتم الأنبيـاء، وأن أمتـه خير الأمم؛ لأنّ ذلـك مكتوب في زبور داود. قـال اللـه تعالى:{ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصـالحون**}[1] وهم محمد وأمته. فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قولـــه:{**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور**} قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والـفضـل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزُبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسـول الله ﷺ من الزبور، فسـمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمى بعض القرآن قرآناً. [2]

{**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**} على وجه الإطلاق وفي كل مجال. فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه: بذلك يتقون أن يفسـد الشـيطان ما بينهم من مودة. فالشـيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشـنة تفلت، وبالرد السـيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشـوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندّي جفافها، وتجمعها على الود الكريم.

{**إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا**}..

يتلمس سـقطات فمه وعثرات لسـانه، فيغري بها العداوة والبغضـاء بين المرء وأخيه. والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته.

قـل - أيها الرسـول الكريم - لعبادى المؤمنين، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم، الكلمة التى هى أحسن، والعبارة التى هى أرق وألطف.

وذلـك لأن الكلمة الطيبة، تزيد فى المودة التى بين المؤمنين، وتكسرـ حدة العداوة التى بينهم وبين أعدائهم.

قال - تعالى: {**وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**} قال الآلوسى: ومقول فعل الأمر محذوف، أى: قل لهم قولوا التى هى أحسن يقولوا ذلك. فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر. وإلى هذا ذهب الأخفش.

وقال الزجاج: إن قوله:{**يقولوا**} هو المقول، وجزمه بلام الأمر محذوفة، أى: قل لهم ليقولوا....

وقوله - سبحانه:{**إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**} تعليل للأمر السابق.

أى: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التى تقع من أفواهكم، والعثرات التى تنطق بها ألسنتكم، لكى يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء فى صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم.

وينزغ بمعنى يفسد. يقال: نزغه - كنفعه - ينزغه، إذا طعن فيه واغتابه، وقوله:{**إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً**} تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم.

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى: {**إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير**}.

وقوله - تعالى:{**يابني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**}.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته.. وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده.

روى الإمـام أحمد عن أبي هريرة أن رســول الله ﷺ قال: «**لا يشــين أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم، لعل الشيطان أن ينـزغ فى يده، فيقع فى حفرة من النار**».

* * * * *

المطلب الثاني:

صفات المجادلين بالباطل

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[1].

{ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الإنســان أكثر شيء جدلاً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}.

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بانه{شَيْءٍ} وأنه أكثر شيء جدلا. ذلك كي يطامن الإنسـان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة. وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً. بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل.

ثم يعرض الشــبهـة التي تعلق بهـا من لم يؤمنوا وهم كثرة النـاس على مـدار الزمـان والرسالات:

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً}..

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء.. ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك استبعاداً لوقوعه واستهزاء أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم. وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون!

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل. فأخذ المكذبين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب.. كله من أمر الله. أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون:

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً}.

والحق واضح. ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه. وهم حين يطلبون الخوارق، ويستعجلون بالعذاب لا يبتغون اقتناعاً، إنما هم يستهزؤون بالآيات والنذر ويسخرون.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}.

فهؤلاء الذين يستهزؤون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به.

لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه. وقدر عليهم الضلال بسبب استهزائهم وإعراضهم فلن يهتدوا إذن ابداً. فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي.

{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ}..

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به، ولكنه لن يهملهم:

{بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً}..

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب. وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب.

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم. لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعـدهم، لحكمـة اقتضـــتها إرادته فيهم، فلم يأخذهم أخذ القرى؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه:

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً}..

فلا يغرنهم إمهال الله لهم، فإن موعدهم بعد ذلك آت. وســـنة الله لا تتخلف. والله لا يخلف الميعاد..

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة. ومفعول محذوف.

والباطل: هو الشىـء الزائل المضـمحل الذى هو ضـد الحق والعدل. والحق هو الشىـء الثابت القويم الذى تؤيده شريعة الله - عز وجل.

والدحض: الطين الذى لا تســـتقر عليه الأقدام. فمعنى يدحضـــوا: يزيلوا ويبطلوا تقول العرب: دحضت رجل فلان، إذا زلت وزلقت.. ومنه قولـه - تعالى:{**حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ**} والمعنى: ويجـادل الذين كفروا رســـلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال.

وقولـه - تعالى:{**واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً**} معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين.

والمراد بآيات الله: تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رســله ســواء أكانت قولاً أم فعلاً، ويدخل فيها القرآن دخولاً أوليا.

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرســـل كدليل على صـــدقهم، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما اســتمروا على كفرهم. اتخذوا كل ذلك{**هُزُواً**} أى: اتخذوها محل ســخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم،

كما قال - سبحانه: {**وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً**} ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال:{**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**}.

والاستفهام هنا للنفى والإِنكار والمراد بالآيات: آيات القرآن الكريم. لقوله - تعالى - بعد ذلك:{**أَن يَفْقَهُوهُ**}.

والمراد بالنسيان: الترك والإِهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب.

أى: ولا أحد أشد ظلماً وبغياً. من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله ﷺ فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها. بل نبذها وراء ظهره، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى، نسيان ترك وإهمال واستخفاف.

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإِعراض والنسيان فقال:{**إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً**}.

والأكنة: جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم. يقال فلان وقرت أذنه، أى: ثقل سمعها وأصيبت بالصمم.

أى: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمماً وثقلاً عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الكفر على الإِيمان.

{**وَإِن تَدْعُهُمْ**} أيها الرسول الكريم{**إِلَى الهُدَى**} والرشد فلن، يستجيبوا لك، ولن{**يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً**} إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، بسبب زيغ قلوبهم، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها.

والضمير فى قوله:{**أَن يَفْقَهُوهُ**} يعود إلى الآيات، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى، إذ المراد منها القرآن الكريم.

{ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً}.

أى: وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء. لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام. ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما.

فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل الناس. بالعقاب، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم، بل يؤخرهم إلى الوقت الذى تقتضيه حكمته، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام.

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى:**{وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً}**

وقوله - تعالى:**{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب}** ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال:**{وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً}.**

تلك " تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام.

* * * * *

المطلب الثالث:

مجادلة أهل الكتاب

{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}(1).

{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}..

إن دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ﷺ لهي دعوة واحدة من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه. وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلها أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً. وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان: صنف المؤمنين وهم حزب الله. وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان. وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام؛ والتي تقررها هذه الآية من القرآن؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن. أو تبادل أو تجارة. ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان. ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان.

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله، الموافقة لما قبلها من الدعوات، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر..{**إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**} فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة. فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة. وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة.

وإن بعضهم ليفتري على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين. فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه. فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين الله.

وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات.

{**وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**}..

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدل والنقاش. وكلهم يؤمنون بإله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلهي متصل الحلقات.

{**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ**}..

«كذلك». على النهج الواحد المتصل. وعلى السنة الواحدة التي لا تتبدل. وعلى الطريقة التي يوحي بها الله لرسله{**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ**}.. فوقف الناس بإزائه في صفين: صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه، وتصديقه لما بين أيديهم..{**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ**}.. فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة

بحيث لا ينكرها إلا الذي يغطي روحه عنها ويسترها، فلا يراها ولا يتملاها! والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي، وهو ملحوظ في مثل هذا التعبير.

{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَرْتَابَ المُبْطِلُونَ}..

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها. فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين. ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً. فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها. فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا. فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر. فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر. والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون. وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدر عن بشر!

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}.

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب. دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل. والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قرارتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك!**{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}**.. الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم.

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التى هى أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - فى آية أخرى:**{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** وقوله:**{إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن.

أى: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم. بأن أساؤوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب.

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً. ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم.

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمراد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم.

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم.

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك:{**وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ**} يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم.

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد{**آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا**} وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل.

قال الشوكانى: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه.

{**وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ**} لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته{**وَنَحْنُ**} جميعاً معاشر المؤمنين{**لَهُ مُسْلِمُونَ**} أى: مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل.

قال القرطبى ما ملخصه: اختلف العلماء فى قوله - تعالى:{**وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب...**} فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن،

على معنى الـدعاء لهم إلى الله - عز وجل - والتنبيه على حججه وآياته. وقولــــه:{**إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ**} أى ظلموكم..

وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قولـه:

{**قَـاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله..**} وقول مجاهد: حســـن، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول..

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزلـه على نبيه ﷺ فقال:{**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ..**}.

والكاف بمعنى مثل واســم الإِشــارة يعود إلى المصــدر المفهوم من أنزلنا. أى: ومثل ذلك الإِنزال المعجز البديع، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس، فالذين آتيناهم الكتاب الشـامل للتوراة والإِنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك، وهو القرآن.

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب: المؤمنون منهم كعبد الله بن ســلام وأمثاله. والمراد بالكتاب جنســه. والضـمير فى " به " يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزلـــه الله على رسـوله محمد ﷺ وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب، على ســبيل المدح لهم. لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضـــاه، أمـا غيرهم من بقى على كفره، فلكونـه لم ينتفع بمـا فى الكتـاب من هدايات، فكأنه لم يره أصلاً.

وقولـه:{**وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ**}: ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك.

و " من " للتبعيض، لأنهم لم يؤمنوا جميعـاً، وإنمـا منهم من هـداه اللـه - تعـالى - إلى الصراط المستقيم.

{**وَمَـا يَجْحَـدُ بِـآيَـاتِنَآ**} الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صــدقك فيما تبلغه عنا،{**إِلاَّ الكَافِرُونَ**} أى: إلا الموغلون فى الكفر، المصرون عليه إصراراً تاماً.

والجحود: إنكار الحق مع معرفة أنه حق.

وعبر عن الكتاب بالآيات، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان، ومنهم من قابله بالجحود والنكران.

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى -، فقال:{**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَّرْتَابَ المبطلون**}.

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تالياً لكتاب من الكتب، ولا عارفاً للكتابة، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة، لارتاب المبطلون فى شأنك، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين.

و{**مِن**} فى قوله:{**مِن كِتَابٍ**} لتأكيد نفى كونه ﷺ قارئاً لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه.

وقوله:{**وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**} لتأكيد نفى كونه ﷺ يعرف الكتاب أو الخط.

قال الإمام ابن كثير: وهكذا صفته ﷺ فى الكتب المتقدمة، كما قال - تعالى: {**الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل..**} وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم..

والمراد بالمبطلين: كل من شك فى كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم.

وسماهم - سبحانه - مبطلين، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق، لأن الرسول ﷺ قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة، يعرفون حسبه ونسبه، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة.

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال:{**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم**}.

أى: هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون - بل هو آيات بينات واضحات راسخات، فى صدور المؤمنين به، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب.

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم، والإعلاء من شأنهم حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله، ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وقوله - سبحانه:{**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الظالمون**} تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزا كل حق وصدق فى أحكامهم وتصرفاتهم.

ألا: وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها، وينكر كونها من عند الله - تعالى - إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق، ولكل ما هو صدق.

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول ﷺ أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم، حيث استعجلوا الذى لا يستعجله عاقل. فقال - تعالى:{**وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ... مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**}.

ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى:{**وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ**} الآيات الكونية، كعصا موسى، وناقة صالح. ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا.

أى: وقال المبطلون للنبى ﷺ على سبيل التعنت والعناد، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك، لكى نؤمن بك ونتبعك؟

وقوله:{ **قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**} إرشاد من الله - تعالى - لنبيه ﷺ إلى ما يرد به عليهم.

أى: قل - أيها الرسول - الكريم

- فى ردك على هؤلاء الجاهلين، إنما الآيات التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده، ينزلها حسب إرادته وحكمته، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى شيئاً.

وقولـه - سبحانه:{**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ...**} كلام مستأنف من جهته - تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم، والاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر.

والمعنى: أقـالوا مـا قالوا من باطل وجهل، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق، يتلى على مسامعهم صباح ومساء، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم، لو تدبروه وآمنوا به، واتبعوا أوامره ونواهيه؟

والتعبير بقولـــه - سبحانه:{**يتلى عَلَيْهِمْ**}، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون.

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقولـه:{**إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**}.

أى: إن فى ذلـك الكتاب الذى أنزلناه عليك - أيها الرســـول الكريم -، والذى تتلوه عليهم صباح مساء، لرحمةٍ عظيمةٍ، وذكرى نافعةٍ، لقوم يؤمنون بالحق، ويفتحون عقولهم للرشد، لا للتعنت والجحود والعناد.

ثم أرشــده - ســبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال:{**قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَـهِيداً**}. اى: قل - أيها الرسـول الكريم - لهؤلاء الجاهلين: يكفينى كفاية تامة أن يكون الله - تعالى - وحده، هو الشـهيد بينى وبينكم على أنى صـادق فيما أبلغه عنه، وعلى أن هذا القرآن من عنده.

وهو - سـبحانه:{**يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض**} علماً لا يعزب عنه شىء، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب، وسيجازيكم بما يستحقونه من عقاب.

{**والذين آمَنُواْ بالباطل**} وأعرضوا عن الحق{**وَكَفَرُواْ بالله**} - تعالى - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة.

الذين فعلوا ذلك:{**أولئك هُمُ الخاسرون**} خسـارة ليس بعدها خسـارة، حيث آثروا الغى على الرشد، واستحبوا العمى على الهدى، وسيكون أمرهم فرطاً فى الدنيا والآخرة.

وقوله - عز وجل:{**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب...**} بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم. أى: أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك، التطاول عليك، لسوء أدبهم، وعدم فهمهم لوظيفتك. بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء، على سبيل التحدى لك. كما قالوا فى موطن آخر:{**اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عندكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**} ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول:{**وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب...**}. أى: يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم، والحق أنه لولا أجل مسمى، ووقت معين، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه، بدون إبطاء أو تأخير.

ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى -، وإن هذا العذاب المدمر المهلك:{**لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**} أى: ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات، والحال أنهم لا يشعرون به، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم، ويستأصل شأفتهم.

ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم، والتسلية للرسول ﷺ عما لقيه منهم. فقال:{**يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين**}.

أى: يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب، الذى لا يطلبه أحد فى ذهنه مثقال ذرة من عقل، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة، وستحيط بهم جهنم من كل جانب.

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال:{**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب**}.

أى: ستحيط بهم جهنم من كل جانب. يوم يحل بهم العذاب{**مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**} أى: من جميع جهاتهم.

{**وَيِقُولُ**} - سبحانه - لهم، على سب

يـل التقريع والتـأنيـب{ذُوقُواْ مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أى: تـذوقوا العـذاب المهين الـذى كنتم تســـتعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب بســـبب أعمالكم القبيحة، وأقوالكم الباطلة.

وبعـد أن بـين - سـبحانه - سـوء عاقبـة المكـذبين، الـذين اسـتعجلوا العـذاب لجهلهـم وعنـادهم، أتبـع ذلـك بتوجيـه نـداء إلى المـؤمنين أمـرهم فيـه بالثبـات عـلى الحـق، فقـال - تعالى:{الذين عَاهَدْتَّ... وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}(١).

* * * * *

المطلب الرابع:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}(٢).

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}..

فيثبت في هذه الآية القصـيرة وينفي.. يثبت نعمة الله على نبيه، في تعبير يوحي بالقربى والمودة: حين يضـيفه سـبحانه إلى ذاته:{رَبِّكَ}. وينفي تلك الصـفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه..

وإن العجب ليأخذ كل دارس لســيرة الرســول ﷺ في قومه، من قولتهم هذه عنه، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأســود قبل النبوة بأعوام كثيرة.

وهم الـذين لقبوه بـالأمين، وظلوا يســتودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته، بعد عدائهم العنيف لـــه، فقد ثبت أن عليا كرم الله وجهه تخلف عن رسول الله أياماً في مكة، ليرد إليهم ودائعهم التي كـانت عنده؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف. وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة.

فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان وهو عدوه قبل إسلامه: لا، فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله!

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم. ولكن الحقد يعمي ويصم، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج! وقائلها يعرف قبل كل أحد، أنه كذاب أثيم!

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} .. هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم، رداً على ذلك الحقد الكافر، وهذا الافتراء الذميم.

{وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ}..

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً، لا ينقطع ولا ينتهي، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم.. وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون. وماذا فقد من يقول له ربه:**{وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ}** في عطف وفي مودة وفي تكريم.

ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**..

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**. ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها. وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صـــداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين.

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة، من هذا المصـدر، وهو ثابت، لا ينسـحق تحت ضـــغطها الهائل ولو أنها ثناء ولا تتأرجح شـــخصـــيته تحت وقعها وتضـــطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن.. وهو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السـيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة. وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر. أعظم بصـــدورهـا عن العلي الكبير. وأعظم بتلقي محمـد لهـا وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقـائه بعدها ثابتاً راســـخاً مطمئناً. لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير!

والله أعلم حيث يجعل رســالته. وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفســه هذه من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى. فيكون كفئاً لها، كما يكون صورة حية منها.

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء. فتطيق شـخصيته كذلك تلقي هذا الثناء. في تماسك وفي توازن، وفي طمأنينة. طمأنينة القلب الكبير الذي يســع حقيقة تلك الرســالة وحقيقة هذا الثناء العظيم. ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه لــــه ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته، بذات التماسـك وذات التوازن وذات الطمأنينة. ويعلن هذه كما يعلن تلك، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك.. وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم. والعبد الطائع. والمبلغ الأمين.

إن حقيقـة هـذه النفس من حقيقة هذه الرســالة. وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرســالة. وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإســلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر. وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها. وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار!

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربه، وهو ثابت راسـخ متوازن مطمئن الكيان.. لقد كان وهو بشر يثني على أحد أصــحابه، فيهتز كيان صــاحبه هذا وأصــحابه من وقع هذا الثناء العظيم. وهو بشرــ وصـاحبه يعلم أنه بشر وأصـحابه يدركون أنه بشر إنه نبي نعم. ولكن في الدائرة المعلومة الحدود. دائرة البشرــية ذات الحدود.. فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله. وهو يعلم من هو الله. هو بخاصة يعلم من هو الله! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه.

ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير.. إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير!!!

إنـه محمد وحده هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة.. إنه محمد وحده هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنسـاني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنسـاني. إنه محمد وحده هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية؛ حتى لتتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان..

إنه محمد وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام. والله أعلم حيث يجعل رسالته وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم. وأعلن في الأخرى أنه جل شـأنه وتقدسـت ذاته وصفاته، يصـلي عليه هو وملائكته{**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**} وهو جل شـأنه وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم..

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله؛ وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية.

والناظر في هذه العقيدة، كالناظر في سيرة رسولها، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها، تقوم عليه أصـولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء.. الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصـدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد، ومطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معاً للنية والضـمير؛ والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور..

والتشر-يعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع. وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء.

والرســول الكريم يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (1). فيلخص رســالته في هذا الهدف النبيل. وتتوارد أحاديثه تترى في الحض على كل خلق كريم. وتقوم سـيرته الشـخصـية مثالاً حياً وصـفحة نقية، وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد:{**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**}.. فيمجد بهذا الثناء نبيه ﷺ كما يمجد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم، ويشـد به الأرض إلى السماء، ويعلق به قلوب الراغبين إليه سبحانه وهو يدلهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم.

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام. فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقاً؛ وهي لا تستمد ولا تعتمد

على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصـــلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل. إنما تسـتمد من السـماء وتعتمد على السماء. تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق. وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا، وكي يصـبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واسـتخلافهم في الأرض؛ وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى:

{**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**} ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود من أي اعتبارات قائمة في الأرض؛ إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد.

ثم إنها ليسـت فضـائل مفردة.. صـدق. وأمانة، وعدل، ورحمة. وبر.... إنما هي منهج متكامل، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله. لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة!

وقـد تمثلت هذه الأخلاقية الإسـلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واسـتقامتها واطرادها وثباتها في محمد ﷺ وتمثلت في ثناء الله العظيم، وقولـه:{**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**}.

* * * * *

المطلب الخامس:

الفصل فى شأن المشركين وأهل الكتاب

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}[1].

"مِنْ " فى قولـه - تعالى:{**مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**} للبيان، وقولـه - سبحانه:{**مُنفَكِّينَ**}: للعلماء فى معنى هذا اللفظ أقوال متعددة، منها: أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل، يقال: فككت الشئ فانفك إذا افترق ما كان ملتحما منه.

والبينـة: الحجـة الظـاهرة التى يتميز بهـا الحق من البـاطل، وأصـلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح، لأن بها تتضح الأمور، أو من البينونة بمعنى الانفصال، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسهما.

والمراد بها هنا: رسـول الله ﷺ، لقولـه - تعالى - بعد ذلك:{**رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً**}، ولأنه ﷺ كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة، لتحليه بكمال العقل وبمكارم الأخلاق، ولإتيانه بالمعجزات التى تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ولم يكن - أيضاً - الـذين كـذبوا الحق من المشركين، ولم يكن الجميع بمفـارقين وبمنفصـلين عن كفرهم وشركهم،{**حتى تَـأْتِيَهُمُ البينـة**} التى هى الرسـول ﷺ فلما أتتهم هـذه البينة، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقولـــه: " كان الكفار من الفريقين، أهل الكتاب، وعبـدة الأصـــنـام، يقولون قبـل مبعث النبى ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعـث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله - تعالى - ما كانوا يقولونه.

ثم قـال:{**وَمَـا تَفَرَّقَ الـذين أُوتُواْ الكتـاب**} ، يعنى أنهم كـانوا يَعِـدُون بـاجتماع الكلمة، والاتفـاق على الحق، إذا جـاءهم الرســـول، ثم ما فرقهم عن الحق، ولا أقرهم على الكفر، إلا مجىء الرسـول ﷺ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسـق لمن يعظه: لسـت بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله - تعالى - الغنى، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا، فيقول لــــه واعظة: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار، يذكره ما كان يقولـه توبيخا وإلزاما.

وانفكاك الشىء من الشىء، أن يزايله بعد التحامه به. كالعظم إذا انفك من مفصله.

والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجئ البينة.

ومــنهم مــن يــرى: أن{**مُنفَكِّـينَ**} بمعنــى متروكــين لا بمعنــى تــاركين، أى: لم يكونــوا جميعاً متروكـين عـلى مـا هـم عليـه مـن الكفـر والشرك، حتـى تـأتيهم البينـة، عـلى معنـى قولـــه - تعـــالى:{**أَيَحْسَـــبُ الإنســـان أن يُــتْرَكَ سُـــدًى**} أو المعنـــى: لم يكـــن هـــؤلاء القـــوم منفكـين مـن أمـر اللـه - تعـالى - وقدرتـه ونظـره لهـم، حتـى يبعـث اللـه - تعـالى - إلـيهم رسـولا منـذرا، تقـوم علـيهم بـه الحجـة، ويـتم عـلى مـن آمـن النعمـة، فكأنـه - تعـالى - قال: ما كانوا ليتركوا سدى.

وهناك أقوال أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضعفها.

وقـد قـدم اللـه - تعالى - ذكر أهل الكتاب فى البيان، لأن كفرهم أشـــنع وأقبح. إذ كانوا يقرؤون الكتب، ويعرفون أوصـاف النبى ﷺ فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم. وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصـارى، تسـجيل للغفلة وسـوء النية عليهم. حيث علموا الكتاب.

وعرفوا عن طريقه أن هناك رسولا كريما قد أرسله الله - تعالى - لهدايتهم، ومع ذلك كفروا به، كما قال - تعالى: {**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين**} وقوله - سبحانه: {**رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً**} بدل من " البيِّنَة " على سبيل المبالغة، حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البينة.

أى: لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم رسول كريم، كائن من عند الله - تعالى - لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم، مطهرة، أى: منزهة عن الشرك والكفر والباطل، وهذه الصحف من صفاتها - أيضا - أنها{**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**} أى: فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها، بل هى ناطقة بالحق والخير والصدق والهداية، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم.

فقوله:{**قَيِّمَةٌ**} بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب، من قولهم: قام فلان يقوم، إذا استوى على قدميه فى استقامة.

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق، ومن إنكارهم له مع علمهم به، فقال - تعالى: {**وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة**}. أى: أن الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب، ما تفرقوا فى أمره، وما اختلفوا فى شأن نبوتك.. إلا من بعد أن جئتهم أنت بما يدل على صدقك، دلالة لا يجحدها إلا جهول، ولا ينكرها إلا حسود، ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا.

فالآية الكريمة كلام مستأنف، المقصود به تسليته ﷺ عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه - سبحانه - يقول له: لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لإِعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب، فإن إعراضهم لم يكن عن جهل، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله.

وإنما خص - سبحانه - هنا أهل الكتاب بالذكر، مع أن الكلام فى أول السورة كان فيهم وفى المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقبح فعالهم، لأن الإِعراض عن الحق ممن له كتاب، أشد قبحا ونكرا، ممن ليس له كتاب وهم المشركون.

والاســـتثناء فى الآية مفرغ، والمســـتثنى منه عموم الأوقات. والمعنى: لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات، إلا فى الوقت الكائن بعد مجئ البينة لهم.

ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قولــه - تعالى:{**وَمَا تفرقوا إِلاَّ مِن بَعْـدِ مَـا جَـآءَهُمُ العلم بَغْيـاً بَيْنَهُمْ**} ثم بين - ســـبحـانـه - مـا كان يجب عليهم أن يفعلوه، فقال:{ **وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِـينَ لــــه الدين حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصـلاة وَيُؤْتُواْ الزكاة وَذَلِكَ دِينُ القيمة**}.

والواو فى قولــــه - تعالى:{**وَمَآ أمروا**} للحال، فهذه الجملة حالية، والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضـــالين، قد بلغوا النهاية فى قبح الأفعال، وفى فســـاد العقول، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى، فى حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم.

وقولـه:{**حنفاء**} من الحَنف، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق. كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل.

أى: أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا فى شـــأن الحق، والحال، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله - تعالى - وحده، مخلصين لـــه الطاعة، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مؤمنين بجميع الرســل بدون تفرقة بينهم، إذ ملتهم جميعا واحدة، ولم يؤمروا - أيضـــا - إلا بإقامة الصـــلاة فى أوقاتها بخشـــوع وإخلاص لله رب العالمين، وبإيتاء الزكاة التى تطهرهم وتزكيهم.

{**وذلك**} الذى أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا، ومن أداء فرائضـــنا{**دِينُ القَيِّمَةِ**}. أى: دين الملة المستقيمة القيمة، أو دين الكتب القيمة.

ولفظ: " القيمة " بزنة فيعلة - من القوامة، وهى غاية الاســـتقامة، وهذا اللفظ صـــفة لموصوف محذوف.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين فقال:{**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**}.

أى: إن الذين أصروا على كفرهم بعد أن تبين لهم، من اليهود والنصارى، ومن المشركين الذين هم عبدة الأصنام.. مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا{**أُوْلَئِكَ**} الموصوفون بتلك الصفات الذميمة{**هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**} أى: هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق.

ولفظ: " البرية " من البرى وهو التراب، لأنهم قد خلقوا فى الأصل منه، يقال: فلان براه الله - تعالى - يبروه برواً. أى: خلقه وقرأ نافع بالهمز، من قولهم برأ الله - تعالى - الخلق يبرؤهم، أى: خلقهم.

وقدم سبحانه - أهل الكتاب فى المذمة، لأن جنايتهم فى حق الرسول ﷺ أشد، إذا كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون لهم: إن نبيا قد أظللنا زمانه، وإننا عند مبعثه سنتبعه.. فلما بعث ﷺ كفروا به.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

الأول: أن هؤلاء الضالين خالدون فى النار.

والثانى: أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله - تعالى.

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة:

{**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**}..

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة:{**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**}.

والحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة:{**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**}.

والحقيقة لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة. كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة. وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء.

الرابعة: أن الذين وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة:{**رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً**}.. مطهرة من الشرك والكفر{**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**}.. والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة وهي هذا القرآن فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثاً لا تصلح الأرض إلا به. فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم كتبه الرجل المسلم «السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي» بعنوان: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».. وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه:

جاء في الفصل الأول من الباب الأول:

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف. فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون. وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها. وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح. وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدها، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد.

وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون،

فراراً من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة؛ ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل..

«أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين؛ ولعبة المجرمين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها؛ وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري»..

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية. وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى.

كفروا بعد ما جا من ذلك قوله عن اليهود والنصارى:{**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**} {**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**}.

وقوله عن اليهود:{**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**} وقوله عن النصارى:

{**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**} {**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**} وقوله عن المشركين:{**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**} وغيرهما كثير..

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض.. «وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء».

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة. وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين..

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد. إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم:{**وَمَا تَفَرَّقَ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ**}..

وكان أول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام فقد انقسموا شعباً وأحزاباً. مع أن رسولهم هو موسى عليه السلام وكتابهم هو التوراة. فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي طوائف الصدوقيين، والفريسيين، والآسيين، والغلاة، والسامريين.. ولكل طائفة سمة واتجاه. ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى، مع أن المسيح عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم، وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم. وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان.

«وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أي اليهود) إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم، وشوه سمعتهم. ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده» أبنوسوس «ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً قتلاً بالسيف، وشنقاً، وإغراقاً، وإحراقاً، وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة، قال المقريزي في كتاب الخطط:

«وفي أيام (فوقا) ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس، وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر.

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم؛ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية، وجبـل الجليـل، وقريـة الناصرة ومدينة صـــور، وبلاد القدس؛ فنالوا من النصـــارى كل منال وأعظموا النكـاية فيهم، وخربوا لهم كنيســـتين بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصـليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصـحابه. إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس: فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صـــور، وأرســـلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصـــارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور.

فقوّس النصـــارى عليهم وكـاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم كثير. وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه، ثم سـار من قسـطنطينية ليمهد ممالك الشـام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا لـــــه الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم وحلف لهم. ثم دخل القدس.

وقد تلقاهم النصـارى بالأناجيل والصـلبان والبخور والشـموع المشـعلة، فوجد المدينة وكنائسها خراباً، فساءه ذلك، وتوجع لهم، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس، وإيقاعهم بالنصـارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشـد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم،

وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا لـــه ذلك. فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شـنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في مماليك الروم والشـام إلا من فر واختفى..

«وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان: اليهود والنصارى، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني، وتحين الفرص للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك».

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد. تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة. ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة. وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية.

وطبيعة أمه مريم. وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه «الله» في زعمهم وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله:**{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ}**.

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ من دُونِ اللَّهِ}
«وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر- أو بين» الملكانية المنوفوسية «بلفظ أصح. فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلاهية. التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له. وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى.. كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء.

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد. وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك، وصار المذهب المنوثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية.

وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل. ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرؤوا من هذه البدعة والتحريف!

وصمدوا لـــه واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة. وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله لـه إرادة واحدة. وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضـوا في مناظراته. وجعل ذلك رسالة رسمية، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي. ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر، ووقع اضـطهاد فظيع على يد قيصر في مصر اسـتمر عشر سنين، ووقع في خلالها ما تقشـعر منه الجلود، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشـقياء حتى يسـيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضـع السـجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر. إلى غير ذلك من الفظائع.

وكـان هـذا الخلاف كلـه بين أهـل الكتاب جميعاً{**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**}.. فلم يكن ينقصهم العلم والبيان؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف.

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة:

{**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**} وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق:

عبادة الله وحده، وإخلاص الدين لـــه، والميل عن الشرك وأهله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة:{**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**}.

عقيدة خالصـة في الضـمير، وعبادة لله، تترجم عن هذه العقيدة، وإنفاق للمال في سبيل اللـه، وهو الزكـاة.. فمن حقق هذه القواعد، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب، وكما هو في دين الله على الإطلاق. دين واحد. وعقيدة واحدة، تتوالى بها الرســالات، ويتوافى عليها الرسل.. دين لا غموض فيه ولا تعقيد.

وعقيـدة لا تـدعو إلى تفرق ولا خلاف، وهي بهـذه النصــاعة، وبهذه البســاطة، وبهذا التيسير. فأين هذا من تلك التصورات المعقدة، وذلك الجدل الكثير؟

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رســلهم؛ ثم جاءتهم البينة، حية في صـورة رسـول من الله يتلو صـحفاً مطهرة؛ ويقدم لهم عقيدة واضحة بسيطة ميسرة، فقد تبين الطريق. ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}.

{ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}..

إن محمداً ﷺ هو الرسول الأخير؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة. وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح. وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة، فقد تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك. ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير. لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم [1].

* * * * *

الفصل الخامس:

المنهج والأسلوب القرآني في مجادلة أهل الكتاب

المبحث الأول

منهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما سبق من التفسير التحليلي للآيات التي تكلمت عن أهل الكتاب في القرآن الكريم،يتبين لنا المنهج القرآني في محاورته ومجادلته المباشرة لأهل الكتاب وهي كالآتي:

١- طالبهم الله عز وجل بالإيمان بالقرآن لأنه مصدق لما معهم من التوراة، فالتصديق بالقرآن معناه التصديق لما معهم من التوراة والانجيل.

٢- المنهج القرآني الواضح والصريح مع يهود في تبيين بعض قبائحهم وجرائمهم من قتل للأنبياء وكفر بآيات الله،وتكذيب القرآن لهم الإدعاء الكاذب بأنهم شعب الله المختار.

٣- قصة البقرة وما اشتملت عليه من عظات وتوجيهات منها:

أ- دلت على سوء الأدب مع مرشديهم وفظاظتهم وغلظتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم.

ب- التنطع في الدين والإلحاف في المسألة يؤديان الى التشديد في الأحكام، فشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ج- عدم اعتبارهم بالعظات والمثلات لقساوة قلوبهم وسوء طباعهم - سبحان الله - انظروا ما يفعلونه بأطفال وشيوخ ونساء فلسطين ولبنان من قتل وتشريد دون رحمة أو رأفة - وما ذلك إلا لانطماس بصيرتهم وقلوبهم التي أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، بل تعدوا على آيات الله فحرفوا الكلم عن مواضعه واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

٤- المنهج القرآني الصريح الذي بين أكاذيبهم ومخالفاتهم ونقضهم المواثيق مع الله تعالى فالخزي لهم في الدنيا " ولعذاب الآخرة أشد وأكبر لو كانو يعلمون".

٥- أما مواقف يهود مع الرسل والكتب والأنبياء فهنا فضحهم القرآن وكشف الحقائق وأثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق الذي لا يخضع لأهوائهم بدلوا وحرفوا وكذبوا وقتلوا، - والشاهد - مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام والقرآن ملىء بهذه المواقف وحدث ولا حرج، وكذلك مواقفهم مع آخر رسلهم عيسى عليه السلام.

٦- أما عن عبادة العجل المقدس عندهم وحب الحياة وعداوة جبريل والملائكة والرسل تحدث عنها القران بمنهجية واضحة فبعد أن أنجاهم الله من فرعون ورأوا المعجزات الواضحات عبدوا العجل، وصفهم القرآن أيضا أنهم أحرص الناس على - حياة - أى حياة مهما تكون رذيلة منحطة، وهناك سمة أخرى من سماتهم ألا وهي عداوتهم لجبريل - عجيب - كونهم يحقدون على الرسول ﷺ وكون جبريل عليه السلام نزل على محمد ﷺ عادوه وقالوا ينزل بالدمار والخراب علينا،هذه هي أخلاقهم واضحة جلية كما بينها وفندها القرآن.

٧- بين القرآن أيضا مواقفهم من المؤمنين، لقد تمنوا ارتدادهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه،بين الله عز وجل أن الذى حملهم على ذلك،ليس إلا الحقد والحسد، وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والعفو والصفح

٨- حتى يـأتى اللـه بـأمره الحكمـة تجعـل العفو والصـــفح خير من العقوبـة والتأنيب،وأمرهم مع ذلك بالمحافظة على إقامة الشـعائر والتمسـك بدين الله تعالى الذى يطهر القلوب ويزكى النفوس.

٩- ســـورةالبقرة فى أكثر من مـائة آية بينت مواقفهم وحججهم وأخلاقهم،من قتل ودمار وتخريب حتى مســاجد الله ما ســلمت من شرهم،ومع ذلك يـذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم لعلهم يخافوا الآخرة - يذكرهم بأنه تعالى فضـلهم واصـطفى منهم أنبياء ورسـل، وذكرهم عز وجل بالآخرة عسىـ أن يرحمهم إن عادوا إليه وتابوا وأنابوا.

١٠- و من ضـمن الحوار المنهجي للقرآن مع أهل الكتاب أنه طرح عليهم سؤال واضـح{**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْـبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى**}[(١)]؟ - سؤال لا جواب عليه. الله أعلم ليس أنتم! وبين المنهج القرآني أنهم يتخذون الذرائع اسـتكباراً حتى يقسـموا الصف المسلم، ويفرقوا بين المســلمين. والـدليـل على ذلـك كما ظهر لنـا في حكمة تحويل القبلة، وأن تروا ما جاء به الرسـول ﷺ فبين تعالى لرسـوله مهما يأتهم بكل آية أو حجة لن يؤمنوا. فأسـاس الإنكار الكبر والعناد مع علمهم يقينا بما في كتبهم أن النبي ﷺ على الحق المبين.

١١- المنهج القرآنى الواضـح في الحوار مع أهل الكتاب علمنا أن التوراة التي في أيـدي يهود اليوم ليســت هي التي أنزلهـا اللـه على موسى عليه الســلام لانقطاع سـندها، واشـتمالها على القصـص والعبارات التي تتهم أنبياء الله عليهم السلام بما لا يليق بهم، التي تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها،

١٢- وكذلك الحال بالنسبة للأناجيل التي في أيدي النصارى اليوم، إنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى ـ عليه السلام، ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه. [1]

١٣- بين القرآن أن الله هو الخالق لكل ما سواه، وأنه رب لكل ما اتخذه الكفار والمشركين ربا مما دونه، وشهد عز وجل بذلك وملائكته وأهل العلم من خلقه، وبين القرآن لأهل الكتاب أنهم اختلفوا في الحق مع علمهم أنه الحق بعدما تبين لهم، ولأن العلم كالمطر لا تستفيد إلا الأرض النقية، ومن هنا كان اختلافهم بغيا بينهم، فهم أهل مغالطات ولجاجة وأكاذيب وافتراء على الله، فالمطلوب منهم ومن غيرهم الإخلاص لله وحده والانقياد له عز وجل.

١٤- كان المنهج القرآني واضحا تماما عندما خاطب أهل الكتاب في قضية قتل الأنبياء، بين لهم المصير المحتوم بالعذاب الأليم وبطلان الأعمال في الدنيا والآخرة.

١٥- القرآن يدعو الأمم إلى توحيد الله من عهد آدم، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ كلهم دعوا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، ثم بين القرآن قلة اعتماد أهل الكتاب على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار عندما جادلوا في إبراهيم عليه السلام، وما أنزلت التوارة والإنجيل من بعده{**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} توحيد مطلق لله تعالى.

١٦- ومن سيم يهود: التلاعب بالدين، فهم أهل خداع يظهرون الإسلام ثم ينقلبون إلى الكفر ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف المسلمين حتى يقع ضعاف الإيمان في حيرة واضطراب،

١٧- فهذا مسلك من مسالك اليهود الماكرة التي أرادوا من وراءها كيد الإسلام والمسلمين، فهم الذين قالوا:{**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**} وهم لا يرقبون منهم إلاًّ ولا ذمة، وهم أهلُ خيانةِ وكفرٍ وجحودِ وهذا الصنف هو أكثر أهل الكتاب لأنهم ليسوا سواء.

١٨- بيّن القرآن أن شعار الإسلام هو الإيمان بالرسل والأنبياء والكتب{**وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**}(١) ، وبيّن أنه من يطلب دينا غير الإسلام فهو خاسر، ولن يقبل منه غير هذا الدين الذي ارتضاه عز وجل دينا لـه، لذلك كان المنهج واضحاً وكذلك موقف المسلمين من أهل الكتاب والتحذير منهم لأنهم يبثون الشبه لتضليل المؤمنين، ورغم هذا كله يفتح الله سبحانه وتعالى لهم باب التوبة لمن أراد التوبة منهم وطريق الهداية لمن أراد الهداية منهم. وهناك أمثلة من اليهود قبل الإسلام، الذين أسلموا وتابوا إلى الله في عهد النبي ﷺ منهم: حبر اليهود عبدالله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وثلعبة بن شعبة، وكعب الأحبار، ومن النصارى النجاشي ملك الحبشة.

١٩- ذكر الله عز وجل الكثير عن تعنت يهود، بيّن أن قلوبهم مردت على الكفر بآيات الله والطغيان وقلة الإيمان، ونقض العهود والمواثيق وقتل الأنبياء بغير حق، فهم من حاول قتل عيسى- عليه السلام، قالوا:{**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ**} مزاعم كاذبة، أقوايل باطلة، وذلك ما قالوه إلا من باب التفاخر - التفاخر في ماذا؟! في القتل، في الفساد في الأرض، في هدم الديار، في احتلال البلا د، فما نراه الآن من فعل يهود هو بعينه ما بيّنه القرآن الكريم - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢٠- بين عز وجل حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه ليس كما زعمت النصارى أنه إلها أو ابن إله، وإنما هو عبد الله ورسوله.

٢١- إن هذا القرآن هو معلِّم هذه الأمة ومرشـدها، قصّ علينا ما وقع من بني إسرئيل من اللّعن والطرد وقسـوة القلب وتحريف الكلم، فالقرآن هو نور المبين يا أهل التوراة والإنجيل، والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي فيه بيان ما اختلفتم فيه.

٢٢- التوبيخ بسـبب دعواهم الباطلة أن لهم مزية على سـائر الخلق في قولتهم أنهم أبناء الله وأحبائه، قول باطل وجهل بما اشـتملت عليه كتبهم، تخبط في الكفر والضـلال مع فهم سـقيم لمعاني الألفاظ، - سـبحان الله - واقعهم يناقض دعواهم؛ فقد عذبهم الله عز وجل في الدنيا بالقتل والمسـخ والأسر وتهيج العـداوة والبغضـاء بينهم إلى يوم القيـامـة، وكـذلـك ضرب الـذلـة والمسكنة عليهم.

٢٣- كان المنهج والطريق واضـح للمؤمنين من خلال آيات القرآن العظيم بعدم موالاة اليهود والنصـارى لأنهم جميعـا يـد واحدة عليكم، فملة الكفر ملة واحدة، فهم مع كراهيتهم بعضهم بعضا واختلافهم فيما بينهم متفقين على كراهية الإسلام والمسلمين.

٢٤- حكى القرآن عن بعض أوصـاف يهود كيف أنهم أظهروا باءهم بقولهم:{**يَدُ اللّـهِ مَغْلُولَـةٌ غُلَّـتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ**} غُلّت أيديهم ولعنوا بما قولوا، وقولتهم:{**قَـالُواْ إِنَّ اللّـهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاء**}. ورغم ذلك يبيَن الله عز وجل أن باب التوبة مفتوح{**أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} لقبول توبتهم رغم ما ارتبكوا من ذنوبب عظيمة وكثيرة، فهو الله عز وجل عظيم المغفرة وواسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا.

٢٥- البشرـى من موسى وعيسىـ عليهما السـلام بمجيء النبي ﷺ. بشرـا ببعثته وصـفاته ومنهـج رسـالته وبخصـائص ملّته. لقد أحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، ويضـع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي كانت عليهم؛ فمن أيّده ونصره ووقَّره منهم،

٢٦- واتبع النور الهادي الذي معه أولئك هم المفلحون. ومن المنهج القرآني الواضح النهي عن تعدد الآلهة، تارة عن طريق النهي الصريح، وتارة عن طريق القصر، وتارة أخرى عن طريق التخصيص. وكذا، توعد الله عز وجل المكذبين للرسل بالعذاب الأليم.

٢٧- ثم بيّن الله عز وجل المنهج والأسلوب الأفضل في الجدال مع أهل الكتاب وغيرهم بالقول الحسن؛ فالكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جَفافها، تجمعها على الود الكريم، فالشيطان يتلمس السقطات ليغري العداوة والبغضاء بين البشر والكلمة الطيبة تسدُّ الثغرات وتقطع عليه الطريق، فما كان اللين في شيء إلا زانه. وأمرنا أيضا، بالبعد عن المجادلة بالباطل والمخاصمة والمنازعة.

٢٨- أمرنا بالتمسك بالقرآن، فهو حجة لمن اتبعه وتمسك به وحجة على من جعله خلف ظهره وأهمله، وكذلك أمرنا بتوحيد الله كما أمر الأنبياء جميعاً، وبيّن المنهج القرآني أدلة توحيد الله عز وجل واضحة جلية.

٢٩- ثم بيّن المنهج القرآني على وجه الخصوص مجادلة أهل الكتاب بالحسنى لبيان حكمة هذه الرسالة العظيمة، وإنما هذه المجادلة بالحسنى مقصورة فقط على من لم يظلم منهم{**إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}. وكذا وضَّح القرآن أخلاق الحبيب محمد ﷺ، وبيّن أنه المثل الأعلى في الأخلاق، إنّه محمد ﷺ وحده الذي عَلِم الله عز وجل منه أنه أهل ليبلِّغ هذه الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة. والشواهد في أسلوب دعوته ﷺ مع أهل الكتاب وغيرهم واضحة، وقد بيّنتها في مواضع أخرى من هذا البحث.

فالنبي ﷺ جاء ليتمِّم مكارم الأخلاق؛ نهى عن الجور والظلم والخداع، وقتل النفس بغير حق، وإرهاب الآمنين، والاعتداء على الحرمات والأعراض، ونهى عن إشاعة الفاحشة بأي صورة من الصور، ونهى عن الغش والربا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل، لذا وصفه الله عز وجل في كتابه{**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**}.

* * * * *

المبحث الثانى

أسلوب القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما ســـبق من الآيـات التى تكلمـت عن أهـل الكتاب فى القرآن الكريم يتبين لنا أنه فى محاورته وجداله معهم قد تصـــداهم وواجههم ووبخهم على عنادهم وكفرهم بالله ورد على شبهاتهم وفضح كيدهم، لقد أشركوا با لله وكذبوا وحرفوا أياته.

كان الأسلوب واضحاً عندما واجههم فى قتلهم للأ نبياء بغير حق وكذلك من يأمر بالقسط من الناس.

وبين القرآن أنـه ضربـت عليهم الـذلة والمســـكنة بســـبب هذه الذنوب والجرائم التي يرتكبوها، تارة بالمسخ والقتل وتارة بالأسر.

بين القرآن الكريم ضلالهم واختلافهم فيما بينهم وعداوتهم لبعضهم البعض.

وضح القرآن أنهم ما تركوا أبواب الهداية والاستسلام لربهم والانقياد لدين الإسلام

إلا كبرا وحســدا من عند أنفســهم مع علمهم التام بأن ما جاء به الرســول عليه الصــلاة والســلام حق. وضــح القرآن الكريم أن شــعار المســلمين هو: الإيمان بالله وكتبه ورســله دون التفريق بين أحد منهم،فبين عز وجل أن الدين عند الله الإســـلام، ومن يبتغ غير الإســـلام دينا فلن يقبـل منـه وهو فى الأخرة من الخاسرين، لذا حذر القرآن من أهل الكتاب ومن شرورهم وكيدهم،فهم أهل زور وبهتان، والقول على الله بغير حق.

قال الشيخ سيد قطب رحمه الله:

إن الأســلوب هنا يعنف ويشــتد، ويتحول - في بعض المواضــع - إلى صــواعق وحمم.. إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من جزاء، موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم..

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}..

قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيساً لمحمد ﷺ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول.. ويقول الله رداً على قولتهم:{**بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ**}.. أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى..{**فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**}.. أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم. أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم. وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

{**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**}..

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر:{**فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**}..

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**}..

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا... لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه

وأخذوه،وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسـدهم لرسـول الله ﷺ أن يختاره الله للرسـالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضـله على من يشـاء من عباده. وكان هذا

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم: أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتـاب والنبوة؟ أو مخـافة أن يحاججكم المسـلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بـالحق وأنتم كفرتم بـه؟ أمخـافـة ذلـك دبرتم مـا دبرتم من هذه الأقوال السـيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السيئ إلا الحسد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه.

إن القرآن الكريم يصـور ما عليه بنو إسرائيل من صـفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق. فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضـوها، وأرسـل إليهم الرسـل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصـيبهم بسـببه عقاب دنيوي، فلما أصـابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم. بسـبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقـابـه، فعادوا إلى عماهم وصـممهم - إلا قليلاً منهم -، وارتكبوا ما ارتكبوا من منكراتٍ بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها.{**وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أنفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ**} وبعد أن بين - سبحانه - أنماطاً من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصـارى وضـلالاتهم وأرشـدهم إلى طريق الحق والصـواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى:

{لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ...}

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما اسـتقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

وهـذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى.

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم.

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى- وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برىء منها وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً.. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

هذا، وبتدبير آيات القرآن نراها قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين، وأ هل الكتاب وهى أنهم:

أولاً:{**لاَ يُؤْمِنُونَ بالله**} لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيماناً صحيحاً، لاتبعوا رسوله محمداً ﷺ ولأن منهم من قال:{**عُزَيْرٌ ابن الله**} ومنهم من قال:{**المسيح ابن الله**} وقولهم هذا كفر صريح، لأنه - سبحانه - منزه عما يقولون.

قال - تعالى: {**قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ**}

وثانياً: أنهم " لا يؤمنون باليوم الآخر " على الوجه الذى أمر الله - تعالى - به، ومن كان كذلك كان إيمانه. على فرض وجوده. كلا إيمان.

قال الجمل ما ملخصه: فإن قلت: اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك؟

قلت: إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبى ﷺ فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه فى الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك.

وأيضاً فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون -

١ أى أنهم يرون نعيم الجنة{**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**}..

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم. فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين. ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً. فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم،فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتا بوا. فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر. فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر وآفاق البشر. والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون. وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدران عن بشر!

{بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}..

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب. دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل. والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قرارتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك!{**وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون**}.. الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم.

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التى هى أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - فى آية أخرى:{ **ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ**} وقوله:{**إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ**} استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن.

أى: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم. بأن أساؤوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب.

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة: دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً. ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم.

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمرد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم.

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم.

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك:{**وقولوا آمَنَّا بالذي أنزلَ إِلَيْنَا وَأنزلَ إِلَيْكُمْ**} يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم.

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد{**آمَنَّا بالذي أنزلَ إِلَيْنَا**} وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل.

قال الشوكانى: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه.{**وإلهكم وَاحِدٌ**} لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته{**وَنَحْنُ**} جميعاً معاشر المؤمنين{**لـه مُسْلِمُونَ**} أى: مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل.

قال القرطبى ما ملخصه: اختلف العلماء فى قوله - تعالى:{**وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب...**} فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل -، والتنبيه على حججه وآياته.. وقوله:{**إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ**} أى ظلموكم..

وهكذا أسلوب القرآن فى مجادلتهم يتصدى لهم مباشرة بإعلامهم أن الله مطلع على مافى قلوبهم وأنه مخرج مايحذرون،لقد جلى القرآن لعباده أمورهم وكشف أسرارهم وفضح كيدهم لنحذر منهم.

لقد أكد القرآن فى أسـلوبه ومحاورته مع أهل الكتاب على أنهم إن لم يتوبوا ويعودوا إلى الحق الذى هوالإيمان بالله وحده وبرسوله محمد ﷺ، وبأن الدين الحق هو دين الإسلام الذى لايقبل الله دينا سـواه فإن المصـير عذاب مقيم فى جهنم وبئس المصـير، ومع ذلك فإن باب التوبة والرحمة مفتوح لهم وذلك بشرط الإيمان بالله ورسوله.

الباب الثالث

الحوار مع أهل الكتاب فى العصر الحديث

الفصل الأول: الحوار وسماحة الإسلام فى التعامل مع غير المسلمين

المبحـــث الأول

المطلب الأول:

شروط الحوار أو الجدال مع أهل الكتاب

١- العلم والعدل: الأصــل في العلم: علم الكتاب والســنة والدوال عليهما وليس كل من انتسب للعلم صلح أن ينافح عن الإسلام أو يدعو إليه بل ربما أفسد هؤلاء ما لا يمكن إصلاحه. [(١)] قـال شـــيخ الإســلام: "... ولا ريـب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والســنة فهو باطل. لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المســائل المفصــلة لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسـنة وما الذي يخالفه؛ كما قد أصـاب كثير من الناس في الكتب المصـنفة في الكلام في أصــول الـدين وفي الرأي والتصـــوف وغير ذلـك..." [(٢)] ويقول رحمـه الله تعالى: "... والإنسان خلق ظلوماً جهولاً فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر فيحتاج دائما إلى علم مفصـل يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته فكل ما يقولـــــه ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله وعـدل ينافي ظلمه فإنْ لم يمن الله عليه بالعلم المفصـــل والعدل المفصـــل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان:{**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**} إلى قولـه:{**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**} فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريبا منها فكيف حال غيره؟! "[(٣)].

وقـال ابن القيم في "الهـدي" عمن يتهرب عن مجـادلـة أهـل الكتـاب: "... ولا يهرب من مجـادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليولِ ذلك إلى أهله وليخلِ بين المطي وحاديها والقوس وباريها..." [(٤)].

وقال أيضا رحمه الله تعالى: "والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي وكذلك أصحابه من بعده وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة وبهذا قام الدين وإنما جعل السيف ناصرا للحجة وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته وهو سيف رسوله وأمته" (١).

٢- معرفته بما ينكي وينجع في رد صيال الخصم وجداله (٢)**:** قال ﷺ : «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**» (٣) وفي الحديث أنَّ من أقسام الجهاد: الجهاد باللسان؛ ولا يعني ذلك مجرد الكلام وعموم المنافحة فإنَّ هذا يُحسِنُهُ كلُّ أحد! ولهذا كان شعر حسان رضي الله عنه ليس كشعر غيره فقد كان يقع من الكفار موقع النبل.

قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل**» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «**اهجهم**» فهجاهم فلم يُرضِ! فأرسلَ إلى كعب بن مالك ثم أرسلَ إلى حسّان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسّان: قد آنَ لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلعَ لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم... " ثم قالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسّان فشفى واشتفى**» رواه مسلم(٤).

قال النووي رحمه الله - في شرح الحديث -: "وأما أمره ﷺ بهجائهم وطلبه ذلك من أصحابه واحدا بعد واحد ولم يرض قول الأول والثاني حتى أمرَ حسّان فالمقصود منه: النكاية في الكفار..." (٥).

وكما أن الجهاد باليد لا بد من إعداد العدة فيه وإلا كان ملوماً على تفريطه فكذا الجهادُ في ميدان اللسان والكلمة بل أمرَهُ أخطر وأشدّ من الجهاد باليد فإنَّ غاية المجاهد في سبيل الله بيده إذا خسر المعركة أنْ يُقتلَ في سبيل الله ولا يلام عند عامة المسلمين على تفريطه في اتخاذ العُدد كما يلام من يتخلف عن إعداد العدة لمواجهة الكفر في ميدان النظر والمجادلة وذلك أن الإسلام منصور دوماً وأبداً في مقام الحجة والظهور بخلاف الظهور بالسيف فإنه يكون مرة لـه ومرة عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظرَ ضعيفَ العلم بالحجة وجواب الشبهة فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل كما ينهى ذلك الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار فإنَّ ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة"أهـ [1].

مما يلتحق بهذا اللازم: خطاب كل قوم باصطلاحهم الذي تعارفوا عليه إذا كانت هناك حاجة وكانت المعاني صحيحة. قال ابن تيمية:: "... وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعُرفهم فإنَّ هذا جائزٌ حسن للحاجة وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتاجوا إليه"[2].

وقال رحمه الله: "... ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات. فإذا كان عدو المسلمين - في تحصنهم وتسلحهم - على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم: كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع وهو الأصلح في الدنيا والآخرة. وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك لا لفضل قوته وشجاعته ولكن لمجانسته

لهم كما يكون الأعجمي المتشـــبـه بـالعرب - وهم خيـار العجم - أعلم بمخاطبة قومه الأعـاجم من العربي وكما كون العربي المتشـــبـه بـالعجم - وهم أدنى العرب - أعلم بمخـاطبة العرب من العجمي..."[1].

ومما يعين على تحقيق هـذا اللازم اهتـداء المجـادل بطريقة القرآن والســـنة في مجادلة ومناظرة أهل الكتاب إذْ بذلك تتم النصرـة وتقوم الحجة. قال شـيخ الإسلام ابن تيمية: "وكثير من المصـنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون: إنه يُعلم بالعقل مثل تثليث النصـارى ومثل تكذيب محمد ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين. وهذا تقصير منهم ومخـالفـة لطريقـة القرآن فـإنَّ اللـه يبين في القرآن مـا خـالفوا بـه الأنبياء ويذمهم على ذلك والقرآن مملوء من ذلك" أهـ [2].

و يفيد في هذا الشـأن النظر في القواعد الجدلية المشروعة المستنبطة من الكتاب والسنة ومما دلت عليه العقول والفطر السليمة [3].

ومن فوائد ما قالوه: أن المناظر لا يحتاج - أحياناً - أن يظهر الحق للمخالف المعاند عند انقطاعه وإنما عليه الاشتغال برد دليله وقلبه عليه ودمغ باطله وبيان تناقضه فيترك في عماية حتى يفيق ويتبين لـه فساد ما كان عليه.

وهذه الطريقة نافعة في كثير من المسائل المطروحة في الحوار والجدال مع أهل الكتاب اليوم كقضية تعدد الزوجات في الإسلام وحقوق الإنسان مثلا فلوسئل عنها المرء فليس من الضرورة تبيين حكم الإسلام فيها لكل سائل لأن السؤال - في الغالب - سؤال تعنت واستنقاص للإسلام حتى أصبحت أمثال هذه المسائل من مسائل الشعار التي يعير بها المسلمون فهاهنا يبين لهم ما في واقعهم من تناقض في قضية المرأة واستعبادهم للشعوب ومصادرة الحريات ونحو ذلك من الأمور التي يسمعها الأصم ويراها الأعمى!

والأصل عدم العمل بهذه الطريقة - عند عدم الحاجة إليها - لأنها تخالف أصل بيان الحق والصدع به [١] والله تعالى أعلم.

وأحيانا قد يضطر المجادل المسلم إلى الاحتجاج على الخصم الكتابي بمقدمات يسلمها ولوكانت في نفسها باطلة وذلك من أجل بيان تناقضهم لا لتقرير الحق [٢] ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والله تعالى لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إنْ لم تكن علما فلو قُدرَ أنه قال باطلاً لم يأمر الله أن يحتج عليهم بالباطل لكنَّ هذا قد يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه لا لبيان الدعوة إلى القول الحق ودعوة العباد إليه..." أهـ[٣].

١- الصدع بالحق والجهر به: الأصل في المسلم جهره بالحق وصدعه به؛ قال تعالى:{**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**}[٤].

٢- وقال:{ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ**}[١]. وفي قصة جعفر رضي الله عنه مع النجاشي دليلٌ على الجهر بالحق والصدع به في وقت الضعف وهم بديار الكفر ولم يمنعه كونه في دار الكفر من بيان الحق [٢].

وربما ظنَّ ظان أن مجرد مناظرة أهل الكتاب فيها تنازل عن الحق ومخالفة لوجوب الصدع بالحق وهذا الظن ليس بشيء لأننا في هذا المقام نتكلم بطريق التنزل مع الخصم وهي من طريقة القرآن ولهذا فإننا - كما يقول شيخ الإسلام -: "... نتنزل لليهودي والنصراني في مناظرته وإنْ كنا عالمين ببطلان ما يقوله اتباعا لقوله تعالى:{**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[٣] وقوله:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}[٤]، وإلا فعلْمنا ببطلان ما يعارضون به القرآن والرسول ويصدون به عن سواء السبيل وإن جعلوه من المعقول بالبرهان أعظم من أن يبسط في هذا المكان"[٥].

وهذا الصدع لا يعني ترك أدب الجدال والحوار أو التخلي عن أخلاق وآداب الإسلام فالمسلم هو المسلم في كل الأحوال وإنما يصول ويجول بالله ولله لا بنفسه ولا لهواه.

* * * * *

المطلب الثاني:

استقامة المسلم وتخلقه بأخلاق الإسلام

وهـذا المعنى متفق عليـه والكلام فيـه قـد أشـــبع في كتب الحوار والجدل. ويدخل فيه الكلام عن آداب الحوار والجدال وهو من المتقرر أمره فلا نطيل بتأصيله والتدليل عليه [1].

تنبيـه:

قـد يعـرض للمجـادل المسـلم أثنـاء رده مسـألة تخطئـة أعـمال واجتهـادات المسـلمين إذا أوردهـا عليـه الكتـابي فـما حكـم ذلـك في وقـت الحـوار أو الـرد ودفـع الصـيال؟! يجـاب بـالقول: إن جـواز ذلـك يشـترط لــه أمـور تـدور مـع قاعـدة جلـب المصـالح ودرء المفاسـد ومن ذلك:

١- أن يكون الحرص على تأليف المســلمين بكلامه أولى من حرصــه على تأليف الكفار به. وتأليف القلوب مقصد شرعي لا يفرط فيه.

٢- أن يكون وجه التخطئة لأعمال المسلمين صحيحاً من جهة النظر الشرعي.

وهذه الأعمال لا تخلو من حالين:

الحــال الأول: أن تكـون صـحيحة شرعــا. فهــذه لا يجــوز ردهــا أو تأثيمهــا وهــذا كمسـائل إقامـة الحـدود وحكـم الـردة والختـان والجهـاد في سـبيل اللـه وتعـدد الزوجـات وأحكام أهل الذمـة والـرق. وذلـك لأنَّ عرضَـها والـدفاعَ عنها دفـاعٌ عـن الـدين وبيـان لــه. ويبقــى عــلى المجــادل تــوخي أحســن وأنجــع الأســاليب في عرضــها والــدفاع عنهــا وهــو مقام تتفاوت فيه المدارك.

والحال الثاني: ألا يقرها الشرع. وهذا الحال على درجتين:

الدرجة الأولى: أن يكون القول بها من الشذوذ أو اتباع الهوى المحض.

الدرجة الثانية: أن تكون من محال الاجتهاد؛ والخلاف فيها سائغ أو يكون العمل فيها بناءَ على تقليد عالم.

والدرجة الأولى لا يلزم المجادل التزامها إذ ليست من الدين ويخشى أن يكون في التزامها نوع من العصبية للجنس والإقليم وليس هذا من باب الولاء والبراء؛ فإنَّ شذوذها واتباع صاحبها للهوى المحض مما يخرجها عن الإسلام فلا يلزم أن يوالى فيها ويقرر بإنصاف أنَّ هذا ليس من دين الإسلام.

أما الدرجة الثانية فهي من محال النظر ولا ضابط يضبط جزئياتها فإنها تتنوع بتنوع الأحوال والبلدان وتختلف باختلاف الأشخاص والمسائل. والأصل أنه إذا كان الخلاف فيها سائغا فإنَّ المجادلَ يبينُ وجهَ الاجتهاد ولا محذور في ذلك.

٣- أن يُفَرِّقَ بين أخطاء واجتهادات المكلفين وبين الحكم على الإسلام كدين لا غنى للبشر عنه وهذا من الوضوح بمكان.

٤- ألا يؤدي كلامه في ذلك إلى مفسدة أعظم من المصلحة المنشودة. فإنَّ المصلحة المنشودة - في أحسن الأحوال - تألف قلب الكافر لدخول الإسلام وقد يكون هذا الكافر غير جاد في التفكير في الدخول في الإسلام وإنما يثير الكلام ويردد ما يقال ويذاع في بلاده وإعلامه وليس عنده أدنى باعث للدخول في الإسلام!

* * * * *

الثالث:

شروط المحاور الكتابي

ليس هناك شروطا خاصة بالمحاور الكتابي في الشريعة سوى عدم الظلم[1] والدليل قول الله تعالى:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}[2]. فإنْ كان منهم فيخرج الجدال معه عن مسمى "الجدال بالتي هي أحسن"؛ وينتقل الخطاب معه إلى مجادلة بغير التي هي أحسن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظن أنه حقا ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاءَ له بموجب عمله". أهـ [3].

"... والامتناع عن الجدال مع الظالمين واتخاذه منهجا مطردا يخالف منهج النبي ﷺ فقد جادل اليهود بالتي هي أحسن في المدينة وكانوا يكتمون ما أنزل الله ويلبسون الحق بالباطل؛ كما جادل نصارى نجران ودعاهم إلى المباهلة فرفضوا... فالأصل أن يقبل الجدال مع كل أحد لأن كل كافر ترجى هدايته. نعم قد تكون المصلحة في الامتناع عن مجادلة طائفة منهم أو مع أفراد لسبب أو لآخر وهذا استثناء..."[4]

* * * * *

المبحث الثاني:

الجدال مع أهل الكتاب بالحسنى وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين:

المطلب الأول:

موضوعات الحوار أو الجدال مع أهل الكتاب

موضوعات الحوار والجدال لها أهمية كبرى إذ إنها ركن من أركانه لا يتم إلا بها [١]. وإنَّ الناظرَ في الكتاب والسنة يجد أنهما يدوران في مجادلة أهل الكتاب على محورين أساسيين: التوحيد والنبوة[٢]؛ وما يتعلق بهما من قضايا فتجد فيهما:

١- الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له. كقوله تعالى:{**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[٣]، وقال تعالى:{**وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**}[٤]. وقال تعالى:{**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**}[٥].

٢- الأمر بالإيمان برسالة محمد ﷺ وأنه رسول إلى العالم أجمع وهم داخلون تحت عموم رسالته.

٣- كقولــــه تعالى:{**يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}(١). وقولـــــه:{**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}(٢).

٤- إثبات القرآن لنسـخ أديانهم وتحريف كتبهم وبطلانها ووجوب إيمانهم بالقرآن. قال تعالى:{**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}(٣). وقال:{**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**}(٤).

٥- الرد على شـبهاتهم وافتراءاتهم ونهيهم عن الغلو في الدين. وهذا كثير في القرآن والسنة.

والأصل في مواضيع الجدال معهم ما يلي(٥):

أولا: كل موضـوع يخدم الأهداف التي شرعها الله في مجادلة أهل الكتاب فهو مطلوب وذلك مثل: دعوتهم للإسلام وبيان ما هم عليه من الباطل ورد شبهاتهم وطعنهم في الإسلام وتثبيت المؤمنين بإظهار علو حجة الإسلام وتحقيق مصالح مشروعة للمسلمين عبر الحوار معهم مثل: تحييد بعضهم والضغط عليهم وكشف مؤامراتهم وفضح طرقهم في التنصير ونحو ذلك(٦).

ثـانيـا: كـل موضـــوع يخدم أهدافا نهى الله عنها فهو ممنوع وذلك مثل: موالاة الكفار ومودتهم؛ أو التقـارب معهم؛ أو التنـازل عن شيء من دين الإســـلام كـإلغاء الجهاد أو تحوير معناه أو التنصل من أحكام أهل الذمة أو إبطال الرق؛ ونحو ذلك[١].

ثالثا: إذا كان الموضـوع من الاصطلاحات والألفاظ الحادثة التي ربما جمعت حقا وباطلا أو كانت باطلا ولكنها مشتبهة. ففي هذا تفصيل يقوم على أمور منها:

أ- معرفة أقسام الناس في موافقة ألفاظ ومعاني الكتاب والسنة.

الناس في موافقة نصوص الكتاب والسنة على أقسام:

أحدها: من يوافقها لفظا ومعنى. وهؤلاء أسعد الناس بالحق.

الثاني: من يوافقها في المعنى دون اللفظ. وفيه تفصيل.

الثـالـث: من يوافق النصـــوص في اللفظ دون المعنى. وهـذا مثـل اســـتخـدام الباطنية وأشـــياعهم لألفاظ الشرـع للدلالة على معانٍ فاســـدة خارجة عن حد الإســـلام كاســـتعمالهم لألفاظ: الصـلاة والصـيام والحج. ومنه اسـتعمال العصرانيين وأشياعهم للفظ: "الكلمة السواء" في غير ما أنزلـه الله تعالى.

الرابع: مخالفة ألفاظ الكتاب والسنة لفظاً ومعنى. وهؤلاء أشقى الطوائف[٢].

وينبغي على المرء أن ينظر حين يستخدم تلك المصطلحات الحادثة هو في أي قسم منها.

ب- العلم بملابسات نشأتها وتأريخها وطرائق ودرجات استعمال المخالف لها.

العلم بنشـأة هذه المصـطلحات (التسامح والتعايش والحوار وغيرها) وتأريخها مما يعين على استبانة الحق فيها.

ج- وزنها بوزن السلف الصالح في الاصطلاحات الحادثة.

يتميز السلف الصالح ومن يسير على أثرهم بأنهم ينهون عن: "إطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق ولا قصور أو تقصير في بيان الحق ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل ففي إثباتها حق وباطل وفي نفيها حق وباطل فيمنع من كلا الإطلاقين بخلاف النصوص الإلهية فإنها فرقان فرق الله به بين الحق والباطل ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه.."[1].
والأصل في "الاصطلاحات الحادثة" أن توزن بوزنهم في مثلها وأخواتها من الألفاظ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "... فإذا عرفت المعاني المقصودة بهذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة وينفى الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الأ لفاظ نفياً وإثباتاً في الوسائل والمسائل: من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو من الصراط المستقيم وهذا من مثارات الشبه"[2] أهـ

د- تحرير محل الإجمال والإيهام في تلك الألفاظ والمصطلحات.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[3]:

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ ::: إطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الـ ::: أذهان والآراء كل زمان

فإطلاق الأقوال المجملة والمعاني المشتبهة يثير النزاع بين المتخاصمين أمّا التفصيل والبيان فهو إمّا أن يرفع النزاع أو يقلله ولهذا كان كثير ".. من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها

ولـو سـئل كـل مـنهما عـن معنـى مـا قالـه لم يتصـوره فضـلاً عـن أن يعـرف دليلـه ولـوعرف دليلـه لم يلـزم أن مــن خالفــه يكــون مخطئــاً بــل يكــون في قولــه نــوع مــن الصواب وقد يكون هـذا مصـيباً مـن وجـه وهـذا مصـيباً مـن وجـه وقـد يكـون الصـواب في قول ثالث.."[١].

ويقول شـيخ الإسـلام رحمه الله تعالى: ".. فإذا عرفت المعاني الصـحيحة الثابتة بالكتاب والســنة وعبر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالفه فهـذا عظيم المنفعة وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى:{**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**}[٢] وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضــعهم وعرفهم وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والســنة ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم ثم اعتبار هذه المعاني بهذه المعاني ليظهر الموافق والمخالف"[٣] أهـ

المطلب الثاني:

محاورة أهل الكتاب بين مجافٍ ومغال

أهـل الكتـاب هـم اليهـود والنصـارى... وهـم أهـل كتـب سـماوية.. وأهـل عقيـدة سـماوية رغـم مـا فيهـا مـن تحريـف وتبـديل.. وقـد تسـامح الإسـلام معهـم كثـيراً حيـث أجـاز للمسـلمين مصـاهرتهم وأكـل طعـامهم وتحليـل ذبـائحهم... ولـذلك يخطـئ مـن لا يعطي أي إعتبار لعقيدة أهل الكتاب ويساويهم بالمشركين البوذيين مثلاً...

والإسـلام يأمرنا بحسـن معاملة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسـلام بالتي هي أحسـن... ويخطئ كثيراً من يصـور علاقـة المسـلمين بـأهـل الكتاب على أنها علاقة قائمة على البغض والكراهية والعداء والقتال وسوء المعاملة...

قال تعالى:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ**}. وجاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بخصوص وحدة الأديان ما يأتي: "و مما يجب أن يعلم أن دعوة الكفار بعامة وأهل الكتاب بخاصـة إلى الإسـلام واجبة على المسـلمين بالنصـوص الصريـحـة من الكتـاب والسـنة، ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسـن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسـلام، وذلك للوصـول إلى قناعتهم بالإسـلام ودخولهم فيه".

فالعلاقة بين المسـلمين وأهل الكتاب علاقة قائمة على التسـامح وحسـن المعاملة والعدل والتعارف وتبادل المنافع والمصالح...

و يخطئ كثيراً من يعتبر حسـن معاملة أهل الكتاب والتسـامح معهم نوع من الموالاة... فهنالك فرق كبير بين التسامح وحسن المعاملة الذي يدعو لـه الإسلام وبين الموالاة التي ينهى عنها الإسـلام... فالموالاة المنهي عنها هي مناصرة أعداء المسـلمين ضـد المسـلمين لإضـعافهم وتقويض دولتهم ومحاربة دينهم الإسلامي... كذلك من الموالاة الرضى بما هم فيه من الكفر...

و يمكن تقسيم أهل الكتاب من حيث علاقتهم بالمسلمين إلى:

١- **أهل الذمة:** والذمة هنا معناها ذمة الله وعهده ورعايته..

٢- **و أهل الذمة هم:** (المواطنون) غير المسـلمين الذين يعيشـون تحت ظل الـدولـة الإسـلامية... ولهم حقوق وعليهم واجبات... وأهم واجباتهم دفع الجزيـة... والجزيـة نوع من الضرـائـب في مقـابـل الزكـاة التي يـدفعهـا المسـلمون... فمن غير المعقول أن يـدفع غير المسـلم الزكاة... لأن الزكاة عبادة...

٣- **و من حقوق أهل الذمة على المسلمين:** حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وأعراضـهم وكفالة حرياتهم والكف عن أذاهم... وقد حذر الرسـول عليه السـلام من إلحاق الأذى بأهل الذمة حين قال: (من آذى ذمياً فأنا خصمه.. ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة). وهنالك قاعدة مشهورة عند فقهاء الإسلام بخصوص أهل الذمة هي: (أن لهم ما لنا.. وعليهم ما علينا).

و قـد روي عن سـيـدنـا علي كرم الله وجهه أنه قال: (إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا.. وأموالهم كأموالنا).

٤- **أهـل الحرب:** وهم الذين بينهم وبين المسـلمين حرب... والذي يعلن ويقود الحرب أو يسـتنفر للجهاد هو حاكم الدولة الإسـلامية أو خليفة المسـلمين... وليس الأفراد...

٥- **أهل الهدنة:** هم الذين يربطهم مع المسـلمين عقد الهدنة والموادعة... فإذا كانت هنالك حرب بين المسـلمين وأعدائهم.. وجنح هؤلاء الأعداء للسـلم.. فعلى المسـلمين أيضـاً أن يقبلوا السـلام معهم... فالإسـلام يدعو دائماً للسلام والأمان ولا يدعو للحرب.

٦- **المستأمنون:** وهم غير المسلمين أو الحربيون الذين يدخلون الديار الإسلامية لفترة محدودة.

و إذا تكلمنا بلغة العصر نقول: المستأمنون هم الأجانب الذين يدخلون الدولة الإسلامية لفترة محدودة بهدف السياحة أو الزيارة أو التعرف على الإسلام أو طلباً للأمان واللجوء... إلخ

و تسري عليهم أحكام عقد الأمان... ويترتب على عقد الأمان حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وأعراضهم...

النبي محمد ﷺ قام شخصياً بهداية بعض اليهود إلى الإسلام:

فقد حدثنا الصحابي الحصين بن سلام كيف أنه أسلم وجاء إلى الرسول وطلب منه إخفاءه ودعوة اليهود إلى الإسلام، وجاء أشراف اليهود وحثهم الرسول ﷺ على قبول دعوة الإسلام ولما وجد منهم إعراض سألهم عن موقع الحصين بن سلام فيهم وما أجابوه بأنه من أشرفهم علماً ومكانةً، وعندما سألهم الرسول ﷺ عن ردة فعلهم إن أسلم الحصين، فأجاب اليهود بأنه لا يمكن أن يقوم بذلك على الإطلاق.

وفي هذه اللحظة خرج عليهم الحصين وحثهم على ترك تكبرهم وقبول الإسلام واتباع الرسول ﷺ لأن صفته موجودة في كتابهم المقدس...

أرسل الرسول ﷺ بعوثاً لهداية اليهود:

قام الرسول ﷺ ببعث مسلمين لهداية يهود خيبر وقال لهم بأن الله سيجزيهم أفضل الجزاء على ذلك.

أرسل الرسول ﷺ سيدنا معاذ لدعوة اليهود إلى الإسلام:

قام الرسول ﷺ ببعث سيدنا معاذ إلى اليمن وقال له بما معناه بأنه ذاهب إلى أهل كتاب ويجب عليه أن يدعوهم أولاً إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وعندما يقبلوا بالله رباً طلب منه أن يشرح لهم شعائر الإسلام من صلاة وزكاة... إلخ.

نحاول أن نوضح العلاقة الصحيحة بين المسلمين وأهل الكتاب في ضوء الآيات القرآنية عامة سواء الآمرة بقتالهم أو الدالة على قربهم ومودتهم.

وبه يتبين مسلك الغلط في كلا الموقفين المذكورين في صدر الكلام، فنقول وبالله التوفيق:

بداية نقول: إن الإسلام ينكر أي دين آخر أيا كان ويرى أن عدم اعتناق الإسلام هو كفر ومروق، قال تعالى:{**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}[1] وهذه المسألة مقطوع بها في دين الإسلام، فالمسلمون على الحق وغيرهم من الأديان الأخرى على الباطل وإن تفاوتوا فيه.

هذا عن الموقف العقدي تجاه من لم يدخل في دين الله " الإسلام " أما الموقف العملي تجاه كل الكافرين فهو يتدرج، فيبدأ الموقف بالدعوة من غير إكراه للدخول في الإسلام والإيمان به، فإن حصل الإيمان الطوعي كان ذلك غاية المنى. وإن أبوا فالجزية تفرض عليهم لقاء حمايتهم من العدو الخارجي مع صون أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فإن أبوا فالسيف هو الحكم والفاصل بيننا وبينهم.

فهذا هو موقف المسلمين من الكافرين عموما وإن كان ثم خلاف بين علمائنا حول تمتع غير أهل الكتاب بخيار الذمة.

وهنا يأتي السؤال ألا يتنافى الأمر بقتال النصارى ضمن عموم الكافرين مع ما ورد في شأن النصارى بأنهم أهل مودة وأنهم أقرب إلى أهل الإسلام من اليهود والمشركين؟ ونحن نقول: لا تنافي بين الأمرين البتة، ولكن وضع آيات المودة في غير موضعها وإخراجها عن سياقها وتزيد البعض في مدلولها أدى إلى نشوء هذا الفهم الذي يفترض التعارض. ونحن نجلي الأمر من خلال قراءة النص القرآني بسياقه وألفاظه، فالآيات المقصودة بالحديث جاءت بعد آيات التكفير للمثلثة الذين يؤلهون عيسى عليه السلام ووصفهم بالضلال والإضلال، فقال تعالى:{**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**}[2].

ثم دعاهم إلى التوبة فقال سبحانه:{**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}[1].

ثم بين حقيقة المسيح عليه السلام فقال سبحانه:{**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**}[2].

ثم أنكر عليهم عبادة من لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، ثم وعظهم في ترك الغلو، واتباع المضلين من اليهود الذين لعنوا على لسان الأنبياء، وغير ذلك من أوصافهم، ثم بعد هذا البيان العام ذكر شأن طائفة من النصارى قيل هم من نصارى الحبشة بعثهم النجاشي رضي الله عنه فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا، فهذه التزكية إذا ليست في عموم النصارى الذين يؤلهون المسيح ويؤمنون بالتثليث وهي أمور كفرهم الله بها.

ودعونا نقرأ الآيات المقصودة لنرى بأم أعيننا أنها خاصة كما تدل على ذلك ألفاظها وسياقها، قال تعالى:{**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**}[3] فظاهر من الآيات أنها في طائفة خاصة من النصارى قرئ عليهم القرآن فبكوا ثم آمنوا، فوعدهم الله جنات تجري من تحتهم الأنهار، فتعميم هذه الآيات في جميع النصارى أمر لا يدل عليه السياق القرآني فضلا على أن واقع أكثر النصارى لا يساعد على هذا التوجه.

فبان بنهاية هذا البحث أن لا تعارض بين الأمر بالقتال ومدح طائفة من النصـارى آمنت بالنبي ﷺ وصـدقته، بل إن الأمر بقتال النصـارى يتوافق مع الخطاب القرآني العام بخصـوص النصارى وما ورد فيهم من آيات تقضي بكفرهم وغلوهم وضلالهم.

* * * * *

المطلب الثالث:

سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين

لم تقتصر سماحة النبي ﷺ مع المسلمين فقط بل شملت أهل الكتاب والمشركين أثناء الحرب فقد أوصى بالقبط خيراً وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحمًا**» [1].

وفي صحيح مسلم: « **ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحمًا**» [2].

قال النووي: وفي رواية: «ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، وفيها: فإن لهم ذمة ورحمًا»... " قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، وأما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم[3].

أما سماحته مع اليهود فعندما قتل أحد الصحابة في أحد أحياء اليهود في خيبر فقد رضي وقبل ﷺ يمين اليهود إذ أقسموا أنهم لم يقتلوه ولم يعلموا قاتله فقد أخرج البخاري بسنده عن بشير بن يسار قال: « زعم أن رجلاً من الأنصار يقال لـه سهل بن أبي حثمة أخبره أن نفراَ من قومه انطلقوا إلى خيبر فتفرقوا فيها فوجدوا قتيلاً، وقالوا للذي وجد فيهم: قد قتلتم صاحبنا، قالوا: ما قتلنا وما علمنا قاتلا، فانطلقوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر فوجدنا أحدنا قتيلاً، قال: «**الكُبرَ الكبرَ**»، فقال لهم: «**تأتون البينة على من قتله؟**» قالوا: ما لنا بينة، قال: «**فيحلفون**»، قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود، فكره رسول الله ﷺ أن يُطَلَّ دمه " فوداه مائة من إبل الصدقة»[4].

قال ابن حجر: قولـــه: (باب القسـامة) بفتح القاف وتخفيف المهملة هي مصدر أقسم قســمًا وقســامة، وهي الأيمان تقســم على أولياء القتيل إذا ادّعوا الدم أو على المدعى عليهم الدم، وخصّ القســم على الدم بلفظ القســامة، وقال إمام الحرمين: القســامة عند أهل اللغة اســم للقوم الذين يقســمون، وعند الفقهاء اســم للأيمان، وقال في المحكم: القســامة الجماعة يقسـمون على الشيء أو يشـهدون به، ويمين القسـامة منسـوب إليهم ثم أطلقت على الأيمان نفســها، قال القرطبي في المفهم: فعل ﷺ ذلك على مقتضى كرمه وحســن ســياســته وجلبًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة على سبيل التأليف، ولا سيما عند تعذر الوصول إلى استيفاء الحق، وقال القاضي عياض: هذا الحديث أصـل من أصـول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام وركن من أركان مصـالح العباد، وبه أخذ جميع الأئمة والسـلف من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وفقهاء الأمصـار من الحجازيين والشاميين والكوفيين وإن اختلفوا في صور الأخذ به... (فيطلّ) بضم أولـه وفتح الطاء وتشديد اللام أي يهدر[١].

قـال النووي عنـد شرحـه لهـذا الحـديث: وفي هذا دليل لصــحة يمين الكافر والفاســق واليهودي[٢].

ولو تتبعنـا المعـاهـدات التي صـــدرت عن النبي ﷺ لوجدنا فيها ضروبًا من التســـامح والموادعة والمســاواة، ومن هذه المعاهدات " إعلان دســتور المدينة الذي اشــتمل على ســبع وأربعين فقرة منها ما يخص موادعة اليهود كما يأتي:

١- إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢- وإن ليهود بني ثعلبـة مثـل مـا ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فـإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٤- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

٥- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ [١].

قال ابن زنجويه: وقوله: " إن اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا محاربين " فهو النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين لهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم.

وقوله: " إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين " إنما أراد نصرهم المؤمنين، ومعاونتهم إياهم على عدوهم، بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدّين فليسوا منه بشيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال: لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، وقوله: " لا يوتغ إلا نفسه " يقول: لا يهلك غيرها [٢].

وقد قام بتحليل هذه المعاهدة مؤرخ السيرة أ. د. أكرم بن ضياء العمري، وأنقل ما ذكره بخصوص اليهود فقال: قد تناولت البنود من ٢٥ إلى ٣٥ تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم من العربية

، وأقرت حلفهم مع المسـلمين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين" وقد وردت العبارة في كتاب الأموال " أمة من المؤمنين " مما جعل أبا عبيد يقول: " فإنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إيـاهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسـوا منه في شيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم"[١] أما ابن إسحاق فقد قال: " مع المؤمنين " وهو أجود، ولعل ما في كتاب الأموال مصحّف، وقد كفلت المادة رقم ٢٥ لليهود حريتهم الدينية، كما حددت مسـؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها (إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - أي لا يهلك - إلا نفسـه وأهـل بيتـه) فـالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين (لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم)... كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند رقم ٤٥ لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى، إذ شرطت المادة على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشًا " إلا من حارب في الدين " لأنهم كانوا في حالة حرب معهم[٢].

كما نرى تسـامحه مع أهل الكتاب من الذين يعادون ويخالفون فيما يفتي إذ يتكلمون فيه ويبلغه ذلك، ثم يقدم لهم الهدية من اللبن أخرج مسلم بسنده عن أنس «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيَ ﷺ النبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى:{ **وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ**} إلى آخر الآية فقال رسـول الله ﷺ : «**اصـنعوا كل شيء إلا النكاح**»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شـيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسـيد بن حضـير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاسـتقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسـل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما»[٣].

بل نجد سماحته مع لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة وجف طلع نخل ذكر في بئر روان، وحينما أخبر عائشة بذلك قالت لــه: أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا، فأمر بها فدفنت**».

المشاطة: هو وما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاط من مشاطة الكتان [1].

وهكذا كان تســامحه مع بعض المنافقين فقد تحمل المنافق عبد الله بن أبي بن ســلول قصــة الإفك ومع ذلك فقد عفا عنه ﷺ [2]، بل حينما مات عبد الله بن أبي غطّاه بقميصــه واستغفر لــه حتى نزل قولــه تعالى:{**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**}[3].

كما عفا النبي ﷺ عن عبد الله بن ذي الخويصرــة التميمي بينما كان النبي ﷺ يقســم فقال لـه: اعدل يا رسول الله، فقال: «**ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟**» قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: «**دعه فإن لــه أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صــيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق الســهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصــله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصــافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نضــيّه فلا يوجد فيه شيء، قد ســبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثــل ثــدي المرأة، أو قال مثل البضــعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس**»، قال أبو ســعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ ، وأشهد أن عليّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه{**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ**}»[4].

إنها غاية السماحة إذ لم ينتصر رسول الله ﷺ لنفسه بل عفا عنه.

كما لـــه مواقف أخرى مع المشركين فقد أخرج النسائي بسنده الثابت عن عبد الله بن مغفل المزني، قال: كنا مع رســول الله ﷺ بالحديبية في أصــل الشــجرة التي قال الله، وكأني بغصــن من أغصــان تلك الشـجرة على ظهر رسـول الله ﷺ، فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسـهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسـول الله ﷺ : «**اكتب بسـم الله الرحمن الرحيم**» فأخذ ســهيل يده فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضــيتنا ما نعرف، فقال: «**اكتب باســمك اللهم، هذا ما صــالح عليه محمد رسـول الله أهل مكة**»، فأمســك بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسـولاً، اكتب في قضـيتنا ما نعرف، فقال: " اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسـول الله "، قال فكتب، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شــابا عليهم الســلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصــارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحـد أمـانًـا**»، فقـالوا: لا، فخلى ســبيلهم، فأنزل الله عز وجل{**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ**} إلى قولـه:{**بَصِيراً**}»[١].

لقد كان بإمكانه أن يأسرهم أو أن يقتلهم ولكن سـماحته تأبى ذلك بل قال لهم ولغيرهم من أهل مكة حينما فتحها: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

فقد تجلّت روح التسامح عند النبي ﷺ حتى في الحرب فقد قال لهم أيضًا: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن[٢].

ومن تسامحه مع المشركين أيضًا: أنه كان لا يمنع صلة المسلمين بأهلهم المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها؟ قال: «**نعم**» [١].

إن هذا المنهج العملي والقولي في التسامح والارتقاء فوق حظوظ النفس يؤتي أكله كل حين بإذن الله تعالى، فقد أثّر في نفوس الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله ومن جاء بعدهم إلى يومنا هذا نرى صوراً ونماذج من التسامح التي ازدانت بها صفحات التاريخ كالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه في لون آخر من التسامح مع المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن دينار قال: " سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «رأى عمر حلة سيراء[٢] تباع، فقال: يا رسول الله، ابتع هذه والبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود، قال: «**إنما يلبس هذه من لا خلاق له**»، فأُتِيَ النبي ﷺ منها بحلل فأرسل إلى عمر بحلة فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: «**إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن لتبيعها أو تكسوها**»، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم[٣].

وهـذا أنموذج آخر في زمن معـاويـة رضى الله عنه فإن الكفار لمّا نقضـوا عهدهم امتنع المسلمون من قتالهم وقالوا: وفاء بغدر خيرٌ من عذر بغدر[١].

إنه ذروة التسامح الذي نهجه النبي ﷺ وأمر به بقولـه: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»[٢].

وإليك أنموذجًا آخر في زمن التابعين في درء الحدود فقد أخرج البخاري بسـنده عن أبي قلابة أن عمر بن عبد العزيز أبرز سريره يومًا للناس ثم أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ قالوا: القسامة: القود بها حق، وقد أقادت بها الخلفاء، قال لي: ما تقول يا أبا قلابة؟ ونصـبني للنـاس؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، عندك رؤوس الأجناد وأشراف العرب، أرأيت لو أن خمسـين منهم شـهدوا على رجل محصـن بدمشق أنه قد زنى ولم يروه أكنت ترجمه؟ قال: لا، قلت: أرأيت لو أن خمسـين منهم شـهدوا على رجل بحمص أنه سرق أكنت تقطعه ولم يروه؟ قال: لا [٣]...

إنه منهج دقيق في التثبت واحتياط رفيق بالمتهم لأن الشـبهة قائمة والتهمة لم يجزم بها بواسطة الرؤية التي هي محور الجزم.

* * * * *

المبحث الثالث

المطلب الأول:

سماحة النبي محمد ﷺ في معاملة غير المسلمين

بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ رجلا سهلا»(١)، قال النووي: " أي سهل الخلق كريم الشمائل لطيفا ميسرا في الخلق "(٢).

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»(٣). بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ، يسر في كل شيء، وذود عن حرمات الله لا عن عرض الدنيا أو أهواء النفوس.

وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر وأذكر منها ما يلي:

١. رحمته ﷺ بالخلق عامة وهو الذي قال الله عز وجل عنه:{**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**}(٤)، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم فقد قال ﷺ : «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**» (٥)، وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار

٢. لجنسهم أو دينهم وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وقد ساق البخاري في باب رحمة الناس والبهائم حديث النبي ﷺ : «**ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان لـه صدقة**»[١]، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

٣. تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوا لـه العداء فقد كانت سماحته يوم الفتح غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم فكان موقفه ممن كانوا حربا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٢].

٤. دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس - ظنا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها - فقال ﷺ : «**اللهم اهد دوسا وائت بهم**»[٣].

ودعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم اهد أم أبي هريرة**»، فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي

فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت:

يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح».. الحديث [1].

وجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم اهد ثقيفا**»، قالوا: يا رسول الله ادع عليهم فقال: «**اللهم اهد ثقيفا**»، فعادوا فعاد فأسلموا» فوجدوا من صالحي الناس إسلاما ووجد منهم أئمة وقادة[2].

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فلم يحرمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**» [3].

٥. وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين «فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم»[4].

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب قال في المغني: "ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب لأن النبي ﷺ فبل هدية المقوقس صاحب مصر"[5].

---

٦. وكان من سماحة النبي ﷺ أن يخاطب مخالفيه باللين من القول تأليفا لهم، كما تظهر سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين في كتبه إليهم حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام بألطف أسلوب وأبلغ عبارة.

٧. وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينا نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**انطلقوا إلى يهود**» فخرجنا معه حتى جئناهم فقام رسول الله ﷺ فناداهم فقال: «**يا معشر يهود أسلموا تسلموا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم».. الحديث [(١)]. وعاد ﷺ يهوديا، كما في البخاري عن أنس رضى الله عنه «أن غلاما ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «**أسلم**» فأسلم[(٢)].

٨. وكان ﷺ يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين. يعني: صاعا من شعير[(٣)].

٩. وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «**صلي أمك**» [(٤)].

وفي المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان ﷺ غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم

ومجتمعهم فلهم الضـمان النبوي، فقد ضـمن ﷺ لمن عاش بين ظهراني المسـلمين بعهد وبقي على عهـده أن يحظى بمحاجة النبي ﷺ لمن ظلمه فقال ﷺ : «**ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**» [١].

وشـــدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ : «**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسـيرة أربعين عاما**» [٢]، تلك صـور من سماحة النبي ﷺ مع غير المسـلمين وهو ما سـار عليه الصـحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم وهو ما سأعرض لـه في المطلب التالي.

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسـالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب. وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قولـــــه تعالى: (**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباب من دون الله فإن تولوا فقولوا اشـهدوا بأنا مسـلمون**)[٣] هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مسـتقيمة فيها إنصـاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل لـــــه شريكاً، أي لا يعبد بعضـنا بعضـاً كما عبد آباؤكم من اليهود والنصـارى عزيراً وعيسىـ وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا وهذا خطاب فيه خصـوصـية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق.

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسـؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشـير وتنذير قال فيه: (بسـم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسـوله إلى هرقل عظيم الروم، سـلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسـلام أسـلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين[١].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ومعنـاها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)[٢].

و المعنى أنه إذا آمن لـه أجران أجر لإيمانه بالرسول السابق، وأجر لإيمانه بمحمد، وإذا لم يؤمن أن عليه إثم الضـعفاء والأتباع في مملكته إذا لم يسـلموا تقليداً لـــه، لأن الأصاغر أتباع الأكابر.

و في دعوته لليهود والنصـارى قال: «**و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرـاني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسـلت به إلا كان من أصـحاب النار**» [٣] وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصـارى رغم أن لهم كتباً سـماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبيَنا محمد ﷺ.

و في حـديـث آخر قال رســول الله ﷺ : «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**» [٤].

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ لـه أجران، وكذلك يرى الكتابي أنه لـه مزية على المشرك حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك أن الإسلام يقدر الأديان السابقة ويرفع من شأنها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسـجد إذ خرج علينا رسـول الله ﷺ فقـال: «**انطلقوا إلى يهود**»، فخرجنـا معه حتى جئنا بيت المدراس[1]، فقام النبي ﷺ فناداهم: «**يا معشر يهود أسلموا تسلموا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «**ذلك أريد**»، ثم قالها الثانية، فقالوا قد بلغت يا أبا القاسـم، ثم قال الثالثة، فقال: «**اعلموا أن الأرض لله ورسـوله وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله**»[2]. والظـاهر أن هؤلاء بقـايا من اليهود تـأخروا بعـد إخراج قبـائل اليهود الثلاثة بني قينقاع وبني النضـير وبني قريظة، لأن القبائل الثلاثة أجليت من المدينة قبل إسـلام أبي هريرة رضي الله عنه[3].

في هـذا الحديث تصريـح منه ﷺ لليهود بالدعوة وإخباره لهم أن سـلامتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة في إسـلامهم واتباعهم لما جاء به من عند الله، أي تسـلموا في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب [4]. وقد أخذ ﷺ الاعتراف من اليهود بأنه بلغهم رسـالته، وهذه دلالة على دعوته الخاصة لهم.

قال تعالى:{**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**}[5].

إن أسلوبه ﷺ إما ترغيب أو ترهيب، في هذه الآية يتحدى ﷺ نصارى نجران بأن يتركوا كلامهم عن ألوهية عيسى وذلك بالتضرع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذبين، وهذا من حرصه ﷺ أن يدخلوا الإسلام، ولكن النصارى لم يأمنوا عاقبة الملاعنة فتركوها ورضوا بالجزية[١]. رغم أنهم اعتقدوا بصدق النبي ﷺ، لذلك لم يباهلوا بل فروا منه ولم يؤمنوا ويدخلوا في الإسلام.

إن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ولين الجانب معهم أسلوب حكيم من أساليبه ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله:{**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**}[٢].

و في الآية خطاب للمؤمنين عند مقدمهم قبل واقعة بدر تسلية لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يأتي فرج الله. قال ابن حاتم إن أسامة بن زيد قال: (**كان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم**)[٣].

و في آية قرآنية أخرى يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر أو الفتح[٤]. قال تعالى في المعنى السابق:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**}[٥].

و من حلمـه ﷺ على أهـل الكتـاب أنه اسـتلف تمراً من يهودي إلى أجل معلوم، فخرج رسـول الله ﷺ في جنازة، فلما وضـع الميت في قبره قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضـيني تمري؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم. فهمّ عمر رضي الله عنه بضرب اليهودي، فقال لـه ﷺ : «**ياعمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسـن قضـاءه**». ثم أمره أن يذهب إلى حائط أحد الأشـخاص وأن يكيل لـــه بعد رضـائه ثم يزيد كذا صاعاً لتعنيف سيدنا عمر إياه. فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شئ مما وجدنا في كتابنا مما وصـف لنا موسى عليه السـلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ، إلا الحلم فقد رأيناه الآن، فشـهد شـهادة الحق وآمن، ثم مات اليهودي فخرج النبي ﷺ فحمل سريره على عاتقه الأيسر[1] رغم تجاوز هذا اليهودي في سبه ﷺ ثم سـب بني عبد المطلب جميعاً، وطلـب دينه في وقت غير مناســب، إلا أنه ﷺ كان حليماً بهذا اليهودي، لذلك كان رد الفعل إسلامه الفوري. وهذا أسلوب حكيم للرسول ﷺ مع أهل الكتاب لدعوتهم لدخول الإسلام.

إن الله سـبحانه وتعالى قد أعطى بعض أنبيائه من البينات (المعجزات) وذلك لتصديقهم فيما جاؤوا به. وقد أيد الله سـبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السـلام بتسع آيات: العصا واليد والسـنين ونقص من الثمرا ت والطوفـان والجراد والقمل والضـفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صـدق موسى عليه السـلام، وكذلك أعطى عيسى ابن مريم عليه السـلام إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بـإذن اللـه، وإبراء الأسـقـام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ما يدل على صدقه فيما جاءهم به.

أمـا النبي محمـد ﷺ كانت معجزته الكبرى القرآن، إلا أنه كان يظهر لأهل الكتاب بعض المعجزات التي كانت تتحقق على يديه علهم يؤمنون به كما آمنوا بأنبيائهم السـابقين موسى وعيسى عليهم السلام.

روى ابن عباس رضي الله عنهما، أنه حضرت عصابة من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن أربعة أشـياء لا يعلمهن إلا نبي كما ذكروا لـه ذلك وهي: الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وماء المرأة وماء الرجل كيف يكون منه الذكر والأنثى، وإخبار هـذا النبي الأمي في النوم ووليـه من الملائكـة، وقد أخذ عليهم النبي ﷺ المواثيق والعهود إذا أجابهم وفق ما يعلمون أن يدخلوا الإسلام، وكانت الإجابة أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شـديداً وطال سـقمه فنذر نذراً لئن شـفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها. والإجابة الثانية أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان لـه الولد والشبه بإذن الله. والإجـابـة الثـالثة أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه، فالإجابة الأخيرة أن جبريل هو ولي الرسول ﷺ وجميع الأنبياء.

و في هذا الحديث يبين الرسول ﷺ لأهل الكتاب بعض المغيبات التي لم يحضرها ولم يقرأ عنها وإنما هي وحي يوحى إليه، وأخبرهم بما سـألوه عنه طبق ما يعلمون في كتبهم السماوية المنزلـة على أنبيائهم ليؤمنن به وليتبعنه. ولكن اليهود حاولوا التخلص من العهد الذي التزموا به مع النبي ﷺ بحجة بغضـهم لجبريل عليه السـلام[١]، قال تعالى فيهم:{**قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**}[٢].

كـان النبي ﷺ يبين لأهل الكتاب أن كتابه الذي أنزل عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، فإذا تحقق التوافق حينئذ فإنه رسول من عند الله صدقوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام.

قـال ابن عمر رضي اللـه عنهما: (إن اليهود جـاؤوا إلى النبي ﷺ فـذكروا أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**ما تجدون في التوراة في الرجم؟**»

فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبدالله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، قال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة[1].

و في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ أقنعهم أن كتاب الله الذي أنزله على نبيهم موسى عليه السلام يوافق كتابه الذي أنزله في شأن الرجم على نبينا محمد ﷺ وهذا أسلوب لدعوته ﷺ أهل الكتاب لدخول الإسلام.

قال الإمام ابن حجر في قوله ﷺ : «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**» قال الباجي: (يحتمل أن يكون علم بالوحي أن الحكم بالرجم فيها ثابت على ما شرع لم يلحقه تبديل، ويحتمل أن يكون علم ذلك بإخبار عبدالله بن سلام وغيره ممن أسلم منهم على وجه حصل له به العلم بصحة نقلهم، ويحتمل أن يكون إنما سألهم عن ذلك ليعلم ما عندهم فيه ثم يتعلم صحة ذلك من قبل الله تعالى)[2].

كان رسول الله ﷺ يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تألفاً واستعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ذلك لأنهم إذا رأوه يتعبد بالأحكام التي يعلمون أنها تشريع سماوي أنزله الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلة والإنجيل، علموا أن مصدر التشريع الذي عندهم والذي عنده واحد هو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ : «**فأنا أحق بموسى منكم**» فصامه وأمر بصيامه (١).

و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي ﷺ رأسه (٢).

و في هذا الحديث اتضح أن النبي ﷺ وافق أهل الكتاب في أفعالهم حتى يخالف أهل الأوثان، فلما أسلم أهل الأوثان الذين معه والذين حوله واستمر أهل الكتاب على كفرهم تمحضت المخالفة لأهل الكتاب ثم فرق ﷺ رأسه.

لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير، والوعد والوعيد، لذلك أخبر ﷺ أن اليهود تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن عذاب دلالة على عذاب الآخرة وهذا يدل على حرصه لدخولهم الإسلام.

عن أبي أيوب الإنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «**يهود تعذب في قبورها**» (٣).

* * * * *

المطلب الثاني:

صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين

تقدم القول بأن تاريخ الإسـلام شـاهد على أن المسـلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التـاريخ على ترك دينـه، فـالإسـلام دين العقـل والفطرة ولا يقبـل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسـلمين الطويل أنهم ضـيقوا على اليهود والنصـارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحـدا من أي طـائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام[١].

يقول توماس آرنولد: "لم نسـمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسـلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"[٢].

لقد كان عهد الخلفاء الراشـدين امتدادا لعهد النبي ﷺ وشـهد صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسـلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك.

وهذا هو ما سـار عليه الخلفاء الراشـدون رضي الله عنهم في صـدر الإسـلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة رضي الله عنهم في معاملة غير المسلمين:

١- في خلافـة أبي بكر رضى الله عنه كتب خالد بن الوليد رضى الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق - وكانوا من النصـارى: " وجعلت لهم أيما شـيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينـه يتصـدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسـلمين هو وعياله" [٣].

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي وبيان صوره لن يجدوا أعظم من هذه الصورة في الإسلام مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من الأسباب بل يجعلهم عيالا على بيت مال المسلمين ويرضخ له منه أيا كانت ديانتهم.

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله[١].

٢- وكان أبو بكر رضى الله عنه يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: " وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم "[٢].

٣- وأوصى عمر رضى الله عنه الخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم[٣].

٤- ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[٤].

٥- إن السماحة في المعاملة يجب أن تكون في ضوء ضوابط الشرع ومقاصده ومثل ذلك يتطلب أن يكون المسلم على بصيرة بهدي النبي ﷺ وسلف الأمة من الصحابة والتابعين في هذا الشأن، فمن صور السماحة في المعاملة ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه لما قدم الجابية من أرض الشام استعار ثوبا من نصراني فلبسه حتى خاطوا قميصه وغسلوه وتوضأ من جرة نصرانية.

وصنع له أهل الكتاب طعاما فدعوه فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة فكره دخولها وقال لعلي رضى الله عنه: اذهب بالناس فذهب علي رضى الله عنه بالمسلمين فدخلوا فأكلوا وجعل علي رضى الله عنه ينظر إلى الصور وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل(١).

٦- ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المقلسون) وهم قوم يلعبون بلعبة لهم بين أيدي الأمراء إذا قدموا عليهم بالسيوف والريحان فقال عمر رضى الله عنه: مه ردوهم وامنعوهم فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها سروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة(٢).

٧- وصلى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء رضى الله عنه: هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟ فقالت طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال له سلمان رضى الله عنه: خذها من غير فقيه (٣).

٨- وجاء في صفة الصفوة أن عمر بعث عميرا عاملا على حمص فمكث حولاً لا يأتيه خبره ولم يبعث لـه شيئا لبيت مال المسلمين، فقال عمر لكاتبه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا. فأخذ عمير - لما وصله كتاب عمر - جرابه فوضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة فقدم وقد شحب لونه واغبر وجهه فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله قال عمر: ما شأنك؟ قال: ما تراني صحيح البدن ظاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرونها؟ قال عمر: وما معك؟ وظن عمر أنه جاءه بمال.

قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، ومعي عنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوا إن عرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي. وسأله عمر عن سيرته في قومه وعن الفيء فأخبره، فحمد فعله فيهم ثم قال: جددوا لعمير عهدا.

قال عمير: إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني لـه يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خلفت معك (١).
لقد عظم على عمير قولـه لرجل من غير المسلمين:

أخزاك الله، وهو دعاء، وما ذكر خطأ اقترفه في ولايته على حمص أعظم من هذا، وفي ذلك دليل على أن هذا الدين ما جاء إلا بالرحمة والهداية وإنقاذ البشر من الضلال إلى الهدى ومن ظلمات الكفر إلى نور الطاعة، ولا عجب فمن مدرسة النبوة تخرج هذا الصحابي وغيره، ممن لا يؤذون الناس بل يغمرونهم بعطفهم ورحمتهم وسماحتهم وإحسانهم، ولذا قال عنه عمر: إنه نسيج وحده،

وقال: وددت أن لي رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين[١].

إن الدعاء لغير المسـلمين وفق ضـوابط الشرـع من أعظم صـور التسامح في الإسلام ومن محاسـنه الكبرى التي تنظر إلى الإنسان نظرة تكريم وعناية، وفي الدعاء استمالة ظاهرة لقلب المدعو فكل أحد يتمنى من الناس الدعاء لـــه بالخير، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنه: لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك، وفرعون قد مات [٢].

٩- وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه وغلامه يسلخ شـــاة فقال: «يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي فقال رجل من القوم: اليهودي أصـلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو روينا أنه سيورثه»[٣].

١٠- وفي خلافـة عمر بن عبـد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[٤].

وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف لـــه وجود إلا في الإسلام لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها.

١١- وعندما أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله مناديه ينادى: ألا من كانت لـه مظلمـة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أســألـك كتـاب اللـه قـال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس،

١٢- فقال لـــه عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه[١].

١٣- وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف لـــه بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقولـه: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ من أموالهم - إلا بحق يجب عليهم" [٢].

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم وهو ما سأعرض لـه في المبحث التالي.

المطلب الثالث:

سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة خصومها ظاهرة بينة إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم لـــه ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة.

١- فمن ذلك ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام حيث كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يقولون: " يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم

٢- وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا "[١]. واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

٣- ففي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول:

" إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح " [٢].

ويقول أيضا: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة".

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: " العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود.

٤- إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس

٥- يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"[١].

٦- ويقول غوستاف لوبون: فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم[٢]. ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: وكان عرب أسبانيا خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخرا[٣].

٧- ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة "ريفي بارلمنتير "الفرنسية حيث قال: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام ولنجت من وصمة محاكم التفتيش ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[٤].

٨- ويقول المستشرق دوزي: "إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"[١].

٩- ويقول المستشرق بارتولد: " إن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين إذ أن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل "[٢].

١٠- ويقول المستشرق ديورانت: " لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام "[٣].

١١- ويقول أحد الكتاب الأمريكيين المعاصرين وهو: آندرو باترسون: " إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف "[٤].

١٢- ويقول بول فندلي وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي: على المسلمين الإعلان جهرا عن هويتهم الإسلامية والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين.. ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم.. لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها وإنجازاتهم المجدية سبيلا للتعرف على الإسلام [٥].

١٣- وكانت سماحة الإسلام سببا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه سماحة في السلم وسماحة في الحرب والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه[1].

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام أو عميت بصيرته عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * * * *

المطلب الرابع:

مشاركة أهل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية

جعل الإسلام في شريعته الغراء حقوقاً واجبة للمستأمنين يجب الوفاء بها وأداؤها تجاههم، وأرشد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، كما أوجب عليهم حقوقاً تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم. فمن تلك الحقوق الواجبة على المسلمين تجاههم:

١- العدل معهم وعدم التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل ولا يجوز ترويعهم وإخافتهم، ويعاملون بالعدل والقسط:

قال تعالى:{**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**}[١].

قال البيضاويّ: " لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا مما في قلوبكم:{**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**} أي: العدل أقرب للتقوى، صرّح لهم بالأمر بالعدل، وبيّن أنَّه بمكانٍ من التقوى بعدما نَهاهم عن الجور، وبيّن أنَّه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين "[٢].

وقال ابن كثير: " ومن هذا قول عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه النبيّ ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بِهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحبَ الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبَي إيّاه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بِهذا قامت السموات والأرض»[٣].

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: « **ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة**»[1]. وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ : «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**»[2].

وصور تطبيق هذه التعاليم والأحكام في تاريخ المسلمين كثيرة ومتنوعة، فقد كان عمر - رضي الله عنه - يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة والمعاهدين، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: " ما نعلم إلا وفاء " أي: وفاء بمقتضى العقد والعهد الذي بينهم وبين المسلمين[3]. ودخل ذمّيّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. قال عمر: ما ذاك؟ قال: العبّاس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. وكان عددٌ من رؤوس النّاس، وفيهم العباس بمجلس عمر، فسأله: يا عبّاس ما تقول؟ قال: نعم، أقطعنيها أبي أمير المؤمنين، وكتب لي بِها سجلاً. فقال عمر: ما تقول يا ذمّيّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر: نعم، كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته يا عبّاس[4].

قال ابن القيم رحمه الله: " أحكام المستأمن والحربي مختلفة، لأن المستأمن يحرم قتله وتضمن نفسه ويقطع بسرقة ماله، والحربي بخلافه "[5]. وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: " لا يجوز قتل الكافر المستأمن الذي أدخلته الدولة آمناً، ولا قتل العُصاة ولا التعدي عليهم، بل يحالون للحكم الشرعي، هذه مسائل يحكمها الحكم الشرعي " [6].

٢- البراءة منهم وعدم موالاتهم:

البراء: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار، وهي ضد الولاء،قال ابن تيمية: " الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبّة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد "[١].

قال تعالى:{**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}[٢].

قال ابن كثير: " وإعلام من الله ورسوله وتقدم إنذار إلى الناس يوم الحج الأكبر - وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعًا:{**أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**} أي: بريء منهم أيضًا "[٣].

فالواجب على المسلمين أن يتبرؤوا ممّن برئ الله ورسوله منه، قال تعالى:{**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**}[٤].

وقد مدح الله نبيّه إبراهيم عليه السلام في براءته من أهل الكفر والشرك، وأمر بالاقتداء به، فقال:{**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**}[٥].

قال الطبريّ: " قد كانت لكم أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم، إلاّ في قول إبراهيم:{**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**}، فإنّه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأنّ ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إيّاه، قبل أن يتبيّن أنّه عدوٌ لله، فلمّا تبيّن أنّه عدو لله تبرأ منه، فتبرؤوا من أعداء الله من المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا من عبادة ما سواه، وأظهروا العداوة والبغضاء"[١].

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بما نصه: يسكن معي شخص مسيحي، وهو يقول لي: يا أخي، ونحن إخوة، ويأكل معنا ويشرب فهل يجوز هذا العمل أم لا؟

فأجاب رحمه الله: " الكافر ليس أخًا للمسلم أي: في الدين، والله يقول:{**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**}[٢]، ويقول ﷺ : «**المسلم أخو المسلم**»، فليس الكافر - يهوديًا أو نصرانيًا أو وثنيًا أو مجوسيًا أو شيوعيًا أو غيرهم - ليس أخًا للمسلم، ولا يجوز اتخاذه صاحبًا وصديقًا، لكن إذا أكل معكم بعض الأحيان من غير أن تتخذوه صاحبًا وصديقًا، وإنّما يصادف أن يأكل معكم، أو في وليمة عامة فلا بأس أمّا اتخاذه صاحبًا وصديقًا وجليسًا وأكيلاً فلا يجوز، لأنّ الله قطع بيننا وبينهم المحبة والموالاة، فقال الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العظيم:{**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**}[٣]، وقال سبحانه:{**لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**}. يعني يحبون: {**وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**}[٤].

فالواجب على المسلم البراءة من أهل الشرك وبغضهم في الله، ولكن لا يؤذيهم ولا يضرهم ولا يتعدى عليهم بغير حق، لكن لا يتخذهم أصحابًا ولا أخدانًا، ومتى صادف أن أكل معهم في وليمة عامة أو طعام عارض من غير صحبة ولا ولاية ولا مودة فلا بأس ".

٣- النهي عن مشابَهتهم والأمر بمخالفتهم:

نَهى الشرع الحنيف عن مشابَهة الكفار؛ لأنّه يخلق في النفوس ميلاً إليهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**من تشبه بقوم فهو منهم**» [١].

قال ابن تيمية: " المشابَهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابَهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي ، فالمشابَهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أنّ المحبة في الباطن تورث المشابَهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إنّ الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والموالاة والائتلاف أمر عظيم، و إن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين أو كانا متهاجرين، وذلك لأنّ الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة، بل لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب وكانت بينهما مشابَهة في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر ممّا بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا ما لا يألفون غيرهم، حتى إنّ ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة "[٢].

٤- الإحسان إلى المحتاج منهم بالصدقة والصلة:

قال الله تعالى:{**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**} [٣]. وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قدمت عليّ أمي، وهي مشركة في عهد قريشٍ إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت عليّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «**نعم، صليها**» [٤]. وأنزل الله تعالى فيها:{**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**}[٥].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ : «**إنّما يلبس هذه مَن لا خلاق لـه في الآخرة**»، ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حللٌ، فأعطى عمر منها حلة. فقال عمر: يا رسول الله كسوتنيها، وقد قلتَ في حلة عطارد ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنّي لم أكسكها لتلبسها**» فكساها عمر أخًا لـه مشركًا بمكة[١].

قال النوويّ: " وفي هذا دليل لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم، وجواز الهدية إلى الكفار"[٢]، والمشركون بمكة كانوا أهل حربٍ.

ومن الإحسان: الإحسان إلى الحربي الأسير، قال تعالى:{**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**} {**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**}[٣]، قال قتادة: " لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم، وإنهم يومئذ لمشركون "[٤]،. وقال الحسن: " كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية "[٥]، وقال الطبريّ: " هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهرًا بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحقّ "[٦].

٥- الواجب على المستأمنين في بلاد المسلمين:

أما الحقوق الواجبة عليهم تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم فأوجزها فيما يأتي:

* مراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم، وأن يراعوا هيبة الدولة الإسلامية التي يستظلون في حمايتها ورعايتها،

فلا يجوز لهم سـب الإسـلام ورسـوله وكتابه، ولا أن يروجوا عقائدهم وأفكارهم أو أن ينشروا الفسـاد بين المسـلمين، ولا يجوز لهم أن يشـهروا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغيرهما من المحرمات في دين الإسـلام، فضـلاً عن بيعها والمتاجرة بها، لما في ذلك من إفسـاد المجتمع الإسلامي.

* كما أن عليهم أن لا يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضـان ونحو ذلك، مراعاة لمشـاعر المسلمين.

* كما أن عليهم الالتزام بـأنظمة الدولة المسـلمة وقوانينها التي تنظمها لأفراد شـعبها وتطبقها عليهم، فلا يجوز لهم مخـالفتها أو تجاوزها، فإن خالفوا ردعوا وعوقبوا بما يراه ولي أمر المسلمين أو من ينيبه[1].

المطلب الخامس:

صوراً من الواقع في هذا العصر بين المسلمين وأهل الكتاب

إباحته ذبائح أهل الكتاب ونكاح نسائهم:

كان رسـول الله ﷺ امتثالاً لقول الله سـبحانه وتعالى:{**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}[2] قد أباح لأمته ذبـائح أهـل الكتـاب دون باقي ملل الكفر، وهذا يعني إذا كان بين المسـلمين وأهل الكتاب مبادلة في التجارة، يحصـل الاختلاط بينهم، ولا شـك أن هذا مدعاة لدخولهم الإسـلام. وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: أصبت جراباً من شحم يوم خيبر، قال: فالتزمت فقلت: لا أعطي أحداً اليوم من هذا شيئاً، فقال: فإذا رسول الله ﷺ مبتسم [3].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث، وفي هذا إباحة أكل طعام الغنيمة في دار الحرب، وقال القاضي: (و أجمع علماء الإسلام على جواز أكل طعام الحربيين ما دام المسلمون في دار الحرب فيأكلون منه قدر حاجتهم، ويجوز بإذن الإمام وبغير إذنه. ولم يشترط أحد من العلماء استئذانه إلا الزهري، وجمهورهم على أنه لا يجوز أن يخرج معه شيئاً إلى عمارة دار الإسلام فإن أخرجه لزمه رده إلى المغنم)(١).

و كذلك أباح الإسلام مصاهرة أهل الكتاب والتزوج من نسائهم مع ما في الزواج من سكن ومودة ورحمة. وهذا يجوز مع الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم كالنساء والضعفة، أما المعتدين فيجب معاداتهم وعدم موالاتهم(٢)،قال تعالى:{**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**}(٣).

قبول الهدية من أهل الكتاب:

لا شك أن قبول الهدية فيه نوع من التقارب، وكلما زاد التقارب بين قوم سهلت دعوتهم. وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية من أهل الكتاب ولا يقبلها من غيرهم من المشركين، وهذه خصوصية لهم ربما تدفعهم إلى الدخول في الإسلام.

و عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: أهديت للنبي ﷺ ناقة فقال: أسلمت؟ فقلت: لا، فقال النبي ﷺ : «**إني نهيت عن زبد المشركين**» (٤).

و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أكيدر دومة وهو من أهل الكتاب أهدى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه علياً فقال: «**شققه خمراً بين الفواطم**» (١).

وصيته ﷺ على أهل الذمة:

كان النبي ﷺ قد أوصى على أهل الذمة والكتاب، وهدد بالوعيد الشـديد على من نقض عهدهم، حتى أنه توعد أصـحابه بأن من قتل معاهدا في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حرّم الله عليه الجنة، وهذا من حرصه ﷺ على دعوة أهل الكتاب.

عن عبـد اللـه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**» (٢).

و كـان ﷺ لا يـرضى أن يمـس أهـل الكتـاب ظلـم ولـو كـان مـن أصحابه، سـواء كـان هذا الظلم اعتداءً على أنفسهم أو أموالهم.

عن العرباض بن سـارية السـلمي رضي الله عنه قال: نزلنا مع رسـول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسـلمين، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً، فأقبل إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب النبي ﷺ وقال: «**يا ابن عوف اركب فرسـك ثم ناد إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا إلى الصـلاة**» فاجتمعوا، ثم صـلى بهم ثم قام فقال: « **أيحب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا أني والله وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء وإنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن اللـه تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسـائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم**».

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب. وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى.

قد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى:{**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[١].

هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: «**يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً، أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد آباؤكم من اليهود والنصارى عزيراً وعيسى- وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا**»[٢] هذا خطاب فيه خصوصية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق.

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين[٣].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ومعنـاها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)[١].

و المعنـى أنـه إذا آمـن لـه أجـران أجـر لإيمانـه بالرسـول السـابق، وأجـر لإيمانـه بمحمـد، وإذا لم يـؤمن أن عليـه إثـم الضـعفاء والأتبـاع في مملكتـه إذا لم يسـلموا تقليـداً لـه، لأن الأصاغر أتباع الأكابر.

وفي دعوتـه لليهـود والنصـارى قـال: (و الـذي نفسيـ بيـده لا يسـمع بي أحـد مـن هـذه الأمـة يهـودي ولا نصرـاني، ثـم يمـوت ولم يـؤمن بالـذي أرسـلت بـه إلا كـان مـن أصحاب النار)[٢].

وفي هـذا الحـديث خـص النبـي ﷺ اليهـود والنصـارى رغـم أن لهـم كتبـاً سـماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ.

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ : «**ثلاثـة لهـم أجـران: رجـل مـن أهـل الكتـاب آمـن بنبيـه وآمـن بمحمـد ﷺ، والعبـد المملـوك إذا أدى حـق اللـه وحـق مواليـه، ورجـل كانـت عنـده أمـة فأدبهـا فأحسـن تأديبهـا وعلمهـا فأحسـن تعليمهـا، ثـم أعتقهـا فتزوجهـا فله أجران**»[٣].

وفي هـذا الحـديث جعـل الرسـول ﷺ أسـلوب الترغيـب لأهـل الكتـاب منهجـاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه

وآمن بمحمد ﷺ لـه أجـران، وكـذلك يـرى الكتـابي أنـه لـه مزيـة عـلى المشرك حيـث كـان للمشرك أجـر واحـد، فـيعلم بـذلك أن الإسـلام يقـدر الأديـان السـابقة ويرفـع مـن شأنها.

* * * * *

الفصل الثانى:

الإرهاب وأثر الإيمان بشريعة الإسلام فى علاج هذه الظاهرة:

المبحث الأول:

معنى الإرهاب

لا يوجد مصطلح معاصر اختلف على تعريفه مثل مصطلح الإرهاب، ولقد اطلعت على كثير من التعريفات[١] فوجدتها غامضة ضبابية وعليها ملحوظات عديدة، (والاصطلاحات لا مشاحة[٢] فيها إذا لم تتضمن مفسدة)[٣].

ولولا تفشي هذا المصطلح عالمياَ وفرضه علنيا إعلامياَ لما استخدمته في هذا البحث، ولهذا فإني أشيد بدعوة "المجمع الفقهي الإسلامي" برابطة العالم الإسلامي "رجال الفقه والقانون والسياسة في العالم إلى الاتفاق على تعريف محدد للإرهاب تنزل عليه الأحكام والعقوبات، ليتحقق الأمن وتقام موازين العدالة، وتصان الحريات المشروعة للناس جميعًا"[٤].

وقد قام المجمع بتعريف للإرهاب وهو: العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغياَ على الإنسان في دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم،

أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صـنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية، أو الطبيعية للخطر فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عنها، قال تعالى:

{وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[1].

كما أوضح المجمع أن عدم الاتفاق على تعريف محدد للإرهاب اتخذ ذريعة إلى الطعن في أحكام قطعية من أحكام الشريعة الإسلامية، كمشروعية الجهاد والعقوبات البدنية من حدود وتعزيرات وقصاص، كما اتخذ ذريعة لتجريم من يدافع عن دينه وعرضه وأرضه ووطنه ضد الغاصبين والمحتلين والطامعين، وهو حق مشروع في الشرائع الإلهية، والقوانين الدولية.

ازداد " هوس الإرهاب " بعد أحداث ١١ سبتمبر، وانطلقت جحافل الأجهزة السياسية والإعلامية والفكرية في الغرب نحو المسلمين وحدهم بتهمة الإرهاب من دون كل البشر والإسلام من دون كل الملل والنحل، ليس هذا فحسب وإنما وُجد من يحاول تأصيل التهمة، بجعل عقيدة الإسلام وشريعته مصدراً للإرهاب، لكي يثبتوا أن الإسلام يربي كائنات بشرية إرهابية، وأن المسلم الحق هو مشروع إرهابي جاهز للقتل، وبهذا يتحقق ترهيب الناس من الإسلام وإبعادهم عنه.

إن الغرب يكيل بمكيالين، فحين تُرتكب جريمة نفذها يهودي أو نصراني أو أي ديانة أخرى لا يقال نفذها يهودي أو نصراني، أما حين يكون المنفذ مسلماً فوصف الإرهاب قرين له فيقال: "إرهابي مسلم".

لقد وضعوا الإسلام في قفص الاتهام، وحكموا عليه بدون شهود ولا بينة بالإعدام، وحقًا إن العين لتدمع وإن القلب لينفطر غيظًا وحزنًا حين يرى هذا الظلم العالمي والإرهاب العدواني على الإسلام.

ويمكن لي أن ألخص تعريفات الإرهاب الواردة في المعجمات والقواميس، والمنظمات الدولية، وبعض المفكرين فيما يأتي:

أولاً: تعريفات المعجمات والقواميس للإرهاب:

أ- **تعرف المعجمات الإرهاب بأنه:** ذلك النشاط، أو تلك الوسائل المستخدمة لنشر وبث الرعب[١].

ب- **تعرفه القواميس بأنه:** وصف يطلق على كل من يلجأ إلى استخدام العنف لتحقيق أهداف معينة [٢].

ثانياً: تعريفات المنظمات الدولية:

أ- **عرفت قرارات الأمم المتحدة الإرهاب بأنه:** تلك الأعمال التي تعرض للخطر أرواحا بشرية بريئة أو تهدد الحريات الأساسية، أو تنتهك كرامة الإنسان[٣].

ب- **عرفه خبراء الأمم المتحدة بأنه:** استراتيجية عنف محرمٌ دوليا، تحفزها بواعث عقدية (إيديولوجية) تتوخى إحداث الرعب داخل المجتمع لتحقيق الوصول إلى السلطة أو تقويضها[٤].

ج- **عرفه القانون الدولي بأنه:** جملة من الأفعال التي حرمتها القوانين الوطنية لمعظم الدول[٥].

د- **عرفته الخارجية الأمريكية بأنه:** عنف تولده دوافع سياسية، وينفذ - مع سبق الإصرار - ضد مدنيين لا صلة لهم بالحرب، أو ضد عسكريين عزل من السلاح تقوم به جماعات وطنية، أو عملاء سريون[٦].

هـ- **عرفتـه الاتفاقية العربية بأنه:** كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به، أيا كانت دوافعه أو أغراضـه، يقع تنفيذه لمشـروع إجرامي فردي أو جماعي، يهـدف إلى إلقـاء الرعـب بين النـاس أو ترويعهم، أو تعريض حيـاتهم أو حرياتهم وأمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق أو الأملاك (العامة والخاصـة) أو احتلالها أو الاسـتيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر[1].

و- **عرفه المجمع الفقهي الإسـلامي بأنه:** عدوان يمارسـه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان (دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه) ويشمل صنوف التخويف والأذى، والتهـديد والقتل بغير حق، وما يتصـل بصـور الحرابة وإخافة السبل، وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بـإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم، أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صـنوفه إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصـة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية، أو الطبيعية للخطر، فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها[2].

ثالثا - عرفه كثير من المفكرين والقانونيين والكتاب بأنه: اسـتخدام عنف منظم بقصـد إيجاد حالة من التهديد الموجه ضد الدولة أو الجماعة؛ لتحقيق أغراض سياسية[3].

وبعضـهم يعرفه بأنه: حرب مدمرة تقوم به جماعة سـياسـية أو عقدية لها طابع منظم بقصد إحداث حالة من التهديد أو الفوضى؛ لتحقيق السيطرة على المجتمع، أو إسقاط سيطرة الدولة القائمة[1].

* * * * *

المبحث الثاني

أثر الإيمان بالله وشريعته في علاج الإرهاب

جاء الإسلام والبشرية تتخبط في ركام هائل من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار، والأوهام، والشعائر والتقاليد يختلط فيها الحق بالباطل، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة.

والحياة الإنسانية بتأثير هذا الركام الهائل، تتخبط في فساد وإنحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان[1].

فجاء الإسلام وكرم الإنسان ورفعه بالإيمان الصحيح، وقوّمه بالمنهج الشرعي الشامل، فعاشت البشرية في ظل الإسلام أرقى حياتها وأسعد قرونها، وها نحن أولاء اليوم نعيش في القرن الخامس عشر الهجري، لكن الغلبة فيه لأهل الباطل، وذلك بسبب بعد المسلمين عن منهج الإيمان الصحيح.

والإيمان الصحيح هو منهجنا فنحن أرحم الخلق بالخلق، وأرهبهم للخالق، وهذا إنما هو بفضل عقيدتنا التي هدانا الله لها، فما هي؟

عقيدتنا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فنؤمن بربوبية الله تعالى؛ أي: بأنه الإله الحق وكل معبود سواه باطل.

ونؤمن بأسمائه وصفاته؛ أي: لـه الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

ونؤمن بوحدانيته في ذلك؛ أي: بأنه لا شريك لـه في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالى:{**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**}[2] وشرح أركان الإيمان وذكر أدلتها مما يطول به البحث، ولكن نذكر ثمرات هذا الإيمان الذي لو تحقق لأصلح الفساد الاعتقادي الذي يتخبط فيه العالم والذي من نتائجه

الإرهاب العالمي الذي تعاني منه البشرية. إن المؤمن حين يتربى على الإيمان الصحيح لا يقع في سلوك العنف أو الإرهاب، وذلك بما تملكه هذه العقيدة من سلطان على الفكر والإرادة، له أكبر الأثر في تهذيب سلوكه وتصرفاته، فتجعله حافظًا لحقوق الله تعالى وحقوق عباده، وسأذكر باختصار بعض ثمرات أركان الإيمان:

فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، والقيام بأمر الله تعالى واجتناب نهيه يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع:{**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [1].

والإيمان بالملائكة يثمر العلم بعظمة خالقهم، وشكره تعالى على عنايته بعباده، كما أن الإيمان بالملائكة الذين يكتبون أعمال الإنسان له أثره في استقامة السلوك حتى لا تكتب على المؤمن إلا ما هو خير، فيبتعد بذلك عن الشر والجريمة.

والإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى، وأنها كلام الله ووحيه الذي ينبغي اتباعه، يجعل المؤمن على طاعة والتزام، ويربي فيه ضميره ونفسه اللوّامة التي تحمله على الخير وتباعد بينه وبين الشر.

والإيمان بالرسل عليهم السلام، وهم القدوة الكاملة من البشر، يحمل المؤمن بهم على محبتهم وتوقيرهم والتأسي بهم في الطاعة والخير والصلاح، والبعد عن كل ما يتنافى مع الإيمان واستقامة السلوك والمنهج.

والإيمان باليوم الآخر وما فيه حقائق، إنما هو تربية للشعور الحقيقي بالمسؤولية، وتحقيق للأخلاق الفاضلة المطلقة في سلوكنا وحياتنا، تحقيقًا فعليًا مستمرًا، ثابتًا غير متقلب، بلا نفاق ولا رياء. وكذلك له أثره في انضباط جميع الدوافع والغرائز والتحكم في هذه القوى الغريزية الجامحة، خوفًا من الله تعالى وطمعًا في جنته.

والإيمان بالقدر لـــــه أثره في الاعتماد على الله تعالى، وراحة النفس، وطرد الإعجاب بها عند حصـول المراد، وطرد القلق والصبر عند فواته، وهو يحمل صاحبه بعد وقوع الأقدار على أخذ العبرة والدرس، والتوبة من الخطأ والذنب.

هذه بعض ثمرات أركان الإيمان على سـبيل الإشـارة لا الحصر(١)، ويمكن القول بأن الإيمان إجمالاً هو:

أُسُّ الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد، وبلْسم الصبر عند المصـائب، وعماد الرضى والقناعة بالأقدار، ونور الأمل في الصدور، وسَكَنُ النفوس إذا أوحشَتْها الحيـاة، وعزاء القلوب إذا نزل الموت، أو قَرُبـت أيامه، والعروة الوثقى بين الإنســانية ومُثُلِها الكريمة(٢).

إنهم يُلصقون بالإسلام تهمة الإرهاب ليخوفوا الناس منه وينفروهم عنه، بعد أن رأوا أنه يكتسح القلوب ويُلجم العقول بعقيدته وشريعته، لقد سبق الإسلام جميع القوانين في محاربة الإرهـاب، وحمايـة المجتمعـات من شروره، وفي مقـدمـة ذلك حفظ الإنســـان وحماية حياته وعرضــه وماله ودينه وعقله من خلال حدود واضـحة منع الإســلام من تجاوزها:{**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**} (٣)وهذا توجيه لعموم البشر.

وتحقيقًا لهذا التكريم منع الإسلام بغي الإنسان على أخيه الإنسان وحرم كل عمل يلحق الظلم به:{**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**}(٤).

وشنع على الذين يؤذون الناس في أرجاء الأرض

ولم يحدد ذلك في ديار المسـلمين:{**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**}[١].

وفي دين الإسـلام توجيه للفرد والجماعة للاعتدال واجتثاث نوازع الجنوح والتطرف، وما يؤدي إليهما من غلو في الدين، لأن في ذلك مهلكة أكيدة: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» رواه أحمد والنسائي.

وعالج الإسـلام نوازع الشر المؤدية إلى التخويف والإرهاب والترويع والقتل بغير حق، قال رسـول الله ﷺ : «**لا يحل لمسـلم أن يروع مسـلمًا**» رواه أبو داود، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من أشـار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه**» رواه مسلم.

وقد أوصى الله بمعاملة أهل الذمة بالقسـط والعدل فجعل لهم حقوقًا ووضـع عليهم واجبات، ومنحهم الأمان في ديار المسـلمين، وأوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأ:{**وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**}[٢].

وحرم قتل الذمي الذي يعيش في ديار المسلمين: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**» رواه البخاري وأحمد وابن ماجة.

ولم ينـه اللـه المسـلمين عن الإحسـان لغيرهم وبرهم إذا لم يقاتلوهم ويخرجوهم من ديـارهم:{**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**}[٣].

وأوجب سبحانه وتعالى العدل في التعامل مع أهل الذمة والمستأمنين وغيرهم من غير المسلمين:{ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**} [١].

أنه لمن أظلم الظلم أن توصف شريعة كهذه بالإرهاب، أين مثل هذه التشريعات في التوراة المحرفة، بل وجدنا فيها الحث على القتل والتدمير والظلم! بينما في الإسلام نجد الرحمة والمحبة والسلام تشهد بذلك تعاليم هذا الدين وأحكام شريعته الحنيفية السمحة، وتاريخ المسلمين الصادق النزيه. قال تعالى مخاطبا نبيه محمد ﷺ:{**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**}[٢]، وقال:{**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**}[٣] **وقال**:{**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**}[٤]. وقال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري. وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» رواه مسلم، وقال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه» وقال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله**».

هذا عدل الإسلام ورحمته ولكنهم صم بكم عمي لا يفقهون!!

فإن قيل: ما يحدث في بلادكم من عمليات إرهابية يخالف هذا.

قلنا الجواب: إن هؤلاء شرذمة قليلون لا يمثلون الإسلام ولديهم إنحرافات فكرية قادتهم إلى الغلو والتطرف. إضافة إلى كونها في غالبها ردود أفعال على ما يحيق بالمسلمين في كل مكان ولاسيما في فلسطين من ظلم عالمي يخلفون فيه ما يدعون من الحريات وحقوق الإنسان وتقرير مصائر الشعوب.

ولقد واجه الإسلام حملات الإرهاب قديمًا كالخوارج والحركات الباطنية وجيوش الصليبيين وغيرها وسيظل راسخًا أبيَا أمام حملات الإرهاب المعاصرة من الداخل والخارج.

١- الإسلام هو دين الله الذي فطر الناس عليه جميعًا، ومن انحرف عنه فقد حاد عن الصراط المستقيم فلا سعادة له ولا أمان إلا بالإسلام.

٢- أن العقائد أو الأديان غريزة أساسية تحل من المجتمعات والدول محل القلب من الجسد، وأن الذي يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ الشعوب وأطوار المدنيات.

٣- توجد علاقة طردية بين صفاء العقيدة وتقدم المجتمعات والدول الإسلامية وبالعكس، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

٤- أن الإرهاب مصطلح غامض، لم يتفق على تعريفه، وقد كثرت تعريفاته، وأمثلها تعريف المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي.

٥- أن العامل الاعتقادي هو الأهم من عوامل الإرهاب، ولهذا كانت الانحرافات الاعتقادية لها الدور الأكبر في الإرهاب العالمي.

٦- أن الإسلام هو علاج الإرهاب ودواؤه الناجع، بعقيدته المرتكزة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وبشريعته الشمولية الكاملة التي حفظت للإنسان حقوقه مسلمًا كان أو غير مسلم.

٧- أن الإسلام قد تعرض لحملات عنيفة من الإرهاب الداخلي والخارجي ولكنه ظل راسخًا، وسيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار.

٨- عـدم الانصـياع لتوجيهـات الغـرب بطلـب تغيـير المنـاهج الإسـلامية، لأن تقلــيص هـــذه المنـــاهج يزيـــد مـــن الإرهـــاب، وتـــذكيرهم بمـــا في مناهجهم، من التطرف والإرهاب الحقيقي.

٩- وجـوب التمسـك بالعقيـدة الإسـلامية وعـدم الـتخلي عـن ثوابتنـا إرضـاء لأعـدائنا، ونحـن نـراهم يتمسـكون بهـذه النبـوءات المحرفـة ويبنـون سياســاتهم عليهــا، ونحــن أولى مــنهم بالتمســك بكتابنــا وســنة نبينــا محمد ﷺ فالله مولانا ولا مولى لهم [١].

* * * * *

أهم نتائج البحث:

- عناية الإسلام بحفظ الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، ورتب الأحكام المناسبة لها.
- غياب العلم الشرعي وتفشي الجهل سبب عظيم لوقوع الفتن وانتشارها، فوجبت العناية بطلب العلم الشرعي من مصادره الأصلية الصحيحة.
- عالمية رسالة الإسلام للناس أجمعين، وهذه إحدى خصائص النبي ﷺ، الذي بذل واجتهد في دعوة الناس إلى هذا الدين وتحمل من أجله الأخطار والمتاعب، وكان بذلك قدوة لأمته.
- الأصل أن الأمان يعطيه الإمام أو من ينيبه، ويجوز أيضاً إعطاء الأمان من آحاد المسلمين رجالاً ونساء لغيرهم، فيما فيه مصلحة وخير، ولا يتضمن مفسدة أو شراً.
- توافرت الأدلة من الكتاب والسنة في بيان حكم الأمان، وبين أهل العلم الغاية المنشودة منه.
- لا بد من العلم بالفروق بين الأمان والذمة والهدنة، والتي تدخل تحت مسمى العهد، وما يترتب على ذلك من أحكام شرعية ومصالح مرعية، ومعرفة كلام أهل العلم متقدمهم ومتأخرهم في ذلك.
- وجوب العدل مع المعاهدين وعدم جواز التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل لا يجوز ترويعهم وإخافتهم، وقد جاء في السنة الوعيد الشديد لمن قتل معاهدًا أو فجر نفسه من أجل قتلهم وغير ذلك.
- وجوب اهتمام المسلمين قادة وعلماء وشعوبًا بالعدل مع المعاهدين والحذر من التعدي عليهم، وصفحات تاريخنا الإسلامي قديمًا وحديثًا شاهدة بذلك، وما يحدث من بعض المسلمين مما هو مخالف للإسلام قليل نادر.

- وجوب دعوة هؤلاء المستأمنين إلى الإسلام واستغلال وجودهم في دياره، وذلك بعلم وحكمة تامة وأسلوب مناسب، وحسن تعامل معهم في حدود ما بينه الشرع وألزمنا به.
- تحقيق الولاء والبراء مع هؤلاء المستأمنين وغيرهم بلا إفراط أو تفريط، وبلا غلو أو جفاء، بل حسب ما أمر به الكتاب والسنة وما بينه العلماء العارفون من النصوص الشرعية.
- جاء في شريعة الإسلام النهي عن مشابهة الكفار عمومًا والأمر بمخالفتهم، لأن في التشبه بهم خنوعًا وخضوعًا لهم، وتعلقًا وتمسكًا بما هم عليه من ضلال، كما أنه قائد للتعلق بهم والانسياق وراءهم في كل شيء.
- مقابل الواجبات اللازمة على المسلمين تجاه المستأمنين، فإن الواجب على المستأمنين تجاه المسلمين كثير، ومن ذلك مراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم ومراعاة هيبة الدولة الإسلامية واحترام أنظمتها، كما لا يجوز لهم أيضًا إشهار شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ونحو ذلك.
- يجب على المسلمين عموماً والعلماء خصوصًا بيان شريعة الإسلام وأحكامها السامية العادلة مع الناس عمومًا ومن ذلك المستأمنين، والرد على المخالفين وبيان وجه الحق والصواب عن طريق الكتاب والمحاضرة والبحث العلمي وغير ذلك.
- كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب. وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى.

- وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قولـه تعالى: (**قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباب من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**)[1].

- و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الإريسيين**».

- و في دعوته لليهود والنصارى قال: «**و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينَا محمد ﷺ.

- إن أسلوبه ﷺ إما ترغيب أو ترهيب، في هذه الآية يتحدى ﷺ نصارى نجران بأن يتركوا كلامهم عن ألوهية عيسى وذلك بالتضرع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذبين، وهذا من حرصه ﷺ أن يدخلوا الإسلام، ولكن النصارى لم يأمنوا عاقبة الملاعنة فتركوها ورضوا بالجزية.

- رغم أنهم اعتقدوا بصدق النبي ﷺ، لذلك لم يباهلوا بل فروا منه ولم يؤمنوا ويدخلوا في الإسلام.

- إن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ولين الجانب معهم أسلوب حكيم من أساليبه ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله:{**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**}[١].
- و في الآية خطاب للمؤمنين عند مقدمهم قبل واقعة بدر تسلية لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يأتي فرج الله. قال ابن أبي حاتم إن أسامة بن زيد قال: (كان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم).
- و في آية قرآنية أخرى يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر أو الفتح. قال تعالى في المعنى السابق:{**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**}[٢].
- و من حلمه ﷺ على أهل الكتاب أنه استلف تمراً من يهودي إلى أجل معلوم، فخرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما وضع الميت في قبره قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضيني تمري؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم. فهمّ عمر رضي الله عنه بضرب اليهودي،

- فقال لـــه ﷺ : «**ياعمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسـن قضاءه**». ثم أمره أن يذهب إلى حائط أحد الأشخاص وأن يكيل لـــه بعد رضائه ثم يزيد كذا صاعاً لتعنيف سيدنا عمر إياه. فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شـــيئ مما وجدنا في كتابنا مما وصـــف لنا موسى عليه الســـلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ، إلا الحلم فقد رأيناه الآن، فشـهد شهادة الحق وآمن، ثم مات اليهودي فخرج النبي ﷺ فحمل سريره على عاتقه الأيسر، رغم تجاوز هذا اليهودي في سـبه ﷺ ثم سـب بني عبد المطلب جميعاً، وطلب دينه في وقت غير مناســـب، إلا أنه ﷺ كان حليماً بهذا اليهودي، لذلك كان رد الفعل إسـلامه الفوري. وهذا أســـلوب حكيم للرسول ﷺ مع أهل الكتاب لدعوتهم لدخول الإسلام.
- النبي محمـد ﷺ كـانـت معجزتـه الكبرى القرآن، إلا أنـه كـان يظهر لأهـل الكتـاب بعض المعجزات التي كانت تتحقق على يديه علهم يؤمنون به كما آمنوا بأنبيائهم السابقين موسى وعيسى عليهم السلام.
- كـان النبي ﷺ يبين لأهـل الكتـاب أن كتابه الذي أنزل عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، فإذا تحقق التوافق حينئذ فإنه رسول من عند الله صدقوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام.
- كان رسول الله ﷺ يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تـألفاً واســـتعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ذلك لأنهم إذا رأوه يتعبد بالأحكام التي يعلمون أنها تشريع سماوي أنزلـــه الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلة والإنجيل، علموا أن مصدر التشريع الذي عندهم والذي عنده واحد هو الله ســبحانه وتعالى، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسـهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ.

- لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير، والوعد والوعيد، لذلك أخبر ﷺ أن اليهود تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن العذاب دلالة على عذاب الآخرة وهذا يدل على حرصه لدخولهم الإسلام.
- عن أبي أيوب الإنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «**يهود تعذب في قبورها**» [1].
- الإسلام دين رحمة وعدل
- المسلمون مأمورون بدعوة غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن قال الله تعالى:{**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}.
- لا يقبل الله غير الإسلام دينا قال تعالى:{**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**}.
- يجب على المسلمين أن يمكنوا أي كافر من سماع كلام الله قال تعالى:{**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**}.
- يفرق المسلمون بين أنواع الكفار في المعاملة، فيسالمون من سالمهم ويحاربون من حاربهم ويجاهدون من وقف عائقا دون نشر رسالة الإسلام وتحكيمه في الأرض.
- موقف المسلمين من غير المسلمين في مسألة الحب والعداوة والخصومة مبني على موقف هؤلاء من الله عز وجل فإن عبدوا الله لا يشركون به شيئا أحبوهم وإن أشركوا بالله وكفروا به وعبدوا معه غيره أو عادوا دينه وكرهوا الحق كرهوهم بالقلب وجوبا.

- إن البغض القلبي لا يعني الظلم بـأي حـال من الأحوال لأن اللـه قال لنبيه ﷺ فيما يجـب عليـه من الموقف تجـاه أهل الكتاب:{**وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**}[1] مع كونه مســـلماً وهم على ملة اليهودية والنصرانية.
- يعتقد المسلمون بأنه لا يجوز لمسلم بحال من الأحوال أن يظلم غير المسلم المسالم فلا يعتدي عليه ولا يخيفه ولا يرهبه ولا يسرق ماله ولا يختلسه ولا يبخسه حقه ولا يجحد أمانته ولا يمنعه أجرته ويؤدي إليه ثمن البضاعة إذا اشتراها منه وربح المشاركة إذا شاركه.
- يعتقد المســـلمون أنه يجب على المســـلم احترام العهد إذا عقده مع طرف غير مســـلم فـإذا وافق على شروطهم في إذن الـدخول إلى بلـدهم (الفيزا) وتعهد بالإلتزام بذلك فلا يجوز لـه أن يفسد فيها ولا أن يخون ولا أن يسرق ولا أن يقتل ولا أن يرتكب عملاً تخريباً وهكذا.
- يعتقـد المســـلمون أن غير المســـلمين الـذين يحـاربونهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينون على إخراجهم بأن دماء هؤلاء وأموالهم حلال للمسلمين.
- يعتقد المسـلمون بأنه يجوز للمسلم أن يحسن إلى غير المسلم المسالم سواء بالمسـاعدة المالية أو الإطعام عند الجوع أو القرض عند الحاجة أو الشفاعة في الأمور المبـاحـة أو اللين في الكلام ورد التحيـة وهكـذا قـال الله تعالى:{**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**}[2].
- لا يمانع المســـلمون من التعاون مع غير المســـلمين في إحقاق الحق وإبطال الباطل ونصرة المظلوم ورد الأخطار عن البشرية

- كالتعاون في محاربة التلوث وسلامة البيئة ومحاصرة الأمراض الوبائية ونحو ذلك.
- يعتقد المسلمون بأن هناك فرقا بين المسلم وغير المسلم في أحكام معينة مثل الدية والميراث والزواج والولاية في النكاح ودخول مكة وغيرها كما هو مبين في كتب الفقه الإسلامي وهذا مبني على أوامر الله ورسوله محمد ﷺ ولا يمكن المساواة بين من آمن بالله وحده لا شريك له وبين من كفر بالله وحده وبين من كفر بالله وأشرك به وأعرض عن دينه الحق.
- المسلمون مأمورن بالدعوة إلى الله في جميع البلاد الإسلامية وغيرها وعليهم أن يقوموا بتبليغ دين الله الحق إلى العالمين وبناء المساجد في أنحاء العالم وإرسال الدعاة إلى الأمم غير المسلمة ومخاطبة عظمائها للدخول في دين الله.
- ويعتقد المسلمون أن غيرهم من أهل الملل والأديان الأخرى ليسوا على دين صحيح، ولذلك فإن المسلمين لا يسمحون لغيرهم ببث دعاة أو مبشرين أو بناء كنائس في بلدان المسلمين قال الله تعالى:{**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ**}[1] فمن ظن أن الإسلام يتساوى مع غيره من الأديان فهو مخطئ خطأً عظيماً وعلماء المسلمين يفتحون الباب للمحاورة مع غير المسلمين ويتيحون الفرصة للنقاش والسماع من غير المسلمين وعرض الحق عليهم.

- وأخيراً فقد قال الله تعالى:{**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَــوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْــهَدُوا بِأَنَّا مُسْــلِمُونَ**}[1] وقال الله تعالى:{**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم**}[2].

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبوات والرسالات وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد:

فقد أعانني الله على كتابة هذا البحث، ويسّر لي بفضله ومنّته وكرمه السبل للوصول إلى خاتمته، فله سبحانه وتعالى الحمد والمنة، وله الشكر من قبل ومن بعد، فهذا الجهد المتواضع حاولت من خلاله إلقاء الضوء على منهج القرآن الكريم في مناظرة أهل الكتاب ومحاورتهم في العهدين المكي والمدني وأثر ذلك في دعوتهم إلى الله.

وقد خرجت بالنتائج الآتية:

أولاً: وردت المناظرة في السياق القرآني بلفظ المجادلة بالتي هي أحسن، والمحاورة الهادفة القائمة على الدليل الساطع والبرهان القاطع والحجة الدامغة.

ثانياً: وردت المناظرة في اللغة بمعنى المجادلة والمحاورة والمحادثة والمراوضة.

ثالثاً: هناك انسجام واضح بين مفهوم المناظرة في السياق القرآني والمفهوم اللغوي لها، حيث يعد المعنى القرآني لها جزءاً من المعاني اللغوية.

رابعاً: وردت المناظرة في الآيات المكية بلفظ المجادلة وذلك في آية واحدة فقط دعت المؤمنين إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

خامساً: يتميز المنهج القرآني في مناظرة أهل الكتاب في العهد المدني بالاعتماد على الدليل الساطع، والحجة الدامغة، والردّ عليهم بأقوالهم وأفعالهم.

سادساً: يختلف المنهج القرآني في مناظرة أهل الكتاب في العهد المكي عنه في العهد المدني وذلك يرجع إلى الحالة الأمنية للمسلمين في العهدين، فلم يسمح وضع المؤمنين في العهد المكي لحوارات ساخنة مع أهل الكتاب تبطل حججهم، وتدحض أباطيلهم، أما في العهد المدني فقد سمح تمكين المسلمين واستقرارهم وقوتهم من فتح مثل هذه الحوارات.

سابعاً: تعدّ حجج أهل الكتاب حجج واهية ضعيفة، أبطلها القرآن الكريم بالحجة والدليل وردَّ عليها وبرهن لهم على ضعفها وبطلانها بأقوالهم وأفعالهم.

ثامناً: يعد المنهج الدعوي القائم على أدب المناظرة والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن هو خير سبيل لدعوة أهل الكتاب وغيرهم إلى الله، وظهر ذلك من خلال الآيات المكية والمدنية التي دعت إلى ذلك المنهج في العهدين المكي والمدني.

تاسعاً: إن الدين الإسلامي هو الدين المقبول عند الله وإلى قيام الساعة، وذلك بعد نسخ الشرائع كلها، وإن كل ما خالفه من الأديان باطل، وهذه حقيقة يجب أن يصدع بها العلماء في حواراتهم ومناظراتهم ولقاءاتهم مع أهل الكتاب بعيداً عن المداهنات والمجاملات.

عاشراً: إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى مدعوون ومأمورون باتباع الرسالة الخاتمة والتزامها عقيدة وديناً ومنهاج حياة، والتنازل عن عقائدهم الباطلة وأوهامهم الزائفة.

الحادية عشر: نتعلم من السياق القرآني أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، وعلى هذا درج سلف الأمة، قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل.

ولقد ظهر لنا قبس من نور الكتاب والسنة فيما يحتاج إليه أهل الإسلام في مواجهة أهل الكتاب فالمعركة قائمة معهم إلى قيام الساعة... والبشرية اليوم تتخبط في عمايات لن ينجيها منها إلا الهداية إلى الإسلام وقد جربت نظريات وتصورات للكون والحياة ومناهج مختلفة فلم يزدها ذلك إلا حيرة وضلالاً... وبدأ كثير من الناس في الأرض يرمون بأبصارهم نحو الإسلام بعضها ينظر إليه باعتبار أنه العقيدة المؤهلة لتسود العالم أجمع في المرحلة المتبقية من عمر الدنيا والبعض الآخر يراه المنافس الأقوى لدينه ومبادئه فتحمله عقيدته ومصالحه الخاصة على الدس والتشويه والطعن في الإسلام وأهله وافتعال المعارك وتأجيج رحى الحرب على كافة المستويات كما هي عادة أئمة الكفر... وتبقى شرائح كبيرة من الناس في العالم تائهة ضالة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... أفيتركون كلاً مباحاً لدعاة التقريب بين الأديان؟ أم يتركون هنيئا مريئا للعصرانيين؟

لقد استجابت أمة الإسلام لنداء القرآن في القرون المفضلة فاهتزّ العالم والوجود بحركتها حمل أسلافنا في تلك القرون لواء الإسلام بصدق وإخلاص فعمروا الكون وأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فأضاء نور أمة الإسلام في تاريخ الوجود ثم ترك أقوامٌ منا اللواء في مواطن دون مواطن ومشاهد دون مشاهد وأزمان دون أزمان ورجال دون رجال... كان منا الظالم لنفسه وكان منا المقتصد وكان منا السابق بالخيرات ولا زلنا نعتقد ونؤمن أننا "خير أمة أخرجت للناس" وعندنا من الخيرية والاصطفاء على أهل الأرض ما يجعلنا نخرج العالم من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن رق الهوى إلى رحاب عبودية الله ونرفع راية أنوار النبوة وأعلامها لا مشعل النار وحرياته المزعومة!

إنَّ من معالم منهج أهل السنة أنهم يعرفون الحق ويرحمون الخلق ويأمرون بالألفة وينهون عن الفرقة. قال تعالى:{ **وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}. وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى فكيف بالصبر على أذى المؤمنين فيما بينهم؟!. قال تعالى:{**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ".. فَأَمَرَ سبحانه وتعالى بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين. وقد قال سبحانه وتعالى:{ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**}[١] فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك.

على ألاَّ يعدل على مؤمن وإنْ كان ظالماً. فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا فإنَّ الشيطان مُوَكّل ببني آدم وهو يعرضُ للجميع ولا يَسْلَمُ أحدٌ من مثل هذه الأمور - دع ما سواها - من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور باجتهاد أو غير اجتهاد وإنْ كان هو الحق..." [٢].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "... وكثيرٌ من هذه الطوائف يغضب على غيره ويرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع معترضا في عينه ويذكرُ تناقضَ أقوالِ غيره ومخالفتها للمنصوص والمعقول ما يكونُ لـه من الأقوال في ذلك الباب ما هو من جنس تلك الأقوال أو أضعف منها أو أقوى منها والله تعالى يأمر بالعلم والعدل ويذم الجهل والظلم كما قال تعالى:{**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**} [١]..."[٢].

ولن يصل المسلمون إلى النصر والتمكين إلا بفيئتهم للكتاب والسنة بفهم السلف الصالح علما وعملا وكفى بهم تربصا وتلفتاً تارةً في الشرق وأخرى في الغرب فهم نقاوة العالم فإنْ فاؤوا فإنَّ الله غفور رحيم وإنْ عزموا الطلاق فإنَّ الله سميع عليم وسيظل باب التوبة مفتوحا لا يؤصد إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

وحَسْبنا كتاب ربنا وسنة نبينا في هدايتنا لكل خير فإنه ﷺ "لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاء به. فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنسبة إلى المرسَل إليهم وعمومٌ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه مَن بُعِثَ إليه في أصول الدين وفروعه؛ فرسالته كافية شافية لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وفي هذا فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به... وقد عرّفَهُم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا.. وكذلك عرّفَهُم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكوامنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه وكذلك عرّفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة..."[٣].

وبعد فقد ظهر لنا قبس من نور الكتاب والسنة فيما يحتاج إليه أهل الإسلام في مواجهة أهل الكتاب فالمعركة قائمة معهم إلى قيام الساعة...

والبشريـة اليوم تتخبط في عمايات لن ينجيها منها إلا الهداية إلى الإسـلام وقد جربت نظريات وتصـورات للكون والحياة ومناهج مختلفة فلم يزدها ذلك إلا حيرة وضـلالاً... وبدأ كثير من الناس في الأرض يرمون بأبصـارهم نحو الإسـلام بعضها ينظر إليه باعتبار أنه العقيدة المؤهلـة لتسـود العـالم أجمع في المرحلة المتبقية من عمر الدنيا والبعض الآخر يراه المنافس الأقوى لدينه ومبادئه فتحمله عقيدته ومصـالحه الخاصـة على الدس والتشـويه والطعن في الإسـلام وأهله وافتعال المعارك وتأجيج رحى الحرب على كافة المسـتويات كما هي عادة أئمة الكفر... وتبقى شرائح كبيرة من النـاس في العـالم تـائهـة ضـالـة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... أفيترك كون كلاً مباحاً لدعاة التقريب بين الأديان؟ أم يتركون هنيئا مريئا للعصرانيين؟

إنَّ الواجـب في مثـل هذه الأزمان على من أعطاه الله هدى وتوفيقا وعلما وبصـيرة أن يوصـل ما خوله الله من نعمته إلى من به إليه حاجة من البشر وحَقٌّ على علماء أمة الإسـلام ودعاتها ومثقفيها المخلصـين أن يتهيؤوا لقيادة العالم كلٌ وما يسـتطيع ولا تهولنهم الأراجيف فـ"المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبهم واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين معادية لأعداء الله ورسـوله وأعداء عباده المؤمنين وقلوبهم الصـادقة وأدعيتهم الصالحة هي العسـكر الذي لا يغلب والجند الذي لا يخذل فإنهم هم الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة"[1]، السعيد من كان لـه في ذلك حظ ونصيب و"لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"... وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

تم بحمد الله،

* * * * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أثر العقيدة الإسلامية في اختفاء الجريمة: د. عثمان جمعه طميريه، دار الأندلس الخضراء - جدة ط الأولى ١٤٢١هـ.
- أحكام أهل الذمة - محمد بن أبي بكر بن القيم - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠١هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون.
- الشرح الكبير - عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.
- أصول الحوار: د / صالح بن حميد، بحث منشور في مجلة (لها).
- أصول الحوار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي. ط: ١٤٠٨هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، دار الجيل، بيروت
- إغاثة اللهفان، ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، ت ح د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، دار العبيكان للطباعة والنشر، ط١، الرياض، ١٤٠٤هـ.
- إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه إعداد/د. بدر بن ناصر البدرالأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه كلية أصول الدين جامعة الإمام/ المكتبة الشاملة من الإنترنت.

- الاستقامة، أبي العباس تقي الدين ابن تيمية) (ت٧٢٨هـــ)، ت ح د/ محمد رشاد جامعة الامام.
- الإرهاب الدولي: د. أحمد محمد رفعت، د. صـالح الطيار، مركز الدراسـات الأوروبي، ط الأولى ١٩٩٨م.
- الإرهاب الدولي دراســة قانونية نافذة: د. محمد عزيز شــكري، دار العلم للملايين، ط الأولى ١٩٩٢م.
- الإرهاب والدين فى أمريكا، لجيمس موفاك/ المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- الإرهـاب الـدولي والنظـام العالمي الراهن. د. محمد عزيز شــكري، د. أمل يازجي، دار الفكر المعاصر - بيروت - ط الأولى ١٤٢٣هـ.
- البـدايـة والنهاية، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـــــــ)، ط١ مكتبة المعارف، بيروت.
- تفســير البيضــاوي "أنوار التنزيـل وأسرار التـأويـل"، الإمـام نـاصر الـدين البيضاوي، (ت ٧٩١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- تفسير الشنقيطى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير سيد طنطاوى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير الكشاف / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير أبو السعود / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير ابن عاشور / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير الآلوسى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير البغوى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير الزمخشرى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- تفسير الظلال، سيد قطب رحمه الله.

- تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب - دار صادر - بيروت - بدون.
- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥م.
- - تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، الإمام أبو عبدالله محمد الأنصاري القرطبي، دار التوفيقية للنشر، القاهرة.
- تاج اللغة وصحاح العربية - إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م.
- تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - دار سويدان - بيروت - الطبعة الثانية.
- التفسير الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٣٩٨هـ.
- التفسير الكبير للفخر الرازي "مفاتيح الغيب"، الإمام للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- التفسير الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٣٩٨هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- جريدة الزمان ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١.
- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق أحمد البردوني - دار الفكر - بيروت - بدون.

- الجامع الصحيح للإمام البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـــ)، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا.
- الجامع الصحيح للإمام مسلم ابن الحجاج القشيري(ت ٢٦١هــــ)، ت ح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.
- الجامع الصحيح للترمذي، الإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٨٧هـــ)، ت ح أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.
- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: د / محمد أديب البغا، ط: ١٤٠٧هـ دار ابن كثير، دمشق.
- حضارة العرب / غوستاف لوبون / السلوك أثره فى الدعوة إلى الله، فضل إلهى إدارة ترجمان الإسلام / باكستان ط١، ١٤١٩ هجري.
- الحوار من أجل التعايش لعبد العزيز بن عثمان التويجرى/ المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- الحوار مع أهل الكتاب للقاسم / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- الحوار وأدابه وضوابطه للزمزمى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- خدعة هرمجدون: د. محمد إسماعيل المقدم، دار بلنسية - الرياض، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.
- خصائص التصور الإسلامى / سيد قطب/ - دار الفكر - بيروت - بدون.
- درء تعارض النقل والعقل، للإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـــ)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١هـ.

- دور التربيـة الإســـلاميـة في مواجهـة الإرهـاب، د. خالد الظاهري، دار عالم الكتب - الرياض - ١٤٢٣هـ.
- الدين، بحوث ممهدة لدراســـة الأديان: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت.
- الدعوة إلى الإسلام، تومس أرنولد مكتبة النهضة مصر ط٣ /١٩٧٠ م.
- الـدر المنثور في التفسـير بـالمـأثور - جلال الـدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- رد المحتـار على الـدر المختـار شرح تنوير الأبصــار - محمـد أمين بن عمر عابدين - دار إحياء التراث العربي - بدون.
- "روح المعـاني في تفســير القرآن العظيم والســبع المثـاني"، المؤلف العلامة الآلوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- زاد المعـاد في هـدي خير العبـاد، لابن قيم الجوزيـة، تحقيق: شــعيـب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، سنة ١٣٩٩ هـ.
- سنن الدارمي، الإمام أبو محمد عبدالله الدارمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـــ)، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ.
- سـلسـلة الأحاديث الصـحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشـق، بيروت، الدار السـلفية، الكويت، المكتبة الإسـلامية، الأردن، الطبعة الأولى.
- ســنن أبي داود - سـليمان بن الأشـعث السـجسـتاني - بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي
- ٣٢ ســير أعلام النبلاء، الإمام شــمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون.
- الســيرة النبوية لابن هشــام / دار إحياء التراث العربى، بيروت ط١ / ١٤١٥ هـ.
- شمس العرب تسطع على الغرب / تيغريد هومكا، دار صادر بيروت ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى ط١٠/ ١٤٢٣ هـ.
- شرح الطحـاويـة في العقيـدة الســلفيـة، محمـد ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢هـ)، ت ح: أحمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- شرح الكرمانى لصحيح البخارى/ مؤسسة المطبوعات الإسلامية / مكتبة عبد الرحمن محمد القاهرة.
- الشرــح الكبير - عبـد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.
- صـحيح البخاري مع فتح الباري - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الفكر - بيروت - بدون.
- صـور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشـا، دار الأدب الإسـلامى القاهرة ط١٥، ١٤١٨ هـ.
- صــحيح الجـامع الصـــغير وزيـادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة - تحقيق محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بدون.
- صحيح مسلم مع شرح النووي - مسلم بن الحجاج النيسابوري - دار الفكر - بيروت - بدون.

- صفة الصفوة - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق محمود فاخوري - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- صفوة التفاسير / ج١ / دار القران الكريم / بيروت / ط٤ محمد على الصابونى.
- صحيفة الأهرام عدد ٢٧ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي.
- صحيح البخاري مع فتح الباري - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الفكر - بيروت - بدون.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للقرضاوى/ المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت.
- عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين: محمد آل عمر، مجلة البيان - ط الأولى ١٤٢٤هـ.
- عن الإرهاب: د / عبد الله بن عبد المحسن السلطان، ط: ١٤٢٤هـ مؤسسة الجريسي، الرياض.
- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية: د. سعد الدين صالح، مكتبة الصحابة، جده - ط الثانية ١٤١٦هـ.
- فتوح الشام، الواقدى، دار الجيل بيروت، ج ١.

- فتح القدير للشوكاني / المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- فتح الباري لشرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دار الإفتاء بالرياض.
- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، ط الأولى ١٤١ قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر، دار العربية - بيروت.
- الفتاوى - علي بن عبد الكافي السبكي - دار الجيل - بيروت - بدون.
- كتاب الايمان، محمد بن إسحاق بن محمد بن منده الأصبهاني (ت ٣٩٥هـ)، ت ح د/على الفقيهي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط١، ١٤٠١هـ
- كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم ابن سلام، دار إحياء التراث الإسلامى، قطر ١٩٨٧ م.
- لغة الحوار فى القرآن الكريم الدكتور أبو زيد الإدريسى / بتصرف/ مقال/ المكتبة الشاملة من الإنترنت.
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار صادر - بيروت - بدون.
- الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دراسة مقارنة، د. محمد البار، دار القلم دمشق ط الأولى، ١٤١٠هـ
- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط الأولى ١٣٨١هـ
- مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، مكتبة الصفا، القاهرة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت.

- مجلة: (لها) عدد ٣ / ٧ / ١٤٢٤هـ الموافق ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- مجلة نور الإسلام العدد الأول ربيع الأول ١٤١٨هـ أغسطس ١٩٩٧م.
- محاضرة معالي الشيخ صالح بن حميد: "موقف الإسلام من الإرهاب" ضمن ندوة الإسلام وحوار الحضارات - الرياض.
- مختصر تفسير ابن كثير، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٨هـ.
- مفهوم الحكمة فى الدعوة إلى الله/ المكتبة الشاملة - الإنترنت.
- معركة الوجود بين القرآن والتلمود للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد.
- المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت.
- موجز الأديان فى القرآن دكتور عبد الكريم زيدان/ المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق ط١.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى/ إدوارد غالى الذهبى / مكتبة غريب مصر ط١ / ١٩٩٣ م.
- مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري - إعداد عبد الله الرفاعي - دار المعارج - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه إعداد/ عبد الرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط (دون تايخ) دار المعرفة، بيروت.

- هكذا يربي اليهود أطفالهم: د. سناء عبد اللطيف، عرض وتلخيص: عبد الله الطنطاوي، دار القلم - دمشق ط الأولى ١٤١٨هـ.
- وسطية الإسلام ودعوته للحوار الأستاذ الدكتور عبد الرب نواب الدين أل نواب/ المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت.
- اليهودية: د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط العاشرة ١٩٩٢م.

* * * * *

الفهـرس

إهـــــداء.. ٣
تمهيـد ٣٠
الباب الأول أسس مشروعية الحوار وأحكامه فى
القرآن الكريم ٣٦
الفصل الأول: الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح ٣٧
الباب الثاني تفاصيل المنهج القرآنى في حوار ومجادلة
أهل الكتاب ١٤٩
الباب الثالث الحوار مع أهل الكتاب فى العصر
الحديث.. ٧١٩
خاتمة الكتاب ٨٠٤
المصادر والمراجع.................................... ٨٠٩
الفهـرس.. ٨١٩